

العلاج النفسي

وتعديل السلوك الإنساني بطريقة الأضداد

دراسة تربوية تحليلية في ضوء
سيكولوجية الأخلاق ونسق القيم الإسلامية

يوسف مدن

دار الهادي


بسم الله الرحمن الرحيم

العلاج النفسي وتعديل السلوك الإنساني بطريقة الأضداد

دراسة تربوية تحليلية في ضوء سيكولوجية الأخلاق ونسق القيم الإسلامية

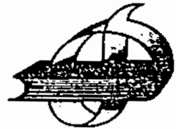
تأليف

الأستاذ يوسف مدن



للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٠١/٥٥٠٤٨٧ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

الإهداء

إلى كل من بذل جهده المخلص

- وما يزال - لإصلاح الإنسان خاصة الآباء والمعلمين

وأطباء النفوس وعلماء الأخلاق..

أهدي هذا الجهد



مقدمة الكتاب

يعتبر عقد الثمانينات فترة نشطة في حياتي الثقافية وبالذات في مجال إعداد البحوث وتأليف الكتب، فقد منَّ الله سبحانه وتعالى عليَّ بنعمة النشاط المشحون بوهج الحماس، فساعدني ذلك على إنجاز بعض الأبحاث والكتب والفراغ من إعدادها في تلك الفترة، إذ كتبت خلال التسع سنوات من العقد السابق الذكر أربعة كتب في موضوعات متعددة ذات طبيعة تربوية وتخصصية.

وبقيت هذه الأبحاث الثقافية والتربوية مخطوطة ومحفوظة ومخبوءة في خزانتنا حتى تمَّ نشر أول كتاب ظهر في سوق المعرفة في منتصف التسعينات، إذ تمّ نشر كتاب «التربية الجنسية للأطفال والبالغين» في نوفمبر من عام ١٩٩٥ كأول نتاج ثقافي من هذه المجموعة.

ومع بداية عام ١٩٩٨ اتجهت جهودي مرّة أخرى إلى عملية ترميم الكتاب الثاني من هذه المجموعة، حيث بذلت جهداً مضاعفاً لمدة عام واحد لإعادة قراءة كتاب «سيكولوجية الانتظار» وتنقيحه ومحاولة صياغة بعض أفكاره وتركيباته اللفظية في ضوء المستجدات والمتغيرات الإنسانية التي شاء الله لذاكرتنا أن تحتفظ ببعضها.

فقد تمّ بحث موضوع «قضية الانتظار» ودراستها في سنة ١٩٨٩ م،

واضطررت إلى القيام بعملية ترميم جديدة لكتاب «سيكولوجية الانتظار» شعرت أنها عملية اجتهاد عقلي مضنية، وقد أوضحت تلك المعاناة في مقدمة الكتاب المذكور الذي نشر في شهر فبراير سنة ٢٠٠٢م.

أما التوأم الثالث للكتابين السابقين فعنوانه «المعالجة النفسية بطريقة الأضداد»[١] وهو عبارة عن دراسة تحليلية لسيكولوجية القيم والأخلاق الإسلامية وتأثيرها في علاج السلوك الإنساني وتعديله بما يتفق مع المعايير القيمية والعبادية التي تضمنتها النظرية العلاجية الإسلامية.

ويحاول هذا الكتاب أن يعرض للقارئ الكريم نموذجاً من نماذج المذهب العلاجي الديني الذي قدمته النصوص الإسلامية قرآنية ونبوية لحلّ إشكالية الذنوب وأمراض السلوك الإنساني، فالكتاب يتناول موضوع المعالجة النفسية للسلوك المرضي عند الإنسان بطريقة الأضداد[٢] باعتبارها من أوسع طرائق العلاج النفسي الديني عند المسلمين وأكثرها تأثيراً في حياتهم الأخلاقية والمعرفية، وأعظمها فعالية في عمليات إعادة النفوس وهندستها وبنائها من جديد.

إنَّ النفس الإنسانية تتعرض خلال تجربتها في الحياة إلى أشكال مختلفة من الذنوب والمعاصي وانحرافات التفكير وأمراض السلوك، وتتفاوت هذه الأشكال من البساطة إلى التعقيد، وقد تؤدي هذه الانحرافات بالتأكيد إلى إعاقة نمو الذات البشرية بمقدار قوة أو ضعف هذه الانحرافات.

---

(١) أمّا الكتاب الرابع الذي كتبته في فترة الثمانينات فهو كتاب «ثورة الذات في النظرية الإسلامية»، وما يزال هذا البحث ـ حتى الآن ـ مخطوطاً لم ير النور بعد، وهو لهذا يحتاج إلى صياغة جديدة أو ـ على أقل تقدير ـ لبناء ترميمي جديد أكثر تنظيماً حتى يكون ملائماً للمتغيرات الجديدة.

(٢) نعني بهذه الطريقة كما سيأتي لاحقاً «معالجة الفرد لسلوكه الخاطئ أو المرضي بسلوك سوي يقابله سواء عن علاج ذاتي يقوم به الفرد بنفسه أو عن طريق معاونة من الآخرين كالطبيب النفسي أو المرشد الاجتماعي أو النفسي أو عالم دين أو رجل أخلاقي».

وإذا كانت العلوم الإنسانية الحديثة لا سيما علم النفس المرضي والعيادي قد اهتمت بحل هذه الإشكالية السيكولوجية والأخلاقية والحضارية في حياة الإنسان، فإنَّ الأديان السماوية الكبرى قد صممت برامجها التربوية والتعليمية على أساس محو هذه الإعاقات المختلفة وإزالتها من أجل توجيه أفضل لقدرات الإنسان ودفعه دائماً في اتجاه التقدم، إذ لم ينزل الله تعالى أديانه للبشرية إلاَّ من أجل تحقيق سعادتها وتحريرها من عوامل الإعاقة النفسية والاجتماعية والفكرية، وذلك بتدريبه على مهارات القيم وأنماط الفضيلة وتزويده بمعاييرها الإنسانية.

إن الأديان السماوية ـ وبخاصة الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى ديناً خاتماً للإنسانية ـ تحركت منذ لحظة التبليغ الأولى في اتجاهات ثلاثة. . وقائية، وإنمائية، وعلاجية، وقد طبعت هذه الاتجاهات نظريته في التعلم والتربية والعلاج السلوكي.

* * *

وكانت دواعي تأليف هذا الكتاب وبحث موضوعاته لأسباب خمسة رئيسية هي:

أولاً: وضوح طريقة الأضداد في العلاج السلوكي الإنساني في مئات النصوص التربوية الإسلامية سواء كانت وقائية أو علاجية، وهذا التنوع والإثراء في وفرة النصوص، وفي خصوبتها وحيوية مضامينها المعرفية يغري الباحث بدراستها وتحليلها لاستخراج نسق معرفي منظم في هذا الموضوع الهام الذي تحتاجه البشرية لا سيما جماعات المؤمنين في هذا العصر القلق الذي يشهد موجة اضطرابات نفسية وإشكاليات سلوكية مرضية متعددة.

ثانياً: تحسس بعض تلاميذي من الشباب بعض الإشكاليات السلوكية

المحيطة بهم، وما اعترى نفوسهم من متاعب ناتجة عن هذه الإشكاليات المتراكمة، فطالبني هؤلاء الشباب بدراسة هذا الموضوع وشرحه في حلقات متتابعة، والاستفادة من قيمته التربوية في تعميق اتجاهاتهم الإيمانية وتغيير وجهات نظرهم السلبية التي لا تتفق مع المعايير السويَّة التي تؤمن بها النظرية التربوية والعلاجية لدى المشرّع الإسلامي.

ومع أنَّ هذا الطلب قد أثقلني في بادئ الأمر بسبب ضيق الوقت وتزاحم المسؤوليات، إلاَّ أن حيوية الشباب وإلحاحهم وشوقهم إلى تعديل سلوكهم بما يتفق وقيم الإسلام ونسقه المعرفي قد دفعني إلى المثابرة في البحث والمتابعة والإعداد حتى تمكنت بعون الله تعالى في تلك الفترة من وضع خطوط أولية لهذه الدراسة، ثم توسعت تفصيلاتها خلال عملية صياغتها على مراحل تدريجية، ثم أصبحت أكثر نضجاً عندما قمت بعملية ترميم نهائية لها في سنوات متأخرة من القرن الأخير (سنوات ٩٨ حتى ٢٠٠٠ م).

ثالثاً: والسبب الثالث الذي جعلني أسرع في إنجاز دراسة هذه الطريقة الواضحة في المذهب العلاجي الإسلامي للنفس هو ما تعرفت عليه من نظرية (**الكف النقيض**) للعالم جوزيف ولبي، والتقاء الخيوط العامة لهذه النظرية مع طريقة العلاج النفسي الإسلامي القائمة على محو وإزالة «السمات» السلبية في الشخصية بـ«السمات» الإيجابية، والتي نسميها في بحثنا هذا بطريقة الأضداد.

وحاولت منذ تلك اللحظة صياغة نسق معرفي مترابط لهذه النظرية مع تميز يفرضه تميز الإسلام في كل نظراته الوقائية والعلاجية والإنمائية للشخصية والمجتمع الإنسانيين، فطريقة المعالجة النفسية بالأضداد تجدد

اليوم نفسها باجتهادات إنسانية ومنها على سبيل المثال نظرية **الكف بالنقيض** لجوزيف وولبي أحد علماء المدرسة السلوكية، لكن هذا التجدد لا يلغي أبداً أسبقية الإسلام في كشفه العلمي، ولا يمحي تميزه في الطرح والمعالجة الإسلامية والتأثير الفعال.

فالتميز في النسق المعرفي لهذه النظرية المنهجية الإسلامية منبثق من تميز الإسلام نفسه باعتباره ديناً لم يكن من صنع الإنسان، وإنما هو حلّ إلهي لإشكاليات الإنسان ومشكلاته البسيطة والكؤود، وهناك فرق بين قدرات «المبدع» الخالق وبين إمكانيات «المبدع» المخلوق، فالإبداع الإنساني يتمّ فعلياً، لكن بعقل خلقه الله تعالى دال على إبداعه غير المتناهي، وبإمكانيات أخرى من صنع الله سبحانه.

بيد أن محاولة الإنسان تقليد «الإبداع» الإلهي لا ضير عليها خاصة وأنها تستهدف تعزيز «النسق المعرفي» لإحدى طرائق الإسلام العلاجية... وهذا ما نسعى إليه في بحثنا هذا.

هذه المحاولة مجرد اجتهاد عقلي لفهم طريقة الأضداد العلاجية والتعرف على معالمها، وبنائها، وأساليبها، وقدرتها في تغيير اتجاهات الإفراد والجماعات واستبدالها باتجاهات وسمات جديدة مقابلة لها، وتتفق مع النظرة العبادية التي يتبناها المشرّع الإسلامي، ولهذا لا تلزم هذه المحاولة الإسلام في شيء بقدر ما تلزم كاتب هذا البحث.

رابعاً: ورابع سبب هو أن غالبية المعالجين المسلمين المحدثين ـ باستثناء عدد محدود ـ أهملوا تماماً الاستفادة من النصوص الإسلامية في عمليات المعالجة وإعادة التربية، والإرشاد وتقويم الذات، ولم يظهروا تحمساً لاستخدام المذهب الديني في حلّ إشكاليات الإنسان.

بل إن بعضهم كما يقول الدكتور يحيى الرخاوي قد «قاوم هذه النزعة[1] وسخر منها».

بينما أظهر علماء أوروبيون رغبة جلية وعلنية في توظيف القيم الدينية والأخلاقية في العلاج النفسي لأن العلم في جوهره محايد يريد الحقيقة أنَّى تكون.

ولم يظهر توجه بين المعالجين المسلمين نحو استعمال القيم والمبادئ الروحية في الأديان السماوية الكبرى إلاَّ مؤخراً لا سيما بعد ظهور بوادر حركة اتجاه ديني في الغرب نفسه نحو المذهب العلاجي الديني كنظرية فرانكل ـ سيريل بيرت ـ غوستاف يونغ) وغيرهم.

يقول الدكتور الرَّخاوي:

«حين قدَّمت البحث الخاص بـ«مستويات التكامل النفسي من منظور إسلامي» وأعلنت من خلاله أنَّ ثمة طرقاً أخرى للتفكير، وأنَّ لغتنا وإيماننا.. وهو ما استوحيته من إسلامي.. يتيحان لنا أن نرى تكامل الإنسان النفسي على مستويات متصاعدة وليس على مستوى سلوكي واحد،

(١) أثناء دراستي بالقاهرة عام (١٩٩٢م) كان أحد أساتذتي من الأخوة المسيحيين يقوم بتدريسي علم «الصحة النفسية» فعرضت عليه كتابة بحث عن «دور الدين في تحقيق الصحة النفسية للفرد» فعارضني بقوة، وأخذ يقنعني أن الدين يهتم بالحياة الشخصية الروحية للأفراد، وأنه لا علاقة له بالصحة النفسية كعلم، ولهذا لا يعنيه هذا الموضوع أبداً لأنه لا صلة له بالبحث العلمي.
واستغربت ذلك الموقف، ثم عرفت بعد زمن قصير أن أستاذنا كان مسيحياً، لكن لم يكن دين الرجل هو موضع الاستغراب، فالمسيحيون يؤمنون بالقيمة الجوهرية للأديان في حياة البشرية، والواقع أن الأستاذ الفاضل انطلق من نظرته العلمانية لا وجهة نظر دينية وعلمية، فبعض علماء الغرب الذين نادوا بتفعيل الأديان في عمليات العلاج النفسي هم أيضاً مسيحيون وعلمانيون في آن واحد، ولكن الفارق أن هؤلاء العلماء عاشوا محنة العلاج النفسي ومشكلاته من واقع معايشة ميدانية مباشرة، وأدركوا بروح متحررة من ضغط التبعية والإحساس بحالة الصغر أمام الآخر عجز المذاهب العلاجية الغربية عن حلّ قدر كبير من المشكلات النفسية للفرد، فدعوا لإشراك «الدين والقيم الأخلاقية» في علاج الأزمة الروحية والقيمية والأخلاقية والفكرية في المجتمع الغربي.

وهذا يتطلَّب الرؤية والملاحظة والبحث بأكثر من منهج قبل وبعد الأساليب الشائعة في عالمهم ـ يقصد عالم الغرب والآخرين ـ حين قدمت هذه الورقة استجاب لها الضيوف الأجانب (أي الغربيين) باستطلاع وأمانة أكثر مما رحب بها الزملاء الأقرب من أهل لغتي وديني، فقد تصوَّر كثير منَّا أنها ورقة تنتمي إلى ما يسمى «الطب النفسي الإسلامي» وما شابه، مع أنَّها كانت ورقة تعلن كيف يسمح لنا ديننا وتتيح لنا لغتنا أن نتناول المسائل المعرفية من منطلق آخر، ليس بديلاً بالضرورة، بل قد يكون مكملاً ومناسباً، ليس لنا فحسب، وإنَّما لهم أساساً»[1].

أمَّا الآن، وبعد أكثر من عشر سنوات على الصياغة الأولى لهذا البحث فقد ظهرت محاولات عديدة عن العلاج النفسي الإسلامي، ونأمل أن تتواصل هذه المحاولات وتقوى وتتعزز وتثبت أصالتها العلمية، وقدرتها على صياغة نسق معرفي للنظرية العلاجية الإسلامية.

والواقع أن حركة العلاج النفسي التي نادت بضرورة تفعيل الدين والقيم الروحية والأخلاقية والتي أسست المذهب الديني والأخلاقي في الغرب لم تدعو إلى تبني هذا الاتجاه من أجل التنكر للإنجازات التقدمية التي حققتها حركة العلاج النفسي الحديث، ولكنها أرادت لفت النظر إلى إهمال متعمد من رجال البيئة العلمية في أوروبا للدين وللقيم والروحانيات خاصة بعد تناقص معدلات الشفاء بين المرضى أنفسهم الذين تعرضوا لأساليب علاجية مستحدثة.

ويبدو أن صوت علماء هذه الحركة أصبح الآن قوياً لسببين:

---

(١) مجلَّة العربي، العدد ٤٠٢، ص١٧٨.

أ ـ أن الإنسان الأوروبي عانى بقوة من أزمة أخلاقية وقيمية لم يستطع العلاج النفسي «كعلم وفن» تقديم حلول فعالة لها في بعض الأحيان، وقد أتى صوت هؤلاء العلماء المعالجين الثائرين على علمانية متطرفة جامدة صدى لصرخة ضمير غيِّب عن عمد ولزمن طويل دور الدين في بنائه وتشكيله، فتفاقم الوضع الأخلاقي والإنساني، فتحسس الجميع المعاناة.

ب ـ أن مذاهب العلاج النفسي المتنوعة في الغرب قد عجزت في أحيان كثيرة عن حل إشكاليات نفسية متعددة واجهها الإنسان في المجتمع الغربي، ولا يمكن بالتأكيد قبول موقف يوصد الباب أمام الدين والقيم الروحية والأخلاقية لتساند هذه المذاهب في أداء وظيفتها الإنسانية.

* * *

ومن المؤسف أنه قد لاحظت أثناء دراستي لمذاهب العلاج النفسي واتجاهاته في السبعينات إهمالاً شبه كامل للاتجاه الديني بالرغم من أن أشكالاً مختلفة من هذه المذاهب والاتجاهات تلتقي في قليل أو كثير مع الأفكار الإسلامية، فالإسلام كاتجاه ديني متأصل في التجربة الإنسانية لمدة تاريخية طويلة يطالب مثلاً بتعلم السلوك الإيجابي ومحو السلوك الخاطئ عن طريق اللعب، والعمل، والعبادة والمعالجة بالأضداد، والتدريب على التعلم بالممارسة، والعلاج بالحب والقيم الإنسانية ودمج الأفراد في بيئات نفسية إيمانية، ويدعو حيناً إلى علاج فردي للسلوك وحيناً إلى علاج جماعي.

وهكذا فإن النصوص التربوية والمعرفية الإسلامية تنطوي على أفكار مشتركة مع بعض مذاهب العلاج النفسي الغربية الحديثة، وتختلف معها في أفكار أخرى.

لكن لم تحاول المدارس العلاجية خاصة في عالمنا العربي الإسلامي

حتى مجرد تسجيل اعتراف بالاتجاه العلاجي الديني، فأهملت أسوة بالغرب الحديث عنه نهائياً، فجميع هذه المذاهب ذات نزعة علمانية، وترى أنَّ إقحام الدين في أبحاثها يفسد طبيعتها العلمية.

ولم تظهر إشارات لهذا الاتجاه حتى في أبحاث المتدينين إلاَّ بعد أنْ قويت الدعوة في الغرب إلى تفعيل الأديان في علاج الأمراض النفسية، فكأن العلمانيين والمتدينين في بلادنا يعانون من نفس المرض، فالعلمانيون من المسلمين ـ وتقليداً للغرب في موقفه العدائي ـ يهملون الدين والاستفادة من قيمه، والمتدينون منهم لم يتجرأوا على الاهتمام بالدين وتوظيفه في ميدان العلاج النفسي إلاَّ بعد عودة بعض الغربيين إليه.

فالعلمانيون كرهوا الدين تقليداً للموقف الغربي، والمتدينون وأدوا شجاعتهم، وانتظروا دعوة جريئة من علماء الغرب لتفعيل القيم الأخلاقية والدينية ودمجها في ميدان المعالجة النفسية ليتأسوا بها في الدفاع عن هذه القيم.

ففي كلا الحالين قلَّد المسلمون ـ تحت ضغط حالة الصغر والضعف النفسي والتخلف التقني لديهم ـ موقف علماء الغرب في عداوة بعضهم للدين، وفي عودة بعضهم الآخر لقيمه الروحية، وأخلاقياته، ومحتواه المعرفي بعد تجارب فشل مريرة مع مرضاهم.

كنت أتحسس مثل هذا الضعف في شجاعة المتدينين وإرادتهم العلمية منذ السبعينات، وباستثناء قلة منهم لم أجد كاتباً يحاول تأصيل نظرة إسلامية في العلاج النفسي بالرغم من خصوبة الفكر الديني الإسلامي بالقيم النبيلة، واختزانه لثروة هائلة من المبادئ والمعاني الإنسانية.

وبعد أنْ قويت شوكة الاتجاه الشعبي بالإسلام والإيمان به في العالم

الإسلامي، وأصبح الحديث علنياً عما أسموه بالصحوة الإسلامية، نشط بعض المتدينين المهتمين بالعلاج النفسي في إعداد مقالات وبحوث وكتابات علمية تدعو صراحة إلى استثمار القيم والمبادئ الدينية، والمعاني الأخلاقية والإنسانية لحلّ إشكاليات السلوك الإنساني وعلاج أمراضه.

خامساً: كما أن العلاج النفسي كان موضع عناية الإسلام كتشريع، واهتمام المختصين المسلمين «كعلماء علاج» من مختلف الاتجاهات في المجتمع المسلم آنذاك، وقد سبب هذا الاهتمام حركة جدلية في تاريخ حركة العلاج والطب النفسي[١] عند المسلمين.

فكما يشتغل بالعلاج النفسي المعاصر أطباء نفسانيون من مختلف الاتجاهات في المجتمع المسلم، فإن علماء المسلمين شاركوا أيضاً في العناية بالطب النفسي بالرغم من تنوع اتجاهاتهم، لذلك تجد في علاج بعضهم للنفس اهتماماً بالنص الديني، بينما يقل الاهتمام به عند الآخرين، بل قد تجد عند بعضهم من يحاول عزل الطب النفسي عن التأثير الديني الإسلامي، ولعل هذا التنوع في توجه المسلمين آنذاك نحو الطب النفسي في مسارات متعددة يعود إلى واقع التعددية التي شاعت في مجتمع المسلمين، وهي تعددية أكّد المشرّع التربوي الإسلامي على حتميتها وضرورة وجودها.

وإذا كان ذلك قد حدث من قبل في مجتمع أقل دينامية فإن وسائل الاتصال والتقنية المعاصرة، وتفجر المعرفة الإنسانية في مختلف مجالات

---

(١) سمي هذا العلم عند علماء المسلمين مثل ابن سينا وابن مسكويه وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي بالفاظ متنوعة منها (الطب الروحي ـ الطب النفساني ـ طب النفوس ـ طب النفس ـ تهذيب الأخلاق ـ تزكية النفوس) وفي مقابل ذلك استخدموا ألفاظاً أخرى للدلالة على الصحة النفسية مثل «إصلاح أخلاق النفس ـ مداواة النفوس ـ ردّ صحة النفس ـ ردّ الصحة على النفس».

الحياة قد جعلت حركة الطب النفسي في المجتمع الإنساني المعاصر أكثر تنوعاً، وظهرت مذاهب واتجاهات علاجية جديدة، أو على الأقل إلباس «الطب القديم» بقالب جديد، وهذا مما أسهم في تنوع فنون المعالجة النفسية وتنوع قدراتها على مواجهة الأمراض النفسية.

* * *

لهذه الأسباب تتبعت الموضوع من مصادره وينابيعه عسى أن تساعدني في التعرف على معالم طريقة الأضداد التي نحن بصدد دراستها، وقد وجدت ـ بالإضافة إلى العدد الهائل من النصوص التربوية الإسلامية ـ أن بعض المحللين السلوكيين وعلماء الدين والصوفية والزهاد الروحانيين وعلماء الأخلاق قد أشاروا إلى علاج الأمراض النفسية بطريقة الأضداد أمثال الغزالي وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي وابن مسكويه وابن حزم والعلامة محمد بن مهدي النراقي وآخرون من علمائنا الأبرار.

* * *

ومرَّ «كتابنا» منذ لحظة البدء بتدوين خطوطه الأولى حتى الانتهاء من عملية ترميمه بثلاث مراحل:

١ ـ **مرحلة البحث التمهيدي**: وقد استمرت حوالى ثلاث سنوات متقطعة، حيث كنت أبحث جزءاً من الموضوع الأساسي للبحث، ثم أصرف النظر عنه لفترة معينة، وأعود إليه كلما وجدت فرصة حتى بلغت به مستوى متقدماً في منتصف عام ١٩٨٩ م.

٢ ـ **مرحلة الحفظ**: لقد حفظنا هذا المجهود في خزانتنا الشخصية من لحظة الانتهاء من كتابته في منتصف عام ٨٩ م حتى عام ٩٨م، ثم أدخلنا عليه تغييراً مناسباً في الأفكار والصياغة اللفظية، والتبويب المنهجي، بيد أن هذه التعديلات لم تغيِّر من جوهره كثيراً.

٣ ـ **مرحلة الصياغة النهائية**: وفي هذه المرحلة عكفت من جديد على دراسة نسخة البحث المحفوظة التي أضفت عليها شيئاً غير قليل من الأفكار وفي خطة البحث أو في مصادره، وذلك لبناء نسق معرفي أكثر ترابطاً في الأعوام من (٢٠٠٠ حتى مطلع عام ٢٠٠٣م)، وقد بلغت به مستوى أشعر فيه بالرضا.

* * *

لقد تناولت في هذا الكتاب الذي بين يديك ـ عزيزي القارئ ـ منهج المعالجة النفسية الإسلامية بطريقة الأضداد في تسعة فصول، حيث ناقشنا في الفصل الأول الحاجة إلى صياغة نظرية إسلامية في العلوم الإنسانية، وكذلك عالجنا في حوار مبسط العلاقة بين القيم الأخلاقية الإسلامية وعملية العلاج النفسي، كما عالجنا في الفصل الثاني مفهوم المعالجة بالأضداد وأهدافها، وخصائصها، والأسس المرجعية التي ترتكز عليها سواء كانت فكرية أو روحية.

وفي الفصل الثالث بحثنا عدداً من مسوغات العمل بطريقة المعالجة بالأضداد مثل قابلية النفس الإنسانية للتغيير ودعوة المشرّع التربوي الإسلامي للعمل بهذا المنهج الواقعي، وكذلك واقع انحرافات الكبار وضرورة إعادة تربيتهم، وتأثير ذلك على نمو تشكيل الشخصية المسلمة للأطفال والناشئة المسلمين، وأيضاً حاجة الإنسان المؤمن له في بناء شخصيته، وتجدد هذه الطريقة في الفكر السيكولوجي المعاصر.

وتطرقنا أيضاً في الفصل الرابع من دراستنا لأنماط المعالجة بالأضداد من حيث طبيعتها ومستواها وخطواتها ومراحلها، وحددنا في الفصل الخامس عشر شروط تقتضيها عملية المعالجة النفسية بطريقة الأضداد.

أما في الفصل السادس فوجدنا أنفسنا أمام معوقات العلاج النفسي التي تمّ تقسيمها في بحثنا إلى معوقات ذاتية تعود إلى طبيعة للفرد، ومعوقات خارجية تستمد قوتها من ضغوط المجتمع المحيط بالفرد، وعالجنا في الفصل السابع دور منهج الأضداد في حلّ قضية الصراع النفسي من خلال عشر سمات متقابلة اخترناها كنماذج من قائمتي الأضداد التي سنمر عليها ـ خلال البحث ـ فيما بعد.

وتعرفنا في الفصل الثامن على مفهوم العادة ومصادرها وأهميتها ومراحل نشأتها، وقدرتها في التحكم بسلوك الإنسان، وموقف المشرّع التربوي الإسلامي من قواعد إزالة عادات السلوك الخاطئ، وأيضاً أسس تكوين عادات سلوكية حسنة بديلة في التشريع الإسلامي.

وانتهينا في الفصل التاسع إلى الإشارة لأنواع العلاج النفسي، وتحديد بعض السمات الأساسية التي ينبغي توفرها في شخصية المعالج النفسي المسلم سواء كانت سمات إيمانية أو اعتقادية أو سمات عقلية وادراكية أو سمات وجدانية أو اجتماعية.

وشكراً لكل منْ قدَّم مساعدة صادقة لإنجاز هذا المشروع الثقافي خدمة للراغبين في تغيير أنفسهم بما يرضيه تعالى.

وختاماً نسأله سبحانه أنْ يجعل هذا الجهد نافعاً لكل إنسان يبتغي تحرير ذاته بصدق وإخلاص من أثقال «عبودية الشهوة» وأصفاد «الانحراف».

اللهمَّ تقبل منّا هذا العمل.. إنَّك سميع مجيب.

٨ يناير ٢٠٠٣م

مملكة البحرين/ يوسف مدن

مفاتيح السيطرة على الذات

سواء في حركتها الوقائية أو في عملياتها العلاجية تكمن في آيات قرآنية ثلاث هي:

١ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[١].

وتدل هذه الآية على رغبة الفرد الداخلية في التغيير بإرادة ذاتية.

٢ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[٢].

وتعني هذه الآية حاجة الإنسان لدليل إرشادي سليم ومنهج عمل موجّه لسلوكه.

٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[٣].

وتؤكد هذه الآية على أمرين هما:

أ ـ أن يكون دور الفرد إيجابياً في مجاهدة نفسه

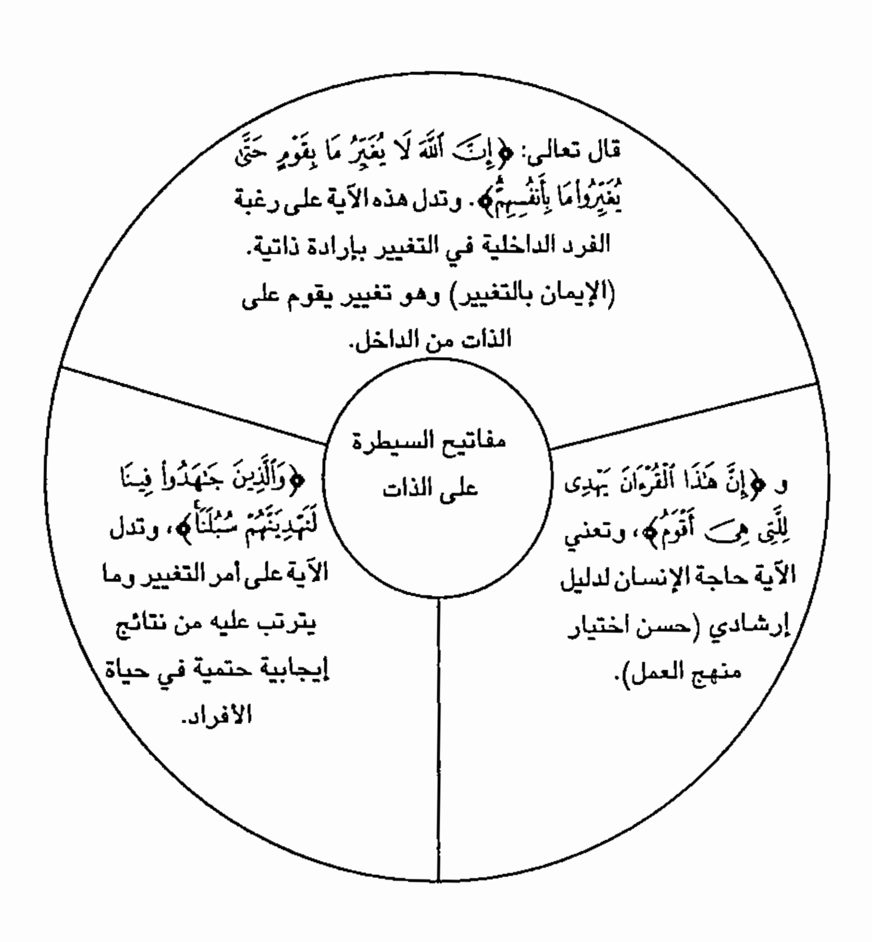
ب ـ وحتمية حصوله على نتيجة إيجابية موفقة من الله على جهاده النفسي.

---

(١) سورة الرعد، ١١.
(٢) سورة الإسراء، ٩.
(٣) سورة العنكبوت، ٦٩.

ويمكن رسم المفاتيح في دائرة ثلاثية كما يلي

تكمن مفاتيح السيطرة على الذات في ثلاث آيات قرآنية هي:



مفاتيح السيطرة على الذات في دائرة ثلاثية

الفصل الأول

مدخل لفهم منهج
المعالجة النفسية بالأضداد

يصعب أن نحدد تاريخ بدء حركة العلاج النفسي في حياة الإنسان، لكن يمكن القول بأن هذه الحركة ارتبطت كجهد معرفي بتاريخ الإنسان نفسه وبآلامه وآماله، فقد ظهرت منذ البدايات الأولى لهذا التاريخ الطويل بعض الحالات المرضية في النفس الإنسانية[١].

وظل مسار هذه الحالات يأخذ بمرور الزمن اتجاهاً تصاعدياً كماً وكيفاً، فقد تزايد عدد المصابين بالأمراض والاضطرابات النفسية، وتنوعت على امتداد هذا التاريخ حالاتها الخفيفة والمعقدة حتى بلغت في هذا العصر وضعاً جعل منها مشكلة إنسانية كبرى تشغل بال العلماء والمفكرين والفلاسفة، وأصبحت موضوعاً لعدد من العلوم والتخصصات والفلسفات، بل إن بعض هذه الفلسفات ـ كالفلسفة الوجودية ـ طالبت بتحويل الفلاسفة اهتماماتهم من دراسة الوجود الطبيعي إلى دراسة الوجود الإنساني، وركّزت

---

(١) كحادثة القتل الأولى التي حدثت في تاريخ البشرية بين أفراد أسرة آدم عليه السلام، وما ترتب عنها من مواقف سلوكية لا سوية ألحقت الضرر بالعلاقات بين أفراد هذه الأسرة كالتحاسد والتنازع والعدوانية التي تجسدت في قتل أحد الأخوين للآخر، حيث تمكن قابيل تحت تأثير حالة انفعال شديدة من تصفية أخيه هابيل جسدياً وتركه جثة هامدة وعارية بلا دفن أو تجهيز، فالقتل وعدم تجهيزه أو دفنه يشكلان نمطين من السلوك المرضي والشاذ الذي تأباه الفطرة البشرية السوية ولا تقره الأديان وشرائع السماء.
وكذلك نجد في مقابل ذلك ظهور حالة الندم كإحساس فطري وطبيعي وسوي بعد أن بعث الله تعالى غراباً يواري بالتراب سوأة الأخ القتيل، فلاحظ أخوه قابيل ذلك السلوك الفطري من طائر قليل الإدراك، فشعر بالخطأ والندم على ما فعل.

على قضايا إنسانية أساسية وهامة مثل قضية الحرية والمشكلات التي تهدد وجوده كالفقر والمجاعة والأوبئة والعنف وغيرها.

ومما لا شك فيه أن الإنسان بذل جهده منذ بدء تاريخ المرض النفسي في البحث عن تفسيرات وطرائق علاجية، لكن هذه التفسيرات كانت ـ كما تبدو ـ أضعف وأقل سرعة من حركة نمو وانتشار الأمراض ذاتها، وقد أدى ذلك إلى تأخر واضح في حركة العلاج النفسي، رغم القفزات النوعية التي تحدثها عادة الأديان والدعوات السماوية والحركات الإصلاحية الإنسانية بين حين وآخر.

وساعد في تأخر اجتهادات الإنسان لمعالجة أمراضه النفسية التي تعتريه تعقد طبيعته وتخلفه العلمي، فليس من السهل على المرء اقتحام سراديب النفس المظلمة ومعرفة أسرارها خاصة وأن وسائل الكشف عن دخيلة الذات كانت آنذاك محدودة ومتخلفة وبعيدة عن فهم مبادئ السماء وتعاليمها الإرشادية سواء كانت الروحية منها أو الأخلاقية أو المعرفية.

وعلى ضوء هذه المعوقات ما تزال نفوسنا ـ رغم المحاولات الجادة التي بذلها الإنسان ـ عَالَماً مجهولاً يحتاج إلى جهد علمي رصين لفتح مغاليقه وكشف مستمر عن غوامضه وأسراره.

إن حركة العلاج النفسي للمشكلات الإنسانية قد تطورت ـ بالتأكيد ـ على مدار التاريخ بخطوات متعثرة بدءاً من عصور متقدمة من التاريخ الإنساني، وأصبحت بخطوات أكثر تقدماً في القرن العشرين، إلاّ أن ظاهرة المرض النفسي قد اتسعت ـ هي الأخرى ـ تدريجياً في حياتنا الإنسانية، وبلغت ذروتها في هذا العصر كماً وكيفاً، حتى عدّه بعض العلماء والمشتغلين بالعلوم الإنسانية أسوأ قرن في التاريخ وأكثرها صعوبة، إذ

امتدت الأمراض النفسية بأشكالها المختلفة إلى أجزاء مستورة ومخفية من حياتنا السلوكية، فطبعت النفسية المعاصرة بصبغتها وطابعها المرضي.

إن الكثير من أمراضنا السلوكية اليوم من أصعب متاعب الإنسان السيكولوجية، وكأن القرن العشرين الذي تجاوزناه قد جمع بين جنبيه مختلف الأمراض التي عرفها الإنسان من قبل واستودع كل الحالات المرضية المتراكمة عبر تاريخ طويل، وأضاف إليها حالات جديدة، متفاوتة في درجات الشدة والتعقيد، وقد شكل ذلك تحدياً للعلم والعلماء خاصة في مجالات الطب والطب النفسي والخدمات الإرشادية، إذ استوجب ظهور الكم الكبير من الأمراض النفسية والمشكلات السلوكية والاجتماعية والفكرية اجتهاداً ونشاطاً علمياً متنوعاً ومتألقاً لمواجهتها والتغلب عليها.

لقد أطلق بعض الباحثين على العصر الذي نعيشه الآن «عصر القلق»، وأصبحت حضارة الإنسان المعاصرة رغم تقدمها التقني مصدر قلق يهدد الذات الإنسانية بالدمار، ويشعرها بالأسى والضياع، وترتب عن ذلك نشوء وظهور فلسفات التشاؤم في الغرب كالفلسفة الوجودية المتطرفة بزعامة جان بول سارتر وزوجته سيمون دي بوفوار، حيث نظرت هذه الفلسفة إلى الوجود الإنساني كله كمأساة جاثمة على الإنسان تهدده بالدمار والضياع في كل لحظة، إذ تحاصر الإنسان الحروب والأمراض والأوبئة والمشكلات الاجتماعية والظلم والاستغلال والقهر النفسي بمختلف أشكاله.

ويقيناً فإنَّ الإنسان لن يكون قادراً على بلوغ غايته في مداواة نفسه إذا ظلّ يعتمد فقط على اجتهاداته الذاتية الخاطئة حيناً، والقاصرة حيناً آخر، وسيبقى قدره فشلاً مستمراً في تحقيق الشفاء النفسي لمرضاه طالما ظلّ بعيداً عن فهم السماء وتعاليمها لتركيبته الآدمية، وقد أكّدت تجربة العلاج

النفسي الوضعي لدى الغربيين هذه الحقيقة المرّة واعترفوا بخطأ إهمالهم المتعمد للقيم الدينية والمبادئ الروحية والأخلاقية.

لهذا ظهرت في المجتمع الغربي بوادر حركة جديدة وبوادر نمو اتجاه مذهب جديد في العلاج النفسي يعتمد القيم والمبادئ والتعاليم الدينية أو يقرّ بأهميتها العلاجية على الأقل، ومن هنا تبدو أهمية الأخذ بنظام المعالجة النفسية التي يؤكد عليها المشرّع التربوي الإسلامي، وقد أثبت التاريخ أن الإنسان ظلّ يخبط في تجاربه العلاجية السيكولوجية خبط عشواء دون الحصول على فائدة تناسب ما يبذله من جهد ومحاولات.

بينما استطاع منهج المعالجة السلوكية الإسلامي أن يحقق في تجربة قصيرة ومتميزة ما عجزت عنه تجارب البشرية خلال عمرها المديد، وما يزال النسق القيمي والمعرفي في الإسلام قادراً على إمداد الشخصية الإنسانية بعناصر القوة لمواجهة الإحباطات المستمرة والمتراكمة من جهة، وتعديل السلوك من جهة أخرى حتى وإنْ أصبحت الحياة أكثر تعقيداً.

الجانب الوقائي والجانب العلاجي:

وترتبط فعالية منهج المعالجة النفسية بطريقة الأضداد في الإسلام بكفاءة نظامه التربوي كله الذي اشتمل على جانبين:

١ ـ يقوم أحدهما على وضع برنامج وقائي يحمي النفس ـ وهي ما تزال على فطرتها ـ من تأثير الانحرافات المختلفة على امتداد العمر كله، فالتربية الوقائية التي ينشدها الإسلام تتعهد النفس منذ مرحلة ما قبل الميلاد، وتظل على هذه العناية خلال مراحل دورة النمو النفسي التي يمر بها الفرد في حياته، فتنمي التربية الوقائية في النظام التربوي الإسلامي كافة قواها الشخصية وطاقاتها الفطرية الكامنة، وتحقق نضجها ـ ما أمكن إلى

ذلك سبيلاً ـ في إطار برنامج تدريب إسلامي متكامل يوازن بين كافة جوانبها.

٢ ـ أما الجانب الآخر من برنامجه التربوي فذو طابع علاجي يتوجه إلى ترميم البناء النفسي والعقلي والأخلاقي والاجتماعي ترميماً عبادياً سوياً، وإعادة صياغته ـ جزئياً أو كلياً ـ بعد أن أصاب هذا البناء قليل أو كثير من ركام الانحرافات المختلفة التي قد تمتد كما قلنا من قبل إلى جوانب مستورة من كيان الذات.

فهذا الجانب الهام له دور علاجي فاعل وحيوي حين يصاب بناء الذات بشيء من الخلل وحين تخفق المؤسسات التربوية في عملية البناء والتنمية الوقائية، إذ يتجه الجانب العلاجي إلى تعديل السلوك أو إزالة عادة خاطئة أو المساعدة على تبصير المريض بمشكلته وإرشاده إلى طرق التغلب عليها والتقليل ما أمكن من حالات الاضطراب السلوكي.

ورغم أن كلا الجانبين يكمل أحدهما الآخر إلاّ أن جهد المربي المسلم يبدأ ـ أولاً ـ باستعمال التربية الوقائية، ولا يحاول أن يبدأ خطوة أخرى قبل أن يعتمد هذا النمط من التربية، لكن بسبب الظروف التاريخية التي لازمت بدء الدعوة، اضطر منفذو المنهج التربوي الإسلامي إلى اعتماد برنامجه العلاجي لفترة مؤقتة اقتضتها حركة التغيير الأولى في عصر الرسالة.

وبعد أن أحدث الإسلام ثورته الكبرى في النفوس وغيّر محتواها الداخلي، وتمكّن من تغيير البناء الخارجي للمجتمعات التي دخلها فاتحاً، وترتب عن ذلك تعاضد الطريقتين العلاجية والوقائية، فأحدهما تمكن من تغيير اتجاهات وأفكار الأفراد ونسف الكيان النفسي والذهني لذواتهم، والآخر ركّز على بناء المقوّمات الإيمانية للذات المسلمة الجديدة.

ومع أن النمط العلاجي آنذاك كان الخطوة الأولى في بناء الشخصية المؤمنة، غير أن برنامجه فيما بعد نجح في تكوين جيل متفرد، إذ ظلّ الأخذ بالبناء الوقائي يمثل الخط التربوي الأول الذي يعتمده الإسلام في إعداد المجتمع وصوغ النفوس.

ولا يعني ذلك أنه لم تكن هناك حاجة لمنهج المعالجة على المستوى النفسي ومستويات أخرى، فانحرافات الأفراد في البيئات الإسلامية كانت تظهر بين فترة وأخرى على مستويات متفاوتة، وكان من الطبيعي أن يلجأ المربي المسلم إلى إخضاع هؤلاء الأفراد للبرنامج العلاجي بادئ ذي بدء، وهذا بالتأكيد لا يدل على فشل الجانب الوقائي في تعامله مع هؤلاء المرضى، لأن مصدر الإخفاق ليس الأساس النظري والتطبيقي للإسلام، وإنما قد يعود إلى قصور في فهم المربين المسلمين، أو ازورار نفوس المنحرفين عن منهج الحق واتباع أهوائهم الدفينة في أعماق ذواتهم.

والتجربة الإسلامية الغنية والحية التي طبقت في حياة الإنسان المسلم أغرت الباحثين بدراستها، وأفاضوا في البحث عن مكوّناتها، حتى أثرى هؤلاء الباحثون مكتبتنا العربيّة الإسلاميّة بالأبحاث القيمة لرصد عناصر القوة والضعف.

غير أن اهتمامات المفكر المسلم المعاصر بالمنهج العلاجي أقل بكثير من اهتماماته بالمنهج الوقائي لأن البناء في حياة أفراد تخلو نفوسهم من التراكمات الاجتماعية أفضل من البناء في نفوس تحتاج إلى التنظيف والكنس المسبق، لهذا نرى أن سهولة البحث في التربية الوقائية كان سبباً كافياً لهذه الاهتمامات.

فعلماء الأخلاق والسلوك الإسلاميون قد تناولوا منذ القرون الأولى

فعالية منهج التربية الإسلامي بجانبيه، وظل الاهتمام بهما متلازماً لا يفترقان، وسيبقى كل منهما ظلاً للآخر وإنْ تطلبت طبيعة البحث التركيز على أحدهما، بالرغم من أننا لم نستطع إغفال التربية الوقائية، فتربية الذات الإنسانية ـ في الموقف العلاجي ـ تحتاج إلى خطوات ثلاث رئيسية هي. . التخلية ثم التحلية فالتجلية.

* تخلية النفس من الأخطاء والتراكمات والأوضار.

* تحلية النفس بالفضائل السليمة بعد إخلائها من الرذائل.

* ترك النفس تتجلى في آفاق التفكير الإبداعي وتكشف عن قدراتها المتكدسة في داخلها.

وإذا كان الأقدمون من المفكرين المسلمين قد اهتموا ـ بالغ عنايتهم ـ بمنهج التربية الإسلامي وقاية وعلاجاً، فإنَّ المحدثين منهم ليسوا أقل منهم كفاءة حتى يفوتهم إدراك أهمية منهج المعالجة خاصة بعد أن تفاقمت الذنوب والاضطرابات السلوكية في حياة الناس وأصبح تأثيرها السلبي أقوى في نفوسهم، ويبدو أن البعض من علمائنا اعتبر الجانب الوقائي أنسب الطرق إلى المعالجة والتربية وتشكيل السلوك الحسن.

كما أن العملية العلاجية تعدّ في نظر البعض منهم مجرد ترميمات لا تسمن ولا تغني من جوع، فالتغيير الجذري أيسر على المربي المسلم من هذه الترميمات، وهذا في واقع الأمر خلط وقعوا فيه، فالمعالجة تتطلب حيناً تغييراً جذرياً يقتلع من الذات أفكارها الخاطئة وعاداتها المذمومة، وقد يتطلب التغيير حيناً آخر ترميماً عادياً لهذا الخلل أو ذاك لا يطال الجذور ولا يمتد للأصول.

وعلى كل حال لا يمنع هذا الخلط من القول بأن نظام الوقاية والعلاج

وتلازمهما في التربية والتعلم يزداد أهمية في الظروف الإنسانية الحاضرة، فيمكن أن يبدأ المربي المسلم باستخدام البناء الوقائي للذات التي لم تعرف انحرافاً خطيراً، فيصوغها برفق ودون استعجال، ويمكن للنمط العلاجي أن يستخدم في تصحيح ما أصاب الذات من خلل سواء كان في القصد والنية أو في الأفكار أو المشاعر أو الممارسة السلوكية.

إن البرنامج العلاجي للمعالج المسلم يمكن أن يؤدي في آن واحد وظيفتين مزدوجتين، إحداهما وقائية توصد الباب أمام الانحرافات الجديدة عن التسلل إلى عمق النفس والدخول إلى سراديبها المظلمة، وتجعل الذات الإنسانية تقاوم كل ورم نفسي وأخلاقي ومعرفي يحاول النفاذ إليها من جديد، فيحقق هذا البرنامج ـ إيقافاً جزئياً على الأقل ـ لعناصر الفساد من الدخول إلى الذات.

والوظيفة الثانية للذات هي مضاعفة الجهد لتليين قابلية الجهاز العصبي ليعده مرّة أخرى للتلقي والأخذ والعطاء، وحين ينجح المعالج النفسي المسلم بتنشيط هذه القابلية يباشر بعملية الترميم الجزئي أو الإعادة التربوية الشاملة لبناء الذات.

ويحشد المنهج التربوي الإسلامي طرائق وأساليب متنوعة ذات فاعلية إيجابية في بناء النفس ومداواتها، ولعل أبرز هذه الطرق ما يمكن تسميته بمنهج الأضداد في المعالجة النفسية.

وقد لاحظنا خلال مطالعاتنا لمصادر الفكر التربوي الإسلامي بخاصة القرآن والسنة وكتب علم الأخلاق والتربية والسلوك تأكيداً على دور وأهمية هذا المنهج في العلاج النفسي وتجديد التربية واعادة التعلم للذات المسلمة سواء بغرض محو عادات سابقة أو تعلم عادات جديدة.

وقد يجد الباحث نفسه أمام مدرسة فكرية وتربوية قائمة بذاتها، تدعو إلى تغيير صفات النفس المذمومة ورذائلها بسمات وفضائل وقيم محمودة وإيجابية.

ورغم أن طرق معالجة النفس وبنائها متنوعة وفق وجهة النظر الإسلامية كالذكر والعبادة والتوبة والصبر، وممارسة التأمل العقلي والاعتكاف والخلوة مع الذات والنقد الذاتي والحوار مع الآخرين ومجالسة العلماء ومصاحبتهم وغيرها، إلاَّ أن هذه الوسائل تصب جميعها في اتجاه منهجي واحد يمكن أن تشكل القاعدة الأساس لطريقة العلاج النفسي بالأضداد.

وبالتالي فإنَّ طريقة الأضداد في حقيقتها منهج تنظيمي اشتمل على المفاهيم المعرفية والأساليب الوقائية والعلاجية، واشتمل على أخلاقيات محددة مناسبة لروح التشريع التربوي الإسلامي وآدابه.

إذ أصبحت التربية العلاجية بهذه الطريقة تمثل اتجاهاً واسعاً في الفكر المعرفي والتربوي للإسلام وفي تجربته الروحية والجهادية على امتداد تاريخ طويل عاشه المسلمون في أدوار مختلفة من حياتهم.

فكتب التربية التي كتبها العلماء المسلمون أو كتب علم الأخلاق أو التصوف أو السلوك والتربية الروحية لا تخلو من أثر لهذه الطريقة ومن خطوطها العامة والتفصيلية، وبالإضافة إلى ذلك عرف عن بعض هؤلاء العلماء ممارستهم العلاجية أمثال الكندي والرئيس ابن سينا وأبو بكر الرازي وغيرهم من أطباء النفس المسلمين.

الحاجة إلى نظرية إسلامية في العلوم الإنسانية:

منذ وضعت الحروب الصليبية أوزارها اتجه الغرب ـ بشقّيه المسيحي

والعلماني ـ إلى تحقيق سيطرته على العالم الآخر بأساليب أخرى غفل عنها حين كان مزهواً بقدراته العسكرية وبمنطق القوة وتفكيره الأحمق القائم على مشروعية الغزو، وانسجاماً مع تكوينه النفسي التاريخي القائم على الاعتزاز بروح القوة ومنطق التكبر والطغيان باعتراف وشهادة علماء نفس غربيين، فجذور ظاهرة الاستكبار موجودة في أعماق الشخصية الاجتماعية السياسية للغربيين، وهي إحدى مكوناتها الأساسية على امتداد تاريخ طويل.

يقول المحلل النفسي أريك فروم وهو يقسم المثل الأعلى للشخصية الأوروبية إلى بطل وثني وبطل مسيحي (يمثل مثلاً أعلى للإيمان الديني):

«البطل الوثني كما يتجسد في أبطال الإغريق والجرمان، كانت غاية ما يصبو إليه هذا النوع الأخير من الأبطال هو أن يغزو، وينتصر، أن يدمر وينهب ويسرق، كان تحقيق الحياة عندهم هو الغرور والتكبر والأبهة والسلطة، والشهرة والتفوق في القدرة على القتل وسفك الدماء، وقد شبّه القديس أوغسطين التاريخ الروماني بتاريخ عصابة من اللصوص، كانت قيمة البطل الوثني ـ كما يقول فروم ـ هي براعته في الاستيلاء على السلطة والتشبث بها، وهو يموت سعيداً في ساحة القتال لحظة الموت»(١).

وبعد أن يشخص فروم خاصية السلوك الاستكباري عند الغربيين في تلك الفترة يكاد يعممها على التاريخ الأوروبي كله، يعود مرّة أخرى فيقول:

«لو أننا أمعنا النظر في أنفسنا، في سلوك أغلبية الناس، وفي قادتنا السياسيين(٢) لرأينا بيقين أن البطل الوثني هو النموذج الذي نعتبر أن له

---

(١) أريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ص١٥١.

(٢) يقصد أريك فروم من كلمة (قومه) هنا بني جنسه من الأوروبيين البيض، وكذلك الأمريكيين الشماليين=

قيمة، فالتاريخ الأوروبي ـ الأمريكي الشمالي، على الرغم من اعتناق

=الذين هم من أصل أوروبي، وقد حمل هؤلاء الأمريكيون موروثهم النفسي والعقلي من بلادهم الأصلية.. أوروبا.. إلى مجتمعهم الجديد.. أمريكا الشمالية خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، فظل الأمريكيون مرتبطين بتاريخ أسلافهم يجترون أفكارهم ونظراتهم عن أنفسهم والآخرين، ويكررون كثيراً من سلوكياتهم لا سيما شعورهم الاستعلائي على الأمم يدفعهم إلى ذلك تأثير موروثهم النفسي وتقدمهم العلمي.

وفي أعقاب أزمة تفجيرات واشنطن ونيويورك في يوم ١١، ٩، ٢٠٠١ م تحرك هذا الموروث النفسي المختزن في أعماق الشخصية الأوروبية خاصة الأمريكية الشمالية بقوة انفعالية شديدة، فتحدث الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن عن حربه المقدسة ضد الإسلام والمسلمين وأطلق عليها اللفظة التاريخية (الحرب الصليبية) وهي لفظة سيئة الصيت في تاريخ الصراع بين أصحاب الأديان السماوية، وتدل على حركة غير عقلانية هائجة تحمل بين طياتها شحنات انفعالية هائلة في نفسه.

وبالتأكيد لا غبار على الرئيس جورج بوش الابن أن ينفعل ـ كأي إنسان ـ لحدث دامي مأساوي وقع في بلاده واستهدف حياة الأبرياء، ولكنه من جهة أخرى عبّر عن عودة الموروث النفسي والعقلي المرتبط بصبغة دينية قاصداً أو غير قاصد، مما يدل على أن هذه المشاعر الانفعالية السلبية ما تزال حية أو قادرة على العودة والانبعاث في الذاكرة الأوروبية والأمريكية الشمالية رغم عامل البعد التاريخي وانغماس المجتمع الأمريكي الشمالي والغربي في حياة العلمنة التي لا يعنيها أمر السلوك الديني.

وقد حاول الرئيس الأمريكي أن يتدارك الأمر ويدثر ما أظهرته حالته الانفعالية من رواسب راكدة وتعيش في قاع النفس فزعم أن ما قاله مجرد هفوة وقام بزيارة سريعة وعاجلة للمركز الإسلامي الأمريكي تكفيراً عن غلطته، وتعبيراً عن اعتذار غير مباشر عما بدر منه، ودعا إلى التمييز بين الإسلام والمسلمين وبين الإرهابيين، ولكن بعد أن حرك الموروث النفسي والعقلي وفعل سحره في النفوس لأن تذكير مواطنيه بحرب صليبية يعني ـ بقصد أو بدون قصد ـ تنشيط موروث نفسي تاريخي قادر من جديد على تفعيل المواجهة الدينية بين الغرب والحضارة الإسلامية في مجتمع علماني لا يعير الدين اهتماماً، ورغم ذلك الاعتذار اندفعت رواسب وتراكمات اللاشعور الجماعي الأوروبي في هذا الاتجاه، وظهرت سلوكيات عنصرية لم يستطع الاعتذار أو زيارة المركز الإسلامي الأمريكي نبذ الكره والعنصرية ضد العرب والمسلمين حتى لو كانوا مواطنين أمريكيين، فالكلمة كما قلنا حركت الموروث وفعلت فعلها في النفوس، ولا نغفل بالتأكيد معارضة كثير من الأوروبيين كمعارضي العولمة لمثل هذا الاتجاه.

كما أن رئيس وزراء إيطاليا عبّر هو الآخر عن الموروث النفسي الأوروبي الجمعي عندما صرح بأن على الغرب أن يثق في نفسه، واعتبر الحضارة الأوروبية والأمريكية أكثر رقياً وتقدماً من الإسلام والحضارة الإسلامية، فكشف بذلك عن جهله بالآلام والحضارة العربية الإسلامية، فالموقفان وغيرهما أمثلة أخرى ظهرت على ألسن الأوروبيين والأمريكيين الشماليين وأقلامهم تجعل كلام أريك فروم صادقاً وشاهداً على ارتباط الغربيين.. أوروبيين وأمريكيين.. مع بعضهم في وحدة فكرية وموروث نفسي وعقلي واحد.

وهذا ما جعل أريك فروم يعتبرهم كياناً نفسياً وعقلياً وسلوكياً واحداً يشكل الموروث التاريخي للشخصية الأوروبية التي ما تزال تمارس هذا الموروث وتجتره على الشعوب وأمم الأرض وتظهر مشاعر الاستعلاء والتكبر على الآخرين باعتراف فروم نفسه.

المسيحية ليس إلاّ تاريخ الغزو والأبهة والتكبر والجشع، وأعظم قيمنا هو أن نكون أقوى من الآخرين، وأن نغزوهم ونقهرهم ونستغلهم، وهذه القيم تتطابق مع المثل الأعلى للرجولة، فليس رجلاً إلاّ من كان قادراً على القتال والقهر، وأي شخص غير قادر على استخدام العنف، إنما هو شخص ضعيف، أي ليس رجلاً.

لسنا بحاجة إلى إثبات أن تاريخ أوروبا هو تاريخ للغزو والاستغلال والقوة والإخضاع والقهر، لا تكاد توجد فترة أو مرحلة من التاريخ الأوروبي إلاّ كانت هذه سماتها، لا يستثنى من ذلك طبقة أو جنس، لا توجد جريمة إلاّ ارتكبت بما في ذلك عمليات الإبادة الجماعية لشعوب بأسرها، مثل ما حدث للهنود الحمر حتى الحروب الصليبية التي جعلت من الدين ستاراً لهم لم تكن استثناء»[١].

وهذا ما يؤيده الواقع التاريخي للاستكبار الغربي، ورغبته في التسلط، وشهوته في الغزو والانتصار!! فهذا المرض النفسي كما يقول فروم: «جزء أساسي من مكونات الشخصية الاجتماعية»[٢] للمستكبر الغربي، وتشهد وقائع التاريخ المعاصر على ذلك والتي تجسدت في حركات الاستعمار والسيطرة الغربية على الأمم الأخرى[٣].

ومع ذلك اقتضت ظروف الغربيين إضافة أساليب في الصراع والسيطرة على العالم الإسلامي، فبدأ الغرب ـ بعد أن هزمه المسلمون عسكرياً عدة مرات ـ في الانتباه إلى أسلوب «حرب الكلمة» وحاول منذ ذلك التاريخ السيطرة على العالم كله خاصة عالمنا الإسلامي ـ بالأسلوبين معاً ـ القوة وحرب الكلمة.

---

(١) المصدر السابق، ص١٥١.
(٢) المصدر السابق، ص١٥٢.
(٣) يوسف مدن، سيكولوجية الانتظار، ص١٨٨.

لقد فشل الغرب في تغيير الخريطة العقائدية للعالم عن طريق حملاته الصليبية ذات الطابع العسكري، وحاول مرّة أخرى في العصر الحديث عن طريق الحملات الاستعمارية التي كانت إحدى نتائج حركة الكشوف الجغرافية الأوروبية، ولكن ذلك لم يمكنه من بسط سيطرته الثقافية على النحو المطلوب لأن ذلك كان يثير تحدياً للمسلمين فقاوموا حركاته العسكرية.

ولهذا اضطر إلى اتباع سياسة طويلة المدى تقوم على استخدام العلم وحرب الكلمة الموجّه مع الأمم الأخرى وبالذات مع المسلمين ليتم إخضاعها تحت نفوذه، وتحقيق ما يسميه علماء الاجتماع المعاصرين بظاهرة «الانتشار الثقافي» الموجّه والمقصود لخدمة الغرب والحضارة الغربية، وقد بدا هذا الأسلوب أكثر وضوحاً في الهجرات السياحية والتجارية للغربيين الموجّهة لهذا الغرض، وفي حركات التبشير التي رافقت حركات الاستعمار الغربي للعالم في العصر الحديث والمعاصر، وكذلك تجلى في دراسات الاستشراق لثقافات الشعوب لا سيما ثقافة المجتمعات الإسلامية، وكذلك في إحياء نزعات شعوبية قديمة وميتة كالفرعونية.

ويدعو الغرب والأمريكان الآن إلى عولمة مهيمنة ومتنوعة الأبعاد، وذلك لجعل أبواب المجتمعات البشرية كلها مشرعة لثقافة المنتصر حضارياً، وحرية فتح أسواقه الاقتصادية في العالم للشركات الغربية الاحتكارية، والسيطرة على قنوات وأدوات التوجيه الإعلامي مستغلاً إمكانياته المتفوقة نتيجة ثورة الاتصالات والثورة المعلوماتية.

ولما كانت الحرب العسكرية مكشوفة النتائج للأمم، وهي في الوقت نفسه تجعل الغرب مكروهاً لعدوانيته على الشعوب، اتجه الغرب إلى

الاستفادة من أدوات وقنوات غير مباشرة، ويصعب الانتباه إليها لدى كثير من الناس، وأحياناً تكون محببة لهم ومرغوبة بلا وعي منهم بمقاصدها غير المعلنة، فاستخدم مظلة العلم لتغريب العالم وتهديد الخصائص الحضارية لهوية شعوب العالم، فحاول تحقيق أهدافه الثقافية والاقتصادية والسياسية والنفسية من خلال نتائج العلوم الطبيعية والإنسانية وجعل هذه الأهداف متصلة بمجال العلم، لذلك حاول صياغة المعرفة لدى الشعوب والأمم وفق وجهة نظر غربية، وسخر قدراته في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ونشط الغربيون ـ علانية وخفية ـ في استغلال ما توصلت إليه هذه العلوم من نتائج في السيطرة وتدمير الهوية الثقافية والخصوصية الحضارية للأمم الأخرى.

وأثبتت الأحداث أن الجهد الموجّه لتوسيع «عمليات الانتشار الثقافي» قد أفرز بالفعل نتائج ثقافية ونفسية وأخلاقية تحقق مصالح الغرب كما حدث حين فرض ثقافته على الشعوب المغلوبة في آسيا وأفريقيا، وحين أفرزت هذه العمليات من نتائج ثقافية استهدفت الهوية الوطنية لهذه الشعوب كظاهرة التماثل الثقافي، إذ اندمجت ثقافات أصلية لعدد من الأمم مع ثقافته أو على الأقل استقرت الثقافة الغربية في حياة الكثير من شعوب الأرض، وبقيت كثقافة فرعية مؤثرة تماماً كالثقافة الأصلية.

واستفاد الغربيون من عنصر على درجة كبيرة من الأهمية هو نجاحهم الباهر في تطبيق المنهج التجريبي على دراسة الظواهر الطبيعية، حيث حقق هذا المنهج تقدماً تقنياً كبيراً أثبت قدرة العقل الغربي على الإبداع والابتكار، وشعرت أمم العالم المغلوبة والمسلمين منهم بالتأكيد بالضعة والحقارة والشعور بالنقص إزاء التفوق الغربي، إذ اعتقد كثير من مثقفي هذه الأمم أن التفوق التقني للغرب يعني تفوقه الشامل على كافة حضارات التاريخ البشري في كافة مجالات المعرفة، ثم ما لبث هؤلاء المثقفون أن

جعلوا من أنفسهم أدوات ترويج لثقافة المنتصر علمياً وحضارياً، وقام بعضهم بدور المساعد على تسريب هذا الإحساس المرضي إلى عامة الناس في مجتمعاتهم، وهو وباء يكرس التخلف لهذه الأمم ويغذي عقل الإنسان الأبيض ونفسيته بمشاعر الفوقية والأبوة الحضارية.

وأسرع الغرب بأساليبه المتنوعة إلى إذكاء مشاعره الأبوية الفوقية، فوسع من مساحة التناقض الحضاري بينه وبين أمم الأرض وشعوبها بدلاً من تضييقها، فكل يوم يمر يضيف الغرب إنجازاً وإبداعاً جديداً في عالم التقنية، ويؤكد على تفوقه التقني والحضاري دون أن يبذل جهداً مناسباً لمساعدة الأمم الأخرى المتخلفة للخروج من النفق المظلم.. نفق التخلف الحضاري.. بل كرّس هذا التخلف بدرجات أشد وأكثر صعوبة.

واستمر الغربيون في تضخيم مشاعر الاستكبار بتعصب مقيت في سيكولوجية الإنسان الأبيض، وكان من الطبيعي أن تصاب شخصية الإنسان في دول العالم الثالث بالتوتر والإحباط والشعور بالنقص والانسحاق والإحساس بالضعة.

وإذا كان التخريب العقائدي المتعمد أحياناً في مجال العلوم الطبيعية أمراً ممكناً بقدر محدود كتزوير مفهوم القانون الفيزيائي القائل بأن: «المادة لا تفنى ولا تستحدث من عدم» فإنه أمر ممكن إلى أبعد الحدود في مجال الدراسات الإنسانية حتى يمكن القول بأن الإنسان لم يعرف في تاريخه الطويل والمنكوب في كثير من مراحله تشويهاً لآدميته كما عرفه على يد بعض المشتغلين بالعلوم الإنسانية في الغرب أمثال فرويد، وأميل دور كايم، وكارل ماركس وغيرهم.

بل يمكن القول أيضاً إن هذا التشويه قد أصبح عائقاً يواجه عملية

تربية الإنسان تربية صحيحة حتى بمقاييس الأمم الأخرى وضوابطها الثقافية ومعاييرها المجتمعية، وأدى ذلك إلى حركة ثورية قام بها ـ فيما بعد ـ علماء علم النفس الإنساني كما سترى عزيزي القارئ.

إن نتائج البحث التجريبي على الظاهرة الطبيعية أكثر حياداً من مثيلاتها في البحث التجريبي للظاهرة السلوكية، فالنتائج العلمية عن ظاهرة طبيعية معينة كالتمدد الحراري مثلاً بعيدة كل البعد عن نوازعنا الشخصية وخارجة عن ذواتنا، وهي على هذا الأساس لا تؤثر بصورة حاسمة على مشاعرنا الشخصية، فيمكن القبول بها بلا حساسية مفرطة أخلاقياً أو عقائدياً أو وجدانياً، فالمسلم والكافر معاً لا يعترضان على قبول نظرية التمدد الحراري أو المعادن.

لكن الأمر يختلف كثيراً في مجال الدراسة الاجتماعية والنفسية والاقتصادية، فلا يتفق علماء النفس الوضعي أنفسهم على نظرية واحدة لتفسير ظاهرة ما كظاهرة الدافعية عند الكائن الحي، بل تتعدد النظريات في هذا الموضوع إلى درجة كبيرة، وهذا بالتأكيد يقلل من القيمة العلمية لتفسير السلوك ويضعف من موضوعيتها.

ونقول مرّة أخرى إن الغرب أدرك أهمية سيطرته على هذه العلوم الإنسانية ليفرض هيمنته على ذهنية الإنسان في العالم بتكاليف غير باهظة أو بتكاليف أقل مما يدفعها في حملاته العسكرية، وأكثر ضماناً لسيطرته، وأثبتت الأحداث أن هذه العلوم أعطته قدراً واسعاً لتغيير المفاهيم الخاصة بالشعوب الأخرى.

وهكذا اتخذ علماء الغرب ـ وبخاصة علماء اليهود ـ من الدراسات الإنسانية أداة يتسترون بها لتزييف شخصية الإنسان وكيانه وصوغها بالشكل

الذي يجعله مسخّراً لخدمة الإنسان الغربي ومنصاعاً لإرادته، ولو أن بعض علماء أوروبا أخلصوا النوايا لكان الإنسان اليوم في وضع روحي ومعرفي وأخلاقي أفضل.

ونحمد الله مرّة أخرى أن بعض علماء أوروبا نفسها أحسوا بهذا الخلل، فظهرت مدرسة علم النفس الإنساني بزعامة أبراهام ماسلو[١] لحلّ هذه المشكلة والنظر للإنسان بنظرة أكثر تقدمية تحاول أن تتفهمه ككيان متكامل وغير مجزأ.

وطبعاً لا ننكر ما أضافته التجربة العلمية الأوروبية في محاولتها التعرف على كيان الإنسان، فقد قدمت نظريات كثيرة ـ بعضها يخطئ وبعضها الآخر يصيب ـ لتفسير السلوك مثل نظريات الوراثة والتعلم والتعليم، والشخصية والفروق الفردية، والانفعالات، والإحساس، والإدراك الحسي، والذكاء وغيرها.

غير أن بعض هذه النظريات لم تخلُ أبداً من أخطاء كبيرة نعتقد بأن بعضها كان عن قصد وتعمد، فأدت هذه الأخطاء إلى تزوير مشين ـ باسم البحث العلمي ـ لحقيقة الإنسان والنيل من كرامته على مدار تاريخه البعيد، إذ كانت بعض النظريات والتفسيرات المتباينة والقاصرة تستمد من أساطير التوراة والتلمود والتراث الصهيوني اليهودي كما أوضحت دراسة الباحث المصري د. صبري جرجس، وكما ورد في تعبيرات فرويد أيضاً في بعض كتبه.

ولقد سرى هذا التفسير الأسطوري المعادي لكرامة الإنسانية بحجة

---

(١) انظر الفصل الخامس وعنوانه (الإنسان والمجتمع) من كتاب (العلم في منظوره الجديد)، تأليف روبرت أغروس، وجورج ستانسيو، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، العدد (١٣٤).

خدمة الإنسان، وفي وسط بيئة تحط من شأن الأديان والقيم والجوانب الأخلاقية والجمالية، وتشجع هذه البيئة على إضفاء النزعة العلمية على هذه التفسيرات الأسطورية.

ولهذا نعتقد أن بعض هذه التفسيرات تأثرت بها نظريات ومناهج العلاج النفسي كنظرية التحليل النفسي الفرويدية، وإن كانت هناك بعض الأسس المشتركة التي تلتقي فيها هذه النظريات مع مبادئ النظرية التربوية والمعرفية الإسلامية في مجال المعالجة النفسية وتميزها عنها في أسس أخرى.

إن بعض النظريات الغربية ليست بريئة بلا شك، لذلك اعترف علماء أوروبيون متخصصون مثل ألكسيس كارليل ورينيه رينو ورجال المدرسة الإنسانية في علم النفس بخطأ بعض ما آمنت به هذه النظريات في فهم الطبيعة البشرية.

يقول العالم الفرنسي ألكسيس كارليل: «إن الحضارة العصرية في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم، ونظرياتهم ورغباتهم»[١].

وسوف نشير بإيجاز لبعض الأخطاء التي ارتكبتها مدرسة التحليل النفسي الفرويدية لتكون لنا شاهداً على قصور النظرة الغربية في فهم النفس حتى أن علماء نفس غربيين من مدارس أخرى هاجموا بشدة هذه المدرسة وحنطوا أفكارها وألبسوها كفن «الموت» على حدّ تعبير أحد علماء المدرسة السلوكية الأمريكان.

(١) الكسيس كارليل، الإنسان ذلك المجهول ص٣٧.

إن نظرية التحليل النفسي أكّدت ـ في خطوطها العامة ـ على مادية الإنسان وحيوانيته، ونظرت إلى طبيعته من خلال الدوافع فقط وأهملت قوة الضوابط، وكأن القوة الأخيرة ليست من صميم الفطرة، كما حددت رأيها بصرامة في ألفاظ خمسة هي. ـ الكبت، الجنس، اللاشعور، الطفولة، الأحلام، واعتبرت هذه المفاهيم وحدها مفتاح فهم الشخصية.

ومما اتصف به التفسير الغربي ومنه ـ رأي فرويد ـ هو اعتماد الجزئية في تفسير السلوك، حيث ردّ علماء النفس الغربيين سلوكنا الإنساني إلى طاقة معينة أو إلى دافع معين، ثم أهملوا مع الأسف الاعتراف بوجود دوافع أخرى، بل تجاهل بعضهم الضوابط واعتبرها شذوذاً.

فاليهودي فرويد صبغ كل سلوك إنساني بصبغة جنسية، وتهافت رأي هذا الرجل حين نحى به تفكيره منحى متطرفاً فزعم أن الرغبة الجنسية المحرمة والمكبوتة لاشعورياً مسؤولة عن نشوء مشاعر التدين ونمو القيم والمثل العليا التي اعتبرها عصاباً بشرياً جماعياً، فجميع هذه المشاعر نمت في فترة زمنية مبكرة من تاريخنا البشري تحت ضغط الميل اللاشعوري الجنسي عند الإنسان.

لقد صب سيجمند فرويد كلماته المشحونة بالعداء والتعصب ضد الأديان السماوية[١] وهو يحاول البحث عن جذور وعوامل تكوينها النفسي

(١) استثنى فرويد الشعب اليهودي من تعصبه فقال في أحد مؤلفاته: «استناداً إلى ما تقدم يسعنا أن نؤكد أن موسى أسبغ على الشعب اليهودي الطابع الذي ميزه إلى الأبد عن الشعوب الأخرى، فقد وهبه ثقة متعاظمة في ذاته، إذ أكّد له أنه الشعب المختار وأعلن أنه مبارك، وألزمه بتحاشي الشعوب الأخرى ومجانبتها» كتاب موسى والتوحيد، ص١٤٧.
والمتأمل في هذه الكلمات المتعجرفة التي هي خطاب فرويد نفسه لا كلمات سيدنا موسى عليه السلام، يرى أن فرويد قد صبغ نظرته للشعب اليهودي بنظرة اليهود إلى أنفسهم، فهم الذين ينظرون إلى أنفسهم كشعب مختار، ولم يقل موسى عليه السلام أبداً شيئاً عن تميز اليهود عن الشعوب الأخرى، بل إن موسى=

في عمق التاريخ الإنساني مستفيداً من منهج التحليل النفسي الذي ارتبط به كمنهج استخدمه في الكشف عن الخبرات اللاشعورية المكبوتة في أعماق النفس الإنسانية.

ولنقرأ بعض عباراته المأخوذة من كتبه، يقول فرويد:

«إن المذاهب الدينية جميعها أوهام لا سبيل إلى إقامة البرهان عليها»[١].

«والحال أن أديان البشرية ـ دون أن يستثني ديناً ـ يمكن أن تعتبر هذيانات جماعية، وأما الحاجات الدينية فإنَّ ارتباطها بحالة طفلية من التبعية المطلقة»[٢].

«وبهذا الثمن يفلح الدين بإلباسه أتباعه بالقوة ثوب طفالة نفسية.. أي بقاء الطفولة بعد سن البلوغ.. ويزجهم جميعاً في هذيان جماعي»[٣].

«أنا ما أزال على يقين بأن الظاهرات الدينية تماثل الأعراض العصابية الفردية»[٤]، وهذه الظاهرات كما يقول فرويد «ذات طابع تسلطي»[٥].

«نلاحظ في خاتمة المطاف وجود توافق بصدد نقطة واحدة بين مشكلة العصاب المرضي ومشكلة التوحيد اليهودي»[٦].. ثم عصابية السلوك الديني لدى الشعب اليهودي على كل الأديان والمتدينين من الأمم والشعوب.

=نفسه عليه السلام عانى من عذابات تاريخية على يد اليهود، وركزت شريعته على تغيير أنماط السلوك المرضي لدى بني إسرائيل كما في موقفه من فرعون الذي علا في الأرض وادعى لنفسه الألوهية، ومن الاستحالة بمكان قبول الافتراء الفرويدي على سيدنا موسى بتغذيته للشعور بالتفوق والتميز لدى اليهود.

(١) فرويد، مستقبل وهم، ص٤٣.

(٢) فرويد، قلق في الحضارة، ص١٧ ـ ص٣٠.

(٣) فرويد، قلق في الحضارة، ص٣٤ ـ ٣٥.

(٤) فرويد، موسى والتوحيد، ص٨٣.

(٥) فرويد، موسى والتوحيد، ص٨٣.

(٦) فرويد، موسى والتوحيد، ص٩٦.

«وهكذا يمكن القول بأن الدين هو عصاب البشرية التسلطي العام، وبأنه ينبثق مثله مثل عصاب الطفل عن عقدة أوديب»[١] إشارة إلى أثر الكبت الجنسي في تكوين الدين في حياة البشرية، ثم يتوقع «عزوف الناس عن الدين عبر سيرورة النمو المحتومة التي لا رادّ لها»[٢].

ثم يصف الدين والمذاهب الدينية وصفاً ظالماً بلا تمييز بينها فيقول:

إنها.. أي المذاهب الدينية على الإطلاق.. «بعيدة الاحتمال وصعبة التصديق للغاية، ومتناقضة أشد التناقض مع كل ما تعلمناه ببالغ المشقة عن واقع العالم والكون إلى درجة نستطيع معها أن نشبهها ـ مع أخذنا بعين الاعتبار كما هو واجب الفروق السيكولوجية ـ بالأفكار الهاذية، ومعظمها يصعب الحكم على قيمتها الفعلية»[٣].

ومع أنَّ فرويد يعترف ـ مرغماً ـ بأهمية دور الدين في ضبط الغرائز اللاّاجتماعية على حدّ تعبيره، إلاّ أنه يقرّر بأن الدين والإيمان بالله قد انتهى لدى جموع الآدميين[٤] خاصة في أوساط «الطبقات العليا»[٥] منهم.

لذا حاول الإنسان في تاريخه القديم ـ من وجهة نظر فرويد ـ أن يتخذ من عبادة التوحيد مظهراً للتدين والعبادة يكفِّر به عن رغباته الجنسية المحرمة المكبوتة التي سيطرت على أفراد الأسرة البشرية الأولى، حيث كان لدى أبناء أسرة آدم ـ كأول عائلة بشرية ـ ميل لاشعوري نحو أمهم وأسماها عقدة أوديب، لكنهم وجدوا أباهم عائقاً يمنع تحقيق إشباع رغبتهم الجنسية

(١) فرويد، مستقبل وهم، ص٦٠.
(٢) فرويد، مستقبل وهم، ص٦٠.
(٣) فرويد، مستقبل وهم، ص٤٣.
(٤) فرويد، مستقبل وهم، ص٥٤.
(٥) فرويد، مستقبل وهم، ص٧٢.

تجاه الأم ويحول دون تلبية هذه الحاجة، فتآمروا على قتل أبيهم كي يستحوذوا على أمهم جنسياً، وبعد انتهائهم من جريمة القتل لأبيهم، اختلفوا حول الشخص الذي يحق له الاستئثار بالإشباع الجنسي مع الأم.

وترتب عن ذلك الخلاف أن شعر الجميع بالندم والأسف لما صدر عنهم من فعل، وأرادوا جميعاً التكفير عن ذلك الخطأ التاريخي، فلم يجدوا سوى أن يجعلوا من أبيهم رمزاً أخلاقياً تطور فيما بعد إلى عبادة الأب، ثم تطورت مظاهرها تاريخياً في أشكال متعددة من العبادة والتدين، وأخيراً برزت بالتدريج في طور عبادة التوحيد لله تعالى التي أكّدت عليها الأديان السماوية.

يقول فرويد بلا أدلة ولا برهان قاطع عن علاقة الأبناء مع أبيهم في أول أسرة إنسانية وجدت في التاريخ الإنساني: «فقد تضافر الأبناء المتمردون واتحدوا ضد أبيهم وقهروه وغلبوه على أمره ثم افترسوه سوية»[١].

وهكذا أصبح التدين[٢] وعبادة التوحيد والمثل العليا وكل القيم الإنسانية الفطرية كالندم والذكر والحق والصدق وغيرها ثمرة عملية كبت آثمة للنزعة الجنسية المحرمة التي تمت في حياة الأسرة البشرية الأولى.

وهذا خلاف ما تؤكد عليه إشارات دينية إسلامية من أن سبب جريمة القتل الأولى هو حب الرئاسة[٣] وطلبها وما صاحبها من شعور أحد

---

(١) فرويد، كتابه موسى والتوحيد، ص١٨٠، وكذلك، ص١١٣.

(٢) يؤكد الدين الإسلامي في نصوصه القرآنية والنبوية على أصالة الإحساس الديني وقوته الحيوية والجوهرية في صنع الحضارات البشرية على امتداد تاريخ الإنسانية الطويل، وقد أشارت نصوص قرآنية ونبوية إلى هذه الأصالة وفاعليتها في توجيه سلوك الإنسان الفردي والجماعي معاً، فهناك آيات تتحدث عن الدين كفطرة الله في عباده، وأحاديث ترى أن كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

(٣) فلسفي، محمد تقي، الطفل بين الوراثة والبيئة، ج٤ ص٣٤٢.

الأخوين بالغيرة والحسد والرغبة في الانتقام، وليس الرغبات الجنسية المكبوتة كما يزعم فرويد بدون دليل علمي قاطع.

وكما حصر فرويد تفسير السلوك الإنساني في دائرة واحدة هي الجنس، فإن تلاميذه ـ أمثال أدلر ويونج ـ حصروا السلوك في نطاق دافع جزئي آخر كالشعور بالنقص والرغبة في إثبات الذات، فتلميذه (أدلر) اعتبر الشعور بالنقص دافعاً رئيسياً ومحركاً لنشاطنا النفسي وينبوعه الأساسي الذي تتفرع عنه أنماط السلوك ومظاهرها.

وكذلك فعل يونج حينما ردّ أصل السلوك إلى منبع واحد هو رغبة الفرد في السيطرة وتأكيد الذات، وذهب آخرون مثل كارن هورني إلى التأكيد على دافع العدوان، وآمن فريق رابع بأن «حب الذات» هو الدافع الرئيسي، وركز آخرون على دوافع كالطعام والشراب باعتبارها منبعاً للسلوك الإنساني، وهكذا نظر علماء النفس التحليلي إلى الإنسان باعتباره كياناً مادياً وممزقاً.

وهناك خطأ آخر وقعت فيه نظرية التحليل النفسي عندما تعمد فرويد في عدد من أبحاثه إهمال قوة الضوابط النفسية واعتبارها شذوذاً أخلاقياً يفرض على الإنسان من خارج كيانه كما لحظنا ذلك في موقفه من تفسير نشأة التدين والقيم والمثل العليا، وأتاحت هذه النظرة للشهوة أن تطلق عنانها دون قيد، رغم أن الحياة النفسية الإنسانية قائمة على مبدأ الإحباطات المستمرة، فمن مشكلات هذه الحياة أن لا توفر للفرد إشباعاً مطلقاً (غير مقيد) حتى في اللحظة التي تنزع فيها نفسه إلى تحقيق الإشباع الطليق الذي لا يلتفت إلى الضوابط الموضوعية الشرعية.. تلتزم بحكمة العقل والدين ونظام المجتمع.

إن هذا الرأي المبتور أخطأ عن عمد أو بغير عمد في فهم طبيعتنا البشرية، فليس الإنسان في مجموعه كتلة من الغرائز والدوافع البيولوجية المحضة كما اعتقد فرويد وحواريوه، فحقائق الحياة أقوى وأثبت من رأيه، فلا يمكن التعامل مع الإنسان من خلال قواه الدافعة فحسب، بل هو كما تؤكد تجربة الحياة على امتدادها الواسع كيان متوازن يجمع بين قوتي الدوافع والضوابط، فهما قوتان أصيلتان في النفس البشرية، وتسيران معاً ـ جنباً إلى جنب ـ في تنظيم عملية حركة الذات.

لكن المحلل النفسي الفرويدي انطلاقاً من منهجه التجزيئي في فهم النفس الإنسانية أصرّ على الاعتراف بالدافعية كقوة فطرية، لكنه أنكر بشكل غريب وجود قوى ضابطة أصيلة في فطرتنا، كذلك تقوم بكبح النفس وتحميها من النشاط الزائد للدوافع.. لقد أنكر وجود القيم والمثل العليا والنوازع الجمالية التي تضفيها الأديان على روح الإنسان فأفقدوا بهذا الإنكار روح الإنسان وروح التحليل النفسي معاً.

وحين اضطر المحلل النفسي الفرويدي إلى الاعتراف بقوة الضوابط كان اعترافه بها أسوأ من إنكاره، إذ ردّ نشأة هذه القوة إلى نزعات غرائزية مكبوتة كما فعل في تفسيره لنشأة الدين والقيم والمثل الأخلاقية العليا، وكذلك ردّ نشأة ونمو الحضارة الإنسانية إلى الدافع الجنسي، بل اعتبر الدين والقيم الأخلاقية جميعاً عصاباً طفولياً يمنع الانطلاقة الكاملة لقوانا الفطرية التي زوّدنا الله تعالى بها، لذلك طالبنا بالتخلص من هذا العصاب.

إن التفسير السابق تفسير شوّه الوجه الحقيقي الناصع للإنسان، بيد أن مدرسة عالم النفس الأمريكي أبراهام ماسلو انتقدت رؤية فرويد ونظريته، وحاولت النظر إلى الإنسان برؤية أكثر موضوعية وواقعية فسلطت الضوء

على بعض الجوانب المعنوية من الشخصية، وسانده في هذا النقد علماء نفس منشقون عن مدرسة التحليل النفسي نفسها.

يقول المعالج النفسي السويسري أريك فروم:

«أصبح علم النفس يفتقر إلى موضوعه الرئيسي وهو الروح، وكان معنياً بالميكانيزمات وتكوينات ردود الأفعال والغرائز دون أن يعنى بالظواهر الأساسية المميزة أشد التمييز بالإنسان. كالحب، والعقل، والشعور، والقيم»[١].

أما أبراهام ماسلو صاحب مدرسة القيم الإنسانية فقد قدّم تصنيفاً جديداً للدوافع الإنسانية يشمل بالإضافة للدوافع المادية «الدوافع الروحية كالعدل والخير والجمال والنظام والاتحاد، ويرى ماسلو أن حاجات الإنسان الروحية حاجات فطرية يتوقف على إشباعها تكامل نمو شخصية الفرد ونضوجه»[٢].

لقد اعترف النص السابق بالدوافع المعنوية التي رفضها الاتجاه الفرويدي، وازدادت قيمة هذا الاعتراف بإرجاع «ماسلو» هذه الدوافع والحاجات في وجودها إلى الفطرة، كما أنه ربط إشباع هذا النوع من الدوافع وبين نمو الشخصية ونضوجها وتكاملها، فتخلص تماماً من النظرة الفرويدية التي ترى الإنسان كياناً مادياً وممزقاً.

وارتكب فرويد خطأ آخر حينما زعم أن المعالم الرئيسية المكونة للشخصية الإنسانية تثبت في الطفولة وتتحدد في السنوات الأولى من أعمارنا وتظل فيما بعد فترة الطفولة نمطاً تربوياً وذهنياً عاماً يسود الشخصية حتى

---

(١) أريك غوستاف، يونغ، الدين والتحليل النفسي، ص١١.
(٢) عثمان نجاتي، محمد / كتاب القرآن وعلم النفس، ص٣٨.

المراحل التالية من عملية النمو ويرافق الذات خلال دورة العمر كله، بل إن هذا النمط التربوي الذي تمّ تكوينه في سن الطفولة يبقى دائماً، ويستحيل تغييره بعد تجاوز طفولتنا مهما بذلنا من جهد تغييري، ويظل نمط الشخصية خلال فترة طفولتها قدرها الذي لا فكاك منه، ولا يمكن تغييره أبداً وكأنه قدر محتوم لا مفر منه.

يقول فرويد بتعصب شديد وأعمى: «ليس بيننا من لا يعلم أن وقائع السنوات الخمس الأولى من الحياة تُمَارِس على وجودنا تأثيراً حاسماً لا يستطيع أي شيء أن يعطل مفعوله فيما بعد»[1].

ويمثل هذا الخطأ مظهراً آخر لوجهة النظر القائلة بالحتمية النفسية التي آمن بها الفرويديون، وقد حاول فرويد وصحبه من خلال هذه النظرة أن يوهن في النفوس قابليتها للتغيير الجذري الشامل، حيث أكّدوا أننا لا نستطيع كبشر التخلص تماماً من أثر العادات، والأفكار، والمعالم التي اكتسبناها في سن الطفولة، فهي تمتد إلى كل مرحلة من العمر، شئنا أم أبينا، وتؤثر في حركة الشخصية مدى الحياة طالما أنها عاجزة عن تعديل ما ترغب في تعديله من تجربة الطفولة مهما بذلت الشخصية من جهد مناسب لتعلم جديد يزيل أو يضعف أثر الرواسب التي تعلمناها في السنوات الخمس أو الست الأولى من العمر، والتي يعتبرها فرويد المرحلة النمائية الحاسمة المحددة للمعالم الأساسية للشخصية الإنسانية.

إن سيجمند فرويد يطرح ـ هنا ـ مفهوماً تشاؤمياً يدعو الإنسان إلى مقاومة كل الدعوات الإلهية والإنسانية التي تحث الناس على تجاوز سيئات الماضي واستبداله بما هو أفضل، فهذا التفسير الضال ينزع من النفس

(١) سيجمند فرويد، موسى والتوحيد، ص١٧٤.

البشرية رغبتها الصادقة في التوبة والتغيير وتعديل السلوك، ويقفل أمامها باب الدخول إلى حياة البراءة والتوبة النصوح التي تمثل رصيد الخير المتدفق في الطبيعة الإنسانية، وبذلك ساهم فرويد وزبانيته متعمداً في إغراق البشرية في ظلمة الحتمية النفسية ومتاعبها.

وخلافاً لتفسيرات فرويد المتعسفة يقدم المنهج التربوي الإسلامي للإنسانية رؤية إيجابية تعتمد المعالجة الشاملة لأوضاع الذات في ماضيها، وتركز على إنسانية الإنسان لا على الجانب الشهواني منه فحسب، فالنصوص الإسلامية ترى الشخصية وحدة متكاملة تتوازن فيها قوّتا الدفع والضبط، وتتناغم فيها نوازع الروح والجسد والعقل، وتنتظم في اتجاه واحد يؤدي إلى بناء شخصية متكاملة.

وهذا المنهج المتفرد ـ لمصدره الرباني ـ لا يركز على مرحلة من العمر دون أخرى كما تفعل بعض مدارس علم النفس أمثال مدرسة التحليل النفسي، بل يوزع جهده وأحكامه واهتماماته بالتساوي والدقة لتنظيم الذات البشرية في كافة أدوارها النمائية بلا مبالغة أو انحياز لمرحلة دون أخرى، وهو.. أي الإسلام.. لا يرى أبداً في صفاتنا المكتسبة في طفولتنا قيداً يمنعنا من تغيير ما بأنفسنا، بل إنه يرى إمكانية تغيير نمط الشخصية في مرحلة لاحقة للطفولة خاصة في سن الشباب والرشد، ولا ينكر الإسلام أثر الرواسب الساكنة في النفس وقوة حركتها خلال فترة التغيير.

بيد أن مطالب المشرّع التربوي الإسلامي بتغيير ما بالنفس واضحة، وتعني أن يسعى المسلم ـ معالجاً ومريضاً ـ للبحث عما في النفس من رواسب الخير لتثبيتها وإبقائها، والبحث عما في النفس من رواسب الشر والضعف لاستئصالها وتبديلها بفضائل وقيم يرتضيها الإسلام للإنسان.

لذلك يؤكد المنهج التربوي الإسلامي بأن الشخصية قادرة على أن تتجدد في كل مراحل العمر كلما تمكن المربي المسلم من توفير الشروط المناسبة اللازمة للتجربة التغييرية عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[(١)].

لقد سلب الفكر الفرويدي حرية الذات وإرادتها في التغيير، وجعل منها كائناً خنوعاً تستذله الشهوة، وتنزع منه الشعور بالعزة والكرامة، أما منهج الله تعالى فلا يقبل للمؤمن أن يكون عبداً ذليلاً يلهث وراء الإشباع الزائد عن الحاجة على نحو يدمر فيه حرية الإرادة ويقتل همته وحيويته، بل يحثّه على تعويد نفسه على إشباع مقيد ومنظم يساعده على إنجاز مهمته العبادية عملاً بقوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(٢)].

وانسجاماً مع النص القرآني الكريم:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[(٣)].

وتواترت النصوص التربوية التي تشحن المؤمن بالعزة والقدرة على مواجهة مشاعر الدونية وضعف الإرادة، تقول هذه النصوص:

«إن الله عز وجل فوّض للمؤمن كل شيء إلاّ أن يذلّ نفسه»[(٤)].

---

(١) سورة الرعد، ١١.
(٢) سورة الذاريات، ٦٥.
(٣) سورة آل عمران، ١٤.
(٤) ميزان الحكمة، ج٤ ص٤٤١.

«ما أقبح المؤمن أن تكون له رغبة تذله»[(١)].

«من ترك الشهوات كان حرّاً»[(٢)].

«إذا كثرت المقدرة قلّت الشهوة»[(٣)].

وإذا كان منهج التحليل النفساني يرى في الإشباع العاجل ـ لشهواتنا ـ ضرورة أساسية تحقق للمرء توافقاً نفسياً، وأنَّه يرى تأجيل هذا الإشباع لأي سبب هو حرمان للفرد من متع الحياة وملذاتها، وهو كبت قاتل يميت في النفس حيويتها وخصوبتها، فإنَّ المنهج الرباني يضع تصوراً بعيداً كل البعد عن نظرة فرويد، حيث ينظم إشباع حاجاتنا بمفاهيمه العبادية وبنظرته الخاصة، فهو يعترف منذ البداية بالشهوات كجزء أساسي من صميم فطرتنا كما أوضحت الآية السابقة الذكر.

ويرى أنَّ الشهوات «متاع» مباح للإنسان يجب إشباعه في اللحظة المناسبة وبمقدار الحاجة، ويؤكد في الوقت نفسه على ضرورة تصريف طاقاتنا الفطرية في مجالها الطبيعي وبالأساليب السوية، ذلك المجال الذي يتيح للنمو النفسي أن يستمر في الاتجاه الصحيح، ثم يضع المشرّع التربوي الإسلامي بعد ذلك الخطوات العلمية والعملية اللازمة لإشباع كل شهوة على حدة، وتحقيق التوازن الداخلي في حركة الذات بين متطلبات الذات ومتطلبات الواقع ومتطلبات المشرّع.

ومع ذلك كله فإن المشرّع التربوي الإسلامي لم يؤيد أبداً الاستجابة للمتعة العاجلة إلاّ إذا كان الموقف النفسي للفرد يقتضي الإشباع العاجل

(١) تحف العقول، ص٣٦٤.
(٢) المصدر السابق، ص٦٥ / ٧١.
(٣) نهج البلاغة، ج٤ ص٥٤.

فيحافظ على بقاء الذات، بل إنه دعا بوضوح إلى تأجيل الإشباع طالما أن الفرد المسلم ـ خاصة في الظروف الحرجة ـ لا يستطيع الحصول على الإشباع السوي من وجهة النظر الشرعية، فدعا على سبيل المثال إلى تأجيل الإنسان إشباع حاجة الفرد إلى الجنس... أي تأجيل الزواج باعتباره الاستجابة الجنسية المقبولة شرعاً لمدة مناسبة تكون فيها الظروف أفضل، وهكذا بالنسبة لتأجيل شهوة الأكل والشراب وغيرها.

يقول الحديث الشريف:

«طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود لم يره»[1].

وفي حديث نبوي أمر النبي صلى الله عليه وآله وصحبه بضبط الإشباع وترك المتعة العاجلة. ويقول النص النبوي:

«من أكل ما يشتهي، ولبس ما يشتهي، وركب ما يشتهي، لم ينظر الله إليه حتى ينزع أو يترك»[2].

ويقول الإمام علي بن الحسين (زين العابدين) عليه السلام:

«من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا»[3].

هذه بعض عيوب نظرية التحليل النفسي وأخطائها التي عصف بها النقد من كل حدب وصوب، ولكن بعد أن دست سمها الزعاف في العقل البشري، فعلماء النفس الغربيون خاصة أطباء المعالجة يحاولون اليوم اقتراح نظريات أخرى تتفادى أخطاء فرويد.

---

(١) تحف العقول، ص٤١.
(٢) المصدر السابق، ص٣٣.
(٣) المصدر السابق، ص٢٠٠.

وقد تضاربت الاتجاهات العلاجية التي تبنتها هذه النظريات، رغم أن بعض هذه النظريات دفعت بحركة العلاج النفسي إلى وضع أفضل، وقدمت أفكاراً علاجية جديرة بالتقدير كما نجد ذلك في العلاج السلوكي، والعلاج النفسي الواقعي وغيرها من النظريات العلاجية القائمة على التوجيه والإرشاد الاستبصاري القائم على وعي الإنسان للمشكلة السلوكية ومواجهتها.

نظرة علاجية واقعية:

سوف نشير بإيجاز إلى بعض المبادئ النفسية العلاجية التي تبناها منهج العلاج النفسي الواقعي بزعامة عالم النفس الأمريكي (وليام جلاسر)، وهي مبادئ سيكولوجية وتربوية قريبة إلى حدّ ما من مبادئ المعالجة النفسية الإسلامية للمرض النفسي وتعديل السلوك بما يتفق مع أهداف ومحتوى النظرية العبادية الإسلامية.

لقد أشار وليام جلاسر إلى مبادئ تربوية وسيكولوجية إيجابية فعالة تلتقي في خطوطها العامة مع أسس النظرة التربوية الإسلامية كمبدأ تحمل المسؤولية، والتأكيد على قيمة الفرد، والتركيز على أهمية المستقبل في حياة الإنسان، والانصراف تماماً عن البحث في ماضي الفرد المريض إذا كان سيئاً لا جدوى منه، واحترام خصوصياته الشخصية، وعدم اهتمامه بفكرة اللاشعور المادي الذي تحدث عنه الفرويديون، وضرورة دمج الفرد في بيئة صالحة تساعده على تحقيق التوافق والرضا.

وفي هذا الشأن يقول الأستاذ ظباء صديقي:

«وإني لأعتقد أن العلاج النفسي الواقعي ـ الذي يمارسه جلاسر ـ يلتقي في ركائزه مع أسس إسلامية من حيث عدم تكامل هذا العلاج، وعدم اهتمامه باللاشعور المادي، ومن حيث انصرافه عن البحث في ماضي

المريض، ذلك أن المريض يرتبط بخصوصيات الشخص، وتلك لها كل الحرمة والصون في فكر الإسلام، وهو ما يلتقي بديهية مع سليم الفطرة سواء كان المريض مسلماً أو غير مسلم، فليس من الحكمة أن يتعدى المعالج النفسي ـ تحت أي عذر ـ دوره الذي حددته نظرية العلاج الواقعي، وبعبارة واضحة فإن الذي يحاك في النفس من أحاديث، وما يرد على القلب من سيئ الأحاسيس يجب ألاّ تكون محل جهر، ولا موضع مناقشة»[١].

وأكّد العلاج النفسي الواقعي على نقاط أخرى أساسية لها دور كبير في المعالجة، مثل ذاتية العلاج، وتوفر المعالج وضرورة توطيد العلاقة بين المعالج والمريض.

يقول الأستاذ ظباء صديقي مرّة أخرى:

«وفي هذا المقام نرى من الأهمية بمكان مناقشة العلاقة بين المعالج والمريض من وجهة نظر العلاج الواقعي، ثم نعرضها على وجهة النظر الإسلامية، فالعلاقة التي يتطلبها العلاج الواقعي بين المعالج والمريض إنما تأتي على النحو المطلوب إذا كان الأشخاص من نفس الجنس (ذكور مثلاً)، وقد تنعكس النتائج إلى النقيض إذا كان المريض من جنس ذكر مثلاً والمعالج من جنس آخر (أنثى)، وهذا يتفق تماماً مع الفكر الإسلامي.

ولبيان الأمر بجلاء أكثر، فإننا نعلم أن العلاقة التي يتطلبها العلاج الواقعي بين المعالج والمريض لا بدّ أن تكون علاقة حميمة، وحينئذ فإنه يتحتم أن يكون المعالج من نفس جنس المريض بالنسبة للمسلمين نظراً إلى قيم العفاف الكامل التي يفرضها الإسلام عليهم، وفي ضوء ما علمناه من

---

(١) مجلة المسلم المعاصر، العدد (٢٩) سنة ١٤٠٢ هجرية، ١٩٨٢ م، مقال الأستاذ: ظباء صديقي ص٧٩.

طبيعة العلاقة بين المريض والمعالج النفسي. فهل يكون في مقدور معالج غير مسلم القيام بعلاج مريض مسلم؟

وإذا لم يتوفر المعالج المسلم. هل يمكنه كحل آخر أن يناقش هذا المريض مشاكله مع معالج غير مسلم؟ هل تفيده مناقشة أموره مع معالج يجد صعوبة بالغة في فهم إطاره الإسلامي. وقد يحمل وجهة نظر تتعارض تماماً مع عقيدة الوحدانية الإسلامية؟ وماذا لو أعطاه مثل هذا المعالج مشورة لا تتناسب معه كمسلم[1] ؟.

إن المعالج النفسي الواقعي يؤكد على ضرورة أن يكون «المعالج والمريض» من جنس واحد كي تنجح عملية المعالجة السلوكية. وهذه الفكرة لا يؤيدها فقط المعالج السلوكي الواقعي، بل تتفق تماماً مع وجهة نظر المشرّع التربوي الإسلامي، لأن ضوابطه الأخلاقية والعقائدية ترغب في انتماء المعالج والمريض إلى جنس واحد، وذلك تسهيلاً لروح المصارحة والمكاشفة بينهما.

وهذا أمر ضروري لضمان التقدم في المعالجة النفسية وتحسين نتائجها، فهناك ـ كما يعلم القارئ ـ أمور خاصة تجعل طبيعة الأنثى تمتنع من مصارحة معالجها لو كان معالجها من الرجال، كما أن الرجل نفسه يحتفظ بأسراره الشخصية ولا يرغب في مصارحة معالجه لو كان من النساء خاصة إذا كانت الأسرار ذات صلة بالعلاقة بالجنس ذات الحساسية الأخلاقية المفرطة كالضعف الجنسي.

والحق أن نظرية العلاج النفسي الواقعي عند وليم جلاسر تعتمد على

(١) المصدر السابق، ص٧٩ ـ ٨٠.

بعض المبادئ الأخلاقية في المعالجة النفسية، وتتفق مع الإسلام في غرس قيم الفضيلة، وإحياء الشعور بالمسؤولية وتأكيد قيمة الذات الإنسانية، رغم أن الهدف العام للمعالجة النفسية في الإسلام ليس محصوراً في السعي وراء تحقيق توافق نفسي أو صحة نفسية فحسب، بل هو سعي إلى هدف أبعد وأكثر أهمية هو رضا الله تعالى وطاعته وعبادته، وهو هدف يضمن للإنسان المؤمن تحقيق شروط الصحة النفسية وأهدافها العبادية.

وإذا كان العلاج النفسي الواقعي ـ باعتباره جزءاً من المدرسة السلوكية ـ يرد على أخطاء طريقة العلاج النفسي الفرويدي فإنه من الأولى أن يصوغ المفكر المسلم نظرية متميزة في العلاج النفسي تنسجم مع العلاج القرآني والنبوي واجتهادات أئمة الإسلام وعلمائه.

فالفشل الذريع الذي منيت به مناهج العلاج النفسي الغربية وتضارب مدارسه في نظرنا (سبب معقول ومسوغ أساسي) لصياغة نظرية إسلامية في معالجة النفس ومداواة عيوبها الأخلاقية والوجدانية والسلوكية.

ولا يجب أن تكون نظرية العلاج النفسي الواقعي أو غيرها، رغم التقائها ببعض الأسس الإسلامية العامة والتفصيلية بديلاً عن النظرية الإسلامية، ويمكن للمعالج المسلم أن يستثمر كذلك تجارب الآخرين ويوظفها في تعزيز النظرية العلاجية الإسلامية واستخدامها في ميدان العلاج وتعديل السلوك الإنساني.

ونعتقد ـ شخصياً ـ أن الدعوة لصياغة نظرية إسلامية في العلاج النفسي تسهم بقدر كبير في فكّ قبضة الغرب عن الذهنية المسلمة وتحريرها وتخليصها من هيمنة بعض أفكاره الفاسدة التي تمحو تميز الذات المسلمة وتبقيها تحت مظلة التبعية الثقافية، أما الأفكار السليمة التي تمثل فهماً علمياً

صحيحاً للسلوك الإنساني وبواعثه، فينبغي تعزيزها وأخذها والاستفادة منها لأننا مطالبون بأخذ الحكمة أنى شاءت.

ويلاحظ كذلك أنه حتى النظريات والأفكار الغربية التي تلتقي مع بعض معتقداتنا لا تجعل الذات المسلمة متميزة عن غيرها، لأن هناك أسساً أخرى لا تؤكد عليها هذه النظريات، ولأن هذه الأسس المشتركة لا تعالج تماماً بروح إسلامية خالصة، ولا تعتمد الوسائل التي يقرّرها المشرّع التربوي الإسلامي، فمثلاً يمكن الأخذ بفكرة العلاج النفسي الواقعي بضرورة انتماء المعالج والمريض لجنس واحد توطيداً للعلاقة بينهما أولاً، وتسهيلاً لحركة العلاج.

لكن المعالج النفسي الواقعي قد يقترح لمرضاه علاجاً يرفضه الإسلام كتشجيع المريض على غيبة الآخرين خلال فترة المعالجة بغرض إحداث تحسن في حالة المريض، ومع أن الغيبة كسلوك مرضي يكرس العدوانية ويفتت العلاقات الإنسانية إلاّ أن المعالج يمكنه ـ إذا اقتضى الأمر ـ أن يستأذن الشخص الذي تمّ اغتيابه ويأخذ منه رخصة شرعية، فإن أذِن بذلك حفظ أسراره، وفي الوقت نفسه يحثّ مريضه على تجنب عادة الاغتياب للآخرين، ويسعى إلى إصلاح العلاقة بين مريضه والفرد الآخر الذي تمّ اغتيابه في الجلسة العلاجية، وإزالة الشحنات الوجدانية المتأزمة المختزنة في نفسية المريض.

إن بعض نظريات العلوم الإنسانية تحاول أن تربي الإنسان على أن يكون شخصاً بعيداً عن منهج السماء وتسعى ـ بقصد وبغير قصد ـ إلى تنمية مشاعر الخضوع والمذلة والذوبان في بوتقة الثقافة الغربية، ومن المؤكد أن النتائج التي توصلت إليها بعض هذه النظريات ليست بالتأكيد حقائق

موضوعية يستحيل علينا ردها، فهي في واقع الأمر مجموعة تصورات انبثقت عن مفاهيم الغرب عن الله والكون والإنسان، وهي مفاهيم ناجمة عن تجارب الصراع غير السوي بين الكنيسة والعلماء خلال فترة النهضة العلمية، وما المشاكل التي تقلق إنسان اليوم سوى ثمرة ذلك الصراع وصداه وتسرب المفاهيم الغربية إلى أذهان الشعوب، وهذا يعني أن مجرد المواجهة لهذه الأفكار ليس كافياً لتحرير الإنسان من تأثيرها السلبي.

لذلك يجب أن يطرح الإسلام نظريته في العلاج النفسي كجزء من برنامجه العام عن الإنسان والحياة والخالق، وأن تصاغ نظرته المحكمة في كافة المجالات ومعالجة المشكلات المتنوعة من جديد وفقاً لتصوره العقائدي المتفرد، ولا يكفي أن ننتقد مفاهيم الغرب وتصوراته في العلاج النفسي، ونضع العلامات حول سلبياته دون إعداد لمنهج إسلامي واقعي يتعهد بصياغة الذات المسلمة المعاصرة مرّة أخرى بمعاييره الشرعية، ولا نقصد بالتأكيد حذف التجارب الإيجابية والناضجة والواقعية المضيئة التي يفجرها العقل الإنساني في الغرب والشرق، فهذه التجارب كما قلنا مراراً رصيد طيب يعزز النظرة الإسلامية العلاجية ويخدم الإنسان ويحرره من أزمته أو يخفف منها على الأقل.

ونحمد الله عز وجل على ما أسبغ وأنعم، فظاهرة الصحوة الإسلامية آخذة في النمو والامتداد والاتساع في البيئات العربية والإسلامية، وتطل برأسها حيناً بعد حين حتى في المجتمعات الغربية نفسها، وليس من المبالغة في شيء أن نقول إن هذا التحول النفسي والعقائدي قد أدى إلى انخفاض معدل رصيد الإحباط الموجود في نفسية الإنسان المسلم تجاه التفوق الغربي، إذ بدأت بين فئات المجتمع المسلم بوادر الاتجاه إلى الإسلام من جديد، بل إن إخفاق وجهة نظر الغرب في حلّ بعض

المشكلات البشرية حمل بعض العلماء الأوروبيين على البحث عن منهج آخر يعالج حالات القصور ويتفادى الأخطاء التي ارتكبتها النظريات الغربية، بل أسلم بعضهم أمثال جارودي ومحمد أسد.

وكان بعض المثقفين المسلمين المعاصرين إلى سنوات قليلة خلت ـ وما يزال بعضهم حتى الآن ـ يعانون من عقدة وأزمة الهزيمة النفسية والحضارية، فجاءت هذه الصحوة المباركة لتلفت الأنظار إلى ضرورة بذل الجهد المخلص لإعادة كتابة وجهة النظر الإسلامية في كافة مجالات العلوم الإنسانية، وكانت علوم النفس والاجتماع والاقتصاد أوفر هذه العلوم حظاً، حيث تمكنت بعض الدراسات والأبحاث من القيام بواجب أداء المسؤولية العلمية وتأصيل وجهة نظر المشرّع الإسلامي في هذه العلوم، وما يزال الباب مشرعاً لدراسات أكثر نضجاً سواء في هذه العلوم أو في غيرها.

ومما لا شك فيه أن بعض هذه الدراسات مجرد محاولات أولية لم تتخلص بعد من نفوذ وسيطرة المعرفة الغربية في الإنسانيات، لكنها على الأقل كانت أكثر تمرداً من بعض الدراسات القائمة على تقليد أعمى انهزامي للمنهج الغربي التي كتبها عرب ومسلمون، كما أن جهوداً أصيلة مخلصة اقتربت كثيراً من معالم النظرية الإسلامية، فأغلب هذه المحاولات ـ رغم تفاوت الجهد ـ تهدف إلى تعريف الآخرين بالخطوط العامة والتفصيلية للنظرية الإسلامية في التربية وعلم النفس والاجتماع البشري والتنظيم الإداري والسياسي والقانوني وغيرها.

لقد كانت النظرية التربوية الإسلامية مدفونة في مصادرها الأساسية الأصيلة (القرآن والسنة)، لكن ظروف التخلف الحضاري ومشكلاته وأوضاره وضعت المسلم في المواجهة والتحدي الصعب، ودلته تجاربه بعد

طول معاناة على أن إصلاح المجتمع المسلم يجب أن يتمّ بقيم الإسلام ذاته ومعاييره الأصيلة التي تتضمن استجابة لمتطلبات الواقع ومتغيرات الزمان.

ولنأخذ مثلاً على ذلك يؤكد السبق التاريخي للإسلام في مجال الأفكار الصحيحة، حيث توصل عالم الاجتماع البريطاني (كولن ولسن) إلى فكرة قرآنية تمثل قانوناً أو سنة تاريخية واجتماعية، وذلك عندما ربط بين تغيير الأحوال المادية للإنسان وبين مسألة التغيير الداخلي للذات البشرية واستبدال محتواها النفسي والذهني.

وظن الغربيون وزبانيتهم أن هذا العالم أضاف شيئاً جديداً لتراث البشرية، رغم أن هذا المبدأ الذي دعا إليه (ولسن) ليس كشفاً جديداً تعرفه البشرية لأول مرّة في تاريخها، فقد عرفه المربي المسلم وبعض علماء الاجتماع المسلمين قبل قرون أمثال ابن مسكويه، ونجح هؤلاء العلماء بمهارة في تحديد قيمته العلمية عندما كان الوجدان الإسلامي قوياً.

والتاريخ يشهد على نجاح المسلمين في تغيير أوضاع شعوب بأكملها وإصلاح أحوالها لفترة مؤقتة، بل إنَّ حركة النبي محمد (عليه وآله صلوات الله وسلامه) في تغيير مبنى المجتمع القبلي بالجزيرة العربية دليل على استيعاب المسلمين وتطبيقهم لهذا القانون، وبالطبع لا نقصد من ذلك التهوين من جهد (ولسن) وعلمه، بيد أن إقرار الحقيقة وتسجيلها لأصحابها حق لهم أيضاً وأمانة علمية لا يمكن تجاهلها.

فالآية القرآنية القائلة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] تمثل قاعدة اجتماعية أساسية في تغيير المجتمعات وتحويلها

---

(١) سورة الرعد، ١١.

على قاعدة التغيير الداخلي لمحتوى الذات البشرية، وهذا ما دعا بعض علماء الاجتماع المسلمين في قرون سابقة كابن مسكويه إلى القول بأن إصلاح المجتمع يبدأ أولاً بعملية إصلاح النفوس، فالنفس هي الميدان الأول التي يتمكن منه المصلحون الاجتماعيون من تكوين ونسج المجتمعات الصالحة المؤمنة، وإذا بدأت عملية تغيير ما بأنفس الأفراد وتعديل المحتوى الداخلي للذات الإنسانية تغيّر ـ تبعاً لذلك ـ البناء الفوقي للمجتمع كما حدث في الجزيرة العربية والمجتمعات المحيطة بها.

وقد تصدى ابن مسكويه لمناقشة مسألة إصلاح النفوس وأثرها في تعديل السلوك والمجتمعات الإنسانية في كتابه (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)، وذلك حين جعل ابن مسكويه من هذه المسالة غرضه الأساسي من تأليف كتابه المذكور في الصفحات الأولى، فقال رحمه الله تعالى: «غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة، ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي».

ثم أجاب على ذلك بعدد من التساؤلات فقال: «والطريق في ذلك أن نعرف أولاً نفوسنا ما هي؟ وأي شيء هي؟ ولأي شيء؟ أعني كمالها وغايتها، وما قواها وملكاتها التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العلية.

وما الأشياء العالقة لنا عنها؟ وما الذي يزكيها فتفلح، وما الذي يدسيها فتخيب؟ فإنه عز من قائل يقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[1].

---

(١) ابن مسكويه، كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص٢٧ ـ ٢٨. والآيات ٧ ـ ١٠ من سورة الشمس.

ثم تناول في كتابه مبادئ صيانة الذات ووقايتها، وكذلك أساليب علاجها في ضوء نسيج قيمي فعال يرتكز على نظرية الوسط في الأخلاق لنقل الذات من ضد سلبي (عصاب) إلى ضد إيجابي وسوي.. أي من رذيلة إلى فضيلة تضادها.

إن الدعوة إلى ضرورة إصلاح المجتمع من خلال تغيير النفس ليس ابتكاراً جديداً تعلمناه من الفكر الاجتماعي عند ولسن، بل هي قاعدة الإسلام في بناء المجتمعات وصوغ النفوس، غير أن ما أصاب المسلمين من بعد عن الله سبحانه ومن تخلف في المعرفة الاجتماعية القرآنية، حجب الوعي بهذا القانون عن الأذهان، وظلت مدفونة إلى حين مناداة (كولن ولسن) بها في السنوات الأخيرة، فحسبه الغربيون إضافة جديدة للفكر الاجتماعي، لكننا كمسلمين نعتبره إحياء لمبدأ إسلامي أهملناه بسبب قصور فهمنا للإسلام، ومع ذلك نقدر لهذا المفكر جهده في لفت النظر لهذه القاعدة الإسلامية المعطلة[١].

وعلى كل حال فإن ظروف مجتمعنا المسلم المعاصرة تعتبر دافعاً لتجديد المبادئ الإسلامية واعتمادها في صياغة نظرية العلاج النفسي، وقد أصبح هذا المطلب ـ بخاصة في عصر قلق تزايدت فيه الأمراض النفسية ـ ضرورة شرعية ومسؤولية علمية ضخمة على عائق المسلمين المثقفين العاملين في حقل التربية والمعالجة النفسية.

---

(١) كتب بعض العلماء والمفكرين المسلمين المعاصرة أبحاثاً ودراسات متعددة تبحث موضوع السنن التاريخية والقوانين الاجتماعية وبالذات قاعدة تغيير المجتمع واصلاحه بناء على قاعدة تغير المحتوى الداخلي للذات الإنسانية، ومن هذه الدراسات ما كتبه الأستاذ سعيد جودت في كتابه (حتى يغيّروا ما بأنفسهم)، وكذلك كتاب (السنن التاريخية في القرآن الكريم) للشهيد السعيد العلامة السيد محمد باقر الصدر وهو الكتاب المعروف لدى القراء بالتفسير الموضوعي للقرآن، وأيضاً ما كتبه الشيخ الركَابي في كتابه (السنن التاريخية في القرآن الكريم).

القيم الإسلامية وعملية العلاج النفسي:

أكّدنا من قبل على مسألتين:

١ ـ أن هناك اتجاهاً جديداً ينمو في الغرب، ويحاول تفعيل القيم الدينية والروحية والأخلاقية واستثمارها كطاقة متوهجة في معالجة المشكلات السلوكية وفي عمليات العلاج النفسي وتعديل السلوك، وقد تزعم هذا الاتجاه يونغ وفيكتور استايكل وابراهام ماسلو أحد مؤسسي مدرسة علم النفس الإنساني وغيرهما.

٢ ـ ان الإسلام في تجربته الإنسانية المتأصلة في أعماق ذاتنا الحضارية قدم نسقه القيمي والمعرفي ليتعهد الإنسان برعاية وقائية وعلاجية وإنمائية.

لذلك أصبح من الصعب على الباحثين التربويين المسلمين، وكذلك علماء العلاج النفسي المسلمين في عصرنا إقصاء القيم والفضائل الروحية والأخلاقية في أية محاولة لبناء أو صياغة النظرية العلاجية الإسلامية لعلاج السلوك وتعديله، لأن لهذه القيم أهمية تربوية قصوى، فهذه القيم بمختلف أشكالها وأنواعها تمثل دعامة رئيسية في هذه النظرية.

وقد لا نبالغ إذا اعتبرنا «القيم» العمود الفقري للنظرية الإسلامية في مجال تشكيل السلوك الإنساني وتكوينه، وهي جوهر الذات الإنسانية وروح المنهج التربوي الإسلامي، لهذا آثرنا أن نتناول في عجالة العلاقة بين القيم وعملية المعالجة السيكولوجية بطريقة الأضداد، وتوضيح أهميتها التربوية في تعديل السلوك غير المرغوب فيه، وتأصيل سلوك إيجابي سوي مرغوب فيه ينسجم مع المعنى العبادي لهذه القيم.

يقول أحد الباحثين المسلمين المشتغلين في حقل علم النفس:

«أنه حظيت المناقشات الأخلاقية بمناقشات تفصيلية وبدرجات متباينة للتأكيد في خمس من مجالات البحث الفكري الإسلامي، وهي دراسة تعاليم الإسلام كما وردت في القرآن والحديث، وعلم الفقه، وعلم الكلام، والفلسفة والتصوف.

كما أن الأشكال المتنوعة التي تتميز بها طبيعة هذه الفروع وأهدافها قد تركت بصماتها على الاتجاه الذي يمكن أن تسير فيه مناقشة موضوع الأخلاق ومجالها داخل فروع المعرفة هذه وعلاقة هذا الاتجاه وتلك الأهداف بالموضوعات الأخرى مثل علم النفس والميتافيزيقا والمنطق، ولم يحظ هذا الارتباط بالدراسة الدقيقة التي يستخدمها حتى الآن»[١].

لقد ركزت المجالات السابقة بدرجات متفاوتة على موضوع «القيم» و«الأخلاق»، وظل هذا التركيز يطاول الزمان ويتحداه حتى الآن، بيد أن بعض العلماء المسلمين المعاصرين حاولوا في الآونة الأخيرة توسعة نطاق «المجالات» المعرفية التي لها علاقة بالقيم والأخلاق، وتوظيف القيم الإسلامية في مجالات أخرى كعلوم السياسة والاقتصاد والتربية والتعليم، وميدان الدراسات السيكولوجية بوجه عام، والعلاج النفسي وأساليب الإرشاد خاصة، وذلك لإبراز فعاليات جديدة للقيم والأخلاقيات في مجالات معرفية أخرى يستوعبها المشرّع الإسلامي بنصوصه التربوية، وفي صدارتها ميدان الدراسات العلاجية النفسية.

ومما لا شك فيه أن «القيم» الأخلاقية والدينية والجمالية والإدراكية تعتبر دعامة أساسية في نسيج النظام المعرفي الإسلامي، ولا يستطيع

(١) بحث الأستاذ د. محمد أبو القاسم المنشور بمجلة المسلم المعاصر، العدد (٢٤) وعنوانه (علم النفس والأخلاق في الفكر الإسلامي)، ص٥١.

المهتمون بدراسة هذا النظام إغفال «النسق القيمي» المتنوع الذي عرضته نصوص المشرّع التربوي المسلم لصياغة شخصية الإنسان وتكوين بنائه، لذلك أصبح مجال القيم في دائرة اهتمامات المشرّع الإسلامي منذ اللحظة التي نزل فيها أول نصّ ديني يتحدث عن قيمة التعلم.

وأوحى هذا الاهتمام ـ كما يبدو ـ لبعض الباحثين والمربين المسلمين المعاصرين بدراسة سيكولوجية «القيم» الإنسانية وفعاليتها وعلاقاتها بقضايا التربية والتوجيه والإرشاد والعلاج النفسي في الوقت الحاضر، وذلك لإثبات أنه يمكن دراسة علاقة القيم ببعض المتغيرات كالتعليم، والتوافق، والدفاع عن الأنا، والسلطة، ويمكن تجسيد الأهمية التطبيقية للقيم الإسلامية من خلال هذه الدراسات.

وبالتالي يمتد هذا الجهد مع المخزون الثقافي الضخم الذي تركه العلماء المسلمون على امتداد أربعة عشر قرناً متعاقباً من الزمان، ويتداخل مع إنتاجهم الفكري خلال التاريخ المذكور، فيقوى هذا الاتجاه نحو تأصيل «موضوع القيم» وضخ الدماء الجديدة فيها وتوظيفها في مجالات معرفية يحتاجها المجتمع المؤمن في عصر «قلق».

صحيح أنه ما يزال هذا الاتجاه الجديد في بداياته الاجتهادية، وهو أشبه بطفل لم يقف بعد على قدميه، لكن التراكمات المعرفية المتوقعة حاضراً ومستقبلاً سوف تتيح له النمو الطبيعي المأمول والوقوف بثبات، بحيث تتوسع في النهاية دائرة الاهتمام بموضوع القيم واستخدامها في مجالات ودوائر المعرفة الإسلامية الشاملة.

إن هذه الدراسة التي بين يديك تحاول أن تستفيد من هذا المخزون المعرفي ومن بعض الدراسات السيكولوجية التي اهتمت بموضوع القيم

الإنسانية بوجه عام وبالقيم الإسلامية خاصة، لكنها تحاول ما أمكنها الاعتماد على النصوص التربوية الإسلامية لإدراك الوظيفة التربوية للقيم وأهميتها في مجال العلاج النفسي وتعديل السلوك بالمفاهيم والممارسة العبادية، لأن «للقيم» والأخلاقيات مكانة كبيرة ورئيسية في محتوى النص التربوي الإسلامي. ولم يعد مقبولاً استمرار الغفلة لدى المثقفين وإهمالهم للخدمات التربوية التي تقدمها القيم الإسلامية خاصة بعد ظهور بوادر اتجاه علاجي جديد في المجتمع الغربي وفي أوساطه المعرفية يعتمد القوة الروحية للدين وقيمه الأخلاقية في تهذيب السلوك وتعديله ومساعدة الأفراد على حلّ مشكلاتهم النفسية والاجتماعية.

لقد نما هذا الاتجاه الجديد في أعقاب أزمة «أخلاقية» عميقة، إذ تخلى كثير من الناس عن القيم، وعزلوا أنفسهم عزلاً حاداً أحياناً عن عناصر الخير المستوحاة من القيم الإنسانية النبيلة والأصيلة، ولعل من النتائج الإيجابية لهذه الأزمة الأخلاقية التي تعيشها المجتمعات المعاصرة ظهور هذا التوجه الجديد لدى بعض علماء النفس والمعالجين النفسانيين وعلماء الاجتماع نحو القيم، إذ دفعتهم الفوضى الأخلاقية والأزمة الروحية إلى الدعوة إلى الإيمان بدور الدين وتفعيل قيمه الروحية والمعرفية والإدراكية والأخلاقية، وحملهم هذا التوجه إلى المطالبة بالاستفادة من القيم في معالجة اضطرابات السلوك ونزع فتيل «المحنة» الكأداء التي تكوي الكيان النفسي الإنساني في هذا الزمان الصعب.

وإذا كان المعالجون الغربيون يحسون بجدوى المعالجة التربوية للقيم، فإن علماء الأخلاق والعلاج النفسي والسلوكي المسلمين المحدثين أولى إيماناً بدور «القيم» في تقدم حركة التوجيه والإرشاد والعلاج النفسي بخاصة في مجتمع يقدر «قليلاً أو كثيراً» هذه القيم ويحترمها، لأنه ما يزال المجتمع

المسلم المعاصر يشعر حتى هذه اللحظة بدفء وحرارة القيم ويحس بالحاجة إليها بالرغم مما أصابها من تدهور، فما يزال الإنسان المسلم مستعداً للتجاوب مع أي اتجاه قيمي لتحقيق سعادته، واستعادة توازنه الداخلي المفقود في بعض جوانب الحياة.

ولا يستطيع الباحث الراصد لسيكولوجية الإنسان المسلم في عصرنا أن يتنكر لهذا الاستعداد الداخلي للتجاوب مع المخزون القيمي والأخلاقي الذي تمتلكه الأمة رغم أن بعض المسلمين شاركوا في بروز مظاهر هذه المحنة التي تعصف بمنظومة القيم الإنسانية، وأصبحوا جزءاً من الناس الذين تمردوا عليها، لكن مع ذلك نستطيع القول بأن المخزون القيمي والأخلاقي في فكر الأمة وتراثها العقائدي والسياسي يؤثر بدرجات متفاوتة في سيكولوجية غالبية المسلمين.

إن حركة العلاج النفسي الإسلامي في عصرنا تتأثر بالقيم الإسلامية التي أقرّها المشرّع التربوي الإسلامي في نصوصه التربوية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية، ولعل هذا أحد أسباب اهتمامنا بالقيم في هذا البحث، فالقيم الإنسانية بمختلف أشكالها وأنماطها تستخدم لإشباع حاجات يفتقر إليها الكائن الآدمي، وهي أحد مصادر الإلزام الأخلاقي ـ داخلياً وخارجياً ـ في حياته، حيث يتحدث الإنسان عن الحق والخير والزهد وغيرها من القيم، وبالتالي لها شأن في الحكم على الأشياء وتقويمها، خاصة وأن النصوص الدينية التي أوضحت هذه القيم مستمدة من خطاب الله عز وجل.

وهي لذلك تعتبر الفيصل في الحكم على الحلال والحرام، والمباح والمكروه، والحسن والقبح، وتحديد ما هو عصابي وما هو سوي، وبالتالي

تساعد على تقويم الأشياء بحسب نتائجها في الدنيا أو من حيث ما تعطيه للإنسان من حسن الأفعال أو قبحها.

إذن هي المعيار الموضوعي الفاصل بين أضداد السلوك، وهي أداة المعالج النفسي المسلم في الانتقاء والتمييز بين الأفعال والسمات المتقابلة.

إن القيم محددات عبادية لتوجيه سلوك الأفراد، وانتقاء واعٍ للسلوك المرغوب فيه، والمفضل بين عدة توجهات أو بين فعلين متضادين يقابل أحدهما الآخر كما أوضحت قائمتا الأضداد التي سنشير إليها في تضاعيف هذه الدراسة لاحقاً.

كما أنَّ القيم وسجايا الأخلاق الإسلامية قد أثرت المعالجة السيكولوجية في المفاهيم المعرفية، والأساليب، وتحديد السمات، وتصنيف السلوك بين سوي وعصابي، وبالتالي فإن حركة العلاج النفسي القائمة على روح «القيم» العبادية هي في الواقع حركة غنية بالمفاهيم والأساليب التربوية الوقائية والعلاجية والنمائية كما سيرى القارئ الكريم إن شاء الله في هذه الدراسة.

وتشهد القراءة المتأنية للنصوص التربوية الإسلامية بأن القيم الإسلامية طوت في داخلها أساليب علاجية متنوعة، ففي المحتوى المعرفي والتربوي الداخلي لهذه القيم نرى بروز أساليب علاجية كالعلاج السلوكي الذي يتوجه إلى حلّ مباشر واقعي للمشكلة دون التفتيش عن أسبابها، ودون الحاجة إلى البحث في ماضي الشخص، جاء في النصوص التربوية الإسلامية:

«إذا هبت أمراً فقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم من الوقوع فيه»[١] أو «مما تخاف منه».

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٤٢.

وفي نصّ آخر: «إنْ لم تكنْ حليماً.. فتحلم»[١].

وكذلك نجد في المضمون الفكري للقيم الإسلامية إشارات واضحة تصلح لاستخدامها في عمليات العلاج الإرشادي القائم على وعي «الأنا» وتبصرها الراشد للمشكلات، ونجد أيضاً أنماطاً علاجية أخرى كالعلاج «بالحب» والمشاركة الوجدانية، ومواقف اللعب، والعلاج بالعبادات الروحية، والعلاج بالدعاء، ونلحظ في باطن النصوص التي تعبر عن هذه «القيم» خطوطاً عامة واضحة.

ويلحظ كذلك أن القيم التي جاءت في قوائم تصنيف السلوك والسمات المتقابلة هي قوائم مترابطة يتفرع بعضها عن الآخر أو تتقابل فيما بينها في ترتيب متصل، وبتأمل هذه القوائم نرى أن هذه الحياة الإنسانية تستمد حركتها واتجاهها من قوة هذه القيم ومضمونها الإنساني، وتشارك كذلك في تحديد الأهداف النبيلة للتربية العبادية بشقيها الوقائي والعلاجي، ولذلك تحاول الشخصية المسلمة السوية أن تجاهد وتكافح من أجل تحقيق الأهداف العبادية العليا، ومن الصعب أن تنجح الذات المسلمة في تحقيق هذا الإنجاز إذا عجزت عن تأصيل «القيم» في عمقها الداخلي.

ولما كان منهج المعالجة السيكولوجية بالأضداد ـ وهو موضوع دراستنا ـ يعتمد على نصوص إسلامية تتضمن تأصيلاً للقيم، فإن وظيفة هذا المنهج المساهمة في تحقيق الأهداف العبادية المأمولة من خلال استثمار «القيم» بطريقة سوية وصحيحة واستخدامها في عملية الإرشاد ومساعدة الفرد المسلم على تفهم نفسه وتحليل شخصيته واستبصار مشكلته والتعرف على ميوله واستعداداته واتجاهاته ومشكلاته ونواحي القصور في ذاته.

---

(١) المصدر السابق، ص٥٠٦.

وهذه العملية الإرشادية والعلاجية التي يقوم بها منهج العلاج النفسي بالأضداد تمكن أفراد المجتمع المؤمن من:

١ ـ السيطرة على الدوافع والانفعالات وتنظيم إشباع الحاجات عند الأفراد.

٢ ـ حلّ مشكلة الصراع النفسي وإقامة توازن داخلي بين قوى الذات.

٣ ـ محو تدريجي لعادات السلوك الخاطئ وتكوين عادات حسنة متفقة مع المعايير العبادية المأمولة.

٤ ـ تنشيط وعي «الذات» بنفسها وترشيد علاقاتها مع الذات الأخرى.

٥ ـ اكتشاف مبادئ عامة موجّهة للسلوك وقوانين حاكمة تنتظم عليه حركة الكائن الآدمي، وذلك ما تستبطنه منظومة «القيم» وإعادة بناء الشخصية بطريقة المعالجة النفسية بالأضداد القائمة على تغيير ضد (رذيلة) في سلوك الذات بضد آخر.. أي (بفضيلة) من جنس الرذيلة وتناسبها سواء بمعاونة «معالج» نفسي أو دون حاجة إليه.

٦ ـ التعرف على أساليب تربية الذات المسلمة وتوجيه قواها.

إن منهج المعالجة بالأضداد الذي يركز على فعالية القيم يهتم بالحاجات والدوافع الإنسانية، والعادات، والسمات، والعقائد، والاتجاهات، والأساليب المستخدمة في تعديل السلوك، ودور الإرادة الإنسانية وخيريتها، ولهذا فإن لهذا المنهج صلة بالقيم التي هي في الواقع أشبه بقوانين وأحكام مهمتها توجيه الفعل في مسارات الخير وتحقيق الذات، حيث نحكم بمقتضى هذه القيم وما اشتملت عليه من أحكام على اهتمامات منهج الأضداد وأساليبه ومحتواه المعرفي.

ومن هنا حرصنا على الاهتمام ببحث صلة المنهج بالقيم ودورهما في تحقيق حالة معتدلة من الرضا والتوافق النفسي، لهذا يصعب الاستغناء عن «القيم» في أية محاولة جادة لبناء نظرية علاجية نفسية مستمدة من أفكار إسلامية تستبدل رذيلة بفضيلة، وسلوكاً خاطئاً بسلوك صحيح.

وبالرغم من سيادة الطابع الأخلاقي العام للقيم، إلاّ أن طريقة المعالجة النفسية بالأضداد ليست ذات طابع أخلاقي محض، لأن نسق القيم المتضمن في النصوص الإسلامية وقوائم تصنيف السلوك تمتاز بالشمولية والتنوع، فثمة قيم أخرى إدراكية (عقلية) ووجدانية وروحية واجتماعية كما نلحظ ذلك في قائمتي الأضداد اللتان سنشير لهما لاحقاً.

وكذلك تؤكد قوائم تصنيف السلوك الأخرى وجود قيم عصابية وسوية ذات طبيعة عقلية واجتماعية ووجدانية كاليقين والتصديق والعلم والرحمة والمعرفة والتفكر والألفة والرأفة والرفق والتؤدة، والحب والفرح والنشاط وغيرها، فهذه نماذج للقيم السوية التي تضاد قيم عصابية كالحقد والشك والفرقة والسهو والجهل والحمق والخرق والتسرع والقسوة والنسيان والعدوان والقذارة والقطيعة والحزن والكسل وغيرها.

لذلك فإن المعالجة النفسية بنظام الأضداد المرتكزة على نسق القيم ليست موجّهة نحو تحقيق أهداف أخلاقية محضة كما رأيت، لأن التنوع القيمي الخصب في النص التربوي الإسلامي يوجّه المعالج المسلم إلى التركيز في آن واحد على تحقيق قيم أخرى يعتبرها المشرّع التربوي الإسلامي جوانب مهمة في تكوين الشخصية الإنسانية، فلا تنمو الشخصية بصورة متكاملة أو أقرب إلى دائرة التكامل إلاّ بهذا التنوع القيمي.

وطالما أن النص التربوي الإسلامي يغطي السمات والقيم المتنوعة من

سمات إدراكية وقيم روحية أو اجتماعية وانفعالية، فإن منهج المعالجة النفسية بالأضداد الذي يأخذ بنظرية القيم ونسقها العبادي يمتاز هو الآخر بالتنوع والشمولية تمشياً مع شمولية النمو في الطبيعة البشرية، وبالتالي لا بدّ أن يراعي المعالج النفسي المسلم هذه الشمولية ويركز على تنمية خاصية «التكامل» في الشخصية الإنسانية في إطار عبادي وقيمي سوي من جهة، وينسف من جهة أخرى ما يضادها من القيم السلبية التي لا يريدها المنهج التربوي الإسلامي.

الفصل الثاني

منهج المعالجة النفسية بالأضداد
(مفهومه، أهدافه، أسسه)

كنا في التمهيد السابق الذي عرضناه في الفصل الأول قد ناقشنا بإيجاز وجهتي نظر مدرستين من مدارس حركة العلاج النفسي الحديث في المجتمع الغربي، وتعرفنا في مقارنة على بعض الخطوط العامة لمدرستي (التحليل النفسي الفرويدي) و(العلاج النفسي الواقعي بقيادة وليم جلاسر) كممثل عن المدرسة السلوكية.

وكما عرف القارئ الكريم فإنَّ المدرسة الأولى تمثل وجهة نظر مضادة للأديان والقيم والمثل والمبادئ الأخلاقية العليا لدى الإنسان، بينما تمثل المدرسة الثانية موقفاً فكرياً أكثر واقعية وتقدمية، فهي من جهة لم تتعرض للأديان بسوء ولم تتخذ منها موقفاً سلبياً مكشوفاً كما فعلت الفرويدية، كما أنه من جهة أخرى تمّ التقاء حركة العلاج النفسي الواقعي مع بعض الآراء العلاجية الصحيحة في الفكر التربوي والعلاجي الإسلامي.

وبعد هذا التمهيد سنتوقف الآن عند بعض المفاهيم والنقاط لاستكمال البحث والسير به خطوات أكثر عمقاً، كتحديد مفهوم المعالجة النفسية بطريقة الأضداد، وتحديد أهدافه، وأسسه المرجعية، والأساليب التربوية المساندة لخطواته، ومدى اهتمام علماء الأخلاق والسلوك والروحانيين المسلمين بهذا المنهج الفعَّال.

أولاً: مفهوم المعالجة النفسية بالأضداد:

إن الموضوع الرئيسي لهذا البحث هو الطريقة الإسلامية في معالجة رذائل النفس الإنسانية وسلوكها السلبي المخالف للأحكام الشرعية، وكذلك أمراضها السلوكية المختلفة بما يضادها من أنماط السلوك السوي بالمعايير العبادية والعلمية معاً، وسنحاول إن شاء الله تعالى أن نوضح قدر المستطاع المعنى العام لهذه الطريقة العلاجية.

يقصد بمنهج المعالجة النفسية بالأضداد مجموعة الخطوات والإجراءات العلمية والعملية التي يتبعها المربي والمعالج النفسي المسلم لعلاج مرضاه في ضوء المفاهيم والقيم والأحكام العبادية، وفي ضوء النتائج العلمية التي اتفق فيها علماء العلاج النفسي مع النسق المعرفي الإسلامي، والتي تؤدي في نهاية المطاف إلى تكوين استجابة سوية مضادة للسلوك الخاطئ بحيث يحتاج هذا السلوك إلى علاج أو تعديل للسلوك.

وترتكز عملية المعالجة النفسية بالأضداد التي يقوم بها المعالج أو المريض نفسه في حالة قيامه بعلاج ذاتي على نظام المقابلة الحدية أو الوسطية بين الصفات المتضادة (أضداد السلوك)، فينمي الفضائل والقيم العبادية والعادات الإسلامية السليمة ويمحق الرذائل والقيم العصابية والعادات السلبية الخاطئة عن طريق محو تعلم خاطئ سابق واعادة تعلم لاحق يتسم بالإيجابية وتأصيل من جديد للفضائل والقيم والسمات السوية المرغوبة شرعاً وعقلاً.

فالنفس البخيلة تتخلص من بخلها وشحّها عن طريق تدريبها العملي المستمر على البذل والإنفاق، وتعالج النفس المفرطة في شهواتها بأساليب العفة والقدرة على ضبط الشهوة والتحكم فيها، ويعالج المربي المسلم

النزعات الأنانية في سلوك النفس البشرية بما يضادها من صفة الإيثار والتنكر للذات ووأد الذات وتنمية الشعور بالغير.

أما النفس المزهوة المعتدة المتعالية فيحاول منهج المعالجة النفسية بالأضداد إعادة تعليمها بسمات التواضع وتقبل الآخرين والإيمان بوجودهم واحترامهم وتعويدهم على الصدق في التعامل معهم، ويستنهض المعالج النفسي المسلم بطريقة الأضداد كل كسل في النفس وإزالته بمزيد من العمل والحركة والنشاط الإيجابي المنتج.

ويمكن أن تعتاد النفس الغضوب مواقف التحلُّم والصمت وضبط النفس والسيطرة عليها من الداخل أثناء لحظات الاستثارة الانفعالية عن طريق التدريب المتواصل حتى يتحول الحلم بالتدريج إلى صفة أصيلة لا تنفك عن الذات أو الشخصية، ويتحول الخوف إلى أمن وطمأنينة، والكره إلى حب، والكذب إلى أمانة.

وهكذا يتحول سلوك الفرد المسلم بجهده الخاص أو بمعونة معالج نفسي مسلم رشيد إلى السلوك القويم المرغوب فيه، ويصحح كل خطأ في التفكير أو الوجدان والمشاعر بما يضاده حتى تصل النفس إلى درجة مقبولة من الاستقامة والسواء والاعتدال في التفكير والممارسة، وذلك عن طريق علاج كل رذيلة بفضيلة من جنسها.

وقد أشار الدكتور مصطفى محمود إلى مفهوم هذا المنهج في مقدمة كتاب «نحو علم نفس إسلامي» لمؤلفه د حسن الشرقاوي فقال في معرض حديثه عن مراحل تعديل السلوك وفق وجهة نظر الدين الإسلامي: «والمرحلة الثالثة هي مجاهدة النفس المريضة بأضدادها وذلك برياضة النفس الشحيحة على الإنفاق، وإكراه النفس الشهوانية على التعفف، ودفع النفس

الأنانية إلى البذل والتضحية، وحثّ النفس المختالة المزهوة على التواضع والانكسار واستنهاض النفس الكسولة إلى العمل. . . . وبمجاهدة الضد بالضد تصل النفس إلى العدل الوسط. . وهو صراط الحكمة، وهو حظ الكاملين من البشر».

كما كتب أيضاً عن الفكرة الرئيسية لمنهج العلاج النفسي بالأضداد ومفهومه العام في كتابه «أسرار القرآن»، أما الدكتور حسن الشرقاوي فبحث هذا المفهوم في عنوان مستقل من كتابه المذكور باسم «العلاج بالأضداد»[١]، وتناول بعض أفكاره في الكتاب هنا وهناك.

إن المعالجة الإسلامية للنفس بطريقة الأضداد تمثل حركة تغيّر دائمة ومتتابعة في الوعي، والإرادة، والسلوك، وهي أيضاً عملية تعلم مستمر يهدف إلى تكوين عادات جديدة بديلة عن العادات الخاطئة التي يسعى الفرد ـ معالجاً ومريضاً ـ للتخلص منها وإزالة آثارها بحيث تكون العادات الجديدة متطابقة مع وجهة نظر المشرّع التربوي الإسلامي أو متقاربة معها على أقل تقدير.

ومنهج العلاج النفسي بطريقة الأضداد أحد طريقين يمكن من خلالهما التعرف على الأشياء بشكل عام: الطريق الأول هو الذي يصف الأشياء من خلال أضدادها. . . فنحن نعرف الأبيض لأنه غير أسود، ونصف الرجل بأنه ليس طفلاً. . وبهذا المعنى يكون السلوك الشاذ. . ما هو ليس بسليم أو بسوي. . ونحن نحتاج هنا أيضاً لأن نتفق على أوصاف محددة لما نعتبره سليماً وصحيحاً في الحياة.

(١) انظر صفحات الكتاب المذكور أعلاه، ص٢١٧ ـ ٢٢٢.

أما الطريق الآخر فهو تعريف الأشياء بالنظر إليها من الداخل.. من خلال وصف متعلقاتها الأساسية، فنحن لا نكتفي بأن نصف الرجل بأنه ليس طفلاً كما في المدخل الأول، بل علينا أن نصف ما يتعلق بسلوك الرجل من نضوج انفعالي وقدرة على استخدام اللغة، والاستقلال والقدرة على الضبط الحركي والمشي.. إلى غير ذلك، وفي هذه الحالة يجب التعرف على السلوك الشاذ من خلال وصف أنواع معينة من السلوك «تكون غالبية الناس مستعدة للموافقة على أنها سلوك مضطرب أو شاذ»[1].

ومن المؤكد أن البرنامج العلاجي لهذا المنهج يوظف جميع الأنشطة العبادية لتحقيق مستوى مقبول من التوافق النفسي الاجتماعي للفرد، وسوف نتعرف في مواضع أخرى من البحث أو الدراسة على كيفية توظيف هذه الأنشطة في عملية تغيير السلوك وتعديله كالدعاء والحوار الثنائي والجماعي والتفاعل مع الجماعات الإنسانية المختلفة وأشكال العبادات الروحية اليومية وغيرها.

ثانياً: أهداف نظام المعالجة بالأضداد:

لا تختلف أهداف المعالجة النفسية بهذا المنهج عن مقاصد النظرية الإسلامية كلها، فالعلاج النفسي وتعديل السلوك ومحو العادات الخاطئة جزء من الإسلام كتشريع متكامل، وبذلك فإن المعالج المسلم لا يسعى إلى بلوغ هدف قريب فحسب كاستعادة التوازن النفسي المفقود، والسعي فقط إلى تحقيق مستويات معقولة من النضج والتوافق النفسي والعقلي والاجتماعي، بالرغم أن هذا الهدف الحيوي المهم هو قمة ما يبتغيه المعالج النفسي الوضعي من برنامجه العلاجي.

---

(١) د.عبد الستار إبراهيم، العلاج النفسي الحديث قوة للإنسان، ص٣٣ ـ ٣٤.

إن المريض المسلم والمعالج المسلم لا يستهدفان من جهدهما أبداً الوقوف عند حدّ تحقيق التوافق والرضا النفسي بالمعنى الدنيوي، بل ينطلق كل منهما إلى قمة الأهداف والغايات، وهو نيل الرضا الإلهي ورضا الله سبحانه وتعالى، فتحقيق التوافق السوي للذات هو دائماً نقطة البداية في برنامج العلاج النفسي الوضعي، فلا يطلب المعالج أو المريض سوى السعي إلى التخلص من عادات السلوك السيئة أو التغلب على المشكلات الكأداء التي تواجهه، ثم متابعة حياته التوافقية الجديدة بعد فترة العلاج، ولا يعنيه أبداً رضا الله إلاّ إذا كان مسلماً.

ويتناغم هذا الهدف مع الاتجاه العقائدي لمناهج العلاج النفسي الأرضي التي تقوم على نزعة علمانية بعيدة كل البعد عن تعاليم السماء وتوجيهاتها الروحية والمعرفية والأخلاقية، فهذا الاتجاه يرى أن ربط أي سلوك بالله عز وجل يعد عنصراً خطيراً يفسد جو البحث العلمي للدراسة أو المعالجة.

ولحسن الحظ فإن حدة العلمانية المتطرفة بدأت تضعف في مجال المعرفة السيكولوجية والعلاج النفسي بعد ظهور حركة العلاج الديني في الغرب، إذ أخذت هذه الحركة عند الغربيين أنفسهم تتجه في السنوات الأخيرة من القرن العشرين إلى استثمار قيم التدين في حلّ أزمات الشخصية الإنسانية ومعالجة أمراضها المتنوعة.

فأشار فيكتور استايكل فرانكل وفروم وغيرهما إلى ضرورة اعتماد المفاهيم الدينية والأخلاقية في ميدان العلاج النفسي، أو الاستفادة منها في توجيه الجهد في هذا الميدان.

أما نظام المعالجة الإسلامي فيتجاوز الأهداف القريبة، ويشدد على أن

التوافق نفسه الذي تحصل عليه الذات من خلال عمليات العلاج إنما هو وسيلة لغاية أبعد هي كما قلنا رضا الله تعالى، ومن هنا فإن المعالج والمريض معاً أو كليهما لا يشعران بالراحة النفسية إذا لم يحققا تلك الغاية، وهذا أمر ممكن لأن النوايا قد تتداخل فيحبط أجر العمل، فمثلاً قد يقصد المعالج كسب الشهرة أو الحصول على مبلغ معين من المال أو التحرك في إطار هدف دنيوي معين يكون بعيداً ـ كل البعد ـ عن رضا الله عز وجل، فيستحق إحباط أجره.

وما قلناه عن أهمية توجيه عنصر القصد في عمل المعالج يمكن قوله أيضاً في سعي المريض لمداواة نفسه بالرغم من مرارة المرض الذي يجثم على نفسه، فإذا كان المريض الذي افتقد الثقة في نفسه أو يريد المعالج تدريبه على التواضع لمحو إحساسه المرضي بالتكبر أو تدريبه على البذل والإنفاق مثلاً لأنه يعاني من بخل شديد، فإن العلاج النفسي الأرضي قد يساعده على الوصول إلى مبتغاه أو طلبه، لكن المريض المسلم لا يريد أن يجعل من ذاته محوراً لأفعاله، إنه لا يريد ـ مثلاً ـ أن يتعلم عادة الإنفاق بقصد تخليص نفسه من ضغط عادة البخل فحسب أو كسب شهرة بين الناس أو تحقيق الرضا الاجتماعي وينتهي الأمر، وإنما يستهدف بإخلاص القيام بفعل عبادي حتى وهو في مرحلة العلاج، ويرنو إلى تحقيق رضا الله تعالى.

كما أن المعالج النفسي المسلم يساعده على تكوين اتجاه إيجابي من عملية التخلص من عادة البخل أو غيرها بربط عملية العلاج نفسها بالسعي إلى الرضا الإلهي، ولذلك لا يلتفتان فقط إلى النتائج والمعطيات العاجلة في الدنيا.

إن منهج المعالجة النفسية الإسلامية يمسك بخيط التوازن في الذات ـ سوية أو مريضة ـ فلا يحثّه على عمل شيء رياءً، ولا يطلب منه أن يدعه حياءً، عملاً بالحديث الشريف:

«لا تعمل شيئاً من الخير رئاءً، ولا تدعه حياءً»[١].

وخلاصة الأمر أن الهدف القريب المباشر لدى المريض والمعالج هو تحقيق الشفاء النفسي للفرد، وهو هدف دنيوي يقرّه المشرّع التربوي الإسلامي بكل تأكيد، ولكن ليس معزولاً عن الهدف العبادي الكبير وهو رضا الله سبحانه.. أي رغبة الفرد المسلم في تحقيق الرضا الإلهي عنه.

ويمكن صياغة الهدفين السابقين كما يلي:

١ ـ يتمّ تحقيق الهدف الأول الكبير والأساسي من خلال علاقة رأسية أو عمودية يتمّ فيها تنمية الصلة الروحية بالله وإقامة صلح عبادي خال من الشوائب والرياء كما جاء في النصوص التربوية الإسلامية، بيد أن تحقيق الهدف الثاني مرتبط بالهدف الأول، فإذا نجح الفرد المسلم في تعديل سلوكه أوإصلاح علاقاته مع الله عز وجل تمكن من إصلاح حاله مع نفسه من جهة، وإصلاح حاله أيضاً مع الجماعة التي يعيش معها.

يقول الإمام علي عليه السلام: «من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله له أمر دنياه، ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ»[٢].

ويقول في نصّ آخر: «من أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن

(١) تحف العقول، ص٤٧.
(٢) نهج البلاغة، ج٤، ص٢٠.

عمل لدينه كفاه أمر دنياه، ومن أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس»[١].

وهناك نصّ آخر يدعو إلى الطاعة الجادة لله تعالى واستثمار إمكانات الذات وتطويعها في خدمة الله عز وجل ولنقرأ النص العبادي التالي:

«إذا قويت فاقو على طاعة الله، وإذا ضعفت فاضعف عن معصية الله»[٢].

٢ ـ يتمّ تحقيق الهدف الثاني في البرنامج العلاجي العبادي الإسلامي من خلال علاقة أفقية يتمّ فيها تحقيق قدر معقول من التوافق النفسي للفرد مع ذاته وقدر سوي من التكيف الاجتماعي مع الجماعة المحيطة به والتي يتعامل معها، وهذا الهدف هو شاهد إثبات على نجاح الفرد المسلم في تحقيق الهدف الأول المتقدم الذكر.

ثالثاً: الأسس المرجعية لنظام المعالجة النفسية بالأضداد:

قدم الإسلام نظرة متكاملة عن شخصية الإنسان، وارتكزت هذه النظرة على المفاهيم المعرفية على المستوى النظري والعملي، كما قدم الإسلام نظريته في العلاج النفسي التي استندت على تلك المفاهيم كمرجعية معرفية وتطبيقية.

وفي ضوء هذه المفاهيم نشتق الأسس المرجعية لنظرية المشرّع التربوي الإسلامي في العلاج النفسي الموجّه بالمعايير العبادية، إذ تقوم ديناميات العلاج النفسي على الأسس المرجعية التالية:

---

(١) المصدر السابق، ص٩٩.
(٢) المصدر السابق، ص٩٢.

١ ـ الإيمان الروحي بالله:

يحدد الأساس السابق الإطار المرجعي لديناميات العلاج النفسي، ويحدد له موقفه وحركته في الدنيا لجعل الحياة في نظر الإنسان ذات معنى، فهذا الكائن لا يكتمل وجوده إلاّ بالإيمان الديني، ومتى فقد إيمانه بالله تعالى ضل ضلالاً مبيناً، وقال الله تعالى في القرآن المجيد:
﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1].

كما حدد الإيمان الديني بالله سبحانه وتعالى الوظيفة العبادية للإنسان بوضوح تام لا لبس فيه، وذلك في الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

٢ ـ قيمة الإنسان وتقديره كمستخلف في الأرض:

ينظر الإسلام للإنسان على أنه كائن عاقل ومريد متميز يمكنه التمييز بين الخير والشر، بين الحق والباطل، وقادر على السيطرة على ذاته وجهادها وتزكيتها في ضوء التوجيهات العبادية الإسلامية، وإدراك أن غاية وجوده هي عبادة الخالق وعمارة الكون.

كما ينظر الإسلام للإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً حراً يعيش في بيئة أخلاقية وثقافية واجتماعية ودينية تؤكد على نسيج العلاقات النقية النظيفة وقيمها التعاونية بين الأفراد، وجعل هذه البيئة وقائية من جهة وعلاجية من جهة أخرى.

٣ ـ دور الخبرة الإنسانية:

يرتكز الإطار المرجعي للعلاج النفسي على دور العقل في تكوين

---

(١) سورة طه، ١٢٤.
(٢) سورة الذاريات، ٥٦.

الخبرة الإنسانية وتوجيه فعاليتها والإحساس لدى الذات بالوجود كله إنسانياً ومادياً، وتؤدي هذه الخبرة ـ خاصة خبرة المعالج في العملية العلاجية ـ دوراً كبيراً في تعميق الإيمان بالله في ذهنية الإنسان والتسامي بالعلاقات بين أفراد المجموعات البشرية وتزكية النفس البشرية من خلال وضع برنامج تعليمي لتوجيه الإنسان في سلوكه وقائياً وعلاجياً.

وتقوم ديناميات العلاج النفسي لدى المشرّع الإسلامي على إطار الطاقة المعرفية والروحية التي يوفّرها الإسلام للإنسان، والخبرة الإيمانية المنسقة في منهج متكامل من المبادئ والأصول والأساليب والوسائل وآليات العمل.

وهذا المنهج يمدّ الفرد بطاقة معرفية وروحية تدعم النواحي الإيمانية في شخصية الإنسان، ويمدّها بالقدرة على إحداث تغيير جذري أو جزئي في أفكاره واتجاهاته، وفي وعيه، وموقفه من الذات، والإنسان الآخر، والوجود المادي، ويوفر له هذا التغيير إمكانية تعديل سلوكه مع ربه ومع الآخرين ومع ذاته.

٤ ـ فهم وتقدير واقعي لإمكانات الذات الإنسانية:

يقوم الإطار المرجعي لنظام المعالجة النفسية الإسلامي على مبدأ الاعتراف بوجود حاجات لدى الإنسان وحل مشكلاته، وتقدير واقعي لإمكانات الذات البشرية كما هي على فطرتها.

رابعاً: خصائص العلاج النفسي بالأضداد:

ترتبط خصائص هذا النوع من العلاج بخصائص أساسية في التشريع الإسلامي بأسره، فنظام المعالجة بالأضداد جزء أساسي من منهج الله الموجّه لعباده في أرضه، ويريد المشرّع التربوي الإسلامي أن تتصف جميع

أنظمته التشريعية في مختلف جوانبها بخصائص معينة تجعله ربانياً وعبادياً، وأن تتساند هذه الأنظمة معاً في اتجاه واحد لتكوين الذات الإنسانية العابدة لله.

وبالتأكيد فإن الخصائص العامة للتشريع الإسلامي تنطبق كذلك على نظامه العلاجي للنفس البشرية وتعديل سلوك الإنسان، وهذه الخصائص تجعله متميزاً.

ومن هذه المزايا والخصائص ما يلي:

١ ـ أن نظام المعالجة النفسية بطريقة الأضداد علم إيماني يؤسس في سيكولوجية الأفراد وعقولهم إيماناً صحيحاً بالله وبرسله وملائكته وكتبه السماوية المنزلة، فهذا النظام يستهدف غرس مبادئ الإيمان الديني في عقل الإنسان وقلبه وعواطفه، وتأصيل هذا الأساس العقائدي المرجعي وترسيخه في كيان الذات الإنسانية.

٢ ـ كما أن هذا النظام العلاجي يقوم على التوازن لا يغلب جانباً على جانب آخر كما يفعل الغرب حين يهتم بالمادة وتقديس مبالغ فيه بها، بينما يتنكر بتطرف للجوانب الروحانية، ويهمل الاستفادة منها، وبذلك يفرط المعالج النفسي الغربي بمبدأ التوازن بين الروحانيات والماديات.

وغرض الإسلام في معالجة السلوك بطريقة الأضداد الاهتمام بمكونات الذات البشرية بدون استثناء (المادة والروح والعقل) احتراماً منه لمبدأ التوازن الذي تنتظم عليه حركة الكيان الإنساني، وسوف نجد في ثنايا هذه الدراسة عناية المشرّع التربوي الإسلامي بإشباع متعدد للحاجات الإنسانية دون انحياز لبعضها ضد البعض الآخر.

٣ ـ أن تقام المعالجة بنظام أو طريقة الأضداد بأسلوب عقلاني، فهذا

النظام لا يركن إلى الخرافة ولا يسمح بالشعوذة والدجل، وإنَّما يخاطب عقل الإنسان وتفكيره بالعلم والمعرفة السليمة معتمداً على الأدلة والإقناع والتبصر في مظاهر الكون ومشاهد الوجود من معجزات الله تعالى في خلقه وآياته في الطبيعة والمجتمع والنفس الإنسانية.

٤ ـ يمتاز التشريع العلاجي لطريقة الأضداد في سياقها العبادي بالنظرة الشمولية التكاملية خلافاً للنظرة الجزئية التي سادت في فكر بعض مدارس العلاج النفسي الغربي واتجاهاته خاصة المدرسة الفرويدية.

فالذات الإنسانية ليست في نظر منهج العلاج الإسلامي بالأضداد كياناً مفككاً، بل هي كل موحد يتكون من أجزاء مترابطة يؤثر بعضها في البعض الآخر، وهذه الأجزاء هي:

أ ـ الجسم.

ب ـ النفس.

ج ـ العقل.

كما أن التشريع الإسلامي لا يعتمد في تفسيره للسلوك الإنساني على أساس التأثير البيئي وحده كما يذهب إلى ذلك السلوكيون، ولا على أساس إيمانه الكامل بدور الفطرة وحدها، وإنَّما يؤكد هذا المنهج في تشكيل السلوك الإنساني على تأثير متبادل بين عوامل الفطرة والبيئة (بمختلف مظاهرها وأشكالها) والعقائد والأديان المتعددة الرأي والاتجاهات، فهذه العوامل تؤثر مجتمعة في تكوين السلوك سواء كان خاطئاً أو صحيحاً، سوياً أو مرضياً.

٥ ـ نعتقد كذلك أن منهج العلاج القائم على تعديل السلوك الإنساني من ضد سلبي (أو عادة سيئة مثلاً) إلى ضده الإيجابي (أي عادة حسنة) هو

نظام سيكولوجي يقوم على القيم والأخلاق في جوهره وفي وجهته وأهدافه وغاياته.

فهذا المنهج يهتم ـ كما سترى لاحقاً ـ بغرس المبادئ والفضائل السلوكية السليمة في الأفراد والجماعات، وبذلك تتميز طريقة العلاج النفسي بالأضداد بأنها نظام قيمي وأخلاقي دليل على احترامه للأديان والأخلاق الإنسانية، واعترافه بفعالية القيم في توجيه السلوك كما أكّدنا ذلك في الفصل الأول، وكما سيتضح في ثنايا الدراسة لاحقاً.

٦ ـ وأيضاً يتميز العلاج النفسي بطريقة الأضداد بخاصة حيوية ومهمة مستمدة من نظرة الإسلام الواقعية، وهي أن منهج المعالجة بالأضداد نظام منفتح على الخبرات الإنسانية المتعددة من أجل أن يصقل خبرات المعالج النفسي المسلم من جهة، ويستثمر ـ من جهة أخرى ـ أية خبرة ناضجة وصحيحة في تعديل سلوك الأفراد ومعالجة حالات من الأمراض النفسية.

وبالرغم من خصوبة النظرة العلاجية الإسلامية في التعامل الإيجابي مع الإنسان، إلاّ أن نصوص المشرّع التربوي الإسلامي تدعو على نحو واضح إلى الانفتاح على خبرات الآخرين والإفادة منها في تحقيق الأهداف العبادية المحددة سواء بالنسبة للمعالج أو للمريض معاً.

إن العقل الإنساني طاقة إلهية مبدعة، ويمكن لهذا العقل ـ بنقائه الفطري ـ أن ينجح في توليد أفكار وآراء جديدة أو اكتشاف آليات عمل علاجية فعالة كما رأينا في النواحي المشتركة التي التقت فيها اجتهادات المعالج النفسي الواقعي (جلاسر مثالاً) مع بعض أفكار وآراء النظام العلاجي في التشريع المعرفي الإسلامي.

وهذا الانفتاح الذي يتيحه التشريع التربوي والعلاجي الإسلامي يجسد

حالة المرونة والأخذ والعطاء مع الخبرات الإنسانية مع المحافظة على الثوابت التشريعية العامة للمشرع الإسلامي، فالحكمة ضالة المؤمن كما يقول الحديث الشريف.

وقال الإمام علي مبيّناً دور الحوار في معرفة الحقائق: «اضرب بعض الرأي ببعضه يتولد منه الصواب»[١].

فإذا كان المعالج النفسي المسلم يريد الوصول إلى تعديل سلوك مرضي بسلوك إيجابي مضاد فإنه لا يتجمد عند وسيلة أو آلية عمل محددة، بل يحشد كل الوسائل والإمكانات المتاحة لديه، ويتيح التشريع التربوي الإسلامي للمعالج الاستعانة بأية خبرة إيجابية يمكن أن تساعد على تحقيق الهدف العلاجي المطلوب.

مثلاً يقول نصّ كريم: «ما أهمني ذنب أمهلت بعده حتى أصلي ركعتين»[٢].

ويقول نصّ آخر: «الق عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين»[٣].

فهذان النصان يحددان الصلاة والصبر آليتين علاجيتين للتغلب على الهموم التي تداهم قلب الإنسان، لكن مع ذلك لا يقبل المشرّع التربوي الإسلامي الجمود عندهما، ولكنه بكل تأكيد يشجع المعالج والمريض على الانفتاح على وسائل علاجية أخرى تمكنهما من تعديل السلوك حتى لو كانت هذه الوسيلة أو تلك الفكرة انطلقت من عقل إنسان غير مسلم طالما

---

(١) ميزان الحكمة ج٤ ص٣٦.
(٢) نهج البلاغة، ج٤، ص٧٢.
(٣) ميزان الحكمة، ج٢، ص٣٩٤، كذلك كتاب غرر الحكم ودرر الكلم، ج١ ص١٣١.

أنها تسمح بتعديل السلوك دون أن تصطدم بالثوابت الإيمانية والأخلاقية والفكرية التي يؤمن بها نظام العلاج النفسي الإسلامي.

فيمكن أن يقوم المعالج النفسي المسلم بتنظيم جلسة علاجية عن العلاج الذاتي استخدمها مثلاً المعالج الأمريكي وليام جلاسر أو معالج آخر، فالنص الإسلامي دعا إلى استخدام المحاسبة والمراقبة الذاتية للسلوك لكنه لم يطالب الفرد المسلم ـ معالجاً ومريضاً ـ بصيغة محددة ثابتة وجامدة لا تتغير على مدى الأيام والدهور، بل ترك للعقل البشري حرية التفكر وحق البحث عن الصيغ المناسبة للعلاج ولحالة المريض النفسي.

تقول نصوص القرآن الكريم وآياته المباركة:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾[١].

﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[٢].

ويقول الإمام علي عليه السلام:

«على العاقل أن يحصي على نفسه عيوبه في الدين والرأي والأخلاق والأدب، فيجمع ذلك في صدره أو في كتاب، ويعمل على إزالتها»[٣].

ـ ويقول الإمام علي عليه السلام: «من حاسب نفسه وقف على عيوبه، وأحاط بذنوبه، فاستقال الذنوب وأصلح العيوب»[٤].

وهكذا يجعل التشريع الإسلامي أبوابه مشرعة أمام المعالجين والمرضى وكل الناس على حدّ سواء للاستفادة من جهود الآخرين، كما

(١) سورة الروم، ٨.
(٢) سورة المائدة، ١٠٥.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ج٢ ص٢٩، وكتاب الطفل بين الوراثة والتربية، ج٢، ص٤٣٤.
(٤) المصدر السابق، ص٤٣٤.

يسمح لهم بإعطاء الآخرين خبراتهم مع الاحتفاظ بالثوابت الإنسانية (الوقائية والعلاجية) لنظام العلاج النفسي الإسلامي.

خامساً: الأساليب العلاجية المساندة لطريقة الأضداد:

يقرأ الباحث وجهة نظر المشرّع التربوي الإسلامي في نشأة أمراض النفس وتكوين عادات السلوك الخاطئ من خلال نصوصه الكثيرة المتعددة والمبثوثة في مصادر التشريع التربوي الإسلامي.

إن أمراض السلوك أو عاداته العصابية (غير التوافقية) تتكون في وجهة النظر الدينية الإسلامية من طريقين:

١ ـ إن الإنسان يخطئ في الالتزام بالضوابط والأحكام العبادية فيرتكب الفعل المحرم من وجهة النظر الدينية، فيقع بعد ذلك في صراع نفسي بين الفعل المحرم والشعور بالذنب أو الاستياء النفسي الناجم من هذه الممارسة المحرمة، فيظل المرء في عذاب الضمير.

٢ ـ إن الأفعال المحرمة أو العادات السلوكية المريضة أو الخاطئة تتكون ـ كالأفعال العبادية الحسنة ـ تدريجياً عن طريق تعرض الفرد سواء كان مسلماً أو غير مسلم لأساليب تربوية خاطئة كالتدليل الزائد عن الحد المعقول أو الحرمان الشديد أو القسوة المرضية أو التذبذب في المعاملة الاجتماعية والتربوية وغيرها.

وهذه الأساليب جميعاً أفعال «خاطئة» من وجهة النظر الدينية، وهي في الوقت نفسه عوامل وأسباب فعالة تؤدي إلى إحساس الفرد بالإحباط ثم وقوعه في براثن المرض النفسي، أو على الأقل تدفعه لممارسة عادات خاطئة في التفكير والممارسة.

وهكذا فإن المشرّع التربوي الإسلامي يرى المرض النفسي وما يترتب

عنه من عادات سلوكية غير صحيحة مجرد عادات متعلمة تمّ اكتسابها بأساليب مرضية وغير سوية، ويمكن تعديلها بواسطة اكتساب سوي لعادات سوية وصحيحة، وهنا تلتقي آراء المعالج النفسي الواقعي تماماً ـ في هذه المسألة ـ مع وجهة نظر المشرّع الإسلامي.

وعلى ضوء ذلك فإن المشرّع التربوي الإسلامي عرض على المربي المسلم والمعالج النفسي المسلم الاستعانة بأساليب توافقية وتربوية سليمة، وترك لهما حرية استخدام الأساليب المناسبة وقائياً وعلاجياً وإنمائياً، وبذلك فإن المربي أو المعالج المسلم أو المرشد النفسي المسلم لا يمكنهم تربية الأفراد أو تعديل أفكارهم واتجاهاتهم وسلوكهم أو تعلم عادات جديدة من أنماط السلوك العبادي السوي وفق طريقة الأضداد إلاّ باستخدام أحد هذه الأساليب أو بعضها أو جميعها مراعياً ظروف كل حالة مرضية على حدة.

ومن هنا يمكن للمعالج النفسي المسلم استخدام هذه الأساليب، والبدء أولاً بتصحيح الاعتقاد أو تعديل الأفكار لدى مرضاه أو تعديل السلوك عند الأفراد الذين يعانون من مشكلات سلوكية ناجمة عن ممارستهم لأفعال محرمة أو عادات خاطئة من وجهة النظر الدينية الإسلامية خاصة وأن طريقة الأضداد كنظام علاجي إسلامي مبثوثة في ثنايا هذه الأساليب ومتداخلة معها في جوانبها المعرفية أو الوجدانية أو الحركية.

ويمكننا الآن انتقاء بعض الأساليب التي يحقق بها منهج العلاج النفسي بالأضداد أهدافه ونتائجه في بناء السلوك العبادي الحسن وإزالة السلوك الخاطئ المخالف لوجهة نظر المشرّع التربوي الإسلامي.

ومن هذه الأساليب على سبيل المثال فقط:

١ ـ الدعاء.

٢ ـ الترويح واللعب.

٣ ـ الحوار بمختلف أشكاله.

٤ ـ النقد والنقد الذاتي (محاسبة الذات) على أعمالها.

٥ ـ المواعظ وإسداء النصائح (الجانب الإرشادي).

٦ ـ الاستعاذة.

٧ ـ الترغيب والترهيب.

٨ ـ التربية بضرب الأمثال.

٩ ـ التعلم بالممارسة والعمل.

١٠ ـ أسلوب المقابلة بين الأشياء.

١١ ـ الصبر.

١٢ ـ العبادات بمختلف أشكالها.

١٣ ـ التأمل والتدبر في نتائج السلوك السلبية والإيجابية.

١٤ ـ التكرار.

١٥ ـ استخدام أسلوب استخدام توجيه الأسئلة.

١٦ ـ الاندماج في وسط بيئة مؤمنة (تغيير البيئة النفسية بالعيش مع رفاق من جماعة مؤمنة).

١٧ ـ تغيير البيئة النفسية عن طريق تصحيح الاعتقاد الفكري (أي تكوين وجهة نظر إيجابية عن الآخرين من داخل النفس) مثلاً يقول الإمام علي عليه السلام: «احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك»[١].

١٨ ـ التربية بالعبرة والعظات التاريخية.

١٩ ـ التحسين الوراثي للنسل.

إن هذه الأساليب تتساند جميعاً أو يتعاضد البعض منها في خدمة الأهداف العبادية التي يسعى المعالج النفسي أو المربي المسلم إلى تحقيقها

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٤٢.

والوصول إليها، وعلى المعالج أو المربي انتقاء ما يناسب جهده وأغراضه العلاجية والتربوية.

ولكن كيف يمكن لهذه الأساليب خدمة أهداف منهج المعالجة بالأضداد؟

سنأخذ من هذه الأساليب العلاجية نماذج ثلاثة لمعرفة كيف تخدم هذه الأساليب أهداف العلاج النفسي الإسلامي، وتؤدي إلى تكوين استجابات وعادات سوية ومضادة للسلوك والأفكار والمشاعر المنحرفة المألوفة التي يريد الفرد تغييرها واستبدالها بالسلوك الحسن المتفق مع معايير النظرية العبادية والتربوية الإسلامية.

وهذه الأساليب الثلاثة هي:

- أسلوب الدعاء.
- أسلوب الحوار.
- أسلوب العبادة.

أ ـ الدعاء وفعاليته في مساندة أهداف العلاج النفسي:

الدعاء أسلوب روحي قديم عرفته الأديان السماوية وامتازت به عن كل الشرائع الإنسانية الوضعية، لكن بعض الاتجاهات العلاجية في علم النفس أخذت تميل إليه في المعالجة النفسية، وحل مشكلات الأفراد النفسية، والاستعانة به في رسم طريقة الشفاء لهم.

إن الدعاء أسلوب فعال للترويح عن النفس، وصيغة بديلة عن صيغة الترويح المنحرف، وطريقة لتحليل شخصية الفرد، وتحليل المجتمع وكشف

الأمراض السائدة فيه، ومن ثم الانطلاقة التربوية لإعادة تشكيل شخصية الإنسان في إطار المنهج الرباني القويم[١].

أمر الأدعية في النص القرآني والأحاديث النبوية ثابت لا جدل فيه، وقد ورد تأكيد على أهميتها وفعاليتها في تحقيق الأهداف العبادية للمشرع التربوي الإسلامي، كما أن القرآن والسنة قدما صياغات من الأدعية المتعددة التي تستهدف المساهمة في تربية الذات المسلمة أو صياغتها من جديد إذا تطلب الأمر ذلك، كما أشاد بالوظيفة التربوية والنفسية والترويحية بعض العلماء والباحثين أمثال الطبيب والمفكر الفرنسي ألكسيس كارليل[٢].

ومن الصعب بالتأكيد متابعة الآثار الإيجابية للأدعية الدينية بهذه العجالة، فالأمر يحتاج إلى دراسة مطولة ومستقلة، ولهذا سنشير على عجل إلى عدد من هذه الآثار.

١ ـ إن «الأدعية» تقدم للإنسان مادة تعليمية مصدرها صادق وصحيح تحدد وجهة النظر الإسلامية في قضايا هامة كالألوهية وغيرها من المسائل الاعتقادية الأخرى المتصلة التي تشكل جوهر العقيدة الدينية في قضاياها الكبرى، وهي في الوقت نفسه تقف من الشرك والكفر موقفاً مضاداً من اجل صياغة مرجعية عقائدية سليمة للشخصية المسلمة تنتظم عليها في حركة الحياة.

٢ ـ كما للأدعية دوراً فاعلاً في التربية النفسية (وقائية وعلاجية) على حدّ سواء، فهي مثلاً تمكن الفرد المسلم من تكوين حالة نفور من عادات أو أفكار أو مواقف معينة تتسم بالطابع المرضي غير السوي كالبخل

(١) يوسف مدن، بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي، ص٢٧.
(٢) انظر مثلاً كتابه في الدعاء، ص٢٧، ٦٦.

والغضب الزائد والحسد للآخرين والحقد عليهم، كما أنها ترغب النفس من العادات السليمة المقبولة من وجهة نظر المشرّع الإسلامي.

وهذه جميعاً يحتاجها الإنسان المسلم خاصة المعالج النفسي المسلم الذي يشرف على تطبيق البرنامج العلاجي الإسلامي لتعديل سلوك الأفراد أو تقديم الخدمة الإرشادية لهم، ولنقرأ مقطعاً صغيراً من هذا الدعاء: «اللهم ارزقنا توفيق الطاعة وبعد المعصية وصدق النية وعرفان الحرمة وأكرمنا بالهدى والاستقامة، وسدد ألسنتنا بالصواب والحكمة، واملأ قلوبنا بالعلم والمعرفة، وطهّر بطوننا من الحرام والشبهة، واكفف أيدينا عن الظلم والرقة، واغضض أبصارنا عن الفجور والخيانة، واسدد أسماعنا عن اللغو والغيبة»[١].

لقد تضمن نصّ الدعاء السابق حاجات إنسانية متعددة كالحاجة إلى العبادة والتدين، والحاجات الأخلاقية، والحاجة إلى المعرفة، والحاجة إلى ضبط الإشباع الجنسي وتنظيمه، وهكذا.

٣ ـ كما أن بعض الأدعية تحدد للفرد المسلم طرائق علاجية لمجاهدة النفس ومقاومتها والتخلص من متاعبها الداخلية، وتبين للفرد أن تحقيق الرشد في شخصيته يتحقق عن طريق مخالفة أهواء النفس المنحرفة وعدم الاستجابة لها وعدم تلبية إشباع حاجاتها بطريقة عصابية، وتربيتها على إشباع منظم ومقيد لا يلحق ضرراً بالشخص.

٤ ـ وتجد في الأدعية أثناء ممارستها بإخلاص وعاطفة صادقة عوناً علاجياً صحيحاً، فالأدعية من الناحية الوجدانية تحقق للفرد تفريغاً للهموم

(١) الشيرازي، كلمة الإمام المهدي، ص٣٠٩.

وبث الشكوى إلى الله تعالى مستعيناً به طالباً منه مساعدته في التخلص من المتاعب التي تقلق نفسه، خاصة وأن هذا الاعتراف والتفريغ الانفعالي يتمّ أمام الله العارف بما تخفيه ضمائر الناس والمرضى، ويعلم بأسرارهم، والذي يضمن لهم عدم هتك أعراضهم أو أسرارهم الخاصة أمام الآخرين، كما أن طريقة الاعتراف والتفريغ الانفعالي بأسلوب الدعاء غير مكلفة من الناحية المادية.

٥ ـ وفي الدعاء كما يقول أحد علماء النفس المسلمين المعاصرين[١]: «يقوم الإنسان بمناجاة ربه، ويبث إليه ما يشكوه وما يعانيه في حياته من مشكلات تزعجه وتقلقه، ويطلب منه أن يعينه على حلّ مشكلاته وقضاء حاجاته، إن مجرد تعبير الإنسان عن مشكلاته التي تزعجه وتقلقه وهو في هذه الحالة من الاسترخاء والهدوء النفسي، تفقد هذه المشكلات قدرتها على إثارة القلق تدريجياً، وترتبط ارتباطاً شرطياً من الاسترخاء والهدوء النفسي، وهي حالة معارضة للقلق».

وفضلاً عن ذلك، فإنَّ مجرد إفضاء الإنسان بمشكلاته وهمومه والتعبير عنها إلى شخص آخر يسبب له راحة نفسية، ومن المعروف بين المعالجين النفسانيين أن تذكر المريض النفسي لمشكلاته وتحدثه عنها يؤدي إلى تخفيف حدة قلقه، وإذا كانت حالة الإنسان النفسية تتحسن إذا أفضى الإنسان بمشكلاته لصديق حميم، أو لمعالج نفسي، فما بالك بمقدار التحسن الذي يمكن أن يطرأ على الإنسان إذا أفضى بمشكلاته إلى الله سبحانه وتعالى، وقام عقب كل صلاة بمناجاة ربه ودعائه والاستعانة به وطلب العون منه.

---

(١) د. محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، ص٢٥٩ ـ ٢٦٠.

أضف إلى ذلك أن مجرد الدعاء إلى الله تعالى والتضرع إليه يؤدي إلى تخفيف حدة القلق من ناحية أخرى، وذلك لأن المؤمن يعلم أن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[١].

يقول الإمام الحسن عليه السلام:

«يا بن آدم من مثلك، وقد خلا ربك بينه وبينك، متى شئت أن تدخل إليه، توضأت وقمت بين يديه، ولم يجعل بينك وبينه حجاباً ولا بواباً، تشكو إليه همومك وفاقتك، وتطلب منه حوائجك، وتستغيثه على أمورك»[٢].

والأهم من ذلك كله أن من يعطى التوبة لا يحرم من المغفرة والقبول كما نصت على ذلك النصوص الإسلامية الكثيرة، فالفرد المقبل على ربه يطلب منه العون والحاجة لا يرد طلبه في الحصول على العفو، ولهذا يحس الإنسان المؤمن دائماً بقبول اعتذاره عن ذنوبه وأخطائه من الله سبحانه.

وهناك كلمات جميلة المعنى منقولة عن عمر بن الخطاب، إذ يقول رضي الله عنه:

«إني والله لا أخشى من عدم الإجابة، ولكن أخشى أن لا أوفق للدعاء، فإنْ وفقت للدعاء فالإجابة مضمونة»[٣]... يقصد ضمان الإجابة من الله سبحانه إذا وفّقه للدعاء.

كذلك تصقل الأدعية إرادة الإنسان وتقويها لمقاومة النزعات الفاسدة،

---

(١) سورة البقرة، ١٨٦.

(٢) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن، ص٢٤٦.

(٣) مجلة الثقافة النفسية، بحث د. أسامة الراضي، ص٧١.

فكما قال الإمام علي عليه السلام: «من احتجت إليه هنت عليه»[1] إلاّ الله عز وجل الذي يعطي عباده دون منٍّ أو تعيير أو تحطيم للمعنويات، وهذا يعني أن إرادة الإنسان تكون أكثر عوداً في مواجهة الصعاب.

ويمكننا أن نعرض نصاً من الصحيفة السجادية «دعاء مكارم الأخلاق» تضمن دعوة صريحة إلى تطبيق الفرد المسلم على نفسه ومع الآخرين طريقة الأضداد واستخدامها في تربية النفس، وهو يقدم موقفاً تسانديأ لهذا المنهج في التربية الوقائية والعلاجية في آن معاً.

يقول الإمام علي بن الحسين (زين العابدين) عليه السلام في هذا الصدد:

«اللهم صل على محمد وآل محمد، وأبدلني من بغضة أهل الشنآن المحبة، ومن حسد أهل البغي المودة، ومن ظنة أهل الصلاح الثقة، ومن عداوة الأدنين الولاية، ومن عقوق ذوي الأرحام المبرة، ومن خذلان الأقربين النصرة، ومن حب المدارين تصحيح المقة، ومن ردّ الملابسين كرم العشرة، ومن مرارة خوف الظالمين حلاوة الأمنة».

ثم يقول الإمام السجاد زين العابدين أيضاً:

«اللهم صل على محمد وآله وسددني لأن أعارض من غشني بالنصح، وأجزي من هجرني بالبر، وأثيب من حرمني بالبذل، وأكافي من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر، وأن أشكر الحسنة، وأغضي عن السيئة»[2].

تلك بعض الفعاليات النفسية للدعاء.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الآمدي، ج٢، ص٢٠٢.

(٢) الصحيفة السجادية، دعاء مكارم الأخلاق، ص١٠١.

ب ـ الحوار وتعديل السلوك:

يعتبر الحوار بمختلف أشكاله أحد أساليب التربية الإسلامية وآلياتها العملية، وقد أمر المشرّع التربوي الإسلامي باستخدام هذا الأسلوب في عمليات التغيير والمعالجة وتعديل السلوك وتصحيح الأفكار والمعتقدات والاتجاهات، واعادة تربية ما تحتاجه الشخصية من بناء علاقات مبنية على أسس إسلامية وعبادية نقية.

لكن ما قيمة هذا الأسلوب في مساندة منهج المعالجة بالأضداد في خدمة الأهداف العلاجية التي حددتها التربية العبادية؟ وما دوره في مساعدة المريض وتعديل سلوكه؟

للحوار كما يعلم ـ القارئ الكريم ـ فوائد جمة ومتعددة، ولكن ما يعنينا هو الأفكار التربوية الرئيسية التي تساعد المعالج والمريض على حلّ المشكلات السلوكية، ولهذا سنتناول بإيجاز شديد بعض الأفكار التي تثبت فعالية الحوار كفن وأسلوب في العملية التغييرية والعلاجية.

يتم عن طريق الحوار ـ مثلاً ـ حوار تشاركي بين المعالج والمريض ينتج عنه الفعاليات التالية:

١ ـ يصحح المعالج بواسطة هذا الأسلوب أفكار المرضى واعتقاداتهم ويغيّر اتجاهات الأفراد سواء كانت عقلية أو نفسية، وهذا من شأنه أن يسهل عملية العلاج النفسي أو تعديل السلوك ويوفّر شرطاً أساسياً لنجاحها، لأن هذه الخطوة تهيئ النفس لتقبل الأفكار الجديدة والاستعداد لتنفيذها بديلاً عن الأفكار البالية.

٢ ـ يساعد الحوار بين المعالج والمريض على تحديد المشكلة وتشخيص نوع المرض الذي يعاني منه الفرد وتعيين مجموعة الخطوات التي

يمكن اتباعها لتسير عملية العلاج النفسي إلى منتهاها المطلوب، وتبنى أفكار أو مشاعر أو عادات جديدة مضادة للأفكار والعادات المرضية الخاطئة.

٣ ـ كما أن عملية «استفراغ ما في النفس» من هموم ومتاعب وضغوط تتم عن طريق الحوار الفعال الذي يديره المعالج النفسي المسلم بكفاءة ونجاح واقتدار، فالحوار الناجح الذي يتحسس فيه المريض أو المحتاج لتعديل السلوك والإحساس بالطمأنينة والشعور بالأمن يؤدي إلى البوح بالأسرار أمام المعالج ومكاشفته (مصارحته) بما يعانيه، فحوار بمستوى عال من العلاقة الشخصية والمهنية يجعل ثقة المريض في المعالج كبيرة.

٤ ـ ويلعب الحوار أيضاً دوراً كبيراً في تغيير المشاعر الوجدانية السلبية والمتطرفة والحادة أحياناً، وخاصة إذا امتلك المعالج القدرة العالية في إدارة «الحوار» لانتزاع الأفكار العاطفية المترسبة في داخل عقل الإنسان أو المريض، وتذويبها شيئاً فشيئاً حتى تتحول في نهاية المطاف إلى أفكار منبوذة ومرفوضة من قبل المريض نفسه، وتؤثر على وجدانه وتنقله من حالة التعصب والجمود والنفور والرغبة في الانطواء والانسحاب إلى حالة الانفتاح والتقبل والانبساط والمشاركة بحيوية في عمليات التفاعل الاجتماعي مع الآخرين.

إن بعض الأشخاص قد يعانون من أمراض نفسية أو يمارسون عادات سلوكية خاطئة، وقد تكون هذه المشكلات ناشئة عن اعتقادات وهمية لا أساس لها وعارية عن الصحة، ولا وجود لها إلاّ في أذهانهم كمرضى، ولكن المعالج النفسي يستطيع هدم هذه الأسوار وتحطيمها عبر حوار هادئ موجّه لتحقيق الأهداف العلاجية، ونقل المريض من حالة أسوأ إلى حالة أفضل وأحسن.

وفي ضوء هذه الأهمية التربوية والعلاجية لفن «الحوار» كأسلوب تربوي فاعل، فإن القرآن الكريم يدعو إلى استخدام الأفراد ـ معالجين وغير معالجين ـ للحوار والجدل بالتي هي أحسن ليأتي بثماره الإيجابية المأمولة، قال تعالى في كتابه المجيد: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[١].

ويعزز النص القرآني السابق أحاديث عديدة أمثال:

«عاتب أخاك بالإحسان، واردد شره بالإنعام عليه»[٢].

«ازجر المسيء بثواب المحسن»[٣].

«من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ»[٤].

«اضرب بعض الرأي ببعضه يتولد منه الصواب»[٥].

وكان للنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تجربة ناجحة في تعديل سلوك الأفراد والجماعات وإحلال نظام عقائدي جديد ومضاد للشرك والكفر والوثنية القائمة آنذاك في المجتمع العربي القبلي، إذ تمكن نبي الرحمة من إحداث هذا التعديل النفسي والعقلي في بيئة مجتمع قبلي غارق في الجهل والتخلف بواسطة تمكنه من توظيف مستوى عال من الحوار مع المشركين والكفار لتغيير آرائهم ونقلهم إلى خط الإيمان.

ج ـ العبادة وتكوين استجابة سلوكية مضادة (سوية):

هناك ارتباط بين العبادات اليومية بمختلف أشكالها وتكوين

(١) سورة فصلت، ٣٤.
(٢) نهج البلاغة، ج٤، ص٤١.
(٣) المصدر السابق، ص٤٢.
(٤) المصدر السابق، ص٤٢.
(٥) ميزان الحكمة، ج٤ ص٣٦.

الاستجابات السليمة المضادة للسلوك العصابي، ونظراً لتعدد صيغ هذه العبادات فإننا نختار الصلاة كنموذج عبادي باعتبارها عمود الدين، وهي العمود الفقري في حياة المتدينين، فالصلاة كعبادة يومية يمارسها المؤمنون بانتظام هي وسيلة تربوية صحيحة تساعد على تعديل السلوك وإعادة التعلم.

وقد شهد بعض علماء النفس الغربيين أنفسهم أمثال المحلل النفسي البريطاني (سيرل بيرت) بقيمتها السيكولوجية وآثارها الروحية، يقول هذا العالم: «الصلاة كلمة يستعملها الكتّاب الدينيون في معنى اصطلاحي واسع، فهي لا تعني مجرد دعاء لفظي، ولا مجرد تعبير عن الحمد والثناء، فتلك ليست إلاّ أمثلة محدودة من الحالة العقلية العامة التي تفسرها كلمة الصلاة، أما الخاصة الحقيقية فهي إحساس بهيج من الإشراق الروحي»[١].

ثم يقول عن تأثيرها السيكولوجي: «والثمرة الرئيسية للصلاة كما يؤكد المتعبدون أنفسهم ليست في أن الدعوة الخاصة قد حققت بمعجزة، ولكن في أن المصلي نفسه يحس عزاء وقوة بعد تجربته، فالصلاة ـ ولو لم تنتج أثراً مادياً ـ قد تحدث تغييراً روحياً»[٢].

بعد ذلك يذكر سيرل بيرت قصة «توم» السفيه الذي سمي بفضل الصلاة إلى «توم» المصلي كمثال على أثر الصلاة الروحي، فقال: «هناك في بلدة باسنغستوك كان يوجد رجل بلغ من استهتاره بالدين وبذاءة لسانه أن سماه الناس توم السفيه، وقد حدث أن ورد هذه البلدة واعظ ديني جديد، فدفع حب الاستطلاع توم إلى أن يدخل الكنيسة، ولم يكن قد دخلها منذ سبعة عشر عاماً، استمع توم للموعظة، وقد جاء في ختامها (لو أن أكثر

---

(١) سيرل بيرت، علم النفس الديني، ص٢٢.
(٢) المصدر السابق، ص٢٤.

الناس عصياناً وتمرداً في هذا جثا على ركبتيه وصلى لربه لبدل الله قلبه) فقال توم لنفسه:

(إني أكثر الناس عصياناً وتمرداً هنا) وجثا على ركبتيه وصلى. فما قام حتى كان قد خلق خلقاً جديداً وصار حتى موته يعرف بين الناس باسم «توم المصلي»[١].

وكالعادة لا يمكننا بالتأكيد استعراض كل منافع هذه الوسيلة (أي الصلاة) في التربية العلاجية على ضوء المعايير العبادية الإسلامية، وبالتالي نضطر إلى التركيز على بعض فعالياتها في تغيير سلوك الذات وتعليمها سلوكاً جديداً مضاداً للسلوك المنحرف ومتفقاً مع النظرة العبادية الإسلامية.

ومن هذه الفعاليات ما يلي:

١ ـ تعتبر الصلاة وسيلة فعالة وقوية لإذلال الأنا (الذات) وتركيعها بين يدي الله تعالى في الأذكار والأفعال معاً، فالتكبير والتهليل والحمد والتعبيد والاستعانة بالله والتوحيد والدعاء في الأذكار يذلل الأنا ويخضعها لله، ويشعرها بهذا الذل والخضوع بإيحاءات متعددة»[٢].

إن الأذكار والأفعال معاً التي تتضمنها فريضة الصلاة تساعد الفرد على تعديل ميل نفسه إلى التكبر والإعجاب بالنفس وبأعمالها والتحكم فيه، والسيطرة على نزعة الفرد إلى الظهور والاستعلاء والاعتداد، وتربية الذات على الانشداد إلى محورية «الله» تعالى لا إلى محورية «الأنا أو الذات».

٢ ـ إن وقوف الإنسان في الصلاة أمام الله سبحانه وتعالى في خشوع وتضرع يمدّه بطاقة روحية تبعث فيه الشعور بالصفاء الروحي والاطمئنان

---

(١) المصدر السابق، ص١٧.

(٢) مجلة رسالة القرآن، العدد السابع، مقال الشيخ محمد مهدي الآصفي، ص١٣٣.

القلبي، والأمن النفسي، ففي الصلاة إذا ما أداها الإنسان كما ينبغي أن تؤدى، يتوجه الإنسان بكل جوارحه وحواسه إلى الله تعالى وينصرف عن كل مشاغل الدنيا ومشكلاتها، ولا يفكر في شيء إلاّ في الله سبحانه وتعالى، وما يردده من آيات القرآن.

إن هذا الانصراف التام عن مشكلات الحياة وهمومها، ووقوفه أمام ربه في خشوع تام من شأنه أن يبعث في الإنسان حالة من الاسترخاء التام وهدوء النفس وراحة العقل، ولهذه الحالة من الاسترخاء العصبي الناشئة عن ضغوط الحياة اليومية تأثيرها في خفض القلق الذي يعاني منه بعض الناس.

يقول الطبيب توماس هايسلوب:

«إن أهم مقومات النوم التي عرفتها في خلال سنين طويلة قضيتها في الخبرة والتجارب هو الصلاة، وأنا ألقي هذا القول بوصفي طبيباً، إنها أهم أداة عرفت حتى الآن لبث الطمأنينة في النفوس، وبث الهدوء في الأعصاب».

٣ ـ إن الاسترخاء ـ كما يقول الدكتور محمد عثمان نجاتي ـ من الوسائل التي يستخدمها بعض المعالجين النفسانيين المحدثين في علاج الأمراض النفسية.

والاسترخاء عادة يمكن أن يتعلمها الإنسان بالتدريب، وتمدنا الصلاة خمس مرات في اليوم بأحسن نظام للتدريب على الاسترخاء وتعلمه، وإذا تعلم الإنسان عادة الاسترخاء، فإنه يستطيع أن يتخلص من التوتر العصبي الذي تسببه ضغوط الحياة وهمومها.

وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول لبلال رضي الله عنه حينما

تحين أوقات الصلاة: «أرحنا بالصلاة يا بلال»، وفي الحديث: «أن رسول الله ﷺ كان إذا حَزِبَه أمر صلى»، وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «جعلت قرة عيني الصلاة».

وتساعد حالة الاسترخاء والهدوء التي تحدثها الصلاة على التخلص أيضاً من القلق الذي يشكو منه المرضى النفسيون، فإنَّ حالة الاسترخاء والهدوء التي تحدثها الصلاة تستمر عادة فترة بعد الانتهاء من الصلاة، وقد يواجه الإنسان وهو في هذه الحالة من الاسترخاء والهدوء النفسي بعض الأمور أو المواقف المثيرة للقلق أو تذكره لها أثناء وجود هذه الحالة من الاسترخاء والهدوء النفسي عقب الصلوات إنما يؤدي إلى «الانطفاء» التدريجي للقلق وإلى ارتباط هذه الأمور أو المواقف المثيرة للقلق بحالة الاسترخاء والهدوء النفسي، وبذلك يتخلص الفرد من القلق الذي كانت تثيره هذه الأمور أو المواقف.

إن هذا الأثر الهام للصلاة في علاج القلق يماثل الأثر الذي يحدثه أسلوب العلاج النفسي الذي يتبعه بعض المعالجين النفسانيين السلوكيين المحدثين في علاج القلق، إن هؤلاء المعالجين النفسيين مثل جوزيف ولبي يتبعون في علاج القلق أسلوباً يعرف «بالكف» ويطلق عليه «العلاج الاسترخائي» أو «العلاج بالتقليل من الحساسية الانفعالية».

وفي هذا الأسلوب من العلاج يقوم المعالج أولاً بتدريب المريض على الاسترخاء العميق، وفي أثناء وجود المريض في حالة الاسترخاء يطلب منه المعالج أنْ يتصور شيئاً من الأشياء المثيرة لقلقه، ويتبع المعالج في ذلك نظاماً معيناً يبتدئ بالأشياء المثيرة للقلق الخفيف، متدرجاً إلى الأشياء التي تثير قلقه، ثم يطلب المعالج من المريض إبعاد هذا الشيء من ذهنه،

ويطلب منه أن يعود مرّة أخرى إلى حالة الاسترخاء، وبعد أن يهدأ المريض ويعود إلى حالة الاسترخاء يطلب منه مرّة أخرى تصور هذا الشيء المثير للقلق.

ويستمر العلاج النفسي بهذا الأسلوب حتى يستطيع المريض أن يتصور هذا الشيء مع وجود حالة الاسترخاء بدون أن يشعر بالقلق، ثم ينتقل المريض بعد ذلك إلى تصور شيء آخر يثير فيه درجة أشد من القلق، وذلك أثناء وجوده في حالة الاسترخاء.

وهكذا يستمر العلاج حتى يتخلص المريض من قلقه تماماً، إن هذا الأسلوب الذي اتبعه ولبي وغيره من المعالجين النفسيين السلوكيين يعتمد أساساً على مبادئ الاشتراط، وفيه يحاول المعالج أن يربط بين المواقف المثيرة للقلق وبين استجابة معارضة للقلق، وهي الاسترخاء[١].

٤ ـ ومن الواضح ـ كما يقول أستاذنا د. نجاتي ـ وجه الشبه بين أسلوب العلاج النفسي الذي يتبعه المعالجون النفسيون السلوكيون وبين الأثر الذي تحدثه الصلاة، فإن تكرار اقتران حالة الاسترخاء والهدوء النفسي التي تحدثها الصلاة ـ والتي تستمر عادة فترة ما بعد الانتهاء من الصلاة ـ بالمواقف المثيرة لقلقه، إما بمواجهتها فعلياً في الحياة أو بتذكرها، إنما يؤدي في النهاية إلى تكوين ارتباطات شرطية جديدة بين هذه المواقف وبين استجابة الاسترخاء والهدوء النفسي التي تحدثها الصلاة وهي استجابة معارضة للقلق، وبذلك يتخلص الإنسان من القلق، وهذا هو نفس الأسلوب الذي يستخدمه المعالجون النفسيون السلوكيون في علاج القلق كما أشرنا إلى ذلك سابقاً[٢].

---

(١) د. محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، ص٢٥٦ ـ ٢٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥٩.

ويتعمق التخلص من القلق لدى الإنسان المتدين المصلي بقراءة بعض الأدعية ما بعد فترة انتهاء الصلاة.

٥ ـ هذا بالإضافة إلى أن صلاة الجماعة لها أثر علاجي أهم من صلاة الفرد، إذ أنَّ تردد المصلي على المسجد لصلاة الجماعة يتيح له فرصة التعرف على إخوانه المصلين مما يساعده على تفاعله مع الناس وعلى حدوث علاقات اجتماعية سليمة، وعلاقات صداقة ومودة التي من شأنها مساعدته على نمو شخصيته وتكامل جوانبها، إلى جانب هذا يلحظ بالتأكيد أن لصلاة الجمعة دوراً وقائياً ودوراً علاجياً.

فالدور الوقائي هو ما يستمده المصلي بواسطته من معلومات دينية وإرشادات علمية توجه حياته توجيهاً سليماً، ومن تأثير الصلاة على النفس أيضاً زيادة الاطمئنان والتركيز والذاكرة وعلى الجسم زيادة جريان الدم فتنقيه وبالتالي زيادة نشاطه وقوته وحتى يتمكن من الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله تعالى.

أما الدور العلاجي فيرجع إلى التأثير الذي تحدثه الصلوات الخمس اليومية وخطب صلاة الجمعة والأعياد ثم إن من مقتنيات الصلاة الوضوء الذي ليس فقط تطهيراً للجسم وإنما هو تطهير للنفس أيضاً فإذا ما أداه كما ينبغي يشعر المؤمن بالنظافة البدنية والنفسية معاً ويشعر أيضاً إنه قد تطهر من ذنوبه.

٦ ـ وفضلاً عن هذا فإن للوضوء تأثيراً فسيولوجياً، إذ به يساعد على استرخاء العضلات وتخفيف حدة التوتر البدني والنفسي، ولذلك أوصى النبي عليه الصلاة والسلام بالوضوء إذا غضب الإنسان فقال: «إن الغضب

من الشيطان، وان الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»[١].

وهكذا نجد أن وسائل التربية العلاجية لمنهج الأضداد العبادي الإسلامي تؤدي إلى تكوين استجابات صحيحة وسوية معارضة للاستجابات السلوكية المرضية المخالفة للنظرة الإسلامية، وقد وجهت المعالج والمريض معاً نحو تحقيق الأهداف العبادية لمنهج الأضداد من البعد الرأسي الذي يمكن الفرد المسلم من الصلح مع الله وتكوين علاقة إيجابية معه، ومن البعد الأفقي الذي يوجّه الفرد نحو التكيف النفسي والاجتماعي مع ذاته ومع الجماعة التي يعيش معها.

وهكذا التقت وجهة نظر بعض المدارس العلاجية الحديثة مع النظرة القائمة على تعديل سلوك مرضي بسلوك سوي مضاد.

سادساً: منهج الأضداد في تراث المفكرين المسلمين:

أسهم علماء المسلمين في إيضاح المعالم الأساسية لمنهج المعالجة النفسية بطريقة الأضداد، وقد اعتمد هذا التوجه الأخلاقي خلال العصور السابقة على أبحاث المفكرين والمربين المسلمين، بل إن اجتهاداتهم ساعدتنا على تكوين وجهة نظرنا في هذا الموضوع، وفي صياغة جادة لنظرية إسلامية في ميدان العلاج النفسي تقوم على سياسة محو لتعلم خاطئ سابق وتكوين عادات تعلم جديد إيجابي يمحو الرذائل ويؤصل الفضائل والسمات والإدراكية والوجدانية والروحية والاجتماعية وغيرها.

إن الإمام الغزالي والفيض المولى الكاشاني وابن مسكويه، وابن قدامة

---

(١) مجلة الثقافة النفسية، العدد (١٦) المجلد الرابع ـ عدد تشرين الأول / سنة ١٩٩٣م، مقال للدكتور أسامة الراضي.

المقدسي، والشيخ النراقي، وجماعة إخوان الصفا وفيلسوف البحرين الكبير في القرن السابع الهجري الشيخ ميثم البحراني[١] وغيرهم قد أشاروا إلى هذا المنهج بإيجاز حيناً أو بتفصيل أوسع حيناً آخر، ولم تكن جهودهم العلمية مجرد آراء نظرية مدفونة في بطون الكتب والمؤلفات التي تركوها، وحفظت لنا الخطوط العريضة لهذا المنهج، بل طبقوا مفاهيم هذا المنهج على حياتهم ونفعوا بها أنفسهم والآخرين، فسعوا من خلال عمليات توعية عامة وفردية إلى تغيير أنماط السلوك الخاطئ والمذموم كتغيير صفات البخل والغرور والمراء والرياء وحب الدنيا وطول الأمل والخوف غير الطبيعي، واليأس، والنميمة والغيبة وغيرها من السلوك العصابي، وذلك بما يضادها من الفضائل والقيم السوية التي تقابلها.

وكانت اجتهادات علمائنا في تفصيل أسس هذا المنهج تسلك حيناً طريقاً عاماً كلياً، وحيناً آخر طريقاً جزئياً خاصاً، وسوف نأتي على شرح أوسع لهذه المسألة في ثنايا دراستنا.

فهؤلاء العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ قد وضعوا عيونهم على خطوط منهج الأضداد، وشروطه، ومراحله، وتعمقوا في تفاصيل دعائمه الأساسية، رغم أن التفاوت بينهم في فهم كل واحد منهم لهذا المنهج حقيقة واضحة، فالإمام الغزالي والمولى الفيض الكاشاني كانا ـ مثلاً ـ أكثر وضوحاً من غيرهم في حدود ما أعلمه في تفصيل هذا المنهج وأكثر عناية من ابن مسكويه على سبيل المثال لأن الأخير شغل نفسه بدراسة موضوعات أخرى لكنه لم يترك الحديث عنه بمقدار ما يتطلبه البحث العابر أحياناً، وبتفصيل أوسع أحياناً أخرى.

---

(١) انظر كتابه في شرح المائة كلمة لأمير المؤمنين، ص٩٣.

ومع ذلك لم يكتب أحد هؤلاء العلماء دراسة مستقلة ومفصلة عن هذه الطريقة، وإن تركوا أفكارهم مبثوثة ـ هنا وهناك ـ في كتبهم، ويمكن للباحث الاستفادة من اجتهاد الجميع، وصياغة وجهة نظرة عامة العلماء المسلمين في موضوع العلاج النفسي بطريقة الأضداد.

إن معالم هذا المنهج الأصيل وتفصيلاته جلية في مصادر التراث العلمي لأبي حامد الغزالي والفيض الكاشاني والشيخ النراقي وغيرهم كما قلنا، حيث أشار هؤلاء إلى نظام المعالجة الكلية للأضداد، ثم دعوا إلى ضرورة الالتزام به كمنهج عمل في مداواة بعض الأمراض النفسية التي تعاني منها الذات المسلمة، وعالجوا وفق طريقة الأضداد كثيراً من الحالات المرضية الخفيفة القابلة للتعديل، بل حاول بعضهم كالكندي وابن سينا معالجة حالات معقدة.

بينما أتى ابن مسكويه في بعض أبحاثه الاجتماعية والأخلاقية على ذكر هذا المنهج إجمالاً لا تفصيل فيه، فهو على سبيل المثال في كتابه المشهور «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق» وضع إشارة عاجلة أو عابرة عنه، لكنه مع ذلك لم يشغل نفسه بدراسة مفصلة لمعالمه، ولا نعلم مدى اهتمامه بهذا المنهج في كتبه الأخلاقية الأخرى التي لم نطلع عليها.

وإجمالاً فإنه من الطبيعي أن تتفاوت جهودهم العلمية في فهم منهج الأضداد والتعرف عليه ومدى استخداماته، لكن القاسم المشترك بين هؤلاء المربين جميعاً هو الحثّ عليه كمنهج يصلح لتربية وعلاج الذات المسلمة على ضوء المفاهيم الإسلامية، ويصلح في الوقت نفسه كأسلوب لمعالجات سلوكية وتعديل اتجاهات فكرية ونفسية.

ومما لا شك فيه أن فهم هؤلاء المفكرين والعلماء لمعالم هذا المنهج

مأخوذ من نصوص القرآن والسنة وخطاب أئمة أهل البيت وصحابة النبي وعلماء المسلمين بوجه عام، فهما دائماً المصادر الأولى لوعينا بهذا الموضوع أو ذاك عند الإنسان المسلم، فالنصوص القرآنية والنبوية الشريفة تشكل دائماً المادة العلمية، وهي التي تصوغ لنا المفاهيم النظرية والتطبيقية ليس في موضوعات المعالجة بطريقة الأضداد فحسب، بل في كل موضوعات الحياة الإنسانية بأسرها.

وبالتأكيد فإن هذا الجمع من علمائنا كانوا على صلة قريبة بهذه النصوص الكريمة وتأثروا بها إلى حدّ كبير ذهنياً ووجدانياً وسلوكياً وروحياً، ولهذا نجد في أبحاثهم دائماً دعوة واضحة للأخذ بهذا المنهج لصوغ النفس علاجياً وإعادة تربيتها وقائياً، ورغم هذه الصلة المباشرة والقريبة، فإن أحداً من هؤلاء الباحثين لم يفرد دراسة أو بحثاً مستقلاً تناول فيه طريقة العلاج بالأضداد.

أما أبحاث العلماء المسلمين المعاصرين[1] ـ على ندرتها ـ فإنها لم تعرض لهذا المنهج تفصيلاً، بل ذكرته بعض هذه الدراسات ذكراً عارضاً لا يزوّد القارئ المسلم بقدر كاف من المعلومات رغم أن محتوى هذا المنهج تأخذ مساحة واسعة من التشريع الإسلامي، لكن تأخر الدراسات النفسية لدى المسلمين عن الذات الإسلامية المعاصرة بوجه عام ترك أثره السلبي على تأخر صياغة نظرية علاجية للنفس قائمة على فكرة المعالجة بالأضداد، مع أن العقل المسلم في كل زمان بحاجة لهذه النظرية والإفادة منها في العملية العلاجية والتربوية.

---

(١) سبق القول بأن الدكتور مصطفى محمود والدكتور حسن الشرقاوي قد أشارا بإيجاز إلى منهج المعالجة النفسية بالأضداد في كتابيهما (أسرار القرآن) و(نحو علم نفس إسلامي).

ونعتقد أن ما كتبه المفكرون المسلمون وما تركوه لنا من تراث علمي كان جهداً خصباً وغنياً يعبر عن قدرة العقل المسلم في عصور سابقة من تاريخنا المجيد على التألق في إنتاج فكر خصب وحيوي، وقد أثمر هذا الفكر تفاعلاً بين المنهج والذات المسلمة، لكن التأخر في الدراسات الإسلامية عند المسلمين في الفترات اللاحقة فصل بين الأجيال المسلمة ومنهج الأضداد، فعقم العقل المسلم في فترة التدهور والتخلف أدى إلى عجزه حتى عن اكتشاف وجود منهج للمعالجة بطريق الضد، فضلاً عن إضافة فكر جديد، فجاءت اهتمامات علمائنا المعاصرين به محدودة وضعيفة وكأنه لا وجود له أو لا رصيد له في المخزون الثقافي للأمة.

ومهما يكن لهذا المنهج من مساحة ضيقة في الدراسات النفسية والاجتماعية عند العلماء والمفكرين المعاصرين، فإن كل محاولة لإبرازه لا تستطيع تجاهل رصيده الكبير في النصوص التربوية للمشرع الإسلامي، وفي كتب ومصادر التراث الفكري لعلماء المسلمين.

سابعاً: المعالجة بالأضداد بين اللذة والصحة في المفهوم العبادي:

يهدف العلاج النفسي بالأضداد كما ذكرنا إلى استعادة التوازن النفسي والاجتماعي المفقود لدى الذات المسلمة المعاصرة، وذلك من خلال تنظيم طرائق الإشباع للحاجات الأساسية وتنمية القوى الفطرية للذات، بحيث تجد الذات في إشباع شهوة ما كالحاجة إلى التملك لذة سيكولوجية أو عقلية أو بدنية، مما يساعد على تحقيق مبدأ أساسي من مبادئ الصحة النفسية للفرد، وقد حرصت النظريات النفسية الحديثة على التأكيد بأن الإشباع المعتدل تصحبه دائماً لذة سواء ذات طبيعة نفسية أو عقلية أو بدنية.

لكن بعض علماء الأخلاق المسلمين يرون أن مجرد التلذذ وحده لا

يكفي لتحقيق الصحة النفسية والعقلية، فابن مسكويه رجل الأخلاق المعروف يؤكد أن هدف المعالجة بطريقة الأضداد ليس فقط من أجل بلوغ اللذة أو مجرد إشباع الحاجات فحسب، وإنما يشترط أن تكون النهاية في أية معالجة هو بلوغ الصحة في معناها الشامل، وهذا يعني أن الإشباع في نظره لا بدّ أن يكون سوياً وصحياً بالمعايير العبادية.

وبالتالي افترق ابن مسكويه عن بعض علماء الأخلاق اليونان القائلين بأن الحصول على اللذة بحد ذاتها هو الهدف المرجو كما يذهب إلى ذلك الفلاسفة الأبيقوريون.

يقول ابن مسكويه رحمه الله تعالى مخاطباً القارئ:

«وقد أعلمناك في ما تقدم، ما الكفاية وما القصد؟ وإن الغرض الصحيح بينهما هو مداواة الآلام والتحرر من الوقوع فيها، لا التمتع وطلب اللذة، وإن من عالج الجوع والعطش الذين هما غرضان وألمان حادثان، لا ينفي أن يقصد لذة البدن وصحته، وسيلتذ لا محالة فإن من طلب بالعلاج اللذة لا الصحة لم تحصل الصحة، ولم تبق له لذة اللذة»[١].

إن النفس الإنسانية لا تشبع، وهي في كل مرّة تحاول الحصول على مزيد من اللذة، وتظل على هذا الحال، فلا تحصل على اللذة ولا على الصحة، لأن عجز الفرد عن ضبط اندفاع الشهوات في داخل نفسه وفي حركة الحياة ينتهي به إلى الخروج عن الاعتدال والوسطية، وحينئذ تقع شخصيته في حبائل الانحرافات الأخلاقية والنفسية والفكرية، وقد يتشكل منها تدريجياً ركام ضار يؤدي إلى تلاشي اللذة والصحة معاً من حياة الفرد.

(١) كتاب ابن مسكويه، (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)، ص١٥٦.

ويتجه فريق آخر من علماء الأخلاق إلى التأكيد على القيمة النظرية والعملية «للفضائل» واكتشافها كهدف للسلوك، فحياة الفضيلة هي غاية السلوك الإنساني، وهي بذاتها السعادة الكاملة، ويمثل هذا الاتجاه حكيم اليونان الشامخ سقراط مؤسس علم الأخلاق.

ولذلك يدعو سقراط للوصول للسعادة إلى سيطرة العقل على الشهوات والتعالي على اللذات والشهوات والرغبات والتدرب عن معرفة جيدة بالخير والشر والتدرب على الفضائل لاكتسابها وممارستها.

أما النظرة العلاجية العبادية القائمة على طريقة الأضداد، فلا تتوقف عند حدود اللذة أو الفضيلة أو الصحة، إذ يستهدف منهج المعالجة السيكولوجية بالأضداد الجمع بين هذه الأهداف وبين هدف كبير هو الرضا الإلهي، ويتوخى الربط بين الغايات الأخلاقية والعقلية والنفسية وبين الغاية العبادية الكبرى.

إذا أرادت النفس البشرية التعود على سلوك السخاء ومعالجة بخلها بالتسخي والتدرب عليه، نجد منهج المعالجة النفسية بالأضداد يرفض أن تكون غاية ذلك الحصول على لذة البذل والتسخي والكرم، وإن كانت النفس تشعر تلقائياً بهذه اللذة مجردة أحياناً عن الرياء، وكل ما في الأمر أن الحصول على «اللذة» لذاتها ليس هدفاً مقصوداً في السلوك العبادي، فإذا حصر الإنسان هدفه في تحقيق اللذة أو الصحة مجردة عن البعد العبادي يكون قد حقق توافقاً نفسياً ظاهرياً، لكنه لم ينسجم تماماً مع المعنى العبادي للتوافق، لأن الجهد العلاجي كله عزل وما نتج عنه من نتائج إيجابية عن الهدف العبادي الأساسي وهو.. رضا الله عز وجل.

وإذا أخذنا الدعوة إلى النظر والتأمل والتفكير مثالاً، فإن اليونان

يعتقدون أن التفكر غاية الفيلسوف للوقوف على طبائع الأشياء وحقائقها، وما يصاحب ذلك من لذة عقلية خالصة، فالدعوة إلى ممارسة التفكر لديهم تستهدف راحة العقل ونضجه، لكن المنهج التربوي والعلاجي في الإسلام لا يرى أن التفكير مجرد غاية في ذاتها أو حركة موجّهة وهادفة لتحقيق لذة عقلية، بل هو فريضة دينية لا تستهدف تنمية قدرات العقل وحده أو لعمارة الأرض أو لتحقيق السعادة الكاملة في حياة الإنسان، وإنما لبلوغ هذه الأهداف جميعاً في إطار الهدف العبادي المركزي وهو رضا الله تعالى، أي غاية التفكير إرضاء الله عز وجل وعبادته وطاعته وتقديم الولاء له، وقد ركزت نصوص التشريع الإسلامي ـ في كل دوائره ومجالاته ـ على هذا المعنى النبيل.

ثامناً: السمات المتقابلة بين الحدية والوسطية:

تتراوح السمات المتقابلة في نصوص التشريع التربوي الإسلامي بين طابعين هما طابع الحدية وطابع الوسطية، إذ يؤكد قسم من هذه النصوص على التقابل الحدي بين الصفات الذي لا وجود فيه لسمة وسط، بحيث تتواجه على خط التقابل سمة غير سوية مع سمة سوية، فتكون إحداهما «رذيلة» وتكون السمة الأخرى المضادة لها «فضيلة».

بينما يؤكد قسم آخر من النصوص التربوية الإسلامية على وسطية السمة «السوية» بين سمتين عصابيتين (رذيلتين)، وقد اشتهر أرسطو فيلسوف اليونان الكبير بأنه صاحب تصنيف للفضائل والرذائل قائم على تعريف «الفضيلة» بأنها وسط بين رذيلتين كلتاهما تمثل تطرفاً وسلوكاً غير سوي، ويكون هذا الوسط سلوكاً سوياً، لذلك اعتبره أرسطو «سلوكاً فاضلاً».

وقد تأثر علماء السلوك والأخلاق المسلمين أمثال ابن مسكويه[١] وغيره بهذا التصنيف وما يزال مقبولاً رغم ما وجه له من نقد، وقد ركّز بعض العلماء والفلاسفة في نقدهم لفلسفة أرسطو على وجود فضائل وصفات حدية لا تقبل الوسطية، ولا يمكن أن يكون بينها وجود خط فاصل حدي، فالصدق والأمانة والعدل كلها ليست وسطاً بين رذيلتين إحداهما إفراط والأخرى تفريط.

أما نصوص المشرّع التربوي الإسلامي ـ قرآنية وغير قرآنية ـ فقد اتجهت إلى الجمع بين التقابل الحدي والتقابل الوسطي.. أي قبول النصوص الإسلامية بالنوعين معاً مع إضفاء طابع روحي ومعرفي يميز النظرة الإسلامية، وبذلك تفادى التصنيف الإسلامي ما وجه للتصنيفين من عيب، وسوف نجد بعد قليل أمثلة من هذه النصوص.

أولاً: السمات المتقابلة الحدية:

هذا النوع من السمات المتقابلة يخلو من الوسطية كالصدق والكذب، والأمانة والخيانة، والتفاؤل والتشاؤم، والعلم والجهل، ومن يتأمل نصوص القرآن وآياته الكريمة، وكذلك بعض النصوص الروائية (من السنة) كما وجدنا ذلك في تقابل بعض السمات التي لا وسط لها، يدرك أنه توجد سمات سوية كالصدق مثلاً (وهي فضيلة) وتوجد في الطرف الآخر سمة غير سوية (وهي الكذب).. ولا توجد في هذا التقابل صفة وسط فإما سمة الصدق أو سمة الكذب ولا وسط بينهما انسجاماً مع منطق قانون الثالث المرفوع أو الوسط الممتنع القائل إن الشيء إماً أن يتصف بصفة ما أو يتصف بصفة نقيض لها.

---

(١) انظر المصدر السابق أيضاً، ص(٤٥ ـ ٤٩) وصفحات أخرى منه.

وطالما أننا سنعرض لبعض السمات المتقابلة الحدية في قائمتي الأضداد[1]، وفي قوائم تصنيف السلوك الأخرى، فسوف نشير إلى آيات قرآنية ترسم تقابلاً بين سمات تخلو من الوسطية، وتضع حداً فاصلاً لا وسط فيه، يقول القرآن الكريم في عدد من آياته:

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2].

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝﴾[3].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝﴾[4].

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾[5].

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝﴾[6].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾[7]

---

(١) سنناقش ـ إن شاء الله تعالى ـ بعض سمات قائمتي الأضداد الواردتين عن الإمامين الصادق وابنه موسى الكاظم عليهما السلام وذلك في الفصلين الخامس والسابع من هذا الكتاب.
(٢) سورة الإنسان، ٣.
(٣) سورة الليل، ٥ ـ ٧.
(٤) سورة آل عمران، ١٣٣ ـ ١٣٥.
(٥) سورة الزمر، ٥٣.
(٦) سورة فصلت، ٣٤.
(٧) سورة البقرة، ١٥٥.

(هذه جميعاً تمثل حالات جزع متفاوتة الشدة عالجها النص القرآني بالصبر) ثم قال الله تعالى في الآية نفسها: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

وآيات قرآنية أخرى تتضمن سمات سلوكية متقابلة وتبين معالجة النص القرآني للسمات المرضية بسمات سوية مضادة مثل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً﴾[١].

﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾[٢].

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[٣].

﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾[٤].

﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[٥].

وكذلك نجد هذا النمط من السمات المتقابلة في آيات قرآنية متتابعة حيناً، وفي آيات متفرقة أو متباعدة حيناً آخر، فالآيات القرآنية الخامسة حتى العاشرة من سورة الليل مثلاً تتواجه منها أربع سمات على خط التقابل، وكذلك نجد هذا النمط في الآية (٧٥) من سورة المائدة، وفي الآية (٥١) حتى الآية (٥٤) من السورة ذاتها، وكلاهم يتحدث عن معالجة سمة مرضية بسمة سوية عبادية.

وأحياناً تعالج نصوص المشرّع التربوي الإسلامي السمات المرضية بآيات متفرقات، فيعالج التكبر أو الكفر أو الإسراف في لوم الذات أو الرياء

---

(١) سورة آل عمران، ١٥٤.
(٢) سورة النحل، ٨٩.
(٣) سورة النور، ٥٥.
(٤) سورة القصص، ٣١.
(٥) سورة آل عمران، ١٠٣.

في آيات عديدة متفرقة، وعلاجها في آيات أخرى، وقد شملت هذه المعالجة للسمات المتقابلة الحدية قضايا إيمانية وأخلاقية واجتماعية وادراكية وغيرها.

ومن هنا نشأت الحاجة إلى دراسة النص القرآني وفق تفسير موضوعي قائم على فهم المضمون المعرفي للآيات المباركة على أساس رؤية موحدة لموضوع معين كما فعل العلامة الشهيد محمد باقر الصدر في كتابه «نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم».

ثانياً: السمات المتقابلة الوسطية:

وفي آيات القرآن الكريم أمثلة واضحة على هذا النمط العلاجي، وسنكتفي بعدد من الآيات الكريمة بغرض التمثيل وتقريب المعنى.

إن آيات القرآن الكريم عن السمات الوسطية ـ وهي السمات المرغوبة عبادياً ـ كثيرة ومتنوعة، يقول الله تعالى في بعض النصوص القرآنية:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[1].

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[2].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[3].

وقال الله تعالى أيضاً:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ

---

(١) سورة الإسراء، ٢٩.
(٢) سورة الأعراف، ٢١.
(٣) سورة الفرقان، ٦٧.

﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾[١].

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾[٢].

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾[٣].

في الآيات السابقة تقابل بين سمات متقابلة طرفية تمثل كل منها إفراطاً أو تفريطاً، كلاهما سلوك مرضي غير مرغوب فيه، لذلك ركزت الآيات على السمة الوسط التي تمثل الفضيلة باعتبارها السمة المرغوبة في التربية العبادية الإسلامية.

إن الآيات القرآنية المذكورة تندد مثلاً بسمتي (البخل والتبذير) معاً في عملية الإنفاق، وتطالب الإنسان المسلم بإنفاق معتدل «لا بخل ولا إسراف» فهنا تتوسط فضيلة الكرم بين رذيلتي البخل والتبذير، وتندد آيات أخرى برذيلتي (التكبر وقبول المذلة طوعاً أو كرهاً)، ويطالب القرآن بسمة (التواضع) وهي الفضيلة أو السمة الإسلامية التي تتوسط بين الرذيلتين المذكورتين، وتطالب نصوص قرآنية أخرى بالوسطية والاعتدال في أداء الصلاة.. لا جهر ولا إخفات.

وهكذا فإن أنماط السمات السلوكي في نظام المعالجة بالأضداد تنتظم إمّا على خط تقابل يقبل الوسطية بين سمات السلوك السيئة (أو الرذائل بلغة الفلاسفة الأخلاقيين) وبين سمات السلوك الإيجابية أو (الفضائل)، وإمّا أن تنتظم السمات الإنسانية على خط حدي صارم تتباعد فيه السمات المرغوبة السوية عن السمات المنحرفة غير السوية تباعداً طرفياً وشاسعاً لا يقبل أحدهما الآخر.

(١) سورة لقمان، ١٨ ـ ٢٠.
(٢) سورة الإسراء، ٣٧.
(٣) سورة الإسراء، ١١٠.



الفصل الثالث

مسوغات استخدام
منهج المعالجة النفسية بالأضداد



نتناول في هذا الفصل أهم مسوغات الدعوة التي دفعت بعدد من علماء المسلمين المهتمين بعلم الأخلاق والعلاج النفسي إلى استخدام منهج المعالجة السيكولوجية بالأضداد والعمل به لتعديل سلوك الأفراد، وهي مسوغات ـ كما سيرى القارئ الكريم ـ تنطلق من خصائص التكوين النفسي والعقلي والوجداني للإنسان، ومن رؤية المشرّع التربوي الإسلامي لتركيبة الطبيعة الآدمية وفهمه العميق لما تنطوي عليه من خصائص فطرية متقابلة.

فالله عز وجل خالق هذا التكوين وهو بصير بمكوناته الفطرية والمكتسبة، وهو خبير بالوسائل والأساليب والآليات المنهجية المناسبة لهذا التكوين.

وهناك ست مسوغات أساسية تقتضي الاستفادة من فعالية هذا المنهج التربوي والمعرفي والسيكولوجي في إحداث تعديل جذري أو جزئي في سلوك الفرد وإعادة تربيته وبناء شخصيته بمعايير عبادية، ويمكننا الآن حصر هذه المسوغات وتحديد دوافع العمل بهذا المنهج بما يلي:

١ ـ التكوين الثنائي للطبيعة الإنسانية (وقابليتها للتغيير العبادي السوي).

٢ ـ دعوة المشرّع التربوي الإسلامي للعمل بمنهج المعالجة السلوكية بالأضداد.

٣ ـ انحرافات الكبار وتأثيراتها السيئة على الصغار.

٤ ـ حاجة الإنسان المؤمن للعمل بمنهج الأضداد لتعديل دائم لسلوكه.

٥ ـ قدرة نظام المعالجة النفسية بالأضداد على تحقيق شخصية متزنة ومتكاملة.

٦ ـ ظهور نظرية المعالجة النفسية بالأضداد وتجددها في الفكر المعاصر.

* * *

أولاً: قابلية النفس البشرية للتغيير العبادي الإيجابي:

حين نتجه إلى أنفسنا نبحث عن طبيعتها نجد تركيباً ثنائياً لها، خلافاً لطبيعة البهائم والملائكة، فالتركيب الآدمي يتجاذبه استعدادان أحدهما للخير والآخر للشر، كما تخضع النفس الإنسانية في حركتها لدوافع الشهوة أو تنقاد لضوابط العقل المعرفية والأخلاقية، ودور الإنسان تكوين نظام متوازن يضبط العلاقة بين القوة الجاذبة والقوة الطاردة، ويحفظ لشخصيته حركتها الطبيعية واستقامتها، وهذا ما أراده المشرّع التربوي الإسلامي من مشروعه الحضاري.

إن النفس الإنسانية تنطوي على طبيعة مزدوجة تقبل الخير والشر، فكلاهما كامن في تركيبتها الداخلية، وإن ظهور أحدهما في سلوك الإنسان أو ضموره يتوقف على توجيه فاعل من الأفراد أو تدخل من المحيطين به في البيئة والمحيط الاجتماعي سواء كان هذا التوجيه صحيحاً أو خاطئاً.

فإذا تركزت جهود وتدريبات المربي على تنمية عنصر الخير فالمتوقع نمو هذا العنصر وبروزه في عادات السلوك العبادية السوية التي تكون موضع قبول الله سبحانه، أما إذا أراد المربون ـ متعمدين أو غير متعمدين ـ تربية

الشخصية البشرية على أفكار واتجاهات وقيم وعادات خاطئة فإن كوامن الشر ستكون واضحة في حركة الذات الإنسانية، فالعادة طبيعة ثانية كما تقول الأحاديث الشريفة، إذ يؤدي التدريب المتواصل إلى تكوين خاطئ للأفكار والاتجاهات والعادات، وتكون من القوة بسبب هذا التدريب أشبه بسلوك فطري يصعب تعديله، بحيث يحتاج إلى جهد ضخم من التوجيه الهادف والفعال لإزالته، فإذا رسخت أفكار معينة واستقرت عادات ما، كسبت قوة الطبع في كيان الذات وأصبحت كأنها جزء أصيل من الفطرة.

ولا يعني بالتأكيد استحالة تغيير ما رسخ من أفكار وعادات وإنما يصعب تعديله فقط، وتحتاج إلى جهد كبير وفترة أطول حتى يتمّ إحداث التعديل في السلوك، وهكذا تستجيب طبيعتنا وتركيبتنا الآدمية لكوامن الخير والشر وفق توجيهاتنا ـ نحن البشر ـ صحيحة أو خاطئة، ويكون سلوكنا وأفكارنا ومشاعرنا صدى لهذه التوجيهات ومرآة تعكس ما تنطوي عليه تركيبتنا الإنسانية من ثنائية الخير والشر.

وقد شهدت آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية شريفة وأقوال وكلمات المعصومين من أئمة أهل البيت عليهم السلام على وجود قابلية ثنائية داخلية للخير والشر في كياننا الإنساني، وتقع المسؤولية الكاملة على الفرد في اختيار أفعاله وأعماله التكليفية، وهي مسؤولية يترتب عنها في نظر المشرّع التربوي الإسلامي جزاء إما إثابة أو عقوبة.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّنٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَنٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنٰهَا ﴿١٠﴾﴾[١].

---

(١) سورة الشمس، ٧ ـ ١٠.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾[(١)].. يعني إما نجد وطريق الخير أو نجد وطريق الشر.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾[(٢)].

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾[(٣)].

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾[(٤)].

ويقول الإمام علي عليه السلام:

«إن الله ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم»[(٥)].

فالنفس البشرية بمقتضى النصوص السابقة مجبولة على طبيعة مزدوجة تتقابل فيها أفعال الخير مع أفعال الشر، فكما هي قادرة على اختيار أفعال الكذب والبخل والتكبر وكل أنماط السلوك العصابي فهي كذلك مستعدة لممارسة أفعال الصدق والكرم والتواضع وكل فعل خيّر وسوي.

ورغم تميز الطبيعة البشرية بثنائيتها المتقابلة، إلاّ أننا لا نولد أشراراً وبأفعال مريضة، بل نولد مزوّدين (بقابلية وراثية) لفعل هذا السلوك أو ذاك،

---

(١) سورة البلد، ١٠.
(٢) سورة الإنسان، ٣.
(٣) سورة الليل، ٥ ـ ١٠.
(٤) سورة الزلزال، ٧.
(٥) الوسائل، باب ٩، ج٢، جهاد النفس، وكذلك ميزان الحكمة ج١، ص٣٦٢.

ويترك تحقيق الأفعال في عالم الواقع للتنشئة الاجتماعية ونقلها من قابليتها الوراثية إلى الواقع والتحقق سواء كانت هذه الأفعال خيرة أو شريرة، بيد أنَّ الأفراد يمكنهم الانتقال من سلوك ما إلى سلوك مضاد، ومن هنا يدعونا المشرّع التربوي الإسلامي إلى استثمار مرونة قابليتنا الوراثية وإصلاح ذواتنا بعناصر الخير والاستجابة لقوانين تغيير النفس من داخلها.

وإذا كان الناس في كل عصر يمكنهم تربية الحيوان على عادات سلوكية لفترة معينة ثم استبدالها ـ مرّة ثانية ـ بعادات أخرى فإن الذات البشرية أكثر هذه المخلوقات استعداداً لتقبل الأضداد وتغيير عاداتها حتى تستقر على الوضع المقبول شرعاً واجتماعياً.

إن الإنسان يملك القدرة على حمل الحيوان على تغيير صفاته وترويض عاداته السلوكية من التوحش إلى الأنس، والفرس من الجماح إلى الانقياد، والكلب من الهراشة إلى التأدب، فكيف يمكن في حق الإنسان[١]؟

ونجد هذا التغيير السلوكي واضحاً في المواقف والمشاهد الاستعراضية التي يؤديها بعض الحيوانات كالأسود والقردة وغيرهما في أعمال (السيرك)، حيث تدل هذه المشاهد على قدرة الإنسان على تعديل سلوك الحيوان، وهو كائن أقل منه ذكاءً وإدراكاً وقابلية للتغيير في السلوك، فإذا كان حال الحيوان هكذا يحمل بين جنبيه قابلية تغيير السلوك بسلوك مضاد آخر، وتعديل عادة سلوكية خاطئة بعادة أخرى صحيحة فإن النفس الإنسانية لديها قابلية أكبر لقبول الأضداد مع الفارق الكبير بين إمكانات الحيوان وقدرات الإنسان.

(١) جامع السعادات، ج١، ص٥٧.

إن النفس الإنسانية كما تثبت حقيقة أحوالها (حرون) لا تنقاد بسهولة لتغيير ما هو مألوف من السلوك خاصة إذا استحكمت فيها العادات مدة طويلة ورسخت في أعماقها بقوة، فكل عادة لها سلطان على النفس الإنسانية، ويمكن أن يؤثر طول المدة ورسوخ العادة في عملية التغيير النفسي وتأخر فترة علاج السلوك وتعديله، ويشهد الأخلاقيون بهذه الصعوبة، يقول الشيخ النراقي رحمه الله عن تحكم السلوك المألوف في النفس: «إذا استحكمت فيها الأخلاق تعسر قبول أضدادها»(١).

ويريد الشيخ النراقي تنبيه المعالج النفسي المسلم بصعوبة تغيير العادات السيئة إلى عادة سليمة مضادة أو حتى تغيير السلوك الحسن إلى ضده، ومن هنا قيل في الحكمة الشريفة: «أصعب السياسات نقل العادات»(٢) كما جاء عن الإمام علي عليه السلام.

لكن صعوبة التغيير لا يعني أبداً استحالته وعدم إمكانية تحقيقه في الحياة الإنسانية، فالتاريخ مليء بالدعوات الإصلاحية وبخاصة الإيمانية التي تمكنت من إحداث تغيير نفسي على مستوى الأفراد والجماعات وقبول النفس بوجه عام للأفكار والعادات والمشاعر المضادة.

وعلى كل حال يكلف قبول النفس لأضدادها من السلوك الجديد غير المألوف جهداً صعباً لا ترغب فيه بادئ الأمر لأن طبيعة المعركة الجهادية تقتضي المواجهة المباشرة اليقظة مع العادات المطلوب تغييرها أو تعديلها، لكنها بالتدريج تبدأ في التعود على هذه المواجهة والاستجابة العادية للضغوط، فيكسبها هذا التعود قدرة على التفاعل الطبيعي السوي مع

(١) المصدر السابق، ج١، ص٤٨.
(٢) ميزان الحكمة، ج٧، ص١٢٥.

الاستجابات الجديدة المراد التدرب عليها وتأصيلها في كيان الشخصية، ومن هنا تتحول خلايا الجهاز العصبي للإنسان بطريقة تدريجية إلى خلايا منفتحة على الخير وأفعال الطاعات التي تحفظ للذات توازنها الداخل، لذلك قال الإمام علي كلمته الدقيقة الخالدة:

«غيِّروا العادات تسهل عليكم الطاعات»[١].

ثانياً: دعوة المشرّع الإسلامي للعمل بمنهج الأضداد:

أشرنا إلى أن دعوة المشرّع التربوي الإسلامي لمعالجة النفس بطريقة الأضداد يقوم على أساس تفهم التركيبة الثنائية للطبيعة البشرية وتفهم القابلية الداخلية (للأضداد) في هذه التركيبة، وهذا أحد أسرار قدرة النص التربوي الإسلامي وفعاليته على علاج الذات الإنسانية بهذا المنهج.

ومما لا شك فيه أن نصوص المشرّع التربوية تحث الفرد المسلم دائماً على الالتزام بنظام المعالجة السيكولوجية بالأضداد، وسوف نجد في تضاعيف دراستنا نصوصاً للمشرع تؤيد رأينا، وأن هذه النصوص تتناول نظام المعالجة بالضد إجمالاً والإشارة إلى خطوطها العامة، وأحياناً تعطي أفكاراً تفصيلية تناسب كل مرض سلوكي على حدة.

وتتضمن هذه النصوص شروط وأسس ومراحل وأنماط وطرق وصعوبات منهج المعالجة بالأضداد، كما تحتوي على كشف مرن في قدرة هذا المنهج العلاجي الإسلامي على إحياء قابليتنا وتنشيطها بمفاهيم وقيم عبادية، ونأمل أن تتمكن هذه الدراسة من تحقيق تفاعل إيجابي بين الذات والمنهج.

---

(١) المصدر السابق، ج٧، ص١٢٥، وكذلك كتاب ٢٠٠٠ كلمة، ص٧٦.

وقد حدّد هذا المنهج صفات المعالج النفسي المسلم ونمط العلاقة بينه وبين مرضاه، كما أوضح كذلك ضرورة استخدام التعلم الذاتي كأحد الأساليب العلاجية لهذا المنهج، وحاول منهج العلاج النفسي بطريقة الأضداد تحديد موقف المعالج المسلم إزاء الصفات الوراثية التي لم يكن للفرد فرصة اختيارها[١].

إن اهتمامات منهج المعالجة بالأضداد بإعادة صياغة الشخصية الإسلامية وتربيتها تتطلب توظيف واستثمار مختلف الوسائل التغييرية الإسلامية لتنشيط قابلية النفس وتربيتها من جديد على اكتساب أنماط من السلوك العبادي السوي رغم الصعوبات المتوقعة أثناء فترة العلاج، بيد أن العاملين بمنهج الأضداد والداعين إلى العمل به يدركون منذ البداية الأثر السلبي للأخلاق المذمومة والرذائل في تضليل العقل المسلم وحجب الرؤية الواضحة عنه في معرفة الله سبحانه، وهذا ما أكّده الشيخ النراقي وابن مسكويه:

«الأخلاق المذمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الإلهية والنفحات القدسية، إذ هي بمنزلة الغطاء للنفوس، فما لم يرتفع عنها لم تتضح لها جلية الأمر اتضاحاً، كيف والقلوب كالأواني، فإذا كانت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء، فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها معرفة الله وحبه وأنسه»[٢].

---

(١) نأمل بحث موقف المشرّع التربوي الإسلامي من المسألة الوراثية وتأثيرها على تكوين السلوك الإنساني وتعديله خاصة بعد التطورات التي أنجزها علم الهندسة الوراثية، فثمة إشارات ـ بين ثنايا النصوص الإسلامية خاصة النصوص الروائية ـ إلى إمكانية إحداث تحسين وراثي لدى الكائن الآدمي يؤدي في النهاية إلى تطورات إيجابية على النسل وتحسينه، وهو أمر ينعكس إيجابياً على الشخصية الإنسانية كالسيطرة على الجينات التي تسبب أمراض الشيخوخة أو الأمراض الوراثية أو تدمير الخلايا السرطانية.

(٢) جامع السعادات للنراقي، ج١ص ٤٣، وكذلك كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه، ص٣٣.

وهذا وحده يكفي كمسوغ يجعل المعالج النفسي المسلم يبذل قصارى جهده لإحياء هذه القابلية وتنشيطِ القابلية فاعليتها التربوية في عالم الكبار أولاً سواء كان هؤلاء المكلفون يعانون من مرض نفسي واحد أو أكثر من مرض، ومن هنا يجب على المعالج المسلم ـ كمربي ـ أن يبدأ بتخلية نفوس مرضاه من الشحنات المرضية سواء كانت معرفية أو وجدانية، ثم يتبع ذلك بتحلية نفوسهم بالفضائل وأنماط السلوك السوي الذي يبتغيه المشرّع التربوي الإسلامي تمهيداً لمرحلة التجلية أو الإشراق الروحي والعقلي، وبالتالي تتجسد حركة العلاج النفسي الإسلامي في عمليات ثلاث هي التخلية فالتحلية ثم التجلية.

ثالثاً: انحرافات الكبار الفكرية والسلوكية وأثرها على الصغار:

ما علاقة الصغار بموضوع بحثنا؟

يبدو للوهلة الأولى أن وضع هذا السؤال بين صفحات هذا البحث غير طبيعي، وفي غير محله، لأن منهج المعالجة بالأضداد موجّه في المقام الأول للكبار وليس للصغار، وفي اعتقادنا أن هذا المنهج العلاجي والتربوي قد ركّز على حلّ مشكلات الإنسان بلا تمييز بين كبار أو صغار، ولكنه اهتم بالكبار بوجه خاص بمعالجة مشكلات الكبار أولاً وإيجاد حلول لها لأنها تؤثر بقوة على تربية الصغار واستقامتهم العقائدية والسلوكية.

إن هذا البحث يحاول أن يغيِّر من المفهوم الخاطئ الذي يعتقده بعض الناس وهو أن الكبار ليسوا بحاجة إلى رعاية جديدة وإعادة تربية، وأن التربية يجب أن ترمي بثقلها الأكبر على الصغار وتنشئتهم السليمة، وهذا خلاف ما يريده المشرّع التربوي الإسلامي.

لهذا يوجّه منهج التربية الإسلامي أنظارنا إلى ضرورة تطبيق نظام

التربية الشاملة لمختلف فئات العمر، وفي مختلف دورة النمو النفسي كلها، وبالتأكيد فإن أساليبه وطرائقه ليست واحدة، إذ يبدأ بالتربية الوقائية للطفل الغض الذي لم يعرف الانحرافات، ويوسع من دائرة العناية به قبل أن تمسه البيئة الفاسدة بأوضارها وأدرانها، وإن كان في الوقت نفسه لا يهمل أبداً كل خلل مرضي قد ينشأ في شخصية الطفل في وقت مبكر، كما أنه يستعمل مع الكبار منهجه بشقيه الوقائي والعلاجي.. أي يهدم فيرمم السلوك جزئياً إذا تطلب الأمر، وقد يبني أو يعيد البناء من جديد حين يستدعي الموقف تغييراً جذرياً.

والأطفال هم اليوم «صغار قوم يوشك أن يكونوا كبار قوم آخرين»[1] في المستقبل بسبب نموهم الطبيعي المعتاد في حياة الإنسان، يقول الإمام الحسن بن علي عليه السلام: «إنكم اليوم صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار قوم آخرين».

لهذا يحاول منهج الله تعالى إحداث تغيير داخلي عميق أو طفيف في نفسيات الكبار وإصلاح ذواتهم من جهة وتهيئتهم لأدوار تربوية يؤدونها بالنسبة للصغار من جهة أخرى وحمايتهم من انحرافات البيئة العقائدية والأخلاقية والسلوكية، ولن يقدر للصغار الحصول على شيء من التربية الإسلامية السليمة ما دام الكبار ـ آباءً ومعلمين وقادة فكر أو توجيه ـ لم يتلقوا جميعاً أصول التربية المذكورة آنفاً.

ومن المؤكد أن نفوس الصغار سوف تتأثر بأخطاء التربية المنحرفة التي تلقوها من آبائهم ومعلميهم والكتّاب والصحفيين، وحينئذ يحتاج المربي

---

(١) الطفل بين الوراثة والتربية، ج١، ص٤٤٥ نقلاً عن بحار الأنوار ج١، ص١١٠، وأيضاً كتاب كلمة الإمام الحسن، ص٦٨.

المسلم إلى إعادة تربيتهم من جديد كما فعل الإسلام في فترة الرسالة وفترة الخلافة الراشدة، وسيكون العلاج بدون شك أكثر صعوبة من عملية تدريب وقائي، فتربية الكبار يساعد المربين على تربية الصغار بجهد أقل، لهذا قال الإمام الصادق: «يحفظ الأطفال بحفظ آبائهم»[١].

ولذلك حذر الرسول ـ وهو ينظر لمستقبل أبناء المسلمين من خطورة التربية المنحرفة للكبار ـ بالذات الآباء فقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم:

«ويل لأولاد آخر الزمان من آبائهم، فقيل يا رسول الله من آبائهم المشركين؟ فقال: لا، من آبائهم المؤمنين لا يعلمونهم شيئاً من الفرائض، وإذا تعلم أولادهم منعوهم، ورضوا عنهم بعرض يسير من الدنيا، فأنا منهم بريء وهم مني براء»[٢].

إن المنهج الإسلامي يرغب في تعويد الأطفال على الأعمال الصالحة منذ نعومة أظفارهم لأنه أضمن طريق لبناء شخصياتهم.. أي البدء بتحلية ذواتهم بالفضائل والقيم العبادية الصالحة كيلا يضطر المربي إلى تخلية نفوسهم من الأفكار والعادات الخاطئة.. بيد أن نجاح المربين في إيجاد وتكوين شخصية سوية وسليمة بالمعايير العبادية يحتاج إلى تربية الكبار أولاً وتأهيلهم لأداء هذه المسؤولية، ففاقد الشيء لا يعطيه كما يقول المثل المشهور.

وسنناقش أربع مسائل أساسية متصلة مع بعضها وهي على النحو التالي:

---

(١) جامع السعادات للنراقي، ج١ص ٤٣، وكذلك كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه، ص٣٣.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٤٤٥ نقلاً عن الطفل بين الوراثة والتربية، ج٢، ص٢٥٢.

ـ تأثير الانحرافات الأخلاقية للمربين على شخصية الطفل.

ـ سهولة قبول الطفل للأخلاق والأفكار والعادات الجديدة.

ـ أهمية تغيير سلوك الكبار وتفكير الكبار وأثره على تربية الكبار في تربية الصغار.

ـ مسؤولية المربين تجاه الصغار.

* * *

١ ـ تأثير الانحرافات الأخلاقية للمربين على الطفل:

لا أحد من الناس يجهل التأثيرات السلبية لانحرافات المربين الفكرية والأخلاقية على شخصية الطفل خاصة في عصرنا الذي تنوعت فيه وسائل السيطرة للكبار من إعلام ومناهج تعليمية ومؤسسات دينية واجتماعية كالبيت والمسجد والأندية الأهلية والعامة، فهؤلاء يتعاملون مع الطفل يوميًا ويؤثرون على تكوين ذاته سلباً وإيجاباً مع فارق في درجة التأثير، فالأبناء يتأثرون بالآباء والمعلمين وأئمة دور العبادة ويتأثرون بما تقوم به المدرسة ووسائل الإعلام من أدوار ثقافية وتربوية وسلوكية وترفيهية وما تعرضه من أفكار سياسية موجّهة، ثم يأتي بعد ذلك ما تقوم به مؤسسات أخرى في المجتمع مساهمة منها في تنشئة الطفل وتطبيع شخصيته.

ومن هنا يتبين أهمية وخطورة ما يقوم به الكبار من أدوار إيجابية أو سلبية، فالانحرافات الفكرية والسلوكية والأخلاقية للمربين الكبار في أي موقع تربوي خاصة الآباء والمعلمين تعتبر في نظرنا سبباً كافياً للعمل بمنهج المعالجة السيكولوجية بالأضداد، وهو في الوقت نفسه سبب يدعونا إلى قبول دعوة المشرّع الإسلامي باستخدام هذا المنهج لإعادة تربية الكبار وفق قواعد ومعايير وأسس التربية العبادية، وتخليصهم من الأخطاء ومساعدتهم

على التحرر من الذنوب ليتمكنوا من استئناف أدوارهم التربوية في بناء المجتمع من جديد.

إن الطفل ـ عادة ـ يتعلم بالقدوة السيئة كما يتعلم بالقدوة الحسنة، فهو يتعلم أنماط السلوك الخاطئ كالكذب والعدوانية والمفاخرة المتعصبة والتواكل والاعتماد على الغير ومعايرة الآخرين والسخرية بأنداده، وعقوق الوالدين والسرقة وعادات سلوكية خاطئة أخرى، حيث تنشأ هذه العادات السيئة في وسط بيئة فاسدة، ومن المؤكد أن انحرافات الكبار تعوق الصغار من تلقي التربية السليمة التي يشدد عليها المشرّع التربوي الإسلامي في تكوين الأفراد والجماعات، وتمنع الكبار أنفسهم من تربية شخصياتهم كما يريد المشرّع الإسلامي لا سيما إذا عمل بالمعاصي والذنوب علانية وجهراً، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إذا عمل بها ـ أي عمل الفرد المعصية ـ علانية ولم يغيّر عليه أضرت بالعام»[1] لأن ذلك يتفق مع مبدأ أثر انتقال التعلم، حيث يسري أثر التعلم الخاطئ بسرعة في حياة المجتمع.

كما أن المشرّع الإسلامي طالب المسلم أن يكون طبيباً لنفسه سواءً عن طريق تعلم ذاتي أو بملازمة معلم أو معالج نفسي مسلم، يقول الإمام الصادق مرّة أخرى:

«إنك قد جعلت طبيب نفسك، وبين لك الدواء، وعرفت آية الصحة، ودللت على الصحة، فانظر كيف قيامك على نفسك»[2].

ومن هنا نهى المشرّع التربوي الإسلامي عن كثير من أساليب التربية الخاطئة عند الكبار التي تمثل في واقعنا أمراضاً تعيش في بنية المجتمع

---

(١) الطفل بين الوراثة والتربية، ج١، ص٢٩٠.
(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٣٩٢.

وسيكولوجية المربي، كالإفراط في المدح والذم دون استحقاق، والقسوة في معاملة الطفل، والتدليل الزائد، والحرمان والتذبذب، وقد أشارت النصوص التربوية للمشرع الإسلامي إلى أثر هذه الأساليب الخاطئة في تنشئة منحرفة للأبناء.

تقول بعض النصوص الإسلامية:

«شر الآباء من دعاه البر إلى الإفراط»[١].. أي التدليل الزائد...

وشر الأبناء من دعاه التقصير إلى العقوق»[٢].. أي ظاهرة العقوق للأبوين اللذين يقصران في أداء حقوق الأبناء.

«أكبر الحمق الإغراق في المدح والذم»[٣].

«الإفراط في الملامة يشب نيران اللجاج»[٤].

«كثرة التقريع يوغر القلوب ويوحش الأصحاب»[٥].

«كثرة العتاب يؤذي بالارتياب»[٦].

ويشير دعاء سيدنا نوح عليه السلام إلى أثر انحرافات الكبار على تربية الصغار، يقول القرآن الكريم:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[٧].

---

(١) الطفل بين الوراثة والتربية ج٢، ص١٢٠ نقلاً عن تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص٥٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الطفل بين الوراثة والتربية، ج١، ص٣٠١.
(٤) تحف العقول، ص٨٤.
(٥) الطفل بين الوراثة والتربية ج١، ص٧٨.
(٦) ميزان الحكمة، ج٧ باب العتاب، وكتاب ٢٠٠٠ كلمة، ص٨٠.
(٧) سورة نوح، ٢٦ ـ ٢٧.

فالآية القرآنية كما يتضح من كلماتها المباركة تعني إمكانية انتقال الصفات الشخصية السيئة للآباء إلى أبنائهم إما عن طريق وراثي أو عن طريق بيئي، فإذا أبقى الله تعالى هؤلاء الآباء الضالين تركوا بصمات انحرافاتهم على صغارهم، وانتقلت سماتهم عبر الجينات الوراثية أو حاملات الصفات الوراثية كالقابلية للخوف أو الغضب أو التبلد الانفعالي لحظة انعقاد النطفة أو وقت الجماع أو من خلال تدخلهم البيئي.

ولهذا نهى المشرّع في نصوصه عن الجماع أثناء وقوع الزلازل والريح السوداء وخسوف القمر وكسوف الشمس وسائر الكوارث الطبيعية التي تحدث حالات من التأزم النفسي[١]، ولعل سيدنا نوح يقصد إمكانية تكوين استعداد وراثي عن هذا الطريق، وقد يعني أيضاً تأثير البيئة المحيطة بالأبناء خاصة ما تقوم به عمليات التنشئة الاجتماعية.. وهو تأثير ضال كما أوضحته الآية القرآنية:

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[٢].

ولذلك يؤكد الإمام الحسن العسكري عليه السلام على ضرورة أن يكون الوالدان حين لقائهما الجنسي في حالة ارتياح وطمأنينة وسكون نفسي لتأثير هذه الحالة الانفعالية التي يكون عليها الأب والأم لحظة الجماع على التكوين الوراثي والنفسي للأبناء سواء بتكوين قابلية وراثية إيجابية أو سلبية وانعكاس هذه القابلية على المكونات السلوكية العامة للشخصية.

تقول الرواية المنسوبة للإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام:

«إذا أتى أحد أهله.. يقصد الرحل.. بقلب ساكن وعروق هادئة،

---

(١) أوضحنا ذلك في كتابنا «التربية الجنسية للأطفال والبالغين»، الفصل الثاني.

(٢) سورة نوح، ٢٧.

وبدن غير مضطرب، استكنت تلك النطفة في الرحم، فخرج الرجل يشبه أباه وأمه»[١].

إن الأبناء يتطبعون بالسلوك الاجتماعي العام السائد في البيئة خاصة العائلية ويتشبهون بخصال أفراد مجتمعهم، فقلب الحدث كما يقول الإمام علي: «كالأرض الخالية، ما ألقي فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبُّك»[٢].

لا تتحدث النصوص السابقة عن تأثير انحرافات الكبار فحسب، بل تدعو بوضوح إلى تغيير الحالة المزاجية والفكرية والأخلاقية السيئة لديهم من خلال عمليات التحسين الوراثي والبيئي، وهي عملية لا نضمن نجاحها بدون تحسين البيئة الروحية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية.

٢ ـ سهولة قبول الأطفال للتغيير العبادي الجديد (للأخلاق المضادة)

كما تقبل نفسية الصغار انحرافات الكبار فهي تقبل أيضاً التعديلات السلوكية الإيجابية التي يبتغيها المشرّع التربوي الإسلامي لأنها من الفطرة، ولأن قابلية الجهاز العصبي عند هؤلاء الصغار على درجة كبيرة من المرونة ولديه قدرة على الاستقبال والتلقي والأخذ، وما على المربي الذكي سوى التبكير في اكتشاف الخلل والأخطاء السلوكية والعادات المطلوب تغييرها في شخصية الطفل، ثم العمل فوراً على إزالتها بسرعة هادئة ومدروسة قبل أن يستحكم هذا الخطأ أو ذاك في شخصية الطفل وطريقة تفكيره، فيكون التعديل فيما بعد أكبر صعوبة.

وكذلك تتوقف سهولة تقبل الصغار للأخلاق المضادة المطلوب تغييرها

---

(١) الطفل بين الوراثة والتربية، ج١، ص١٥٩.
(٢) نهج البلاغة، ج٤، ص٤٤٢.

أو تعديلها على قوة أو ضعف تأثر هؤلاء الصغار بانحرافات البيئة العائلية والاجتماعية، فكلما كان تأثير هذه الانحرافات لدى الكبار قوياً وعميقاً وشديداً كان تأثيرها في نفسية الطفل أشد وأقوى وأصعب في المعالجة السلوكية، لكن مستوى العلاج يكون أقل سهولة حين تكون الانحرافات بسيطة وغير مستحكمة بعد في شخصيات الآباء والمربين بوجه عام.

إن تدريب الطفل على الفضائل والسلوك الحسن المقبول اجتماعياً وعبادياً ليس أمراً هيناً سواء تمّ بطريقة وقائية أو علاجية، ولكن الأطفال الذين لم يعرفوا انحرافات البيئة هم بكل تأكيد «الأسهل قبولاً لكل خلق لخلو نفوسهم عن الأضداد المانعة من القبول»[١].

وحين يتعرض هؤلاء الصغار لقدر بسيط أو طفيف من الفساد أو السلوك الخاطئ فإن المربي أو المعالج النفسي المسلم لن يجدان صعوبة كبيرة لتخليص نفوس هؤلاء الصغار من الأخلاق الفاسدة لأن الجهاز العصبي لديهم ما يزال مرناً، ولأن البيئة المنحرفة لم تحفر قنوات أو أخاديد عميقة في نفوسهم، كما أن قدرتهم على التلقي والاستقبال أكثر مرونة مما هي عند كبار السن، لهذا نلاحظ أن الطفولة وسن الفتوة هي أكثر سنوات العمر قبولاً للتغيير الداخلي الذي ينعكس في حركة الذات، وقد شدّ هؤلاء الفتوة أزر الدعوات الإيمانية وناصروها بقوة لأنهم يمتازون بطبيعة انقلابية جعلتهم يتقبلون العادات الجديدة المضادة لعاداتهم المألوفة في حياتهم والتي دعا إليها الأنبياء والمصلحون.

٣ ـ أهمية تغيير سلوك وتفكير الكبار وأثره على تربية الصغار:

أراد المشرّع التربوي الإسلامي أن يغيّر من النظرة غير الصحيحة

---

(١) جامع السعادات، ج١، ص٥٩.

لبعض الناس وهي أن الكبار ليسوا بحاجة إلى تربية جديدة أو إعادة تعلم بطريقة جزئية أو بطريقة كلية شاملة وجذرية كما سيأتي القول لاحقاً، فالبعض يرى أنهم تلقوا منذ نعومة أظفارهم ما احتاجوه من تربية وأنهم أصبحوا الآن راشدين تجاوزوا سن التلقي والأخذ والاعتماد على غيرهم، وأصبحوا بعد تجربتهم في الحياة مصدر عطاء للآخرين، ويسيطر هذا المفهوم الخاطئ على ذهنية كثير من الكبار الذين جهلوا تقلب النفس وتغير أحوالها.

إن منهج الله تعالى يأخذ بيد الإنسان منذ اللحظة التي يدخل فيها دنياه القصيرة وعرض عليه تشريعاته ليسترشد بها على امتداد عمره، وطلب الإسلام منه أن يمارس نظام المجاهدة النفسية المستمرة والبحث الدائم عن أفضل أساليب وطرق تحسين وضع الذات على كافة مستوياتها وجوانبها وعناصرها، ويستخدم نظام المجاهدة المذكور على مستويين أحدهما وقائي والآخر علاجي، وذلك ليس لبناء الذات فحسب وإنما للقيام بمسؤولية التربية والتوجيه للآخرين لا سيما الناشئة على أسس عبادية.

وتتطلب المهمة السابقة إبقاء الذات في مجاهدة نفسية دائمة لتكون قادرة على تقديم نفسها نموذجاً يعلّم الناس ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، يقول الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام:

«من لم ينسلخ من هواجسه، ولم يتخلص من آفات شهواتها، ولم يهزم الشيطان، ولم يدخل في كنف الله وتوحيده، وأمان عصمته، لا يصلح له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1].

---

(١) الطفل بين الوراثة والتربية، ج٢، ص٣٦٢.

وهذا منطقي، فالفرد الذي يعجز عن تربية نفسه ويفشل في وقايتها من انحرافات البيئة وأوضارها وأوساخها لا يستطيع أبداً تربية نفوس الآخرين، ومن هنا يقول الإمام علي:

«ميدانكم الأول أنفسكم، إن قدرتم عليها كنتم على غيرها أقدر، وإن عجزتم عنها كنتم عن غيرها أعجز».

وقال في نصّ آخر: «وعلى العاقل أن يحصي على نفسه مساويها في الدين، والرأي، والأخلاق، والأدب، فيجمع ذلك في صدره أو في كتاب، ويعمل على إزالتها»[١].

وعليه أيضاً أن يتقدم في تطوير قدراته وإمكاناته لأن «من تساوى يوماه فهو مغبون ومن كان أمسه خيراً من غده فهو ملعون»[٢] كما نسب إلى الإمام الصادق.

ومضمون النص التربوي الإسلامي السابق الذكر يركز على قضيتين متداخلتين ومتصلتين أولاهما أن الفرد المسلم الذي يجعل يوميه.. أمسه وغده.. متساويين فقد ظلم نفسه، والثانية أنه ينال غضب ربه إذا لم يسع إلى ترقية شخصيته وتطوير قدراته، فجعل أمسه أفضل من غده، ولم يدخل على ذاته تحسناً ملحوظاً.

وليس أمام المربي المسلم سوى هذا الطريق.. طريق تغيير ما بالنفس وتخليصها من آفاتها، واستخدام آليات تقويم أعمال الذات ومعرفة ما هو صحيح وما ليس بصحيح، ويمكن لمنهج الأضداد أن يساعده في هذه المهمة التربوية، وأن يؤدي دوراً كبيراً في علاج أخطاء الذات وإزالة

---

(١) الطفل بين الوراثة والتربية، ج٢ ص٤٣٤.
(٢) «رسالة الأخلاق» للسيد مجتبى الموسوي اللاري، ص٩٦ نقلاً عن كتاب معاني الأخبار، ص٣٤٢.

أعراضها المرضية، ليتسنى للمربي المسلم القيام بمهمته في بناء ذاته، والمساهمة الفعالة في تربية أفراد المجتمع خاصة صغاره.

٤ ـ مسؤولية الوالدين:

يتضح لنا مما سبق أن للمربين مسؤولية مزدوجة.. تجاه أنفسهم وتجاه الآخرين.. وقد أفضنا في الحديث عن مسؤوليتهم في بناء ذواتهم وسنتابع ذلك في مواطن أخرى من البحث.

كما أن هؤلاء المربين خاصة الآباء والمعلمون والعلماء (أصحاب الكلمة) مسؤولون عن تربية الآخرين من زاويتين:

الأولى: من حيث إن هذه المسؤولية فرض كفاية تسقط إذا قام بأدائها بعض أفراد المجتمع، فإذا أدى بعضهم هذه الأمانة الدينية.. وهي مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. سقط عن البعض الآخر مسؤوليته وإلاّ أثم الجميع.

الثانية: من حيث إنها واجب شرعي وفرض عين لا بدّ للمربي ـ كالأب مثلاً ـ أن يؤديه عملاً بقول الله سبحانه وتعالى:

﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[1].

وخلاصة الأمر أن مسؤولية المربي المسلم تتمحور في أمرين:

١ ـ أن يكون المربي بصيراً وخبيراً بواجباته المعرفية، وأن يكون على دراية بالإسلام وعلم بأحكامه وأساليبه التربوية بشقيها الوقائي والعلاجي، وتطبيق هذه المعرفة على الذات، فلا قيمة للعلم والمعرفة إذا كانت للمباهاة والمفاخرة وكسب الجاه والشهرة وتحصيل المال لأن المعرفة في نظر المشرّع التربوي الإسلامي فقه العمل وضبط وتوجيه مستنير للحياة.

---

(١) سورة التحريم، ٦.

٢ ـ أن يكون المربي المسلم فاضلاً في نفسه يسمو بها دائماً، طبيباً لأسقامها كما ذكرنا، وإلاَ كيف يتسنى له القيام بدور التوجيه للغير وهو لم يتمكن بعد من تربية ذاته على النموذج العبادي؟ وكيف يمكنه تنفيذ معارفه النظرية وهو ـ موضع نقد وعدم رضا ـ من الأفراد الذين يتولى الإشراف على تربيتهم؟

وقد وردت نصوص عديدة تبين مسؤولية المربين والآباء بالخصوص، يقول النص النبوي الشريف: «حق الولد على والده أن يستفره أمه، ويستحسن اسمه، ويعلمه كتاب الله ويطهره»[١].

فالمقطع الأخير من النص (يعلمه كتاب الله ويطهره) يتضمن تلازماً بين الجانبين النظري والعملي في عملية التوجيه والتربية، لأن التعليم للسلوك العبادي ليس مجرد معرفة نظرية وإنما يتضمن مهارات وحركات صحيحة تنفذ وفق فقه وعلم ودراية مستقاة من مصادر التشريع الإسلامي ونصوصه التربوية.

وهناك نصوص أخرى مثل:

١ ـ روى الإمام الصادق عليه السلام عن جده رسول الله صلى اله عليه وآله وصحبه وسلم: «رحم الله من أعان ولده على بره؟ قال: قلت: [كيف يعينه على بره؟] قال ﷺ: يقبل ميسوره، ويتجاوز عن معسوره، ولا يرهقه، ولا يخرق به»[٢].

٢ ـ يقول الإمام علي: «خير ما ورّث الآباء الأدب»[٣].

---

(١) الطفل بين الوراثة والتربية، ج١، ص١٦٩.
(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٤٣.
(٣) المصدر السابق، ج١، ص٢٦٥.

ويقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين في رسالة الحقوق المشهورة:

«وأمّا حق ولدك فأن تعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره، وأنك مسؤول عمّا ولّيته من حسن الأدب، والدلالة على ربه عزّ وجل والمعونة على طاعته، فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه، معاقب على الإساءة إليه»[١].

ويحدّد الإمام الصادق ثلاث خصال على الوالد لابنه كما جاء في النص التالي: «يجب على الوالد ثلاث خصال: اختياره لوالدته، وتحسين اسمه، والمبالغة في تأديبه»[٢].

وهكذا أوضحت النصوص التربوية السابقة دور الآباء في عمليات التنشئة الاجتماعية وتأديب الإنسان وتهذيبه على السمات والفضائل الأخلاقية والشمائل الإنسانية منذ نعومة أظفارهم، بيد أن نجاحهم في أداء هذه المهمة التربوية يتوقف على تمكنهم من تربية أنفسهم في ضوء محدّدات ومعايير عبادية.

وقد أوردنا من قبل نصوصاً من التشريع التربوي الإسلامي تطالب الآباء والمربين بأداء مسؤولياتهم تجاه أنفسهم من جهة، وتجاه الآخرين وبخاصة ممن يكونوا تحت رعايتهم وإشرافهم من جهة أخرى.

رابعاً: حاجة المؤمن لمنهج المعالجة بالأضداد:

هناك مسوغ رابع يدفعنا إلى استخدام هذا المنهج وهو حاجة المؤمنين له كي يتمكنوا من تعديل سلوكهم وتربية أنفسهم في ضوء المعايير والقيم

(١) مكارم الأخلاق، ص٢٣٢، وأيضاً تحف العقول ص٢٣٨.
(٢) تحف العقول، ص٣٢٢.

التربوية والمعرفية والعبادية، خاصة أن الأمراض الروحية والسلوكية تستطيع أن تنفذ وتتسلل إلى داخل قلب الإنسان المؤمن في مواقف عديدة كالغفلة والتسرع في إصدار الأحكام والانفعال الشديد وسوء التقدير، فالإيمان الديني مهما تكنْ جذوره قوية وراسخة في نفسية المؤمن لا يعصم الإنسان دائماً من الوقوع في الخطأ أو مقارفة ذنب.

إن البعض من المؤمنين قد يتصور بتفكير غير صحيح أن الله عز وجل قد أمر في خطابه التربوي كافة المنحرفين والعصاة ومرتكبي الكبائر ومرضى القلوب وحدهم باستخدام منهج المعالجة بالأضداد كطريقة علاجية لتغيير أفكارهم ومشاعرهم الخاطئة، وتعديل سلوكهم غير المتفق مع قيم النظرية العبادية ونسقها المعرفي، وأن الفرد المؤمن الذي خالط قلبه الإيمان الروحي والديني ليس بحاجة إلى منهج التربية الإسلامي القائم على تغيير رذيلة بفضيلة من جنسها.

ومما لا شك فيه أن خطأ هذه النظرة وقصورها واضح في نصوص التشريع التربوي الإسلامي كما سنرى فيما بعد، ولا تؤيدها كذلك الممارسات الواقعية الخاطئة التي يرتكبها الناس يومياً.

فالنص التربوي الإسلامي والواقع الإنساني يرفضان حصر المرض النفسي في دائرة المنحرفين والعصاة ومرضى القلوب من غير المؤمنين فقط، وقد أشار المشرّع الإسلامي في نصوصه الكثيرة إلى شمول المرض النفسي وانطباقه على سلوك الأفراد والجماعات من المؤمنين أنفسهم، إذ كشفت هذه النصوص طبيعة الضعف الإنساني، وتدل على أن الضعف يمكن أن يتسلل إلى داخل النفس المؤمنة ويظهر في سلوكها وأفكارها ومشاعرها، وأكّدت نصوص المشرّع أن دخيلة المؤمن كأي إنسان جبلت

على كل خصلة مرضية عدا بعض السمات الحدية الفاصلة التي تخرج المؤمن من دائرة «الإيمان» كالكذب والخيانة.

إن الكذب والخيانة ـ كما جاء في بعض الروايات ـ يخرجان المؤمن من دائرة الإيمان إذا ما صدرتا عنه متعمداً، فهاتان الصفتان فاصلتان، يقول نصّ كريم: «يطبع المؤمن على كل خصلة»[١] للإشارة إلى إمكانية وقوع الإنسان المؤمن في حالات ضعف علنية أو خفية، ولكن النص السابق نفسه يستثني من ذلك ممارسة المؤمن عامداً لسلوك الكذب والخيانة، لذلك قال النص مستدركاً: «ولا يطبع.. أي الإنسان المؤمن.. على الكذب، ولا على الخيانة»[٢].

وفي نصّ آخر ورد عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام وهو يشدد على صعوبة اجتماع هاتين الصفتين في شخصية المؤمن، فقال:

«المؤمن لا يخلق على الكذب، ولا على الخيانة»[٣].

وعنه أيضاً قال: «يجبل المؤمن على كل طبيعة إلاّ الخيانة والكذب»[٤].

ويعني ذلك أن النفس المؤمنة أيضاً قد تتنكب الطريق وتتعثر الخطى، فتخاف أن تكتسب عادة الخوف المرضي من البيئة التي تعيش فيها، كالخوف من الموت، والخوف من الأشياء والسلطة والحيوانات والجبال العالية والأماكن المظلمة والخوف الزائد عن الحد على الولد والرزق،

---

(١) تحف العقول، ص٤٥.
(٢) المصدر السابق، ص٤٥.
(٣) المصدر السابق، ص٢٧١.
(٤) ميزان الحكمة، ج٤، ص٢٥ نقلاً عن بحار الأنوار، ج٧٥، كذلك انظر سورة النحل، ١٠٥.

ويمكن أن يقبل منها صدور بعض الحالات المرضية باستثناء عادتي الكذب والخيانة اللتان تمثلان خيطين فاصلين دقيقين بين الكفر والإيمان.

وتؤكد نصوص المشرّع المنتشرة في القرآن والسنة النبوية الشريفة أن حالات الضعف البشري كثيرة حتى إذا كانت الذات مؤمنة بربها وبمنهجه في الحياة، ومن الحالات التي يمكن أن تواجه المؤمنين وتكشف عن ضعفهم الكسل والبخل والتراخي وسرعة الغضب وحماقته والإسراف في لوم الذات والرغبة في الانتقام الشديد والطمع والإعجاب بالذات والقعود عن الجهاد ومقاومة الأعداء والمنّ على الآخرين والتشبث المرضي بالأولاد والحزن وكثير من أنماط السلوك الخاطئ الذي يأباه المشرّع التربوي الإسلامي، وتشهد آيات وأحاديث بذلك كما سنرى بعد قليل، وهذا كله يتطلب علاجاً نفسياً وتعديلاً للسلوك.

ومن النصوص الإسلامية التي تشير إلى نواحي الضعف الإنساني لدى المؤمنين ما يشير إلى خوف الإنسان المؤمن من أعداء الله، يقول النص القرآني الكريم:

١ ـ ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾[١].

٢ ـ وتقول آية أخرى تبين أن بعض المؤمنين تثاقلت نفوسهم عن النفور في سبيل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾[٢].

---

(١) سورة آل عمران، ١٩٧.

(٢) سورة التوبة، ٢٨.

٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[1].

٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[2].

٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾[3].

٦ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾﴾[4].

٧ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾[5].

٨ ـ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾﴾[6].

٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾﴾[7].

---

(١) سورة المنافقون، ٩.
(٢) سورة البقرة، ٢٦٤.
(٣) سورة الحجرات/ ١١.
(٤) سورة الحجرات، ١٢.
(٥) سورة الحجرات، ٦.
(٦) سورة الحجرات، ٩.
(٧) سورة الحجرات، ٢.

١٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ٢٠١﴾[١].

وبوسع القارئ الكريم أن يمدّ بصره في خطاب القرآن الكريم ويجول بفكره في آياته الكريمة، فيرى خطابه موجّهاً «للذين آمنوا» يأمرهم حيناً بالطاعة وينهاهم حيناً عن ارتكاب المعصية.

ففي الآيتين (٢٠٨ ـ ٢٦٤) من سورة البقرة تأمر الجماعة المؤمنة بالدخول في السلم والإنفاق في سبيل الله من طيبات رزقه المبارك، وفي آيات أخرى ينهاهم القرآن عن فعل المعاصي إمّا بتجنبها أو بتحرير النفس من أوزارها.

ومن الآيات التي طلب القرآن من فئة «الذين آمنوا» تجنب الوقوع في حالات الضعف أو الوقوع فعلياً فيها آيتي (١٠٠ ـ ١١٨) من سورة آل عمران، وآيات (٢٩ ـ ٤٣ ـ ٧١ ـ ١٤٤) من سورة النساء، وآيات (٥١ ـ ٥٤ ـ ٥٧ ـ ٩٠ ـ ٩٥) من سورة المائدة، وآيتي (١٥ ـ ٢٧) من سورة الأنفال، وآيتي (٢٣ ـ ٣٨) من سورة التوبة، وآية (٢٧) من سورة النور، وآيتي (١ ـ ١٣) من سورة الممتحنة، والآية الثانية من سورة الصف، وآيات عديدة تعبر عن حالات ضعف قد يصيب جماعة المؤمنين أسوة بالجماعات الإنسانية الأخرى، وبذلك فإنها بحاجة لمعالجة أخطائها وتعديل سلوكها وفق منهج المعالجة السيكولوجية بالأضداد الذي تركز عليه دراستنا.

النصوص القرآنية السابقة ـ كما ترى ـ تؤكد أمرين:

١ ـ إن الخطاب في الآيات الكريمة موجّه للمؤمنين.

---

(١) سورة الأعراف، ٢٠١.

٢ ـ وإن الآيات تبين حالات الضعف البشري التي يمكن أن يقع فيها المؤمنون باعتبارهم بشراً مثل سلوك الخوف من أعداء الله والنفور من القتال في سبيل الله والتشبث بالمال والولد والعدوان على بعضهم والسخرية والمن بالصدقات والتجسس والغيبة لبعضهم والتنابز بالألقاب ورفع الصوت فوق صوت النبي، فهذه جميعاً نماذج من السلوك الخاطئ على أقل تقدير، وقد يتحول الخطأ إلى حالة مرضية تحتاج إلى تدخل المعالج النفسي المسلم وإخضاع الفرد أو الجماعة إلى برنامج علاجي لتعديل وإزالة السلوك المرضي.

أمّا السنة النبوية الشريفة فأكّدت في نصوصها المتنوعة على حاجة الذات المؤمنة لاستخدام منهج الأضداد في مواجهة عادات السلوك الخاطئ أو المرضي، ويمكننا الآن تعزيز النصوص القرآنية ببعض النصوص النبوية بالرغم من أنّ النصوص القرآنية متواترة ولا تحتاج إلى مساندة من مصدر آخر، ولكننا آثرنا تعزيزها بنصوص نبوية لإمداد المسلم بنصوص تزيده وضوحاً، وسوف نكتفي بقليل منها.

ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه أنه قال:

«إياك والطمع، فإنه الفقر الحاضر»[١].

«قلة العفو أقبح العيوب، والتسرع إلى الانتقام أعظم الذنوب»[٢].

«الشره يشين النفس ويفسد الدين»[٣].

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٣، ص١٦٨.
(٢) غرر الحكم، ج٢، ص٥٣٧.
(٣) المصدر السابق، ج٢، ص٧٧.

ويقول أيضاً: «خصلتان لا تجتمعان في مسلم.. البخل وسوء الخلق»[١].

«الجبن والحرص والبخل غرائز سوء (أي طباع سوء) يجمعها سوء الظن بالله»[٢].

«إياك أن تسيء الظَّن فإن سوء الظن يفسد العبادة ويعظم الوزر»[٣].

«إذا تطيّرت فامض»[٤].

«احترسوا من سورة الغضب وأعدوا له ما تجدونه به من الكظم والحلم»[٥].

«اتقوا معاصي الله في الخلوات، فإن الشاهد هو الحاكم»[٦].

«إعجاب المرء بنفسه يدل على ضعف عقله»[٧].

«من أعجب بحسن حالته قصر عن حسن حليته»[٨].

«إذا اتهم المؤمن أخاه انمَاث الإيمان من قلبه كما يَنمَاثُ الملح في الماء»[٩].

«ما من رجل تكبر أو تجبر إلاّ لذلة في نفسه»[١٠].

---

(١) المعصية وآثارها في الحياة الإنسانية، ص٦٦.
(٢) ميزان الحكمة، ج٢، ص١٦.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ج، ص١٥٤.
(٤) تحف العقول، ص٤١.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، ص١٣٣.
(٦) نهج البلاغة، الحكمة ٣٢٤.
(٧) نهج البلاغة، ج٤، ص٧٢.
(٨) غرر الحكم ج، ص٤٧٨.
(٩) ميزان الحكمة، ج١، ص٥٣٨.
(١٠) الوسائل، باب ٥٩ حديث ٣.

«إن الله فوّض للمؤمن كل شيء إلاّ إذلال نفسه»(١).

«من أذاع فاحشة كان كمبديها»(٢).

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«إن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»(٣).

«لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وان كان حقاً»(٤).

«من تلذذ بمعاصي الله ذلّ»(٥).

وفي عهد دستوري منظم بعث الإمام علي عليه السلام لواليه آنذاك في مصر (مالك الأشتر) يقول:

«إيَّاك والمَنَّ على رعيتك بإحسانك، أو التزيد فيما كان من فعلك، وأن تعدهم فتتبع موعودك بخلفك، فإن المن يبطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحق»(٦).

إذن لا يكون الإنسان المؤمن فوق مستوى الشبهات دائماً، ولا تكون ذاته بريئة في كل الأحوال، فقد تقع نفسه ـ كما تؤكد تجاربنا الشخصية ـ في أخطاء تحت ظروف الغفلة أو الانفعال أو الحماس أو التعصب الشديد أو التسرع في الحكم على الأشياء أو لكسله وميله إلى الدعة والراحة، وقد يتسرب إليه الإعجاب بالذات فيتأخر عن الركب وتطوير قدراته وينسى

(١) تحف العقول، ص٧١.
(٢) المصدر السابق، ص٣٩.
(٣) أصول الكافي، ج٢، باب الحسد.
(٤) سفينة البحار، ج١، ص٥٢٢.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم، ج١ص ٣٢٤.
(٦) مستدرك الوسائل، ج٢، ص٨٥، كذلك نهج البلاغة، ج٢، ص٢١٠، وتحف العقول أيضاً، ص١٠٣.

نفسه، بينما يتحرك الآخرون عنه مسافات بعيدة، يقول الإمام علي: «الإعجاب يمنع من الازدياد»[(١)].

بل قد يتحول الخطأ إلى عادة سيئة أو معصية أو ذنب لا يتفق مع المعنى الصحيح للإيمان، وبعبارة أخرى قد لا يعصم الإيمان الهش الذات المؤمنة من الأخطاء والعيوب والذنوب، لأن إرادة المؤمن تواجه خاصة في عالمنا بمثيرات ضاغطة من البيئة المنحرفة فتعوق نموها الإيماني واستقامتها السلوكية.

ومن الممكن أن تضعف نفسه أحياناً في صراعها الداخلي مع هذه المثيرات والنوازع، وحينئذ تصاب ذاته بأمراض أخلاقية وسلوكية ودينية ونفسية كالبخل والخوف والكسل والحسد والتكبر والطمع والإسراف والرغبة في الانتقام والتسرع في الحكم والتقاعس عن مقاومة الكافر ولهو المال والبنين والغضب الشديد والغفلة وقبول المذلة وطول الأمل والإعجاب بالعمل وحب المدح والتسلط وسوء الظن بالغير وحب الدنيا والتعلق بحطامها وزخارفها.

وإذا أردنا استعارة مصطلح «الفروق الفردية» من علم النفس الحديث الذي أسماه النص القرآني «وسع النفس» فإن سمات الضعف في شخصية الإنسان المسلم تتوزع على امتداد خط مستقيم بدءاً من طرفه الأيمن حتى طرفه الأيسر، فهناك مسلم بخيل بدرجة شديدة ومسلم أقل بخلاً وثالث أقرب البخلاء إلى دائرة الكرم، وهكذا تتوزع كل سمة من السمات المرضية أو الخاطئة لدى الشخصية المسلمة بين الناس بدرجات متفاوتة، فالمؤمنون ليسوا متساوين في أمراضهم السلوكية والأخلاقية والنفسية والاجتماعية والإدراكية أو العقلية، وإنهم كذلك متفاوتون في السمات السوية.

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٤١.

ولا نبالغ إذا قلنا أن يكون للمرض في سيكولوجية الذات المؤمنة أثراً أقوى من قوة تأثيره في نفوس منحرفة، وأوسع مساحة في وجوده ولو كان في نطاق عادة سيئة كالاستجابة السريعة للغضب، فالمشاهدات اليومية تبين أن التدين المغشوش أو الهش يشحن بعض النفسيات بكثير من العادات والأخلاق السيئة المذمومة من وجهة نظر المشرّع الإسلامي أو بمنظور علماء العلاج النفسي، وليس مستغرباً أبداً أن يكون أحد المنحرفين أقدر من شخصية مؤمنة على ضبط نفسه والسيطرة عليها لحظة الغضب، فيمسكها عن التلفظ السيئ أو المبالغة في الانتقام من الغير رغم ما قد يسكن داخله من غلّ وسوء نية وحقد، لكنه يملك نفسه عن الغضب العلني، ويبدو شخصاً سوياً أمام الآخرين.

وربما يكون شخص آخر قليل التدين أو متمرداً عليه أسرع استجابة في البذل والإنفاق لدعم مشروع إنساني من إنسان مؤمن بالله لكنه يبخل بماله، ويحرم نفسه والمجتمع من مزايا نعمة المال الذي استخلفه الله تعالى عليه، وليس غريباً أيضاً أن يكون المؤمن المستقيم عبادياً وأخلاقياً وسلوكياً بوجه عام أقل شجاعة من شخص منحرف في الدفاع عن قضايا الناس مع ما يختزنه هذا المؤمن من تألم لأحوالهم.

صحيح أن مواقف «المنحرف» في هذه الأعمال قد تكون غير خالية من الشوائب التي تؤثر على سلامة النية وحسن الطوية، فقد يطلب ـ مثلاً ـ الشهرة أو يريد المفاخرة أو كسب ود الناس، فتؤثر تلك النوايا الداخلية سلباً على قيمة العمل عند الله عزّ وجل، ولكنّ هذه المواقف علنية واقعية لا تلغي جبن مؤمن وشجاعة منحرف أو بخل مؤمن وكرم منحرف وهكذا.

كما أن المشرّع التربوي الإسلامي لا يرى «الفعل» هو المطلب في

ذاته، لذلك يطلب من المؤمن إذا وفّر النية الصحيحة أن يقرن ذلك بالعمل الصالح ليضمن مستوى أفضل من الرضا الإلهي من جهة، ويعمل على تحرير نفسه من هذا المرض أو ذاك وتعديل سلوكه الخاطئ، فالمجاهدة النفسية عمل عبادي لا ينقطع في حياة الفرد المؤمن يسأل عنه العباد أمام الله.

إذا كان المرض النفسي لدى الشخص المنحرف كامناً في نية العمل الصادر في هذا الفعل أو ذاك، فإن طبيعة المرض النفسي عند المؤمن تكمن في اختفاء الممارسة العبادية في هذا الموقف أو ذاك، وبالتالي يسقط ركن من المسؤولية الشرعية للمؤمن، ومن هنا يطلب منه أن ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾(١) في كل أعماله ويحفظ قلبه حين يعمل الخير من كل شائبة، فيكون ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾(٢).

ويجد المسلم نفسه ـ حتى إذا تلقى تربية عبادية عالية ـ في مواجهة دائمة مع النفثات والخواطر الشيطانية التي تحاول أن تزين في نفسه المعاصي وتدفعه نحو ارتكاب الذنوب، فالمؤمن معني بمجاهدة نفسه بلا فتور وإلاّ تهيأت للمعاصي والعيوب ومن ثم الأمراض الروحية أو الفكرية أو العضوية التي ترتبط مع بعضها، لأن حركة النفس الأمارة بالسوء لا تنقطع أبداً، فخواطرها المريضة تداهم قلب الإنسان ـ مؤمناً أو غير مؤمن ـ باستمرار وفي كل لحظة، وتحاول تغيير مساره الإيماني الرباني حتى بقدر يسير، فإن هذا القدر يقبل التوسع تدريجياً إذا استمرت غفلة الإنسان المؤمن وأذعنت نفسه شيئاً فشيئاً لهذه الخواطر، يقول الإمام علي عليه السلام:

---

(١) سورة النساء، ١٢٥.
(٢) سورة البقرة، ١١٢.

«املكوا أنفسكم بدوام جهادها»[١].

فالمؤمن يجد نفسه دائماً في مواجهة مستمرة مع هذه الخواطر والنفثات الشيطانية، ومن المؤمل في ضوء تجربتنا البشرية أن تستقيم النفس مرّة وتخرّ مرّة أخرى حتى يندحر الشيطان وينتصر المؤمن على هذه الخواطر والتدفق الشهوي الزائد غير العقلاني، يقرّر نصّ تربوي إسلامي حتمية هذه النتيجة.

يقول الإمام الباقر عليه السلام: «إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها.. أي يعدل اعوجاجها.. ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه، فيتبع هواها، فينعشه الله فينتعش ويقيل الله عثرته، فيتذكر ويفزع إلى التوبة والمخافة، فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٣].

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «مثل المؤمن كمثل السنبلة تخر مرة، وتستقيم مرة، ومثل الكافر مثل الأرزة لا يزال مستقيماً لا يشعر»[٤].

كما أن المشرّع الإسلامي دعا في نصوصه التربوية إلى ممارسة فكرة النقد والنقد الذاتي الهادف البنّاء وجعلها جزءاً من العملية الجهادية مع الذات، وطلب من الإنسان المؤمن تطبيقها دائماً مع نفسه لتطوير قدراتها

(١) ميزان الحكمة، ج١٠، ص١٤٣.
(٢) تحف العقول، ص٢٠٦ ـ ٢٠٧، ونص الآية من سورة الأعراف آية ٢٠٠.
(٣) سورة العنكبوت، ٦٩.
(٤) تحف العقول، ص٦٩.

وصقل إمكاناتها في مختلف جوانبها، وكذلك لتعديل سلوكها بشكل مستمر، ولكي تتهيأ ذاته لمسؤوليات ومهام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تقول الأحاديث الشريفة:

«أقيلوا ذوي الهنّاة عثراتهم»[١]... أي أخطائهم وزلاتهم.

«أحب إخواني من أهدى إليّ عيوبي»[٢].

وخلاصة الأمر أن شخصية المؤمن ـ كما تؤكد النصوص والوقائع التي نعيشها ـ تمرض قليلاً أو كثيراً بخلق ذميم أو بعادة سيئة أو بسلوك مرضي معقد، وهنا تكمن حاجته لمنهج الأضداد والاستفادة منه في تعديل السلوك وتغيير الاتجاهات ومعالجة أخطاء ومحو سيئات.

وعلى ضوء ذلك كله، فإن المعالجة بمنهج الأضداد لم يستهدف منها المشرّع التربوي الإسلامي تقويم السلوك الخاطئ وتصحيحه عند المنحرفين كما يظن البعض من الناس، وإنما شرعه الله تعالى ليأخذ به كل مسلم يجد نفسه مسكونة بمرض بسيط أو أكثر تعقيداً أو يكتشف في ذاته عادة غير صحيحة بالمنظور العبادي. ويمكن للمسلم استخدام المعالجة الجزئية إذا كان يعاني من مرض واحد بعينه ويمكنه استخدام المعالجة الكلية الشاملة إذا كان يعاني من عدة أمراض سلوكية.

خامساً: قدرة العلاج النفسي بالأضداد على بناء شخصية متزنة متكاملة:

اتفق الإسلام وبعض نظريات علم النفس معاً في نظرة مشتركة هي أن الإنسان وحدة متكاملة مكونة من عدد من العناصر والجوانب المترابطة،

---

(١) تحف العقول، ص٤٧.
(٢) تحف العقول، ص٢٧٠.

حيث يؤثر كل جانب منها في الجوانب الأخرى، ويمكن اعتبار الشخصية الإنسانية في ضوء هذه النظرة كياناً سوياً متكاملاً حين تنتظم جميع عناصرها أو معظمها في اتجاه واحد، أما إذا اضطرب أحد هذه العناصر امتد أثره بالسلب إلى غيره، وهو أمر قد يؤدي بدرجات متفاوتة بين الأفراد إلى اضطراب شخصياتهم.

فالعاهات العضوية والتشوهات الخلقية في الجسم تؤثر في النفس، وقد تهيؤها للإصابة بحالات مرضية غير توافقية كالإحساس بالحقارة والشعور بالنبذ والحرمان والعزلة عن المجتمع والقلق العصابي وعدم الثقة بالنفس.

كما أن عدداً كبيراً من الأمراض العضوية (الجسمية) لها أساس نفسي كأمراض القلب والقرحة المعدية وقرحة الاثني عشر والسل الرئوي والربو الشعبي وحساسية اللثة والعين، وقد أحصى علماء النفس ما يقارب من ثلاثين مرضاً عضوياً ينشأ لسبب نفسي أو انفعالي.

لهذا يؤكد علم النفس الحديث على سلامة ودقة النظرة الإسلامية المؤمنة بوحدة الشخصية والتأثير المتبادل بين أجزائها الثلاثة.. النفس والجسم والعقل.. وأنشأ علماؤه فرعاً من الطب أسموه (الطب السيكوسوماتيكي) وظيفته دراسة العلاقة بين أجزاء الشخصية وجوانبها المتعددة، وقد دخل هذا الفرع الجديد ميدان العلاج بالمستشفيات والعيادات النفسية والعقلية، ونجح في تدريسه بكليات الطب.

ومن المؤكد أن إدراك العلاقة بين الأجزاء الثلاثة السابقة الذكر ليس كشفاً جديداً عرفته البشرية في عصرنا لأول مرة، فقد أشارت إلى هذه العلاقة بعض الاتجاهات التربوية القديمة، كما أن نصوص المشرّع التربوي

الإسلامي أقرت وجود علاقة بين النفس والجسم والعقل وتركت للعقل البشري إمكانية الكشف عن تفاصيل أوسع وأعمق نظرة.

لقد تضمنت النصوص الإسلامية إشارات عامة تدل على إيمان المشرّع بوجود تأثير متبادل بين الأجزاء الثلاثة، حيث أوضحت هذه النصوص أثر البدن في نشأة الحالات المرضية، ودعت على سبيل المثال إلى احترام ذوي العاهات وعدم السخرية من أهل البلاء والمجذومين ونهى عن معايرتهم والنظر إليهم باحتقار.

تقول النصوص الإسلامية:

«لا تديموا النظر إلى أهل البلاء والمجذومين فإن ذلك يحزنهم»(١).

«لا تنظروا إلى أهل البلاء فإن ذلك يحزنهم»(٢).

وقال نصّ ثالث: «من نظر إلى ذي عاهة أو من قد مُثِّل به أو صاحب بلاء، فليقل سراً في نفسه من غير أن يسمعه: «الحمد لله الذي عافاني»(٣).

«إسماع الأصم من غير تضجر صدقة هنيئة»(٤).

إن النصوص السابقة تبين بوضوح قوة العلاقة بين بعض الحالات المرضية الجسمية كالعاهات والتشوهات الخلقية بجوانب انفعالية مثل الضجر وقلق النفس والحزن والشعور بالنقص، لذلك نهى المشرّع التربوي الإسلامي في نصوصه السابقة عن المعايرة وتنابز الألقاب والنظرة المؤلمة، ودعا إلى إسماع أهل البلاء بكلمات خالية من التأفف والتبرم واعتبرها صدقة هنيئة.

---

(١) بحار الأنوار، ج١٦، ص١١٢.
(٢) المصدر السابق، ١٢٣.
(٣) وسائل الشيعة، للحر العاملي، ج٣، ص٢٠٩.
(٤) بحار الأنوار، ج١٦، ص١١١.

يقول القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[١].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «كفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عنه من نفسه، أو يعير الناس بما لا يستطيع تركه أو يؤذي خليله بما لا يعنيه»[٢].

كذلك نجد للأمراض النفسية والحالات السلوكية المذمومة تأثيرها على صحة جسم الإنسان، وقد أفاضت نصوص المشرّع الإسلامي في بيان هذا التأثير إيجاباً وسلباً، فانفعالات الإنسان خاصة الحالات الشديدة تؤدي إلى تغييرات فسيولوجية في البدن وملامح الوجه، ومن تلك التغيرات الفسلجية التي تصاحب الانفعالات اضطراب دقات القلب وتقلص الأوعية الدموية في الأمعاء والأحشاء واتساع الأوعية الدموية على سطح الجسم والأطراف، مما يؤدي إلى تدفق كميات كبيرة من الدم إلى القلب.

وقد وصف القرآن الكريم بعض مظاهر العلاقة القوية بين الحالات الانفعالية والتغيرات الجسمية، يقول القرآن في آياته الكريمة مبيناً تغيّر ملامح الوجه نتيجة تلاوة نصّ قرآني أو موقف انفعالي عصابي لدى بعض المرضى.

يقول القرآن الكريم في آياته المباركة:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾[٣].

---

(١) سورة الحجرات، ١١.
(٢) الكليني، الكافي، ج٢، ص٤٥٩.
(٣) سورة الحج، ٧٢.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[(١)].

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾[(٢)].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾[(٣)].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾[(٤)].

ثم تصف آيات أخرى بعض التغيرات البدنية نتيجة الحالة الانفعالية كأتساع حدقة العين، يقول القرآن الكريم:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾[(٥)].

وتشير آيات إلى حركات بدنية مرتبطة بحالات وجدانية كتنكيس الرأس وانكماش الجسم، يقول القرآن الكريم في هذا الصدد:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾[(٦)].

---

(١) سورة النحل، ٥٨.
(٢) سورة الزخرف، ١٧.
(٣) سورة الزمر، ٦٠.
(٤) سورة الانفطار، ١٣.
(٥) سورة إبراهيم، ٤٢.
(٦) سورة السجدة، ١٢.

وتقول آية أخرى:

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[1].

ولا يكتفي القرآن بتأصيل نظري لهذه العلاقة، بل يقدم مثالاً واقعياً تاريخياً يعبر بصدق عن مدى قوة العلاقة بين الحالة الانفعالية والإعاقة البصرية كحالة جسمية أو عضوية نشأت عن موقف انفعالي شديد الإثارة.

إن القارئ المسلم يعرف قصة سيدنا يوسف عليه السلام، فقد طرقت هذه السورة المباركة في عدد من آياتها الكريمة أنماطاً من السلوك السوي واللاسوي، بينت قوة الترابط والعلاقة بين الحالة النفسية من توتر وحزن وأسف وبين ما حدث من إعاقة عضوية تمثلت في حالة العمى التي أصابت سيدنا يعقوب عليه السلام، إذ أكّدت الآيات المباركة أن نبياً كريماً أودع الله تعالى فيه من الإرادة والقوة النفسية والصبر والقدرة على تحمل الشدائد تعرض لإعاقة بصرية تحت تأثير عامل سيكولوجي صعب.

فبعد أن سرد القرآن الكريم ما قام به أخوة يوسف من كيد موجّه ضده نشأت حالة نفسية شديدة واجهها سيدنا يعقوب، وعبرت آية قرآنية عن هذه الحالة، حيث تقول الآية الرابعة والثمانين من سورة يوسف أن أباهم سيدنا يعقوب عليه السلام صرف وجهه عن أبنائه الذين نفذوا جريمة الكيد بأخيهم ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾.

لقد غضب سيدنا يعقوب عليه السلام على أبنائه غضباً شديداً وازداد حزنه على ابنه يوسف وتدهور بصره وأصيبت عيناه بالعمى، وهي حالة إعاقة بصرية قد تكون مؤقتة، وبصرف النظر عما يتمتع به سيدنا يعقوب من قوة

(١) سورة الشورى، ٤٥.

احتمال على الشدائد وقدرة على مواجهة الإحباطات، إلاّ أن قوة الحالة الانفعالية تركت أثراً على نفسه، لكنه عليه السلام لم يجد بدّاً من مواجهة ما حدث بالصبر الجميل، وشهد على ذلك نصّ الآية الثالثة من السورة نفسها، تقول الآية: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

وقال أيضاً في الآية السادسة والثمانين من سورة يوسف: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

لقد أدرك ابنه العزيز نبي الله (يوسف) ما آل إليه حال أبيه من عمى أو إعاقة بصرية ـ أياً كانت ـ فأوصى اخوته أن يحملوا قميصه ليلقوه على وجه أبيه عسى أن يرتد بصره إليه بعد أن غفر لهم إساءتهم الكبرى، يقول القرآن الكريم بعد موقف حواري بدا فيه العتب واللوم والاعتذار والعفو وذلك في الآيات من (٩١ ـ ٩٨).

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

قد يكون العلاج إعجازياً غير مألوف للناس كما جاء في الآيات البينات، وقد يكون العمى حالة مؤقتة كالعمى النفسي الذي يتحدث عنه

علماء النفس، ولكن تعبير القرآن (وابيضت عيناه من الحزن. . وارتد بصيراً) قد يعني عمى فعلياً أشفاه الله بقدرته عن طريق إعجازي غير مألوف للناس هو إلقاء القميص على وجهه الكريم.

ومهما يكن نوع العلاج ـ إعجازياً أو طبيعياً ـ فإن القرآن الكريم وجه الأنظار إلى إدراك سيدنا يوسف للعلاقة بين سبب المشكلة وبين طريقة علاجها، وهي معالجة تبين العلاقة بين الجسم والحالات الانفعالية الشديدة.

قد يبدو لنا أن حدوث الإعاقة البصرية ناجم عن حزن شديد على فقد سيدنا يوسف، بيد أن التأمل في الآيات يضع أيدينا على سبب آخر، فأبناء نبي الله يعقوب عليه السلام شاركوا في حدوث بياض كامل في العين وعماها لأنهم السبب الرئيسي للمشكلة، إذ قهروا أباهم عليه السلام وأغاظوه لأن سلوكهم غير الأخلاقي انطوى على مواقف عدائية ضد أبيهم وأخيهم يوسف معاً ولم يفعلوا شيئاً جاداً لرفع حالة القهر النفسي عنهما، فالسورة المباركة تكشف لنا تسويفهم ومماطلتهم وكذبهم وسوء نواياهم خاصة أنهم حاولوا ارتكاب نفس الخطأ مع أخ آخر فزادوا والدهم يعقوب عليه السلام قهراً وغماً.

ويبدو من الآيات أن لغة الأبناء استكبارية لا تخلو من رغبة مريضة في إيذاء الأب، فبعد أن قال لهم أبوهم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ ردوا عليه بفظاظة وقسوة ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ حيث أخذتهم العزة بالإثم وتطاولوا على أبيهم وهو يذكرهم بمكانة يوسف لديه من جهة وبما فعلوه من جريمة، فلم يعجبهم منطقه الأبوي الإنساني فعادوا إلى فظاظتهم الكامنة في نفوسهم.

وحتى اعتذارهم لم يخلو من خبث فمزجوا اعترافهم بالخطأ أمام

أخيهم يوسف بقولهم ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ثم كرروا اعتذارهم مرّة أخرى بعد أن ألقى البشير قميص يوسف على وجه أبيهم فرد الله بصره، فوجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام الحقيقة فطلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم ما فعلوه.

إن قلب نبي الله يعقوب عليه السلام يسع جميع أبنائه بالحب والعفو، لكن مواقفهم العدائية مزجت مشاعر الحزن والقهر والإحساس بالمظلومية في نفسه، فولدت تلك المشاعر صدمة نفسية شديدة تركت أثراً على بصره.

أشارت أحاديث شريفة إلى تدهور صحة البدن بتأثير حالات انفعالية سيئة أو عصابية كالحسد والحقد والهم والخوف والتكبر وسوء الظن، تقول بعض الروايات الشريفة:

الحسد يذيب الجسد(١).

الحزن يهدم الجسد(٢).

الهم يذيب الجسد(٣).

الهم نصف الهرم(٤).

وإذا كان الجسم والنفس يؤثران في بعضهما سلباً وإيجاباً، فإن العقل أيضاً يتأثر بهما ويؤثر فيهما، تقول الأحاديث الشريفة:

من لم يهذب نفسه لم ينتفع بالعقل(٥).

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ج٢، ص٢٣.
(٢) المصدر السابق، ص٢٣.
(٣) المصدر السابق، ص٣٥.
(٤) نهج البلاغة، ج٤ ص٤٩٥.
(٥) غرر الحكم، ص٢٩٣.

من عشق شيئاً أعشى بصره وأمرض قلبه فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذن غير سميعة، قد خرقت الشهوات عقله[١].

غير منتفع بالحكمة عقل مغلول بالغضب والشهوة[٢].

إياك أن تأكل ما لا تشتهي فانه يورث الحماقة والبله[٣].

ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر إلاّ نقص من عقله مثل ما دخل من ذلك قل أو كثر[٤].

ما أضمر أحد شيئاً إلاّ وظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه[٥].

ما مزح امرؤ مزحة إلاّ مج من عقله مجة[٦].

الغضب يفسد الألباب ويبعد من الصواب[٧].

شدة الغضب تغيّر المنطق وتقطع مادة الحجة وتفرق الفهم[٨].

السرور يبسط النفس ويثير النشاط، والغم يقبض النفس ويطوي الانبساط[٩].

التخمة تفسد الحكمة والبطنة تحجب الفطنة[١٠].

---

(١) نهج البلاغة، ص٣٣٠.
(٢) غرر الحكم ص٢٢٣.
(٣) البحار، ج١ ص٢٢٦.
(٤) ميزان الحكمة ج٨، ص٣٠٠.
(٥) نهج البلاغة ج٤ ص٤.
(٦) نهج البلاغة ص٥٥.
(٧) ميزان الحكمة ج٧، ص٢٣٢.
(٨) المرجع السابق، ص٢٣٣.
(٩) ميزان الحكمة، ج٦، ص٧٣.
(١٠) المصدر السابق، ج٢، ص٧٣.

من قلّ أكله صفا فكره[١].

إن للقلوب خواطر سوء، والعقول تزجر عنها[٢].

بعد أن عرفنا التأثير المتبادل بين هذه العناصر الأساسية المكونة للشخصية الإنسانية ندرك أهمية المعالجة بطريقة الأضداد، حيث تترك هذه المعالجة أثراً ناجحاً على حركة العقل وصحة الجسم ونقاوة الروح واستقامة السلوك الأخلاقي، ومن هنا نرى أن منهج المعالجة النفسية بالأضداد لا يحصر مهامه التربوية في علاج النفس فحسب، بل يمتد إلى سائر عناصر الشخصية البشرية وجوانبها المختلفة وإنْ كانت درجات الاهتمام تختلف من جانب إلى آخر، فالمعالج النفسي ليس بالتأكيد طبيباً نفسياً يعالج الأمراض العضوية والنفسية، ولكنه يدرك علاقتها بالنفس والعقل معاً، لهذا يطلب الأول من الأخير معونته ويحيل الحالات الصعبة له، كما يطلب المعونة كذلك من طبيب الأمراض العقلية.

بيد أن المعالج النفسي المسلم مدعو كما تريد النصوص التربوية الإسلامية أن يتعامل مع العناصر السابقة حتى وإنْ كانت مهمته التركيز على معالجة النفس وتعديل سلوكها، لأن هذه النصوص تحثّه على الاهتمام بكافة جوانب الشخصية والاستعانة بأطباء العقل والجسم معاً إذا تطلب الأمر.

وقد تبدأ المعالجة بمشكلة أخلاقية أو نفسية ثم يمتد العلاج إلى العناصر الأخرى بدرجات متفاوتة، وهذا ينعكس على هذه العناصر ويحدث تحسن ملحوظ في الشخصية، فإذا تمكن المعالج من معالجة حالة انفعالية كشدة الغضب عند الفرد وحقق للمريض مستوى معقولاً من الضبط

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٥٤٤.
(٢) المصدر السابق، ج٦، ص٥٤٤.

الانفعالي، فإن ذلك سوف يؤدي بالضرورة إلى تخفيف التوتر والتقليل من مشاعر القلق الناجم عن الانفعال المذكور، وهذا يساعد على تحقيق درجة من الشفاء للأمراض العضوية المرتبطة به كالقرحة المعدية مثلاً أو قرحة الاثني عشر أو مرض القلب، كما سيحدث تحسن في علاقاته بالآخرين والتوافق بدرجة أفضل معهم، وسيتم كذلك تعديل في مستوى التفكير وفي طرق الاستفادة منه بدلاً من توجيهه نحو أهداف غير توافقية كالتفكير في إيجاد مشكلات للآخرين والتلذذ بإيذائهم.

فالشفاء النفسي من داء الغضب بطريقة غير سوية يساعد العقل على التعلم الجيد واكتساب الحكمة وتنمية مهارات التفكير، وبذلك يتحول العقل إلى حركة تفكير هادئة ومتزنة ونشطة وموجّهة نحو أهداف عبادية توافقية مفيدة للفرد والمجتمع، بحيث لم يعد هناك مجال لتغير المنطق وقت انفعال الغضب أو تقطع الحجة أو تفرق الفهم كما أشار إلى ذلك حديث شريف، ومن هنا قال نصّ آخر للإمام علي:

«داووا الغضب بالصمت»[١].

و«ضادوا الغضب بالحلم»[٢].. أي بكظم الغيظ وتدريب النفس على التحلُّم.

يقول الإمام علي عليه السلام: «إن لم تكن حليماً فتحلَّم فإنه قلّ من تشبه بقوم إلاّ أوشك أن يكون منهم»[٣] لأن في حالة السيطرة على انفعال الغضب وضبطه بتوجيهات وقيم عبادية انعكاسات جسمية وعقلية وإيمانية

---

(١) ميزان الحكمة، ج٧ ص٢٣٩.
(٢) المرجع السابق، ص٢٤٠.
(٣) نهج البلاغة، ص٥٠٦.

وأخلاقية كاسترخاء عضلات الجسم وخلايا الدماغ وتسكين حركة الدم على نحو طبيعي، وهذا يؤدي بالنفس إلى استعادة هدوئها واتزانها، مما يسمح للعقل الإنساني بتفجير طاقاته الإبداعية وتنميتها واستخدامها في مسارات نافعة.

كما أن العلاج النفسي بالأضداد قد ينطلق في حالة شخص آخر من معاينة وتشخيص مرض عضوي كالجذام أو عاهة خلقية، فيلجأ المعالج إلى طرائق العلاج المتوفرة، وحين يشعر بتعقد الحالة المرضية لدى مريضه يضطر إلى بدائل أخرى مثل:

١ ـ يعرضه على أطباء أكثر كفاءة وتخصصية في الأمراض والعاهات العضوية.

٢ ـ قد يوجّهه نحو معالج نفسي متمكن أكثر مهارة منه ليعمل على تغيير اتجاهات المريض السيكولوجية واستبدالها بمفاهيم واتجاهات جديدة تساعده على تغيير محتواه الداخلي عن دوره في الحياة باعتباره مخلوقاً مكلفاً وأن عاهته العضوية تحت إمكانات العلم، وفي حالة الإخفاق يبين له أن مفهوم الإعاقة في الإسلام والعلم معاً ليس ابتلائه بعاهة عضوية بل بعجزه عن تنمية طاقاته الإبداعية الكامنة في داخله.

٣ ـ يتجه المعالج المسلم إلى المجتمع والمحيط البيئي الذي يعيش فيه المريض فيحاول تغيير الاتجاهات الخاطئة لدى أفراد المجتمع عن المرضى المعوقين أو المصابين بعاهات معينة، وحين ينجح في تغيير نظرة المجتمع عن حالات الإعاقة كما حاول الرسول ﷺ يشعر المريض بهذا التغيير تبدأ نفسيته في التغير الداخلي، ويبدأ بتكوين نظرة إيجابية عن ذاته وعن المجتمع، وتكوين فهم جديد عن الذات والمجتمع معاً يؤدي إلى

استعادة ثقته بنفسه ويدرك أن قيمة المرء بما يحسن لا بجسمه، وأن الإعاقة ليست عضوية بل تكمن في تعطيل الطاقات الإيجابية المودعة في كيانه كانسان.

٤ ـ يستعين المعالج النفسي المسلم بنصوص المشرّع التربوي الإسلامي التي تحذر من الإساءة لذوي العاهات والتشوهات الخلقية، ويذكر مرضاه بأدوار الرجال والنساء الذين حولوا إعاقاتهم العضوية إلى إبداعات أدبية وعلمية وفنية.

٥ ـ يتخطى المعالج النفسي المسلم عامل التقدير الاجتماعي، فيستثير لدى مرضاه عاملاً آخر أكثر فعالية هو (التقدير الالهي) لهذه الفئة ولإنجازاتها الإبداعية، ويحوّل المعالج وطأة الأزمة عند المريض والإحساس بها لديه برداً وسلاماً بفعل حرارة الإيمان الديني.

إن التقدير الإلهي للذات البشرية سوية أو معوقة يجعلها تتحسس قيمتها الإنسانية حتى وإنْ بقيت في الجسم عاهة أو تشوهات خلقية، لأن منطق المشرّع التربوي الإسلامي «اخلص العمل يكفك منه القليل»[١] و«قيمة كل امرئ ما يحسنه»[٢] كما يقول الإمام علي عليه السلام.

وفي البدائل السابقة يهبط معدل التوتر ويحدث انطفاء تدريجي للقلق ويحل بديلاً عنهما الإحساس بالأمان، وتحسس قيمة الذات كرامتها، والشعور بأنها بلغت مكانتها اللائقة، والثقة بنفسها.

ولهذا التحول الداخلي نتائج إيجابية للذات ـ كما رأيت ـ تسمح لها بتعويض إعاقتها العضوية عن طريق تحقيق إنجازات في جانب آخر كالتفوق

---

(١) جامع السعادات ج٢، ص٤١٦.
(٢) نهج البلاغة، ج٤، ص١٨، وكذلك كتاب تصنيف نهج البلاغة، ص٢٩٥.

العقلي مثلاً، وقد تكون في مجال آخر كالمجال العضوي أو الجسمي، فلا يتحسس المجذوم حالته وهو يرى أمامه إبداعاته وإحساسه بالرضا التام عنها، وبذلك لا يركن إلى الخواطر المريضة وبين يديه إنجازاته وإبداعاته التي تؤكد قيمة ذاته، فكما يقول الإمام علي عليه السلام: «قيمة كل امرئ ما يحسنه».

سادساً: تجدد المعالجة النفسية بطريقة الأضداد في الفكر المعاصر:

يمكن القول إن كثيراً من مفاهيم ومصطلحات المعرفة السيكولوجية موصولة بالتراث الإنساني، وتجدد نفسها في تجارب جديدة خلال مراحل تاريخية لاحقة تحت مسميات لفظية متعددة، لهذا نلحظ لهذه المفاهيم والمصطلحات صدى في الثقافة النفسية الحديثة، وهي في أصلها ذات وجود تاريخي ممتد في ثقافات سائدة في عصور سابقة، وهي متداولة في كتب الأدب والأخلاق والسياسة والأديان والفلسفات الإنسانية وغيرها.

فالأنا الأعلى ـ مثلاً ـ الذي تحدث عنه فرويد هو مفهوم شائع في نظرية التحليل النفسي، وقد استخدمه فرويد كمصطلح سيكولوجي للدلالة على مفهوم الضمير الأخلاقي أو النفس اللوامة في الأديان وبعض الفلسفات، وكذلك نجد في مصادر المعرفة النفسية بعض المفاهيم التي تقدم للقارئ بمسميات مختلفة ولكنها تعبر عن معاني سيكولوجية متطابقة ممتدة في التاريخ الثقافي الإنساني وبخاصة في تراثه التربوي، ومن هذه المصطلحات (الأنا، النصح، الموعظة، الثواب والعقاب، الدافع، تزكية النفس، ترويض النفس، تهذيب الأخلاق، مداواة النفس، الخير والشر).

إن مصطلح (حفظ صحة النفس) مثلاً الذي استخدمه بعض علماء الأخلاق المسلمين أمثال ابن مسكويه وغيرهم من علماء وفلاسفة

الحضارات السابقة مطابق تماماً لمصطلح أو مفهوم الصحة النفسية المتداول على نحو واسع في كتابات علماء النفس المحدثين والمعاصرين.

كما يلتقي مفهوم (التخلية) عند الأخلاقيين والصوفية بفكرة (التفريغ الانفعالي) والعقلي، فكلاهما يستهدف تنقية النفس من رواسبها المسبقة والمتراكمة، ويستخدم مصطلح (تعديل السلوك) في الثقافة السيكولوجية المعاصرة مع مفهوم سابق في الثقافة الأخلاقية وهو مصطلح (تهذيب الأخلاق أو تزكية النفس).

وإذا تأملنا محتوى مصطلح (الزهد) الشائع الاستعمال في الثقافة الدينية والأخلاقية والصوفية وجدناه يلتقي مع مفهوم (ضبط الإشباع).. أي تحقيق إشباع للفرد بقدر الحاجة على حدّ تعبير بعض علماء النفس، كذلك نجد أن (مصطلح الإسقاط النفسي) عند فرويد هو تكرار لمصطلح الإلصاق أو الإلباس عند بعض الكتّاب المسلمين وتكرار لمضمون نصّ ديني إسلامي أكّده الإمام علي يرى أن الشرير ينظر للناس بخسة طبعه، ويخلع ما في نفسه من سلبيات ودناءة على الآخرين ويتهمهم بعيوبه للدفاع عن ذاته وتحسين صورتها أمام الغير.

ويشير الإمام علي عليه السلام في إحدى عباراته السيكولوجية الخالدة إلى حالة الإسقاط النفسي وتسجيلها كحقيقة علمية في التراث السيكولوجي البشري قبل توصل علم النفس التحليلي إلى اكتشافها بمئات السنين، ويؤكد الإمام هذه القضية في أكثر من نص:

«الشرير لا يظن بأحد خيراً لأنه لا يراه إلاّ بطبع نفسه»[١].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، ص٩٨.

وفي نصّ آخر يقول عن حالة إسقاط الفرد لعيوبه على الآخرين إن: «الرجل السوء لا يظن بأحد خيراً لأنه لا يراه إلاّ بوصف نفسه»[١].

وهناك شعر منسوب للإمام الشافعي «محمد بن إدريس»[٢] رضي الله عنه حيث يقول في أبيات ثلاثة محكمة إن الإنسان يعيب الزمان الذي يعيش فيه ويسقط عيوبه على الدنيا والناس الذين يعيشون فيها رغبة منه في تبرئة نفسه وعدم الاعتراف بمسؤوليته عن الأخطاء التي تصدر عنه، فيلجأ إلى الإسقاط بدلاً من مواجهة العيوب.

يقول الشافعي:

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو ذا الزمان بغير ذنب ... ولو نطق الزمان لهجانا
ولا تأكل الذئاب لحم بعض ... ويأكل بعضنا لحم بعض عيانا

وهناك شعر مماثل ـ وقريب في ألفاظه ومعناه ـ منسوب للإمام الرضا[٣] عليه السلام.

عن الريان بن الصلت قال: أنشدني الإمام الرضا عليه السلام لعبد المطلب:

يعيب الناس كلهم زماناً ... وما لزماننا عيب سوانا
نعيب زماننا والعيب فينا ... ولو نطق الزمان بنا لهجانا
وإن الذئب يترك لحم ذئبا ... ويأكل بعضنا بعضاً عياناً
لبسنا للخداع مسوك طيب ... فويل للغريب إذا أتانا

(١) المصدر السابق، ج١، ص١٢٠.
(٢) ديوان الإمام الشافعي، ص٨٢.
(٣) ميزان الحكمة، ج٤، ص٢٣٥ ـ ٢٣٦ نقلاً عن بحار الأنوار للمجلسي، ج٤٩، ص١١١.

وهكذا نجد في التراث التربوي والنفسي والتاريخي مفاهيم ومصطلحات متطابقة المعنى مع مفاهيم الثقافة النفسية المعاصرة وإنْ تبدلت الألفاظ وتغايرت المصطلحات، وهذا يدل على أن الحقائق النفسية الصحيحة خالدة مع الزمان، وتعبر عن جوهر الكينونة الإنسانية، وتحتاج إلى عقل نشط للكشف وإماطة اللثام عنها، أما استخدام لفظ معين بدلاً عن لفظ آخر فيعني أن العقل الإنساني النقي قادر على تسمية ما يتوصل إليه بألفاظ مناسبة لزمانه، وتكون وفق مستوى الثقافة السائدة ومكوناتها اللفظية.

وما انطبق على المفاهيم السابقة ينطبق أيضاً على مصطلح (طريقة أو منهج المعالجة بالأضداد) وهو عنوان دراستنا التي بين يديك.. فهذه الطريقة التربوية والتعليمية والعلاجية شائعة الاستعمال في سلوك الأفراد المؤمنين وفي تراثنا النفسي الإسلامي كمفهوم وكطريقة منهجية يستعان بها في تعديل السلوك أو تزكية النفس على حدّ تعبير علماء الأخلاق المسلمين، وهي اليوم تجدد نفسها بأسماء وألفاظ متعددة مثل مصطلحات «الاشتراط المضاد» و«الكف بالنقيض».

وإذا كانت هذه الطريقة عميقة الجذور في التراث التربوي البشري وفي الأديان والفلسفات فإن بعض المجالات العلمية المعاصرة تحاول تجديدها وتطوير فعاليتها بآليات وفنيات العلاج النفسي الحديث وتجذير أصالتها العلمية، والاستفادة منها في مداواة بعض أنماط السلوك المرضي كالخوف من حيوان مألوف مثلاً وتعديل سلوك الفرد منه.

قد تكون محاولة تجديد الفكرة وتحديثها عن سابق معرفة في ذهن من يقوم بتجديدها، وقد يكون إحياؤها نتيجة اجتهاد توصل إليه عقل بشري نقي لم يعرف الفكرة من قبل، إذ تحسس بخبرته فاعلية هذه الطريقة في

عملية التعلم ومحو بعض العادات الخاطئة، فأراد استعمالها في مجال تعديل السلوك وعلاج الاضطرابات النفسية والسلوكية، وقبل أن نتحدث عن استخدام العلاج النفسي المعاصر لهذه الطريقة سنحاول التعرف بإيجاز على وجهة نظر فلسفية.

إنَّ الفكر الفلسفي الحديث لدى بعض الأوروبيين قد استفاد من فكرة التضاد في صياغة نظرية ترابط الأفكار مثلما فعل ديفيد هيوم الفيلسوف الإنجليزي الذي عاش في القرن الثامن عشر ما بين (١٧١١ ـ ١٧٧٦م)، حيث اعتبر هذا الفيلسوف فكرة التضاد أحد مبادئ تكوين المعرفة وترابط الأفكار واقترانها.

لقد حاول ديفيد هيوم مناقشة السؤالين التاليين: كيف نفهم الأفكار العامة؟ وكيف ندرك العلاقات بينها؟.

قادته إجابته على السؤالين السابقين إلى بناء نظريته المعروفة عن ترابط الأفكار.

يرى هيوم أن الأفكار الناجمة عن الانطباعات الحسية التي تتكون في عقولنا كمعرفة عن الأشياء الخارجية بواسطة الحواس، تترابط وفق مبادئ خمسة هي:

١ ـ التشابه بين الأفكار.

٢ ـ التضاد بين الأفكار.

٣ ـ التجاور المكاني.

٤ ـ التجاور الزماني.

٥ ـ العلة والمعلول.

وما يعنينا من المبادئ السابقة هو مبدأ التضاد، ويعني هذا المبدأ أن حضور فكرة معينة في ذهن الإنسان يستدعي حضور فكرة أخرى مرتبطة بها بالتضاد، فالحديث عن العلم لا بدّ أن يستدعي الحديث عن الجهل، والحديث عن الديمقراطية يقترن بالحديث عن الديكتاتورية كفكرة وممارسة مضادة لها.

* * *

نعود مرّة أخرى إلى ظهور اتجاه علاجي جديد هو العلاج السلوكي واستخدامه لفكرة المعالجة بطريقة الأضداد، فقد احتضن العلاج السلوكي هذه الطريقة واستفاد منها في مجالات التعلم، وعلاج اضطرابات السلوك وبناء العادات السلوكية التوافقية المرغوب فيها، لأن المرض النفسي في نظر علماء هذا الاتجاه مجرد عادات خاطئة متعلمة من وسط بيئة غير توافقية، وأن علاجها يتمّ بتعلم عادات جديدة سوية ومضادة.

إذن يقوم العلاج السلوكي على نظرية التعلم، فيرى أن الأمراض النفسية مجرد عادات سلوكية سيئة خاطئة تمّ تعلمها من وسط بيئة عصابية يسود فيها أجواء المرض السلوكي، فالوسواس والخوف من ثعبان أو ظلام، والأعراض الجنسية الشاذة والعدوانية وغيرها ليست سوى استجابات مريضة نشأت عن طريق التعلم الخاطئ، وبالتالي فإن هذا النوع من العلاج لا يفتش عن جذور مشكلة المريض من خلال البحث في ماضيه، ولا يؤيد ما يقوم به المعالج الفرويدي من اهتمام شديد بتحليل أحلام المريض وفحص هفواته اللفظية.

لذلك يتجه العلاج السلوكي إلى التركيز على حلّ مباشر للمشكلة السلوكية دون التفتيش عن أسبابها، فإذا كان المريض يخاف بصورة شاذة

من أرنب مثلاً، فلا يجد المعالج السلوكي حاجة للتفتيش في ماضي الفرد المريض وطفولته لمعرفة الأعراض العصابية وتحديد العقد النفسية الطفلية أو الصراعات اللاشعورية التي تختفي وراء المرض، وإنما يتجه فوراً إلى التركيز على المرض مباشرة لإزاحة أعراضه وعلاجه عن طريق عملية انطفاء تدريجي لأعراض المثير المرضي، وعن طريق تعلم استجابة شرطية مضادة مرغوب فيها، ومضادة لمثير الخوف من الأرنب أو غيره من المثيرات العادية.

يبدأ المعالج السلوكي بصورة تدريجية معالجة هذه الحالة الشاذة بوضع المريض في مواقف سلوكية معاكسة للمثيرات التي تثير قلقه، بحيث يبدأ مثلاً بعرض (أرنب مجسم) من بلاستك أو (أرنب مرسوم من ورق) ثم يعرض على المريض فيلماً يظهر فيه أرنب.

وبعد ذلك يقدم له أرنباً حقيقياً عن بعد، أو يعرض عليه أرنباً محجوزاً في قفص، ثم يواجه المريض بعد هذه المواقف المضادة لخوفه بمثير قوي لا بدّ من مواجهته، فيعرض عليه (أرنباً حقيقياً) ويسمح له ـ قدر الإمكان ـ بالاقتراب منه ومداعبته بغرض خفض القلق وتحقيق انطفاء تدريجي لقوة مثير الخوف، وبالتالي تضعف الاستجابة العصابية، وتبدأ في التكون والظهور استجابة سوية مضادة لمثير الخوف.

وقد انتهت نظرية الاشتراط البسيط ـ وهي جزء من العلاج السلوكي ـ إلى الحديث عن الاشتراط المضاد، بمعنى العمل على تكوين استجابة جديدة مرغوب فيها، وتكون غير متسقة أو غير منسجمة مع الاستجابة التي نشأت أصلاً بواسطة مثير شرطي غير سوي (م ش) ليكن الخوف مثلاً، وهذه الاستجابة الشرطية تكون بمثابة اتجاه مضاد بالنسبة لمثير الخوف،

بحيث يمكن أن يصاحب هذا الاتجاه بتقديم مثير غير شرطي (م ط) سار وليكن هدية مثلاً مع ظهور المثير الشرطي وهو الخوف.

وبالتالي تنشأ استجابة شرطية جديدة، وهي ما أشار إليه بافلوف في دراساته واسماها (بالاستجابة من الدرجة الثانية) وحتى يتمكن الفرد من الحصول على هذه الهدية لا بدّ من أن يقترب من مثير الخوف، فإذا كان المثير غير الشرطي الجديد مرغوب فيه بدرجة كافية، فإن الفرد سيقترب منه، ويكتشف أن المثير الشرطي وهو مثير الخوف ليس ضاراً على الإطلاق، وبعد عدة مرات من الاقتراب ينعدم تأثير المثير الشرطي، وبالتالي تضعف استجابة الخوف حتى تختفي من سلوك الفرد[١]، وتنشأ بدلاً عنها استجابة شرطية جديدة ومضادة لها صفة السيادة على الاستجابة الشرطية الأصلية.

ويشابه الاشتراط المضاد في بعض جوانبه ومعانيه مع مضمون بعض النصوص التربوية الإسلامية في نهج البلاغة، يقول أحد هذه النصوص:

«إذا هبت أمراً فقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه»[٢] أو «من الوقوع فيه».

وفي نصّ آخر: «إذا صعب عليك أمر فاصعب عليه»[٣].

وهناك نصّ ثالث يتطابق في معناه مع أحد نقاط العلاج السلوكي، يقول الإمام علي عليه السلام: «ازجر المسيء بثواب المحسن»[٤].

(١) أنور الشرقاوي، التعلم نظريات وتطبيقات، ص٧٠ ـ ٧١.
(٢) تصنيف نهج البلاغة ص٤٢.
(٣) كتاب الحياة ج٢، ص١٢٨.
(٤) نهج البلاغة ج٤ ص٤٢.

وفي نصّ رابع يقول الإمام علي: «عاتب أخاك بالإحسان إليه، واردد شره بالأنعام عليه»[(١)].

ويتجلى استعمال طريقة الأضداد لدى السلوكيين في طريقة (الكف النقيض أو الكف المتبادل) التي يرجع الفضل في وضعها إلى العالم (جوزيف وولبي)، إذ طبقها في علاج الاضطرابات السلوكية عند الراشدين، وتمثل هذه الطريقة امتداداً للاشتراط المضاد وتطبيقاً واقعياً له في معالجة نماذج من السلوك العصابي، وتدور الفكرة الرئيسية لهذا الأسلوب العلاجي حول إزاحة الاستجابة المرضية (الخوف أو القلق) تدريجياً من خلال استبدالها بسلوك آخر معارض للسلوك المرضي عند ظهور الموضوعات المرتبطة به[(٢)].

ويلخص وولبي طريقته في إزالة السلوك المرضي إذا ما نجحنا في استثارة استجابة معارضة للقلق عند ظهور الموضوعات المثيرة للقلق، فإن هذه الاستجابات المعارضة تؤدي إلى توقف وكف كامل أو جزئي، ولهذا يبدأ الخوف في التناقص أو الاختفاء بعد ذلك[(٣)].

وكمثال على صحة هذا الأسلوب العلاجي.. العلاج بالكف بالنقيض.. أجريت تجربة علاجية لحالة طفل اسمه (بيتر) كان يعاني من خوف مرضي هو الخوف من الفأر.

لقد وضع الطفل جائعاً في حالة استرخاء عضلي على كرسي مرتفع، وأعطي شيئاً من الطعام، وفي تلك اللحظة التي قدم فيها المعزز (الطعام) ظهر المثير المخيف (الفأر) بغرض استثارة الطفل انفعالياً.

---

(١) المصدر السابق، ص٤١.

(٢) العلاج السلوكي للطفل، د. عبد الستار إبراهيم وآخرون، ص٧١.

(٣) العلاج النفسي الحديث قوة للإنسان، د. عبد الستار إبراهيم، ص٩٤.

وعندئذ أبعد الطفل تدريجياً حتى أصبح على مسافة بعيدة لا تهدد طعامه (أي المعزز)، ثم أعيد تقريب المثير المخيف (الفأر) مرات وبصورة تدريجية نحو المائدة، والطفل يلتهم طعامه حتى اكتسب في النهاية استجابة جديدة معارضة لاستجابة الخوف، وتم إزالة القلق نهائياً حين وضع الفأر على مائدة الطعام وتلمسه الطفل بثقة وهدوء وطمأنينة[١].

وتتابعت التجارب السلوكية لمعالجة اضطرابات مماثلة بصورة تدريجية تبدأ بتقديم المثيرات الضعيفة ثم المثيرات القوية شيئاً فشيئاً حتى يحدث انطفاء تام أو جزئي للاستجابة المرضية المطلوب التخلص منها.

وتضمنت طريقة الكفّ بالنقيض أو الكفّ المتبادل مبادئ سيكولوجية مثل:

١ ـ التشخيص:

وهو أول خطوة لتحديد طبيعة المرض ونوعه وتحديد أسلوب المعالجة المناسب للمشكلة لإضعاف الرابطة بين المثير وهو (الفأر) مثلاً أو شيء آخر وبين استجابة الخوف والقلق، وإزالة الحساسية الانفعالية والتقليل منها، وبالتالي يؤدي ذلك إلى انطفاء تدريجي لقوة الفعل المنعكس الشرطي المرضي وتكوين استجابة مضادة سوية.

ويستخدم المعالج السلوكي في مرحلة التشخيص أساليب وفنيات علاجية تتفق مع طبيعة المشكلة كمعرفة تاريخ الحالة ومعرفة استجابة المريض لاختبارات القلق وغيرها، واستجابات المريض للاستجواب الذي يقوم به المعالج.

---

(١) انظر المصدر السابق (بتصرف)، ص٩٣.

٢ ـ التحصين:

وهدف عملية تخليص المريض عن طريق الاسترخاء العضلي والفكري التام من الحساسية الانفعالية وإلغائها تماماً، وذلك بتقديم المعالج سلسلة من المثيرات المتدرجة يبدأ بمثيرات ضعيفة ثم قوية حتى يألف المريض هذه المثيرات، ويبدأ في تكوين استجابة مضادة بعد أن تمكن المريض من التخلص من السلوك غير المرغوب فيه وعاد إلى حالته الطبيعية التي تتسم بالاتزان والسواء.

٣ ـ التطمين التدريجي:

ومعناه بلغة بسيطة (بث الطمأنينة) في نفسية المريض بطريقة تدريجية وتشجيعية دائماً لمواجهة مواقف القلق والتوتر والخوف ومساعدته على تقليل الحساسية الانفعالية أو إلغائها نهائياً، بحيث يتمّ تحييد مشاعر المريض نحوها كما وجدنا في الأمثلة السابقة.

وبهذا التطمين التدريجي تزول الاستجابة المريضة، وتبدأ استجابة معارضة للقلق في التكون والبروز، فإذا كان الطفل يكره منظر حوض السباحة[١] فإنه ليس من الحكمة أن يدفع به في الحوض ليتمكن من التغلب على خوفه وحالته الانفعالية، ولهذا يتجه المعالج إلى اتباع أسلوب التطمين التدريجي مع تقديم معزز اجتماعي أو نفسي أو مادي مضاد لمثير القلق كأن يعطى الطفل لعبة كهدية أو يمنح ديناراً أو يشجع لفظياً أو يقبله المعالج بحنو وعطف لحظة تعرضه لمثير القلق والخوف، وهدف المعالج في ذلك تكوين استجابة سلوكية مضادة لمثير القلق وتكون مشاعره إزاءه حيادية.

---

(١) المصدر السابق، ص٩٦.

وفي الوقت نفسه يبدأ المعالج في بث الطمأنينة تدريجياً، فيريه مجسماً لحوض، وبعد ذلك يعرض عليه فيلماً لأطفال مثله يسبحون في حوض سباحة، ثم يريه حوض سباحة حقيقي يتدرب فيه أطفال آخرون على مهارات السباحة.

يلحظ من المثال السابق اقتران العلاج بالتعزيز، واقتران تكوين استجابة جديدة مضادة بتقديم طعام للطفل الجائع (بيتر) في لحظة ظهور مثير القلق وهو الفأر، وبتكرار ظهور المثير مع المعزز بدأ الطفل في التخلص من الحساسية الانفعالية ويكتسب استجابة جديدة مضادة ومرغوب فيها بدلاً من الاستجابة المرضية المذمومة التي أراد المعالج تخليص المريض منها.

ومما لا شك فيه أن المعزز (الطعام) في المثال المذكور شجع الطفل على تعديل سلوكه، لأن هذا المعزز يؤدي إلى إشباع حاجة الطفل من الطعام، ويشعر بالطمأنينة والأمان، لهذا بدأ الطفل تحت إلحاح هذا المعزز وتأثيره الإيجابي في مواجهة الموقف النفسي تدريجياً، ومقاومة الحساسية الانفعالية التي تسيطر على الطفل آنذاك، وتمكن الطفل في النهاية من تكوين استجابة سليمة مضادة.

ويقول الله تعالى:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾(١).

﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾(٢).

---

(١) سورة النحل، ١٢٥.
(٢) سورة فصلت، ٣٤.

وقوله سبحانه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[١].

وقوله الحق تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[٢].

وكذلك فعل الرسول عليه الصلاة والسلام مع فئة المؤلفة قلوبهم في غزوة حنين من أجل استمالة قلوبهم الحديثة العهد بالدين الجديد، وطمأنينتهم في عهد السلطة الجديدة.

إذ أعطاهم الرسول الكريم غنائم الحرب فتغيرت نفوس بعض الأنصار رضوان الله عليهم بعض الشيء وساورتهم بعض الشكوك، فظنوا أن الرسول صار في غنى عنهم بعد أن لقي قومه، وشعروا بالحرمان والغبن، فاضطر صلوات الله عليه وآله وسلم أن يخطب في أنصاره لتوضيح الأمر وكشف ملابساته[٣]، فأعاد الأمر إلى مجراه السابق وتفهموا بواعث ما قام به لخدمة الدين واستمالة قلوب هذه الفئة التي آمنت تحت غلبة الدين الجديد، ولم يستقر الدين في نفوسهم بعد.

وكان ﷺ يريد من عملية توزيع الغنائم تقليل الحساسية الانفعالية المعادية للإسلام من نفوس أفراد هذه الفئة، ورد شرهم بالإنعام عليهم، وبعث الطمأنينة في قلوبهم تمهيداً لدمجهم في بيئة المجتمع الجديد، وتشجيعاً لاستقامتهم على أمر الدين الجديد، وذلك من خلال استخدام معززات إيجابية مضادة لحالتهم الانفعالية التي تنظر للإسلام بنظرة ريبة لا تخلو من كره، وبتكرار استخدام اسلوب «الثواب الحسن» للمسيئين للإسلام

(١) سورة المؤمنون، ٩٦.
(٢) سورة فصلت، ٣٤.
(٣) د. حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي،، ج١، ص١١٨ ـ ١١٩.

تقل بالتأكيد حساسيتهم الانفعالية من الدين وأصحابه الذي ينظر إليه كمثير خوف، وتنمو على أثر ذلك وبطريقة تدريجية حالة مضطردة من الميل إلى الإسلام والتفاعل معه بإيجابية تخلو من النفور منه.

لهذا قال الإمام علي عليه السلام: «ازجر المسيء بثواب المحسن».

أو قوله عليه السلام: «عاتب أخاك بالإحسان واردد شره بالإنعام عليه» عسى أن تتحول إساءته أو شره إلى موقف طيب، وان كان اللؤم في داخل نفوسهم يمنع بعض الناس من الاستجابة السوية أحياناً.

الفصل الرابع

أنماط المعالجة النفسية بالأضداد وأنواعها



والآن نترك القارئ الكريم مرّة أخرى ـ في موقع آخر من هذا البحث ـ ليتعرف على أنماط منهج المعالجة النفسية بالأضداد، وأنواعه، وخطواته، وأثره التربوي كعلاج سلوكي واقعي وفعال في تعديل سلوك الذات المسلمة، ونقلها من دائرة غير مرغوبة عبادياً إلى دائرة الرضا والقبول وفق محدّدات النظرة العبادية ومعاييرها، ونأمل أن يجد القارئ المسلم الكريم في الصفحات القادمة رؤية أكثر وضوحاً لمعالم هذا المنهج وتفاصيله الفرعية.

أنماط المعالجة بالأضداد:

يمكن تقسيم أنماط المعالجة بالأضداد السيكولوجية على أساس:

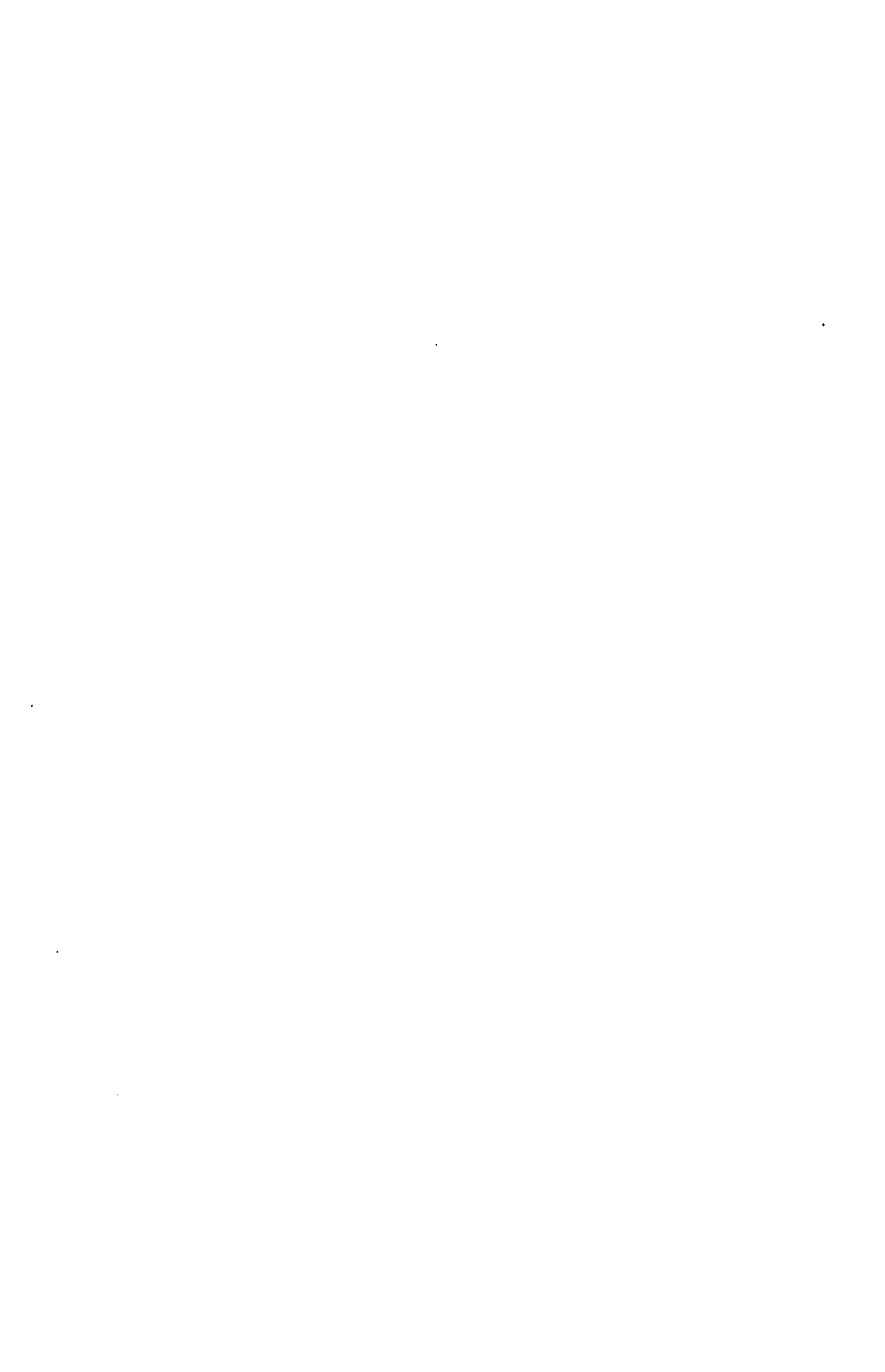
١ ـ طريقة المعالجة.

٢ ـ مستوى المعالجة.

٣ ـ طبيعة المعالجة.

أولاً: من حيث طريقة المعالجة:

ذكرنا أن النفس البشرية مؤمنة كانت أو غير مؤمنة قد تصاب بمرض أخلاقي أو سيكولوجي ما، أو قد تعاني من أكثر من مرض، وقد اجتهد



والآن نترك القارئ الكريم مرّة أخرى - في موقع آخر من هذا البحث - ليتعرف على أنماط منهج المعالجة النفسية بالأضداد، وأنواعه، وخطواته، وأثره التربوي كعلاج سلوكي واقعي وفعال في تعديل سلوك الذات المسلمة، ونقلها من دائرة غير مرغوبة عبادياً إلى دائرة الرضا والقبول وفق محدّدات النظرة العبادية ومعاييرها، ونأمل أن يجد القارئ المسلم الكريم في الصفحات القادمة رؤية أكثر وضوحاً لمعالم هذا المنهج وتفاصيله الفرعية.

أنماط المعالجة بالأضداد:

يمكن تقسيم أنماط المعالجة بالأضداد السيكولوجية على أساس:

١ - طريقة المعالجة.

٢ - مستوى المعالجة.

٣ - طبيعة المعالجة.

أولاً: من حيث طريقة المعالجة:

ذكرنا أن النفس البشرية مؤمنة كانت أو غير مؤمنة قد تصاب بمرض أخلاقي أو سيكولوجي ما، أو قد تعاني من أكثر من مرض، وقد اجتهد

بعض علماء النفس المسلمين، خاصة المهتمين بعلم الأخلاق ـ في تحديد أنماط المعالجة النفسية المناسبة ـ لكل نوع من الحالات المرضية، ومما لا شك فيه أن هؤلاء العلماء حاولوا قدر المستطاع الاعتماد على نصوص القرآن والسنة النبوية في هذا التحديد الذي يؤكد النظرة الواقعية المتميزة لهذا المنهج في عملية العلاج النفسي للسلوك الخاطئ.

وقد ترك المنهج التربوي الإسلامي الحرية كاملة للموجّه المسلم المرشد النفسي في كيفية اختيار واستعمال طرائق وأساليب النمط العلاجي المناسب، وذلك وفقاً لنوع الحالة المرضية على حدة، وطبيعتها، ومستوى قوتها في النفس الإنسانية.

ومن المؤكد أن المشرّع التربوي الإسلامي يوفّر أفضل الضمانات لنجاح جهد المعالج النفسي المسلم في إزالة آثار المرض أو إحداث تعديل مناسب في السلوك، فما دامت الحالات السيكولوجية أو السلوكية المرضية تتفاوت في شدتها، فإن وظيفة المعالج النفسي المسلم هي اختيار أسلوب المعالجة المناسب، حيث يستعمل أسلوباً مناسباً للحالات الخفيفة القابلة للتعديل، ويستعمل أسلوباً آخر للحالات الأكثر تعقيداً التي تتطلب جهداً، وتخطيطاً أكثر، وزمناً أطول.

وبمراجعة عامة لكتب الأخلاق والسلوك عند العلماء المسلمين، نجد نمطين أساسيين للعلاج النفسي بطريقة الأضداد، يتناسب كل منهما مع طبيعة الحالة ونوعها ومستوى قوتها في سيكولوجية المريض، ومع ذلك نقول مرّة أخرى بأن نجاح نمطي المعالجة كليهما يعتمد على قدرة المعالج النفسي المسلم في اختيار الأسلوب المناسب الملائم للحالة المرضية، فإذا استطاع المعالج النفسي المسلم تعيينه بدقة أعان مرضاه على تحقيق قدر

مناسب من الشفاء والصحة النفسية، أما إذا أخفق في هذا الاختيار، فمن المحتمل أن يكون هذا الإخفاق في التعيين عائقاً بين تفاعل المريض مع منهج المعالجة، وعدم استجابته لأساليب تعديل سلوكه، لهذا قد تكون مهمة المعالج النفسي في هذا الأمر من أصعب المهام وأشدها، ونعتقد بأن خبرة الموجّه التربوي المسلم تساعد المريض على تجنب الوقوع في هذا الخطأ.

وقد تمكن الدعاة وعلماء الأخلاق المسلمين الذين حملوا أمانة الدعوة إلى الله ومسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من تغيير نفوس عدد من المحتاجين لتعديل سلوكهم باستعمال طريقة الأضداد سواء بمعالجة كلية أو بمعالجة جزئية، ويكاد يكون من الاستحالة بمكان أن يفشل المعالج النفسي المسلم في معرفة هذين النمطين، وبخاصة إذا كانت تجربته خصبة، وغنية في تعاملها مع النفوس المحتاجة للرعاية والتوجيه والإرشاد، وإذا كان هذا المعالج على دراية كافية بمبادئ علم النفس الإسلامي، وأصول النظرية الاجتماعية والتربوية في الإسلام.

ويحدّد منهج العلاج النفسي الإسلامي أسلوبين أساسيين هما:

- المعالجة الكلية، الشاملة لمجموعة من الأمراض أو لمجموعة من العادات السلوكية العصابية أو الخاطئة، وقد استعمله الرسول الكريم مع عدد كبير من أفراد المجتمع العربي الذي كان يعاني فيه الفرد من جملة أمراض كالتعصب والإدمان والانحرافات الجنسية والشرك والعدوانية والوأد والنهب والتكبر وغيرها، ولا يمنع أن الرسول ﷺ قد جمع في آن معاً بين التغيير الجذري لشخصية الفرد بعد أن أحدث تعديلاً حاسماً في الاتجاهات الفكرية والنفسية للفرد وبين أسلوب المعالجة الجزئية بتركه لكل

فرد إمكانية تعديل سلوكه على حدة تحت إرشاد وملاحظة شخص آخر.

ـ المعالجة الجزئية، الخاصة بكل مرض سيكولوجي أو أخلاقي أو فكري على حدة كالنفاق مثلاً أو العدوانية أو الشعور بالفوقية أو الخوف من الأعداء إذا كان الفرد مريضاً بأحد هذه الأنماط العصابية.

أ ـ المعالجة الكلية:

ويصلح هذا النمط العلاجي للشخص الذي يعاني أكثر من مرض نفسي، فعندما تجهد النفس بتركة ثقيلة من النقائص والآفات، وتعاني من ضغوط جملة أو مجموعة أمراض سيكولوجية يكون حالها الداخلي يتطلب علاجاً جذرياً يغيّر البناء النفسي والعقلي كله، وينسف من الأساس مقوماته الموروثة، ولا يمكن أن يتمّ هذا التغيير بدون اعتماد أسلوب المعالجة الكلية، الشاملة، التي لا تتعامل مع مرض معين دون غيره، بل يبذل المعالج النفسي المسلم قصارى جهده لتغيير كامل للحياة الشعورية والعقلية التي تربط الذات بكل ما هو غير سوي.

فالتغيير النفسي الجذري للذات التي اكتوت بأوضار الحياة المنحرفة ومتاعبها النفسية، يكون في نظر المعالج النفسي المسلم أيسر عليه بكثير من إجراء ترقيعات أو ترميمات أو تعديلات هنا وهناك لا تغيِّر من سلوك الذات كثيراً، والسبب في ذلك أن التعلم الجديد يختلط بالموروثات السابقة سواء كانت مشاعر أو أنماط من التفكير أو عادات سلوكية خاطئة.

ولا ريب بأن هذه الموروثات المذمومة تشكل عائقاً يمنع النفس من تلقي الجديد بصفاء، وبالتالي تحجب هذه الرواسب حصول الفرد على (المعارف الإلهية).

يقول عالم الأخلاق الشيخ النراقي رحمه الله:

(الأخلاق المذمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الإلهية والنفحات القدسية، إذ هي بمنزلة الغطاء للنفوس، فما لم يرتفع عنها، لم تتضح لها جلية الحال، اتضاحاً، كيف والقلوب كالأواني، فإذا كانت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء، فالقلوب المشغولة بغير الله لا يدخلها معرفة الله وحبه وأنسه)[١].

ومن هنا فإن المعالج النفسي المسلم يبدأ ـ أولاً ـ بتخلية النفس من أمراضها ما أمكنه تمهيداً لخطوة أخرى تستكمل جهده في إعادة التربية والبناء، هي خطوة تحلية النفس بالفضائل والقيم والاتجاهات السوية، لأن المواظبة على الطاعات الظاهرة على حدّ تعبير بعض علماء الأخلاق لا تجدي نفعاً ما لم تتطهر النفس من صفاتها المذمومة التي تسكن في داخلها، كالتكبر، والحسد، والطمع، وطلب الرئاسة والتسلط، وطالما بقيت النفس تحت قبضة الرواسب من عادات خاطئة وأفكار مريضة.

يقول الشيخ النراقي رحمه الله:

«المواظبة على الطاعات الظاهرة لا تنفع ما لم تطهر النفس من الصفات المذمومة كالكبر والحسد والرياء، وطلب الرئاسة والعلى، وإرادة السوء للأقران والشركاء، وطلب الشهرة في البلاد، وفي العباد، وأي فائدة في تزيين الظواهر مع إهمال البواطن»[٢].

بل إن تغيير الذات بطريقة المعالجة الكلية الشاملة يلائم فطرتنا، ويناسب طبائعنا وتركيبتنا الآدمية لأن «النفس الإنسانية فيها الاستعداد للانتقال الكامل من حياة إلى حياة، وذلك قد يكون أيسر عليها من

---

(١) النراقي، جامع السعادات، ج١، ص٤٣.
(٢) المصدر السابق، ص٤٢.

التعديلات الجزئية في أحيان كثيرة.. والانتقال الكامل من نظام حياة إلى نظام آخر أعلى منه وأكمل وأنظف، انتقال له ما يبرره في منطق النفس، ولكن ما الذي يبرر الانتقال من نظام الجاهلية ـ على حدّ تعبير أحد المفكرين ـ إلى نظام الإسلام، إذا كان النظام الإسلامي لا يزيد الذات البشرية إلاّ تغييراً طفيفاً هنا، وتعديلاً طفيفاً هناك؟

إن البقاء على النظام المألوف أقرب إلى المنطق، لأنه على الأقل نظام قائم، قابل للإصلاح، والتعديل فلا ضرورة لطرحه، والانتقال إلى نظام غير قائم ولا مطبق، ما دام أنه شبيه به في معظم خصائصه»[1].

حقاً إن التعديل الجذري الذي يقوم به منهج المعالجة الكلية ـ الشاملة ـ للذات في تعديل أفكارها وعاداتها وسلوكها قد يكون مجهداً وصعباً ومملاً في بادئ الأمر، لكنه أجدى لها من أي تعديل خفيف أو ترقيع لا يبلغ بالذات بر الأمان، فهذا الأسلوب.. أسلوب المعالجة الكلية الشاملة.. يريح الذات الإنسانية في نهاية المطاف من مشكلات الصراع والتناقض واختلاط المفاهيم، وعدم وضوح الرؤية وغيرها من مشكلات السلوك.

ولكن مع ذلك لا يكفي في إطار هذا النوع من المعالجة أن تنجح الذات البشرية في حلّ مشكلة ما لتحرر نفسها من ضغوط كافة المشكلات الأخرى، وذلك بسبب تداخلها، وامتزاج تصوراتها، وهذا يقتضي أن يكون التغيير جذرياً والمعالجة شاملة ليتم تفكيك شبكة الأمراض التي تجثم على قلب الإنسان وتهيئته لعملية تحرير ذاته من غائلة هذه الأمراض.

---

(١) سيد قطب، معالم الطريق، ص١٥٦ ـ ١٥٧.

ودور المعالج النفسي المسلم حين يواجه ذاتاً ـ غير مسلمة أو حديثة العهد بالإسلام ـ أن يبدأ بتعديل ضخم للاتجاهات الأساسية للفرد، وسوف تكون الانطلاقة الأولى لتصحيح وضع الذات بطريقة جذرية تبدأ من نقطة العقائد، إذ يبذل المعالج جهده لإحداث تغيير عقائدي شامل حول الذات الإلهية، وصفاتها، وعدلها، وما يتصل بمسألة التوحيد من مسائل اعتقادية أصولية وفرعية كالمعاد، والنبوة وغيرهما، ثم يتوجه فيما بعد نحو تغيير الأفكار الأخرى في كافة الجوانب الحياتية على مهل وأناة، ودون استعجال، حتى تستقر الذات المسلمة على أرضية جديدة تتفيأ فيها ظلال العبودية لله، وتسقط من داخلها رجس الشيطان.

ويلتزم المعالج النفسي المسلم الخطوات ذاتها مع النفس المنحرفة، فلا بدّ من التأكّد من صحة الآراء والمفاهيم العقائدية عند الفرد، ثم يتابع جهده في علاج المشاعر الوجدانية، وعادات السلوك الخاطئة عن طريق وضعه في أنشطة عبادية مضادة للسلوك المرضي.

وينبغي الانتباه هنا إلى أن التغيير العملي متصل بتغيير الأساس النظري، فما أن يعرف (الفرد) موقف المشرّع التربوي الإسلامي من سلوك (التكبر) حتى يبدأ في التدرب على ممارسة سلوك (التواضع) عملياً مع الآخرين، وما أن يدرك موقف الإسلام من سورات (الغضب) حتى يبدأ في (التحكم) فعلياً في هذا الانفعال والسيطرة على نفسه، أي تتحول التوجيهات الأخلاقية العبادية إلى مواقف سلوك قائمة.

وليس من المعقول ـ وفق هذه الطريقة ـ أن يتدخل المعالج النفسي في تغيير كل مشكلة سلوكية، أو مداواة كل مرض نفسي، لأن ذلك يلغي أولاً اعتماد المريض على قواه الذاتية في تخليص نفسه من عيوبها، ولأن ذلك

أيضاً يأخذ وقت المعالج، فلا يتفرغ لأحد غيره، ومن هنا يحدّد المعالج المسلم فقط خطوات العلاج، ويرشده مباشرة إلى برنامج التغيير، ثم يتركه يعتمد ـ معتمداً على نفسه ـ في علاج ذاتي لبعض الأمراض الأقل سوءاً التي قد تضرّ الذات.

وبعد ذلك يتدرج المريض مع عيوبه حسب سلم الأولويات، ومن الضروري أن يراجع المريض معالجه ليسترشد بتوجيهاته عند مواجهة بعض الصعوبات في حلّ مشكلاته وأن يستنصحه في التغلب على هذه الصعوبات.

وعلى كل حال فإن المعالجة الجذرية الشاملة، برنامج مشترك وتعاوني يبذل فيه المعالج المسلم جهداً أكبر في تحديد الخطوات الأولى للعلاج المعرفي والنفسي، وتعطى للمريض مسؤولية أكبر في علاج نفسه ذاتياً، بعد أن يحدث المعالج النفسي المسلم تغييراً أساسياً في اتجاهات الفرد الرئيسية، فيكون متهيئاً ـ نفسياً وعقلياً ـ للقيام بهذا الدور، وهذا التغيير ضرورة تربوية في حركة العلاج النفسي من النظرة العبادية الإسلامية لأنه ينطلق من أعماق الذات ومن إحساسها بالمشكلة عملاً بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢].

وليس هذا النوع من المعالجة صالحاً للذات الفردية فحسب كما قد يبدو للوهلة الأولى، فالمنهج التغييري في الإسلام حقق بواسطتها نجاحاً كبيراً في تغيير البناء النفسي والعقلي للمجتمع الإسلامي الأول، وما زال

(١) سورة الرعد، ١١.
(٢) سورة الأنفال، ٥٣.

رصيده في هذا الشأن غنياً، وهو قادر على إعادة التجربة، وفي أي وقت ومكان إذا صدقت النوايا، وسيحقق نتائج أفضل بإذنه تعالى، طالما أن العالم كله أصبح أرضاً متصلة أو كما يقال (قرية كونية واحدة).

إن الذات المسلمة التي ازورت عن الحق ـ قليلاً أو كثيراً ـ لا يحررها من أوضار (الحياة المنحرفة) إلاّ منهج الله عزَّ وجل الذي خلق النفس وعلم خصائصها ونواياها وخفاياها وأساليب التعامل معها.

ب ـ المعالجة الخاصة أو الجزئية:

إذا كان نمط المعالجة الشاملة تركز على مجموعة من أمراض الذات، فإن النمط الآخر ـ الخاصة ـ يتيح للمعالج المسلم مداواة كل مرض على حدة، وعند ملاحظة التراث النفسي والأخلاقي عند المسلمين، نجد أن علماء السلوك المسلمين أبدعوا كثيراً في استعمال هذا النمط، إذ صنف هؤلاء العلماء (الأمراض الروحية) ودرسوا أسبابها وطرق علاجها بنظرة متكاملة، ففي كتب الأخلاق لعلمائنا دراسات مستفيضة، وغنية بالمعالجات الخاصة للأمراض النفسية، حيث يفرغ كل واحد منهم تجربته النظرية والعملية معاً في هذا المجال.

لقد صنف علماء الأخلاق المسلمين أمراض السلوك إلى أبواب، كل باب يدرس فيه الباحث أو العالم الأخلاقي مرضاً معيناً، ويحدّد الرؤية الوقائية والعلاجية عن هذا المرض أو ذاك، وهي رؤية مستمدة من نصوص من القرآن والسنة واجتهادات وتجارب أئمة الإسلام وعلمائه، فنجد مثلاً في كتب الحديث وعلم الأخلاق باباً مستقلاً ومنفرداً عن البخل، وباباً آخر قائماً بذاته عن الرياء، وثالثاً عن العجب والمفاخرة، ورابعاً عن الخوف، والوسوسة، والطمع، والحقد، والغفلة.

وهكذا تصنف أمراض السلوك إلى أبواب تسهيلاً للدراسة، ويسمح للموجّه النفسي المسلم أن يبحث ويعالج كل مرض أخلاقي أو معرفي أو وجداني، ويحدّد في باب مستقل رؤية المشرّع التربوي الإسلامي ووجهة نظره من كل رذيلة أخلاقية أو أية مشكلة سلوكية.

وإذا كانت المعالجة الكلية ـ الشاملة ـ يستعملها الموجّه المسلم في تغيير اتجاهات الفرد والجماعة معاً، فإن المعالجات الخاصة أو الجزئية يمكن استعمالها بشكل موسع في محيط الفرد، لأن المعالج النفسي المسلم يركز مثلاً على مرض معين ـ كالرياء ـ لدى الذات المسلمة، ويستفرغ كامل خبرته في مداواة هذا المرض ومساعدة المريض على التخلص منه، فإذا كان الشخص يشعر بحاجته الشديدة لمواجهة مرض الرياء، فإن المعالج المسلم لا يجد نفسه بحاجة إلى استخدام نظام المعالجة الشاملة، لأن المريض في مثل هذه الحالة لا يفتش عن علاج إلاّ للحالة المرضية المصاب بها، وقد ذكرنا أن النفس المسلمة تمرض كغيرها بأمراض السلوك.

والمسلم الذي يعاني من حالة الخوف من أعداء الله ـ مثلاً ـ أو الشعور بالمذلة إزاءهم بحاجة لمعالجة جزئية تحرره من هذا المرض، ولذلك يصب المعالج كامل جهده في الاتجاه الذي يعينه على إزالة هذه الحالة المرضية الخاصة عند مريضه شيئاً فشيئاً.

وحينما نعتقد بأن المعالجات الخاصة بمرض ما أوسع استخداماً في محيط الفرد، فلا يعني أبداً أن المعالج لا يلجأ إليه حين تعاني الجماعة المسلمة من مرض نفسي ـ جماعي معين كإحساس المسلمين في عصرنا الحاضر بالنقص إزاء الغربيين نتيجة تفوقهم العلمي والتقني، ولهذا قد

يضطر المعالج إلى استعمال هذا النمط لتدريب الأمة ـ جماعة بعد جماعة ـ على اقتحام صعاب الأمور، فيساعدها على التحرر من ضغط مشاعر الخوف التي تهيمن على نفسيات أفراد الأمة، ويحاول بالتأكيد استثمار أدنى حماس يتوهج في النفوس كي يوظفه ـ كطاقة نفسية ـ لفك الخوف عن النفوس.

ومع ذلك فإن المعالج النفسي المسلم لا يغفل عن بعض الاعتبارات التي ينبغي مراعاتها في العلاج، فعليه كما يقول أبو حامد الغزالي النظر إلى «مرض ـ المريد ـ وفي حاله، وسنه، ومزاجه، وما تحتمله بنيته من الرياضة، ويبنى على ذلك رياضة، فإن كان المريد مبتدئاً جاهلاً بحدود الشرع، فيعلمه أولاً الطهارة والصلاة، وظواهر العبادات، وإنْ كان مشغولاً بمال حرام أو مقارفاً المعصية فيأمره أولاً بتركها، فإذا تزين ظاهره بقرائن الأحوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه»[١].

وهكذا نجد استعمالات هذا النمط أوسع في دائرة الأفراد، والمعالجة الكلية أنسب لمحيط الجماعات، ولا بدّ في الحالين من مراعاة ما يصلح للمرضى من أنماط المعالجة عملاً بالقول الداعي إلى معالجة كل رذيلة بفضيلة من جنسها كما سيأتي بيانه في فصل الشروط.

وتبدو أهمية المعالجة ـ الخاصة أو الجزئية ـ في أنها لا تنقذ المريض من مرضه الرئيسي الذي تكتوي نفسه به، بل من أمراض أخرى متداخلة ومتصلة بمرضه الرئيسي ومترتبة عنه عادة عن المرض الأساسي باعتبار أن المرض النفسي ينشأ عادة عن مرض آخر، ويؤدي هو إلى بروز أمراض أخرى.

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٣، باب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب، ص٥٩، وكتاب «رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب»، تحقيق محمود بيجو، ص٣٣ ـ ٣٤.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«أيها الناس أعجب ما في الإنسان قلبه، له مواد من الحكمة، وأضداد من خلافها، فإن سنح له الرجاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإنْ ملكه الناس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وإن أسعد بالرضى نسي التحفظ، وإن ناله الخوف شغله الحزن»[(١)].

وعن النبي صلى الله عليه وآله قوله في هذا الشأن:

«أما علامة الكسلان فأربعة: يتوانى حتى يفرط، ويفرط حتى يضيع، ويضيع حتى يأثم، ويضجر»[(٢)].

ويستهدف المعالج المسلم باستعمال هذا النمط في علاج كل رذيلة على حدة، تكوين الفضيلة التي تضاد هذه الرذيلة، فكما أن (الرذيلة) تؤدي إلى ظهور رذائل أخرى، كذلك (الفضائل) تساعد على تكوين قيم وفضائل أخرى.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«من تفكر اعتبر، ومن اعتبر اعتزل، ومن اعتزل سلم، ومن ترك الشهوات كان حراً، ومن ترك الحسد كانت المحبة عند الناس»[(٣)].

وخلاصة الأمر، أن مهمة المعالج أو الموجّه المسلم في استعماله لهذا النمط من المعالجة أيسر، وأفضل لمن يعاني من مرض واحد أو اثنين، كما أن جهد المعالج يكون أقل، ونتائج المعالجة بالضد أفضل، لأن إمكانات المعالج المسلم ومهاراته تنصب دون ريب على مرض خاص، بينما تتوزع

---

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص٦٩.
(٢) المصدر السابق، ص٢١ ـ ٢٣.
(٣) تحف العقول، ص٧١.

هذه المهارات، وهذه الإمكانات في النمط الآخر على عدد أكبر من الأمراض النفسية، والذهنية في الذات المسلمة الصالحة.

ثانياً: من حيث مستوى المعالجة:

ذكر العلامة المجلسي (قدس سره) في علاج الغضب، حيث قال:

«واعلم أن علاج الغضب أمران: علمي وفعلي، أما العلمي فبأن يتفكر في الآيات والروايات التي وردت في ذمّ الغضب، ومدح كظم الغيظ والعفو والحلم، ويتفكر في توقعه عفو الله عن ذنبه، وكف غضبه عنه، وأما الفعلي فذكر عليه السلام هنا أمرين[1]:

وأراد العلامة المجلسي رضوان الله عليه بالأمرين الفعليين ما يستفاد من الحديث المروي عن أبي جعفر عليه السلام:

- «أيما رجل غضب على قوم، وهو قائم فليجلس من فوره ذلك، فإنه سيذهب عنه رمز الشيطان، وأيما رجل غضب على ذي رحم فليدن منه، فليمسه، فإن الرحم إذا مست سكنت»[2].

أوضح النص جانبين لعلاج انفعال (الغضب) في صورته المرضية أحدهما نظري، والآخر عملي، وبملاحظة النصوص الشرعية (قرآنية ونبوية) يجد أنها تشتمل دائماً على هذين الجانبين المتلازمين في تعديل السلوك الأناني وعلاج جميع الحالات النفسية المرضية، كالكبر، والوسوسة والكذب والانحراف الجنسي والإحباط والتناقض وغيرها من أنماط السلوك العصابي.

---

(١) كامل الهاشمي، كتاب المعصية وآثارها في الحياة الإنسانية ص٦٨ نقلاً عن بحار الأنوار.
(٢) المصدر السابق، ص٦٨.

وقد أشار معظم علماء الأخلاق المسلمين في أبحاثهم إلى تكامل الجانبين وتعاضدهما في فكاك النفوس وتحريرها من ضغط السيئات، بل إنه يلاحظ كذلك أن هذين الجانبين تغطيهما النصوص الإسلامية التي تربي المسلم على الفضائل، كالتواضع، وحسن الخلق، وقصر الأمل، والإيثار، ويمكن أن نذكر باختصار فكرة مبسطة عن هذين الجانبين اللذين يمثلان روح المعالجة ـ للنفس ـ بأضدادها، وهما:

* المستوى النظري للمعالجة.

* المستوى العملي للمعالجة.

أ ـ المستوى النظري للمعالجة:

ويسميه ابن مسكويه (بالقوة العالمة)، وملخصه أن النصوص التربوية الإسلامية، واجتهادات أئمة الإسلام وعلمائه تدعو (المسلم) إلى ضرورة تحصيل المعرفة النظرية التي يسترشد بها الفرد في معالجة نفسه من نقائص السلوك، فالمسلم بحاجة إلى معرفة الأسس النظرية لمنهج الأضداد، وخطوطه، وشروطه، وأساليبه، وهو كذلك بحاجة لمعرفة السمات المتقابلة بالأضداد، وشروط تدريب الذات على تقبلها، لأن هدف هذه القوة ليس بلوغ المعرفة في ذاتها، فالفكر في غير الحكمة (هوس)[1] كما يقول الإمام علي عليه السلام.

إن الهدف من معرفة الأساس النظري لمنهج الإسلام في العلاج النفسي، هو الوصول إلى (مقام التوحيد، وتخليص القلب من وساوس الشيطان، وطمأنينة الفؤاد بنور العرفان، ولن يتحقق ذلك بدون الحكمة

---

(١) الشخصية الرسالية ص٢٣٧، وكذلك ميزان الحكمة، ج٧، باب الفكر ص٥٤٤.

النظرية)[١] التي تهيئ النفس لتمثل السلوك الإسلامي وهضم فضائله ومعارفه، والتوافق مع قيم ومعايير وأحكام المشرّع التربوي الإسلامي في العلاقة مع الله تعالى وتصحيحها على أساس المفاهيم العبادية المستمدة من القرآن والسنة.

أما ابن مسكويه، فيقول عن فعالية وقوة المعرفة النظرية أو (العالمة) كما يطلق عليها:

(هي التي يشتاق بها إلى العلوم، فهو أن يصبر في العلم بحيث يصدق نظره، وتصح بصيرته، وتستقيم رؤيته، فلا يغلط في اعتقاد، ولا يشك في حقيقة، وينتهي في العلم بأمور الموجودات على الترتب إلى العلم الإلهي الذي هو آخر مرتبة العلوم، وثيق به، ويسكن إليه ويطمئن قلبه، وتذهب حيرته ويتجلى له المطلوب الأخير حتى يتحد به»[٢].

وقد استمد علماء الأخلاق المسلمين أهمية ـ المعرفة النظرية ـ في تغيير سلوك الفرد من مصادر الإسلام نفسه، وهما الكتاب والسنة، تقول الآية القرآنية:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[٣].

وتقول آية أخرى:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[٤].

---

(١) جامع السعادات، ج١ص ٤٠.
(٢) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص٥٧ ـ ٥٨.
(٣) سورة يوسف، ١٠٨.
(٤) سورة الإسراء، ١٦.

أما نصوص السنة فيروى عنه ﷺ قوله: «من عمل على غير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[١].

وعن الإمام علي عليه السلام قوله: «ما من حركة إلاّ وأنت محتاج فيها إلى معرفة»[٢].

ويقول الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «العامل على غير بصيرة، كالسائر على غير طريق، فلا تزيده سرعة السير إلاّ بعداً»[٣].

وفي نصّ آخر يقول الإمام الباقر عليه السلام: «لا يقبل عمل إلاّ بمعرفة، ولا معرفة إلاّ بعمل، ومن عرف دلّته معرفته على العمل، ومن لم يعرف فلا عمل له»[٤].

ب ـ المستوى العملي للمعالجة:

أطلق ابن مسكويه على هذا المستوى في كتابه «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق» لفظ (القوة العاملة)[٥] ويقصد بها (التخلي عن الصفات الرَّدية، والتحلي بالأخلاق المُرْضِية، ثم الترقي منه إلى تطهير السر، وتحليته عما سوى الله سبحانه»[٦].

إن القوة العاملة على حدّ تعبير ابن مسكويه تنقل المعرفة النظرية إلى سلوك قويم في واقع الذات، ومما لا شك فيه أن تكوين هذا السلوك

(١) تحف العقول، ص٣٩.
(٢) تحف العقول، ص١١٩.
(٣) تحف العقول، ص٢٦٦.
(٤) تحف العقول، ص٢١٥.
(٥) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص٥٨.
(٦) جامع السعادات، ج١، ص٤٠.

الصحيح يتمّ من خلال سلسلة تدريبات، ومواقف عملية متتابعة، فلا يكفي في نظر المشرّع التربوي الإسلامي أن تكسب الذات معارفها عن الإسلام وتصوراته في موضوعات المجتمع، والإنسان، والألوهية وقضايا الحياة الكبرى، وإنما لا بدّ من الملاءمة بين هذه الأحكام ومتطلبات الذات، وبدون هذا التلازم بين المستويين... النظري والعملي... تفشل تماماً خطة المعالج.

مثلاً أوصى الإمام السجاد عليه السلام بأن يكون من حق (المستنصح) على الناصح أن يكلمه بما يطيق عقله وفقاً لمبدأ الفروق الفردية العقلية، يقول الإمام زين العابدين في وثيقته التربوية الخالدة (رسالة الحقوق):

«وتكلمه ـ يخاطب هنا الناصح ـ من الكلام بما يطيقه عقله»[1] أو يعني المستنصح.

ويكمل الإمام السجاد خطابه أو نصيحته الإرشادية فيقول عليه السلام: «فإن لكل عقل طبقة من الكلام يعرفه»[2].

لقد أراد الإمام عليه السلام أن يحدّد حقاً للمستنصح على ناصحه، وهو ما نسميه الآن (المعالج)، وهذا الحق أن يخاطب الناصح مستنصحه بلغة يفهمها، ويطيقها عقله، لأن لكل عقل مستوى معيناً من الذكاء أو التفكير، ومن المؤكد أن هذه المشورة يجب أن تكون صفة أساسية للمعالج، وبقدر إتصافه بها، يكون نجاحه في مساعدة مستنصحه، لكن المسألة هنا ليست ـ فقط ـ وعياً أو إدراكاً صحيحاً من الناصح أو المعالج النفسي لهذه المشورة، وإنما بتطبيق الفكرة بإيجابية على المستنصحين، بحيث تتحول مشورة الإمام

(١) تحف العقول، ص١٩٣.
(٢) المصدر ذاته، ص١٩٣.

إلى ممارسة عملية فعالة في المعالجة على نحو تسهم في تعديل السلوك بما يتفق مع معايير النظرية العبادية الإسلامية.

وعن حق الناصح يقول الإمام السجاد ﷺ في جزء آخر من نصّ الرسالة السابقة الذكر:

«وأما حق الناصح فأن يلن له جناحك، ثم تشرأب له قلبك، وتفتح له حتى تفهم عنه نصيحته، ثم تنظر فيها، فإن كان وفق فيها للصواب حمدت الله على ذلك وقبلت منه، وعرفت له نصيحته، وإن لم يكن وفق لها فيها رحمته، ولم تتهمه، وعلمت أنه لم يألك نصحاً إلاّ أنه أخطأ»[١]..

والنص السابق لا يطالب فقط بفهم حقوق الناصح أو (المعالج) فهماً نظرياً، وإنما يؤكد على حفظ هذه الحقوق التي تضمنها النص (عملياً)، فالمعالجة الإسلامية للسلوك بطريقة الأضداد تؤكد على العلاقة الحميمة بين المعالج ومرضاه، ولن تنجح هذه المعالجة ما لم يستوعب المريض مضامين هذه النص، ولم يجهد نفسه عملياً على التقيد الفعلي بحق المعالج من حسن استماع، ولين جانب، وفتح قلب، وفهم نصيحة، والتأمل فيها، والعرفان له بالجميل إن وفقه الله في المعالجة، وتجنب اتهام معالجه بالتقصير والظن دون حق.

فوثيقة الحقوق الإرشادية التي صاغها الإمام لتأكيد العلاقة الحميمة بين المعالج ومرضاه ليست مكتوبة للوعي النظري بها، وإنما هي سجل يسترشد به كل منهما في تطبيق أساسيات العلاج النفسي، وهو تطبيق مزدوج يتقيد به المعالج ومرضاه معاً.

(١) تحف العقول، ص١٩٣.

ثالثاً: من حيث طبيعة المعالجة:

يمكن أن تنقسم المعالجة بالضد من حيث طبيعتها إلى نوعين هما:

أ ـ المعالجة الخاطئة:

تتعرض نفوس الكثير من الناس إلى انحراف، فيغرق فيه البعض إلى أخمص قدميه، لكن النفس المريضة التي اعتادت (الفساد) حتى السأم، تشعر بأهمية البحث عن أسلوب حياة آخر مضاد يخلصها من وَهْدة الانحراف، ولا غرابة أن يميل البعض ممن ضاق ذرعاً بظلمة المعاصي إلى استعمال منهج الأضداد بنظرة خاطئة، فهؤلاء ـ الأفراد ـ يخطئون منذ بداية شعورهم بالحاجة لتغيير أنفسهم في الانتفاع منه، وذلك بسبب عدم تعرفهم على شروط نظام المعالجة بالأضداد، وخطواته، وأسسه الأخلاقية، ومعوقاته، وكيفية تطبيقه على الذات، لذلك يتوقع أنْ لا يستطيع هؤلاء العائدون إلى الله تنفيذ خطته العلاجية المتكاملة، بل إن استعمالهم لهذا المنهج بصورة مقلوبة يشوِّه صورته في الأذهان، ويضرّ بتأثيره في الممارسة العلاجية.

إن استعمالاته الخاطئة ليست في صالح معرفة قيمة المنهج من جهة، وليست كذلك في صالح المريض أيضاً لأن المعالجة غير الصحيحة بهذا المنهج لا تفشل فقط في علاج مشكلات الذات وأمراضها فحسب، بل تساعد بدون وعي الفرد نفسه على بروز مشكلات سلوكية جديدة، تجلب له مزيداً من التوتر والقلق والتأزم النفسي، وتمنع الذات المسلمة من استعادة توازنها الداخلي المفقود.

فالمعالجة الخاطئة بالأضداد لا تغيّر شيئاً من واقع الفساد في النفس، ولا تؤدي إلى تكوين اتجاه إيجابي لإحداث تغيير إيجابي من داخل الذات،

فكل ما تفعله هو إضفاء بعض عيوب الذات خلال فترة مؤقتة من الزمن هي فترة المعالجة، بينما تبدأ في الوقت ذاته عيوب أخرى في الظهور، وبالتالي قد ينخفض التوتر والقلق عند الفرد في جانب ما، وتكون الذات تحت خطر متاعب قلق جديدة في جوانب أخرى، مما يؤدي إلى تشويه نظرتنا عن الفعالية العلاجية لمنهج الأضداد ذاته، فنتهمه بالعجز عن حلّ مشكلات السلوك غير التوافقي عند الإنسان، وخلق مشكلات أخرى، وعلى كل حال تدل كثير من شواهد الواقع على الآثار السيئة لمعالجة خاطئة بمنهج الأضداد.

إن بعض المرضى الذين سئموا انحراف نفوسهم، يشعرون بمدى حاجتهم إلى ضرورة القيام بعمل ما، يعالج ما في قلوبهم من أمراض، ويخفف القلق المسيطر على أنفسهم، فيضطر هؤلاء المرضى الفارون من عذاب القلق إلى الدخول في تجربة أخلاقية جديدة، ومضادة، لردم الفراغ الداخلي لديهم لكن مجرد الإحساس القلبي لا يكفي في واقع الأمر لنجاح أي تجربة جهادية، فلا بدّ من فهم متكامل لمنهج العمل العلاجي، واستيعاب شروطه، ونظرته في التعامل المباشر مع الذات.

ولا بدّ أيضاً للأفراد الذين عقدوا العزيمة على المعالجة بمنهج الأضداد والعمل به من فهم نفوسهم والدراية بسراديبها المظلمة، فمعرفة النفس جزء أساسي من منهج المعالجة وأحد مكوناته الرئيسية، وما لم يستطع الفرد المسلم الوعي الجيد بهذه المسألة فلن يحقق أهدافه، وسوف تصاب المعالجة بلا شك بخلل كبير، وترتبك عملية تطبيق المنهج على الذات ارتباكاً شديداً، ولهذا نعتقد أيضاً أن الكثير من هؤلاء فشلوا تماماً في الاستعمال الصحيح لهذا المنهج بسبب قصور وعيهم بمنهج المعالجة وبشروطه وآلياته.

وسوف نشير على عجالة لبعض المشاهدات الواقعية للمعالجات الخاطئة بمنهج الأضداد، فلم تتحقق الأهداف، بل كانت نتائج تجارب هؤلاء معكوسة، وسيئة للغاية.

إن بعض مرضى القلوب يميلون إلى عمل تغييري جزئي، رغم أن معظم جوانب البناء النفسي والعقلي للذات يحتاج إلى نسف أساسه، فالنفس الموبوءة بركام كبير من الأخلاق الفاسدة لا تلجأ إلى استبدال جزئي للصفات خاصة إذا كان الإنسان يعيش وسط بيئة بعيدة كل البعد عن منهج الله عز وجل، لأنه إذا تمّ التغيير الجزئي زادت فساداً، وزاد طريقها غشاً، إذ يختلط الخل بالعسل ويمتزجا معاً، وهذا يفسد في آن واحد مرارة الخل وحلاوة العسل.

ومن هنا وجبت التخلية قبل التحلية على حدّ تعبير علماء الأخلاق المسلمين تمهيداً لمرحلة التجلي بلغة الصوفية، وهي مرحلة إبداع، وبذلك ينتقل التغيير من مرحلة التخلية إلى مرحلة التحلية ثم التجلي أو مرحلة الإبداع كما يقول رجال التربية الحديثة.

كما أن منهج المعالجة النفسية الإسلامي لا يوجّه جهده لتغيير طباع أصيلة في نفوسنا ومركوزة بإرادة الله تعالى، ومجبولة عليها فطرتنا، ولا يشغل المعالج المسلم نفسه بمعالجة نزعة أصيلة زوّد الله الإنسان بها لفائدة أو حكمة، وذلك لتنتظم عليها حركة الذات البشرية في دولاب الحياة كله، وإنما يعالج فقط خبائثها، وزوائدها الضارة دون تفريط أو إفراط، وهو يقبل على هذه المهمة مسترشداً بوعي كامل لمنهج المعالجة النفسية بالأضداد وفلسفته العقائدية والأخلاقية والعلمية.

ولا شك أن عدداً كبيراً من المسرفين على أنفسهم من الذنوب،

ومرضى القلوب لا يدركون بدقة هذه النظرة، فتأتي معالجتهم تنكباً للطريق وإن خلصت النوايا، ومن المؤكد كما قلنا أن أية أخطاء يرتكبها المعالج أو المريض لا يتحمله أبداً منهج المعالجة، وسوف نبين في مكان لاحق كافة الشروط الصحيحة لضمان نجاح المعالجة السيكولوجية بالأضداد، وهي شروط متكاملة لا يوفرها للناس سوى القرآن والسنة، ويمكن للعقل الإنساني بنقائه الفطري أن يكتشف بعض هذه الشروط لأن العقل ـ كما جاء في كلمة خالدة للإمام علي ـ شرع من داخل الإنسان، والشرع عقل من الخارج، وفي ضوء هذه الوحدة العضوية بين العقل والشرع يتمكن الإنسان من تعديل سلوكه بمعايير وشروط الشرع والعقل معاً.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[1].

وتقول آية أخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[2].

ولمزيد من إيضاح الحقيقة، نترك القارئ الكريم مع بعض الشواهد الواقعية الحية التي تدل على الفهم الخاطئ في استعمال نظام العلاج بالأضداد دون وعي كامل به.

يمكن أن يقف المرء على بعض الحالات المرضية الناشئة عن سوء التوجيه والتربية، فقد يعاني طفل مثلاً منذ صغره من مشاعر النبذ، والقهر والاضطهاد، ويشعر أن بيئته العاطفية لا تحرمه فقط من الأمان النفسي، بل تكون مصدراً عدائياً موجّهاً ضده.

ويظل هذا الشعور ينمو تدريجياً خلال فترات النمو اللاحقة من عمره، ومن الطبيعي أن يكون هذا الشعور مصحوباً بمشاعر أخرى ـ مرضية ـ تصدر

---

(١) سورة العنكبوت، ٦٩.

(٢) سورة الإسراء، ١٦.

عنه بين فترة وأخرى في حق نفسه، وفي حق الآخرين كالرغبة في الانتقام من الآخرين.

والمعالج النفسي المسلم لا يمكنه بأي حال أن يعزل هذه الانحرافات ويعطل تأثيرها في توليد شعور نفسي آخر يسكن في داخل نفسية الطفل، وهذا الشعور هو الرغبة في إيذاء الآخرين باعتبارهم مصدراً للسلوك العدواني والاضطهادي الموجّه من ذاته نحوهم، قال الإمام علي:

«الإفراط في الملامة يشب نيران اللجاج»[١].

«كثرة التقريع يوغر القلوب»[٢].

إن سلوك الطفل سيكون متأرجحاً بين نزعتين مرضيتين هما الشعور بالنبذ والرغبة في الانتقام فكلاهما يمثل طرفاً في خيط واحد تفصل بينهما مساحة كبيرة لا يلتقيان، وإن الطفل سينمو، ويكبر، وقد يتذكر تجربة النبذ في الطفولة، فمن المحتمل أن يضاد تلك التجربة سلوك مرضي آخر وهو الانتقام.

فإذا غفل ـ الفرد المسلم ـ عن منهج المعالجة السيكولوجية الإسلامية القائم على التوازن، والوسطية، والمقابلة السليمة بين أضداد السلوك، اختلت المعادلة وسقط في وسط هذا المجال مبدأ (الصفح والعفو)، وهو كما نعلم مبدأ أخلاقي إسلامي يتوسط رذيلتين هما تقبل المذلة من الآخرين، والنزعة الانتقامية، وكل نزعة إذا كان كلاهما عصاب يرفضهما المشرّع فإن الصفح سلوك سوي، غير أن هذا الاعتدال يعبّر عنه الفرد بمقدار وعيه بأهمية الصفح في مقابلة كل عدوانية، لكن المؤسف أن

---

(١) تحف العقول، ص٨٤.

(٢) كتاب ٢٠٠٠ كلمة، ص٨٠.

الإنسان يقابل السلوك الخاطئ بآخر من جنسه، فينسى التسامح، والصفح، والإيثار[١]، والتعاون والعلاقات بين الأفراد المؤسسة على الخير.

لقد كانت الوصايا الأخلاقية الإسلامية تربي الإنسان المسلم ـ مريضاً ومعالجاً ـ على العفو والصفح الجميل مثل قوله تعالى:

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾[٢].

وقوله أيضاً: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[٣].

وقوله أيضاً: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[٤].

والحديث الشريف «أولى الناس بالعفو أقدرهم على العفو»[٥].

لكن علم النفس التحليلي يسوغ للمرضى انحرافاتهم، ويؤسس السلوك المرضي على قاعدة عامة شاملة للناس تقول: «كل أو فأنت مأكول»[٦].

وإن من شروط الصحة النفسية السليمة ألا يكون الإنسان طيباً، مسرفاً في الطيبة حتى يكون سوياً وصحيحاً، ومعافى، فليس الخلق الرفيع دليلاً على الصحة النفسية[٧]، لذلك يطالب بعدم كبت النبذ، والاضطهاد العدواني ليمنع نشوء المرض النفسي، وحجة علماء النفس في ذلك أن عدم تصريف العدوان في العالم الخارجي أو في الغير بأية صورة من الصور، كان هذا

---

(١) انظر آيات كثيرة من القرآن الكريم كآية (٨٥) من سورة الحجر، وأيضاً آيتي (١٠٩، ٢٣٧) من سورة البقرة.
(٢) سورة النور، ٢٢.
(٣) سورة الشورى، ٤٠.
(٤) سورة آل عمران، ١٣٤.
(٥) نهج البلاغة، ج٤، ص١٤.
(٦) نحو علم نفس إسلامي، ص١٤١ نقلاً عن مصادر أخرى.
(٧) المصدر السابق، ص١٤١.

العدوان يرد على صاحبه، ويكون سبباً لكراهية الذات أو في صورة بلادة وخمول واستسلام أو يفضي بصاحبه إلى الانتحار أو التورط في مرض نفسي أو جسمي[١].

ولكن لو ترك (للمنتقم) أن يفرغ عدوانيته، ورغبته في الانتقام، فإنه لا بدّ أن يسأم ظلمه وسلوكه الانتقامي، وسوف يبحث عن حاجة نفسية فقدها، وطبيعة طيبة مسالمة أخفتها المشاعر المتأججة، فالإنسان: «إن عرض الغضب، اشتد به الغيظ»[٢].

إنه دون شك يفتش عن العدالة بلهفة، لكنه لا يجد نفسه إلاّ وقد انتقل من أحد طرفي المعادلة إلى الطرف الآخر، من حالة (المظلومية) إلى حالة (الظلم) للآخرين، ومن حالة (الانتقام) إلى (الرضا) بتقبل الحرمان تحت عناوين كثيرة، ولو استوعب الإنسان نظام التناسب بين الأضداد لما عالج نبذه بالانتقام، ولظلمه بإيذاء الآخرين.

ونذكر أيضاً مثالاً آخر لهذا النوع من المعالجة الخاطئة.

يقول علماء النفس إن النفس يمكن لسبب ما أن تستسلم ـ بطريقة مرضية ـ للإحساس بالنقص، وقبول مشاعر الحطة أمام الآخرين، ولا شك أن هذا الإحساس يبدأ في الضغط على النفس، ويرفع بين لحظة وأخرى ترمومتر القلق، ويزيد من معدل التوتر والتأزم النفسي لدى الإنسان كلما وضعت الذات في مواقف الضعة والحطة.

وحينئذ يبدأ ـ الكائن الآدمي الموبوء بمشاعر الحقارة ـ في التفتيش عن حالة نفسية ترفع عنه ثقل هذا الإحساس، ولكونه يجهل أحياناً الوسطية

---

(١) المصدر ذاته، ص١٤١.

(٢) تحف العقول، ص٦٩.

السليمة بين أضداد السلوك المتقابلة، فإنه من المحتمل أن يضطر إلى تضخيم مرضي (لذاته) من أجل اخفاء مشاعر النقص لديه، وتغطية إحساسه بالضعة أو على الأقل خفض معدله في النفس، لأنه كما قال الإمام علي: «العجز آفة»[١]، فيميل الفرد للتكبر تحت دفع إحساس الفرد بالنقص، فالتكبر لدى علماء النفس الأرضي يعد تعبيراً عن الإحساس بالنقص، والمشرّع التربوي الإسلامي يشير بوضوح إلى العرض المرضي المذكور، حينما يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«ما من رجل تكبر أو تجبر إلاّ لذلة يجدها في نفسه»[٢].

ويقول في نصّ آخر مشابه: «ما وجدت رجلاً يتيه إلاّ لذلّة يجدها في نفسه».

فالإمام الصادق عليه السلام يوضح لنا الجذر المرضي الواضح لظاهرة التكبر، مبيّناً أن (التكبر) لدى بعض الأفراد ناجم من مرارة إحساسهم بالذل، والضعة، والدونية... ومثل هذا (التناول) للظاهرة المذكورة، لا تخص نفراً من الآدميين دون آخر، بل يمكن أن يصدر عنها (مسلم) ينقصه الوعي، أو كافر لا علاقة له بمبادئ الإسلام.

إذا أحاط الفرد نفسه (بالتكبر) فإنه في الواقع يعبر عما في داخله من مذلة، وشعور بالحطة، فالتكبر ليس عزاً أو شعوراً حقيقياً بقيمة الذات، بل هو إحساس عصابي يسيطر على النفس الحائرة، وبمعاينة دقيقة نجد أن استبدال (النقص) (بالتكبر) ليس علاجاً صحيحاً، لأن الانحراف بقي في

(١) نهج البلاغة ج٤، ص٣، وكذلك كتاب تصنيف نهج البلاغة ص٢٩٧، وأيضاً جامع السعادات ج١، ص٣٨٤.

(٢) د. محمود البستاني، دراسات في علم النفس الإسلامي، ج٢ ص١٥٠.

النفس، وإن تغيرت ـ مؤقتاً ـ صورة التعبير عنه، فالإحساس (بالنقص) بقي في داخل النفس، وإن حاول (المتكبر) إخفاءه (بالتكبر) فكلاهما عصاب لم يغيّر من فساد النفس، ولم تكن المعالجة قد بلغت (بالنفس) إلى التواضع والعزة، والتقدير الصحيح للذات.

ولو استعرنا مفاهيم التحليل النفسي ولغة أصحابه، أمكننا أن نقرر ـ ببساطة ـ أن التكبر في ضوء مقولة الإمام الصادق عليه السلام المتقدمة، يعد حيلة دفاعية قد احتمى المريض بها، بغية التخفيف عن خبراته اللاشعورية، ومن الممكن أيضاً، أن يعد المظهر المذكور سلوكاً مصطنعاً تتعمد الشخصية من خلال الوعي بواقعها الذليل[1].

وما قلناه عن النبذ والانتقام كطرفين متقابلين في خط واحد متصل، يمكن أن نقوله كذلك عن سلوك الضعة والتكبر، فكلاهما يمثل طرفاً مرضياً شاذاً في خيط واحد، أما التواضع وعزة النفس فكلاهما هو الغاية لأنها كليهما سمة مطلوبة، لكن سوء فهم الأضداد. أي سوء فهم السمات المتضادة. . تدفع النفس في حركتها من طرف خاطئ إلى طرف خاطئ آخر يناقضه تماماً دون الوقوف عند الوسطية، أو عند السمات العبادية التي تحقق التعادل في داخل النفس بين قواها المتقابلة.

والبخل كذلك مرض نفسي وأخلاقي يحرم الفرد من لذة ما يمتلكه ويشوّه صفاء العلاقات بين الأفراد، ابتداء من المؤسسة الأولى ـ البيت ـ وانتهاء بالمؤسسات الأخرى المرتبطة معه بمصالح معينة، وثمة أفراد يحسون بالبخل كعيب أخلاقي وكمرض نفسي يؤرق حياتهم الشخصية والاجتماعية، ويرغبون بعد صحوة وجدانية ناجمة عن صدمة في التخلص

(١) المصدر السابق، ص٢٧٩.

منه، غير أنه يلاحظ أن الفرد الذي ليست له دراية ومعرفة بمنهج الأضداد الإسلامي يندفع بحماس لمعالجة شحه، وبخله، فيقع في عيب آخر يندد به المشرّع الإسلامي.. .إنه عيب (التبذير والإسراف، وسوء استخدامه خاصة إذا حصل على المال دون تعب).

ومما لا شك فيه أن التبذير كحالة سيكولوجية عصابية يعتبر عند المحلل النفسي الوضعي تعويضاً لحالة الحرمان المفروض على النفس حينما كان صاحبها بخيلاً، وحين طلب الإمام علي من ابنه الإمام الحسن السبط أن يحدّد مفهوم الشحّ قال: «أن يرى ما في يديك شرفاً وما أنفقه تلفاً»[١].. أي ضائع.. حتى لو استخدم هذا المال في سبيل الله بهذه النية المريضة، وبعبارة أخرى يتصور البخيل دائماً ضياع ما ينفقه حتى لو كان عطاؤه قليلاً.

وهذا خلاف ما يفعله الإنسان السخي الذي ينفق ما تحت يده بإحساس المحتاج إلى ربه، الفقير إلى عطائه عز وجل، ويرى أن ما يبقيه في يده ضائع ما لم ينفقه في سبيل الله ولخدمة الجماعة المؤمنة، أو لمساندة خلق الله وعباده بدون قيود لأنه يرى أنَّ المال صفقة رابحة مع الله.

فالمعالجة الخاطئة لداء (البخل) قد ينتهي بانحراف آخر عندما يتحول البخل إلى تبذير، وكلاهما رذيلة، . . . أي البخل مرض والتبذير مرض أيضاً.. ولو استوعب (المريض) فكرة التناسب بين الأضداد[٢] لاستقرت به تجربته العلاجية عند صفة (الكرم) كسمة سوية في الذات الإنسانية، ولترك البخل والتبذير معاً، فسمة الكرم كما يرى علماء الأخلاق فضيلة حية تتوسط بين رذيلتين هما البخل والإسراف أو التبذير.

---

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص١٦٢.

(٢) انظر الشرط التاسع من شروط المعالجة بالأضداد في الفصل الخامس.

وهناك شاهد آخر على سوء المعالجة بالأضداد، فالإنسان الذي حرمته القيود والتحريمات الاجتماعية من إشباع معقول لحاجته إلى الجنس لا يستطيع مداواة جوعه الجنسي بالتمرد على ضوابط العفة وتحطيم قيودها ما دامت معرفته ـ بالأضداد ـ قاصرة، وغير إسلامية، فهو يسعى إلى تخليص نفسه من ضغوط الحرمان الجنسي وآثاره النفسية والاجتماعية، لكنه يتعبها بمتاعب مرض آخر عندما يطلق لها العنان ويتركها منفلتة بلا ضبط أو توجيه أو سيطرة، فالضغوط والتحريمات الثقافية والاجتماعية حالت بينه وبين الحصول على المتعة الحلال، وكأن شهوة الجنس خلقها الله عز وجل في طبيعة الإنسان ترفاً ووجوداً زائداً لا معنى له، وإطلاق هذه الشهوة على عنانها تفسد النفس، وتبلد العقل، وتخمد الروح، وتضيف إلى شخصية الإنسان مشكلات أخرى.

وهكذا تضيع العفة حين تنطلق النفس من حالة (الجوع) الجنسي إلى حالة (الإشباع الجنسي) غير المقيد، والاستمتاع المحرم، فكلاهما عصاب بلغة علماء العلاج النفسي وسلوك محرم يرفضه المعالج النفسي المسلم.

وإذا كانت حركة النفس تتأرجح بين المتناقضات السلوكية والوجدانية بسبب غياب المنهج الحق الذي تسترشد به في التمييز بين الفضائل والرذائل، فإنه قد لا يتغير من الانحراف إلاّ ظاهره، فكل ما تفعله النفس أن تتوهم بالخلاص من عيب، ولا تدري أنها هوت في عيب آخر، وهذا ما جعل العلامة الشيخ النراقي رحمه الله تعالى يسمي هذا النوع من المعالجات (بالمداواة بالسم)[١].

ويحسن ـ للقارئ الكريم ـ أن يقرأ النص التالي لمعرفة أثر هذه المعالجة على بقاء الذات على عيوبها، وإضافة عيوب أخرى.

---

(١) جامع السعادات، ج١، ص١٣٤.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«أيها الناس: أعجب ما في الإنسان قلبه، له مواد من الحكمة، وأضداد من خلافها، فإن سنح ـ ظهر ـ له الرجاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وإن أسعد بالرضى نسي التحفظ (التحرز)، وإن ناله الخوف شغله الحزن، وإن اتسع بالأمن استلبته العزة (الغفلة والبعد عن الرشد)، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن أجهده الجزع قعد به الضعف، وإن أفرط في الشبع كظته البطنة ـ اعتراه الامتلاء المفرط ـ فكل تقصير به مضر، وكل إفراط له مفسد»[١].

ب ـ المعالجة السليمة:

وهي الطريق الصحيح لتعديل سلوك الذات على ضوء منهج العلاج بالأضداد الإسلامي، وسيكون هذا النوع من المعالجة موضوع بحثنا الذي نبسط القول فيه، وقد سبق لنا إيضاح معنى هذه الطريقة، وأوضحنا كذلك ـ في الفصل الثاني ـ أهم المسوغات التي تدعونا للالتزام بها، وسوف نتابع بإذن الله بحثنا باستفاضة لتكون معرفتنا بها وبشروطها، وخطوطها الرئيسية الأخرى أكثر رسوخاً في عقولنا، وحينئذ نكون أكثر استعداداً لتطبيق مفاهيمها على ذواتنا.

رابعاً: خطوات العلاج بالأضداد:

يمر العلاج النفسي الإسلامي ـ وفق طريقة الأضداد ـ بخطوات متصلة، متتابعة تبدأ:

(١) تحف العقول، ص٦٩.

أ ـ خطوة الإحساس بأهمية العلاج:

وتشبه هذه الخطوة مرحلة الشعور بالمشكلة التي تعتبر أولى مراحل التفكير الإنساني وخطواته المنظمة، ونعني به إثارة ذهن الفرد المسلم إلى ضرورة معالجة نفسه من مشكلات سلوكية محدّدة أو أمراض نفسية يعاني منها، وتهيئتها لقبول العادات الإسلامية والحسنة.

وقد أوضحنا في إشارة عاجلة ـ من قبل ـ إلى أهمية هذه المسألة في سير المعالجة، وتتضمن هذه الخطوات المهمة حماساً في الإرادة والعزيمة للبدء بتخلية النفس من مذمومات السلوك وقبائحه، وتهيئة الجهاز العصبي عند الفرد المسلم لعملية استقبال، وتلقي الأفكار، والعادات الجديدة المضادة.

وعندما قال الإمام علي عليه السلام: «غيّروا العادات تسهل عليكم الطاعات»[1] كان يقصد أولاً إحداث التغيير القلبي، وحاجة الفرد المسلم إلى تغيير داخلي يتبعه تغيير في عادات السلوك، فهو المقدمة التي يؤسس عليها النص القرآني حركة التغيير في المجتمعات البشرية بأسرها، وما ينطبق على المجتمع ينطبق بدرجة أولى على الذات الفردية.

وهذا في الواقع استجابة للقانون الإلهي الذي ينظم حركة التغيير الإنساني، وقد دعت إليه الآية القرآنية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

إن إحياء القلب وتنشيط (قابلية النفس) لقبول أضداد السمات المتقابلة بالأضداد عمل مرهق بكل تأكيد، لكنه (خطوة) تهيئ الذات لخطوات أخرى

(١) ميزان الحكمة، ج٧، ص١٢٣.

تستكمل المعالجة، وبدون هذه الخطوة تتعثر المحاولة، وقد تنتهي منذ البداية (ولا تستعد النفس للفيوضات القدسية)[1] على حدّ تعبير العلامة الشيخ النراقي رحمه الله.

فالتنشيط هو إعادة قدرة الذات المعطلة على العمل من جديد واستعدادها لتغيير رذيلة منبوذة بفضيلة مرغوبة... أي استبدال سلوك غير سوي بسلوك سوي، ولن يتمّ هذا بالتأكيد بدون قناعة عقلية وحركة إيجابية تنطلق من داخل الذات يدفعها نحو الأهداف المحدّدة أو المرغوبة، فالمرء ـ كما جاء في رواية شريفة عن الإمام الجواد ـ يحتاج إلى أمور ثلاثة مترابطة هي:

- توفيق من الله.
- وواعظ من نفسه.
- وقبول ممن ينصحه.

ب ـ تشخيص المرض وتحديد الدواء:

يحاول الفرد المسلم ـ إن كان يعتمد طريقة العلاج الذاتي أو ملازمة مرشد أو معالج نفسي ـ بعد أن يهيئ نفسه للعلاج ويرغبها في الإقبال عليه، أن يحدّد الداء ويشخص المرض السلوكي، ثم يعيّن أسلوب المعالجة المناسب، وفي هذه الخطوة تظهر مهارة المعالج وعلمه بالنفس والمنهج معاً، لأن تشخيص المرض وتحديده يتطلب علماً بالنفوس ودراية بطباعها، فلا يمكن للمعالج أن يساعد مرضاه على تحقيق الشفاء النفسي، ما لم يكن قادراً على تشخيص أعراض المرض ومسبباته، وسبل التغلب عليه، وذلك

(١) جامع السعادات، ج١، ص٤٢.

من خلال تصور إسلامي أصيل بعيد عن النظرات القاصرة والمعيبة وإن كان من الإسلام أيضاً الاستفادة من الآراء العلاجية الأخرى.

لهذا لا ضير عليه أيضاً ـ في هذا المقام ـ أن يستعين بآراء معالجين نفسانيين من المدارس والاتجاهات العلاجية الحديثة، فالحكمة تجارب متراكمة، وهي ضالة المؤمن في ميدان العلاج النفسي وفي كل ميادين الحياة الأخرى، وهي علم مستأنف أو مستفاد كما قال الإمام علي عليه السلام.

ولا نقصد من ذلك أن يجمد عقل المعالج النفسي المسلم عن الاستفادة من بعض الأفكار العلاجية التي تضمنتها المناهج الوضعية الأخرى، ولكن نؤكد مرّة أخرى أنه حتى لو التقى الإسلام مع هذه المناهج في بعض النقاط العلاجية، فإن الإسلام يتميز بروح أخلاقية توازن بين النفس والجسد، كما يتميز كذلك بتفسيراته الخاصة، فلو تطلب العلاج استخراج الخبرات اللاشعورية، تحرز المعالج والمريض عن بعض المحاذير الشرعية كالغيبة، وشتم الآخرين أثناء عملية التفريغ الانفعالي والاعتراف التي يقوم بها المريض.

لقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى حقيقة سيكولوجية وهي اختزان الفرد في داخله للخبرات اللاشعورية المكبوتة أو في عالم العقل الباطن على حدّ تعبير عالم النفس النمساوي سيجمند فرويد فقال الإمام عليه السلام في نهجه:

ـ «ما أضمر أحد شيئاً إلاّ ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه»[1].

ـ وقوله عليه السلام أيضاً: «عند تصحيح الضمائر يبدو غلّ السرائر»[2].

ـ وقول الإمام الحسن عليه السلام:

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٤.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، ص٣١.

«العادات قاهرات، فمن اعتاد شيئاً في سره وخلواته فضحه في علانيته أمام الملأ»[(١)]... أي في العلانية بين الناس.

ومع ذلك فإن الإمام عليه السلام استغفر لمن يقع في سقطات الألفاظ وهفوات اللسان وشهوات الجنان فقال في نصّ آخر يدل على أن المشرّع التربوي الإسلامي يستهدف تعديل سلوك الإنسان باستمرار والارتقاء بمستواه روحياً وعقلياً ووجدانياً، ويدل على الحب الذي يطالب أن يخلعه المربي المسلم على الآخرين بحرارة وقوة وصفاء وأريحية.

وفي الأدعية الإسلامية إشارة واضحة إلى مواجهة ما استتر داخلنا واستقر في ضمائرنا، ولهذا تطلب هذه الأدعية الغفران وستر فاضحات السرائر، يقول أحد الأدعية:

«اللهم اغفر رمزات اللحاظ، وسقطات الألفاظ، وشهوات الجنان، وهفوات اللسان»[(٢)].

ويقول الإمام زين العابدين في المناجاة الأولى: «وأن تستر عليّ فاضحات السرائر»[(٣)].

وفي نصّ آخر: «شر الناس من لا يعفو عن الهفوة، ولا يستر العورة»[(٤)].

وفي نصّ آخر مماثل: «شر الناس من لا يقبل العذر، ولا يقبل الذنب»[(٥)].

(١) ميزان الحكمة، باب العادة ج٧، ص١٢٢.
(٢) الشيخ ميثم البحراني، شرح المائة كلمة من كلمات أمير المؤمنين، ص٢١٣ ـ ٢١٤، وكذلك شرح عبد الوهاب للمائة كلمة نفسها، ص٦٥.
(٣) الصحيفة السّجادية، المناجاة الأولى، ص٢٨٥.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، ص٤٠٥.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، ص٤٠٣.

إن المنهج العلاجي الإسلامي يقدم في كل تعليماته للمعالج أو المريض تفسيراً مرناً للأمراض العصابية، ويحلل بواقعية ودوافع المرض، ويعطي نمط المعالجة المناسب لكل حالة عصابية على حدة، كما يحدّد المواقف العملية التي تجعلنا نسيطر على أنفسنا، ويسمح للمعالج بالاستفادة من المناهج العلاجية لتفسير العصاب وعلاجه.

ج ـ تنفيذ برنامج المعالجة:

بعد أن تقبل النفس الإنسانية على المعالجة، ويتم تحديد الداء يسخر المعالج النفسي المسلم كافة قواه، وخبراته الفنية والعلمية لمداواة المريض، وينظم ذلك في برنامج مناسب سواء كان قصيراً أو طويلاً، حسب نوع وشدة المرض وطبيعته.

وفي هذه المرحلة ينتقل الاثنان ـ المعالج والمريض معاً ـ إلى عملية التطبيق المنهجي للإسلام، أو الملاءمة بين متطلبات الذات الإنسانية وبين متطلبات الفكر العلاجي الإسلامي بطريقة متدرجة إن تطلب الأمر ذلك.

ولكن هذه الملاءمة تحتاج إلى وضع المريض في مواقف عملية مناسبة للداء الذي يشكو منه، فإذا كان الفرد المسلم يعاني من خوف غير طبيعي من الغرباء، فإن المعالج النفسي المسلم يضعه تدريجياً في مواقف مضادة لهذا الإحساس، بحيث تساعده على مواجهة أشخاص غرباء عنه، ويتعلم شيئاً فشيئاً عادات التفاعل الطبيعي مع أفراد لم يألفهم، بغرض تحطيم شعور الخوف لديه، حتى تستقيم ذاته على الثبات والصمود، وتنمو لديه ـ وهذا هدف علاجي مطلوب ـ روح المواجهة والشجاعة.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«إذا هبت أمراً فقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم من الوقوع فيه».

«إن لم تكن حليماً فتحلَّم».

وإذا كان المريض يشكو من حالات النبذ، والشعور بالاضطهاد وعدم الانتماء، أو سوء التقدير الشخصي لذاته، فإن المعالج النفسي المسلم يدمجه في وسط جماعات إيمانية ذات سلوك سوي، يتدرب خلالها على تقبل عادات أخرى مضادة للعزلة والنبذ، وتعزز من جهة أخرى الشعور بالانتماء، والإحساس بالثقة، وتنمي لديه بعض أنماط السلوك العبادي الجماعي كأداء صلاة الجماعة، والجمعة، والأعياد مثلاً، أو دمجه بجماعة كشفية مؤمنة توفر له الأمن وتساعده على تفتيت شعوره بعدم الانتماء إلى الجماعة بإحساس جديد يشعر فيه بالثقة والعضوية الفاعلة في حركة المجتمع.

وهكذا يختار المعالج النفسي المسلم مواقف عملية لتدريب مرضاه على سلوك إيجابي مضاد وغير مألوف، وبالطبع يحاول ـ هنا ـ تركيز جهده من أجل تغيير الاتجاهات الخاطئة عند المريض، فمثلاً لو ظن مريضه بضعف التقدير الاجتماعي لذاته، فإن وظيفة المعالج النفسي المسلم إقناع مرضاه بأن الله عز وجل ـ لا المجتمع ـ هو مصدر التقدير والإثابة والتدعيم، فينتهي لديه الشعور بالإحباط ـ أو تخف حدته على الأقل ـ عندما يتفهم هذه الفكرة، ويعود إلى ممارسة نشاطه على أساس تعبدي خالص، معتقداً أولاً بأن الله عز وجل هو مصدر التقدير والعطاء، وأنه ثانياً يقدر العبد بعمله لا بنسبه، وأن هذا التقدير يأتي في النهاية ليركز في ذهن (المرء) بأن ذاته تستمد قيمتها الإنسانية من خلال ما تحسن وما تنجز من أعمال تستحق التقدير كما نصّ على ذلك الإمام علي عليه السلام.

ومن المؤكد أن هذا التغيير في الفكرة، يترتب عليه إحداث تغيير شعوري وسلوكي، فالتغيير في السلوك الخارجي مرتبط بالتغيير الداخلي المعرفي والنفسي أو بمحتوى الذات.

إن المريض يقوم تحت إشراف ـ معالجه ـ بعملية تحلية لنفسه بإدخال القيم والفضائل الحسنة والعادات المرغوبة السوية كالكرم محل البخل، والتواضع بدلاً من التكبر، والحلم بديلاً عن السفه، والغيظ وضعف السيطرة الوجدانية، والعفو بدلاً من الحقد، والعفة محل التهتك، وهكذا يواظب المريض بشكل دائم على الطاعات وتزويد ذاته بالتقوى، قال تعالى:

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[1].

وهذا هو المفهوم الصحيح لطريقة المعالجة السيكولوجية بالأضداد.

ولكن النفس الإنسانية تعيش في هذه المرحلة الهامة من العلاج والتغيير النفسي والعقلي للمقاومة والانجذاب للماضي بدرجات متفاوتة من القوة، وتتدافع بين عاداتها المنبوذة والمرغوبة، بين رذائل الماضي وفضائل الحاضر، بيد أن إصرار الفرد المؤمن على السير في هدى الإيمان يحمل الذات على الوصول إلى بر الأمان وبلوغ مستوى مقبول من السلوك الصالح السوي.

د ـ المتابعة العلاجية:

كما قلنا قبل قليل، فإن عملية إدخال العادات الجديدة، تجعل الفرد المسلم يواجه مقاومة من داخل نفسه، لذلك لا يكفي القيام فقط بتحلية الذات بالفضائل والقيم، بل لا بدّ من متابعة العلاج حتى آخر العمر، لأن للنفوس طبائع سوء لا تنتهي عند زمن معين أو عند مرحلة من المجاهدة، وهذه الطبائع ترنو إلى الظهور مرّة تلو أخرى، وتنتظر غفلة الفرد لعرقلة العلاج.

(١) سورة البقرة، ١٩٧.

ومن هنا فإن المعالجة النفسية بمفهومها الإسلامي تستغرق العمر كله، لذلك أكّد المشرّع الإسلامي في نصوصه التربوية على أهمية ديمومة المعالجة واستمرارها، لأن في ذلك ضمان ضبط حركة الذات وتوجيه دوافعها والسيطرة عليها في المسار العبادي الذي شدّد عليه المشرّع الإسلامي.

يقول الإمام علي عليه السلام في هذا الصدد: «املكوا أنفسكم بدوام جهادها»[١].

ويقول للفرد المسلم: «عوّد نفسك الصبر على المكروه تظفر به وإن طال الزمان»[٢].

وفي نصّ أيضاً: «لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان»[٣].

إن إقبال المريض على تغيير اتجاهاته وأنماط سلوكه التي ألفها منذ فترة طويلة عاشها في حياته يواجه بالتأكيد مقاومة شديدة من نفسه، فهي كما قلنا لا تستجيب بسهولة للأخلاق الجديدة المضادة، وتحاول أثناء المعالجة اجتذاب الإنسان المسلم نحو العادات القديمة التي ما يزال سلطانها قوياً خاصة في المراحل الأولى للعلاج، وبهذه المجاذبة تريح نفسها من عناء المواجهة مع الجديد، وأكّدت النصوص على أهمية الانتباه إلى أثر ضغط الأفكار والعادات المألوفة على إعاقة حركة النفس نحو السلوك السوي.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«ما أصعب على من استعبدته الشهوات أن يكون فاضلاً»[٤].

---

(١) ميزان الحكمة، ج١٠، ص١٤٣.
(٢) تحف العقول لابن شعبة الحرّاني، ص٥٤.
(٣) نهج البلاغة ج٤، ص٤٠، وكذلك كتاب «تصنيف نهج البلاغة»، ص٣٢٢، ٤٥٤.
(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج٢٠ حكمة ٤٢.

«آفة الرياضة النفسية غلبة العادة»[١].

«أصعب السياسات نقل العادات»[٢].

ويقول الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام:

«إن رياضة الجاهل ورد المعتاد عن عادته كالمعجز»[٣].

وبتأمل النصوص السابقة نلحظ ما يلي:

١ ـ إن التخلص من الرواسب وضغوط العادات التي عاشها الإنسان من قبل ليس أمراً هيناً بالتأكيد، فهدم السلوك الخاطئ الذي تعلمناه من بيئة منحرفة يحتاج لبرنامج رشيد ومجاهدة واعية قد تستغرق العمر كله حتى لا تجتر الذات رواسبها مرّة أخرى وتعيش من جديد في أجوائها النفسية والعقلية، ولهذا وصف اثنان من النصوص المذكورة (رياضة الجاهل.. ورد المعتاد عن عادته) بأنها كالمعجز أو من أصعب السياسات على حدّ تعبير النص الكريم.

٢ ـ إنَّ إعادة البناء والتربية للشخصية يتطلب جهداً إرشادياً يتابع عملية نقل العادات الجديدة المرغوبة بالدقة والانتباه من سياقها النظري إلى مجالها التطبيقي حتى يتمّ ملاءمة متطلبات الذات المسلمة مع أحكام المنهج العبادي الإسلامي في تجربة قد تطول أو تقصر.

٣ ـ تضطر الذات التائبة المثقلة بضغوط الرواسب النفسية والمعرفية والأخلاقية الفاسدة أن تتحمل آثار الصراع النفسي الناجمة عن تجربة التغيير الجديدة، وذلك بين العادات القديمة الضاغطة بقوة الماضي واستحكاماته

(١) ميزان الحكمة ج٧، ص١٢٣.
(٢) ميزان الحكمة، ج٧، ص١٢٣.
(٣) تحف العقول، ص٣٦٣.

النفسية الهائلة وبين رغبة الفرد في تأصيل العادات الجديدة وترسيخها وتثبيتها... إنه صراع بين إرث الماضي المألوف الذي يريد البقاء والامتداد في حركة الذات حتى في فترة التغيير وبين حماس الحاضر وقوته وآماله وتطلعاته المستقبلية.

٤ ـ وتوضح تعبيرات النصوص السابقة لوحة الصراع بين ما ألفه الشخص من عادات في ماضيه وبين ما ترغب فيه نفسه من عادات سوية في حاضره، فهذه النصوص ترى أن مصدر آفة «الرياضة النفسية» وما فيها من روح المجاهدة والتربية الروحية إنما تكمن في «غلبة العادات» التي عاشها الفرد في ماضيه، وشكلت نسيجه النفسي والمعرفي والأخلاقي والاجتماعي، وظلت قادرة على التأثير في المواجهة بينها وبين العادات الجديدة التي يريد الفرد تكوينها في شخصيته، وتشير كلمتا «غلبة العادات» إلى هذه النتيجة في تجربة الصراع لدى بعض الأفراد.. أي غلبة العادات القديمة المألوفة على العادات الجديدة أحياناً.

وتبين مسألة «غلبة العادات» تفاوت قدرات الناس وإمكاناتهم الذاتية في تجاربهم التغييرية، وتفاوت مستويات النجاح لديهم في ميدان التربية الجهادية، فمنهم من يتمكن بدرجة أفضل من الآخرين في قهر عادات الماضي المألوفة وتجاوزها، ومنهم من يقدر على غلبة قدر معين ومحدود منها، وقد يعجز نفر منهم عن تجاوز حتى الحد الأدنى من هذا الماضي، بل يستسلم مرّة أخرى للإرث النفسي والمعرفي والسلوكي ليحاصره من جديد بقوة أكبر.

كما أن النصوص التربوية الإسلامية ترى أنه من أصعب التجارب على الإنسان ما يقوم به من «نقل العادات» واستبدالها من عادات خاطئة إلى

عادات صحيحة، وهذا ما يسميه علماء التحليل النفسي بالمقاومة النفسية لحظة المعالجة النفسية بين يدي معالج أو طبيب نفسي أو من خلال عملية معالجة ذاتية، إذ من المتوقع أن تصطدم عملية «نقل العادات» في فترة التغيير أو خلال جلسات المعالجة النفسية بدفاعات مرضية تدفع النفس نحو المقاومة وعدم الاستجابة السهلة السريعة لأحكام المنهج العبادي الإسلامي.

فهذه العملية مجهدة بلا شك للفرد الراغب في تعديل أفكاره وسلوكه ومحو عاداته الخاطئة، ومع ذلك فهي متوقعة ولا بدّ منها لتحقيق الأهداف المأمولة في البرنامج العلاجي.

أما الرياضة النفسية التي تحدثت عنها نصوص المشرّع التربوي الإسلامي فهي أوسع وأشمل بكثير، لأن هذه العملية الجهادية ليست في جوهرها مجرد مقاومة سلبية مضادة للأفكار والمشاعر التغييرية الجديدة التي تستهدف إزالة الأفكار والمشاعر القديمة العالقة في النفس فحسب، بل هي كذلك حركة تقدمية وإيجابية تضع في حسابها دائماً تصفية سلبيات الماضي وآثاره المدمرة، ولا تتوقف عند حدود متابعة السلوك الخارجي، وإنَّما تهتم كذلك بسلامة النية وضبطها من الشوائب بضوابط عبادية.

وفي الوقت نفسه لا تقف آثار الرياضة النفسية عند هذا الحد، فهدفها أيضاً العمل على المساهمة في بناء جديد للشخصية الإنسانية على قواعد وأسس عبادية منبثقة من النسق المعرفي والقيمي للإسلام ومستمدة من نظامه الروحي والأخلاقي والمعرفي والسياسي والاجتماعي.

٥ ـ ومع أن النصوص المذكورة وغيرها ترصد واقعاً لفعالية الرياضة النفسية وأثرها في حياة الإنسان، إلاّ أن هذه النصوص تؤكد على دور الإنسان وفعاليته في تحمل أمانة التغيير لنفسه من جهة، واعادة هندسة

المجتمع من جهة أخرى، وبذلك لا نرى أن تجربة الرياضة النفسية مجرد عملية إنسانية ممتدة في حاضر الذات فحسب، بل أيضاً حركة استشراف لمستقبلها، فعجينة النمو والتطور الطبيعي تبدأ عادة لدى الكائن الآدمي في مرحلة التكوين، ثم تنمو في مراحل لاحقة وتكون أكثر تفاعلاً من طور سابق حتى تصل في نهاية الأمر لمرحلة النضج والاكتمال.

ومن المنطقي أن يحاول التشريع التربوي الإسلامي تقوية الذات من داخلها على تحمل الشدائد والتصبر على القيام بهذه المسؤولية الكاملة، لذلك يقدم المشرّع توجيهاته في هذا الشأن.

يقول نصان سابقان أوردناهما من قبل:

«عود نفسك الصبر على المكروه تظفر به وان طال الزمان»[1].

«اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين»[2].

وثمة نصوص إسلامية كثيرة في هذا السياق المعرفي والتربوي والسيكولوجي.

---

(١) تحف العقول لابن شعبة الحرّاني، ص٥٤.

(٢) ميزان الحكمة، ج٢، ص٣٩٤، وكذلك كتاب غرر الحكم ودرر الكلم ج١، ص١٣١.

الفصل الخامس

شروط العلاج النفسي بالأضداد

يتضمن منهج العلاج النفسي بالأضداد مجموعة من الشروط الأساسية لضمان تحقيق الأهداف التي يتوخاها المشرّع الإسلامي من عملية المعالجة النفسية، ولا شك أن هذه الشروط متصلة فيما بينها، فإذا تخلف المربي أو المعالج المسلم عن تطبيق أحد هذه الشروط أو تباطأ المريض في الاستجابة المناسبة لها، فإنه سوف تتعطل ـ بالتأكيد ـ عملية المعالجة النفسية على النحو الذي يناسب الهدف الأساسي المحدّد شرعاً.

ومن هذه الشروط ما يلي:

أولاً: النية والقصد:

يحرص المشرّع الإسلامي ويشدد على ارتباط جميع الأنشطة العبادية الصادرة عن العباد بالله عز وجل، فيجب أن تؤدى جميع الأعمال بنية القربى لله سبحانه، وطلب العون والمدد منه تعالى، وتوحيده وطاعته الكاملة، فلا يريد المرء لنفسه إلاّ ما يريده الله سبحانه، ولا يطلب لنفسه إلاّ ما يعطيه إياه ربه، وبالتالي فإنَّ المقصود من النية في مفهومها الإسلامي هو إخضاع النفس لإرادة الله في حركتها وسكونها، وضبطها على هذا التوجه القلبي الداخلي.

إن النية الخالصة لله عز وجل، هي روح العمل الصالح وركيزته

ومقياسه، حتى لو لم يستطع المسلم إنجاز الكثير منه في حياته كلها، فحقيقة العمل العبادي تكمن في سلامة النية وليس فقط في نتائجه الخارجية الملحوظة لأنه ليس غاية يطلب لذاته، ومن هنا ينبغي للفرد المسلم أن يعالج نفسه ويداوي آفاتها لا بحثاً عن لذة دنيوية يطلبها أو بحثاً عن توافق سوي فحسب، وإنما استجابة لنداء (الله) فعليه أن يسلم «وجهه لله وهو محسن»[(١)].

لهذا لم يشدد المشرّع الإسلامي على مسألة حجم العمل بمقدار تشدده على نوع العمل وحركة النفس في توجهها نحو العمل لله سبحانه، مصداقاً لقوله ﷺ:

«إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى»[(٢)].

وقوله أيضاً: «اخلص النية يكفك العمل القليل»[(٣)].

كما ورد عن الإمام علي عليه السلام قوله الشريف: «رب يسير أنمى من كثير»[(٤)].

فالنية قاعدة إصلاح العلاقة بين العبد وربه، «فمن أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس»[(٥)].

وقال أيضاً: «من أصلح أمر آخرته، أصلح الله أمر دنياه»[(٦)].

وعندما سئل الإمام الصادق عليه السلام عن النية والسجية قال: «الخلق

(١) سورة النساء / ١٢٥.
(٢) جامع السعادات ج٣ ص١١٣، وكذلك ميزان الحكمة، ج١٠، ص٢٧٧.
(٣) جامع السعادات ج٢، ص٤١٦.
(٤) تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون، ص٤٣٦.
(٥) نهج البلاغة، ج٤ ص٢٠.
(٦) نهج البلاغة ج٤ ص٢٠.

خلقان أحدهما نية، والآخر سجية. قيل: فأيهما أفضل؟ قال عليه السلام: النية لأن صاحب السجية مجبول على أمر، لا يستطيع غيره، وصاحب النية يتصبر على الطاعة تصبراً... فهذا أفضل»[١].

والمتأمل في عنصر النية يجد أنه يجمع بين مبدأي (الدافعية والهدفية) اللذين يتحدث عنهما علماء النفس التربوي، على أساس أن النية في واقع الأمر تمثل باعثاً داخلياً يحرك النفس المسلمة في فعلها الذي تقوم به فتجعله صالحاً أو سيئاً، كما أن ثمة علاقة مباشرة بين هذا العنصر، والهدف المحدّد من العلاج النفسي، وقد سبق أن أوضحنا التلازم بينهما حينما ناقشنا أهداف ومسوغات المعالجة بالضد.

وأما منهج الأضداد، فقد شدد على النية في سمات الإخلاص والصدق والحقيقة والاستسلام، واليقين والطاعة والحب، وهي دون شك ألفاظ تعبر عن مفهوم أساسي تضمنته قائمتا الأضداد، وهو صدق العقد في أي سلوك عبادي يصدر عن المسلم، وصدق حركة النفس وإخلاصها من كل شوائب الدنيا الزائلة.

وإذا كانت النية تجمع بين مبدأي الدافعية والهدفية، فإن المشرّع التربوي الإسلامي يضيف مبدأ ثالثاً، ويؤكد على أهميته في الربط بين هذين المبدأين وهو مبدأ «الإتقان» فمن الممكن أن يفلح الفرد المسلم في التحكم بنية القربى لله حين معالجة نفسه بطريقة الأضداد، فيكون ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[٢]، غير أن (التربية العلاجية) لا تتقدم كثيراً بدون إتقان العمل وإنجازه وفق محدّدات الخطة العلاجية التي يقترحها المعالج النفسي

---

(١) تحف العقول ص٢٧٥.
(٢) سورة البقرة، ١١٢.

المسلم، لذلك تضمنت قائمة الأضداد سمات إيجابية تؤكد حرص المشرّع الإسلامي على إتقان العمل مثل التفكير، الكتمان، المعرفة، الفهم، الرأفة، النشاط.

ثانياً: اختيار المنهج العلاجي الإسلامي:

يعتبر هذا الشرط في نظرنا أبرز وأهم شروط العلاج النفسي بالأضداد، لأنه الشرط الذي تنطلق منه عملية العلاج كلها، وتنتظم على أساسها علاقة المعالج بمرضاه، أو هو بعبارة أخرى منهج العمل وآلياته الذي تجتمع فيه كافة الشروط الموضوعية والذاتية للعلاج بالأضداد.

وسواء استعمل الفرد المسلم علاجاً نفسياً ذاتياً يعتمد فيه على إمكانات نفسه أو اختار ملازمة معالج نفسي مسلم، فإنه لا غنى له عن المنهج الشامل الذي يمدّه بالمعرفة العلاجية والوقائية، وقد ذكرنا من قبل بعض النصوص الشرعية التي تؤكد على أهمية اختيار المنهج في نجاح المعالجة مثل قوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[١].

وقوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢].

وقوله ﷺ في حديثه الشريف: «من عمل على غير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[٣].

وقال أبو جعفر الإمام محمد بن علي الباقر: «لا يقبل عمل إلاّ

---

(١) سورة الإسراء م ١٦.
(٢) سورة العنكبوت، ٦٩.
(٣) تحف العقول ص٣٩.

بمعرفة، ولا معرفة إلاّ بعمل، ومن عرف دلته معرفته على العمل، ومن لم يعرف، فلا عمل له»[١].

وقول الإمام علي عليه السلام: «العلم يرشدك، والعمل يبلغ بك الغاية»[٢].

وفي قول آخر: «ما من حركة إلاّ وأنت محتاج فيها إلى معرفة»[٣].

وهكذا لا تؤكد هذه النصوص أهمية المنهج فحسب، بل شددت على التلازم الوثيق بين اختيار المنهج الصحيح والعمل المتقن ودورهما في بناء الذات وصقل المكونات الأساسية لها من جديد لضمان نجاح برنامج المعالجة السلوكية بالأضداد في تعديل سلوك الشخصية.

وإذا كانت للنفس قابلية الأضداد، فإن المنهج الإلهي هو المنهج القادر من بين مناهج العلاج النفسي، الذي يملك القدرة على تحديد الأضداد التوسطية كما سنرى في بحثنا، فلا يكفي أن نختار منهجاً للمعالجة، وإنما يشترط أن يكون منهج العمل العلاجي قادراً على صياغة شخصية إسلامية متميزة عن الشخصية غير المسلمة، لهذا لم يستطع البعض من المرضى تخليص أنفسهم من العيوب والآفات بسبب سوء اختيار منهج العمل.

وبملاحظة قائمتي الأضداد التي سنعرضها في مكان من البحث[٤]، نجد أن كل ألفاظهما، ومفاهيمهما تمثل خيوط المنهج المتشابكة، فما ورد في هاتين القائمتين ليس ألفاظاً عديمة المعنى، وإنما هي نسيج متكامل من

---

(١) تحف العقول ص٢١٥.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ج١، ص٥٣.
(٣) تحف العقول، ص١١٩.
(٤) انظر الفصل الخامس.

الدوافع والضوابط التي تحكم حركة الذات وتنظيمهما في مسارات عبادية سوية، فمثلاً نجد فيهما ألفاظاً تمثل دوافع السلوك مثل العدوان، الفقر، البغض، التعب، الرغبة، الشك، كما نجد ـ كذلك ـ مصطلحات أخرى تعبيراً عن القوى الضابطة للسلوك على نحو ألفاظ العفة، الصبر، الحياء، الشهامة، الجهاد.

وفي هاتين القائمتين يعيّن المشرّع الإسلامي سلبيات النفس وإيجابياتها، ويعيّن وسائل البناء والعلاج وشروطهما، ويوضح الأسس والركائز التي يعتمد عليها الإنسان المسلم في صوغ ذاته صوغاً منسجماً مع روح المفاهيم والقيم والمصطلحات الإسلامية كالزهد، والدعاء، والتوكل، والصفح، والرجاء... الخ.

وبالرغم من أننا نشير بين لحظة وأخرى إلى قائمتي الأضداد عند الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام إلاّ أن منهج الأضداد ليس محصوراً في هاتين القائمتين المتماثلتين تقريباً، فثمة نصوص كثيرة في القرآن[1]، وفي نصوص السنة النبوية الشريفة أيضاً.

ويمكن ملاحظة أن آيات القرآن الكريم تشير في دقة إلى مجمل الخطوط العامة لمنهج المعالجة النفسية بالأضداد، ولا تتوقف كثيراً عن تفصيلات علاجية لهذا المرض أو ذاك، ويبدو أن القرآن الكريم ترك تفاصيل هذه المهمة للسنة الشريفة، حيث أسهمت في المعالجة التفصيلية لكل العادات الحسنة والسيئة، بالإضافة إلى جهدها الآخر المعزز للقرآن في لفت النظر إلى خطوط المنهج الأساسية.

(١) انظر سورة الزمر، آيات ٧١ ـ ٧٥، وكذلك سورة آل عمران آيات ١٩٦ ـ ٢٠٠، وسورة الشرح آيات ٥ ـ ٦، وكذلك سورة القمر بأكملها مثال لنظام المقابلة في القرآن، اقرأ مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، العدد، ص٧٠ ـ ٧١.

ثالثاً: الاستمرارية:

من عيوب مناهج ومذاهب العلاج النفسي الوضعي، انقطاع جلسات العلاج النفسي بين المعالج ومرضاه، بعد حدوث تحسن ملموس في الاتجاهات الرئيسية للفرد، لكن ما يلبث أن يعود المرض مرّة أخرى وربما يكون ظهوره بصورة أكثر حدة، لأن هذه المناهج رغم انحرافاتها العقائدية والتربوية عن منهج الله سبحانه في بعض الأفكار أو الممارسات، تتعهد مرضى النفوس وترعاهم بمنطلقات مادية بحتة، خلال فترة محدّدة تسمى فترة العلاج، فإذا انقطع العلاج ـ بعد التحسن ـ ضعفت أواصر العلاقة بين المعالج ومرضاه، وبقيت بصماتها فيما بعد محزنة للقلوب أو مريحة لها.

ولهذا السبب لا تحقق هذه المناهج غايتها في الشفاء النفسي للمرضى باعتراف بعض علماء الغرب أنفسهم أمثال ما قاله عالم النفس السويسري (آيزنك) الذي يقول في هذا الصدد:

«إن معدل شفاء المصابين ثابت فعلياً، سواء عولجوا بأساليب العلاج النفسي المعروفة أو تركوا دون علاج»(١).

وخلال فترة الانقطاع أو ما يسميها أطباء النفس الغربيون بمرحلة الشفاء تبدأ أعراض المرض في العودة والظهور، ولعل مصدر هذا الخطأ في أنظمة العلاج النفسي الوضعي يكمن في إهمال متابعة علاج النفوس وتربيتها خلال فترات العمر كله، ولا تعرف ما يسميه المشرّع الإسلامي (المجاهدة الروحية الدائمة)، فيتوهم أطباء هذه المناهج أن فترة العلاج قصيرة كانت أو طويلة تكفي لإزالة أعراض المرض، وتحرير النفس من ضغط الرواسب الساكنة في أعماقها.

(١) آيزنك، كتاب الحقيقة والوهم في علم النفس، ترجمة قدري حنفي، ص١٥٨ ـ ١٦٠.

وفضلاً عن ذلك، يلاحظ على هذه المناهج الوضعية، أنها لا تعاني فقط من قصور واضح في معرفة السمات المتقابلة بالأضداد، بل وتعاني أيضاً من سوء فهم لحقيقة النفس الإنسانية، فتراها على سبيل المثال لا الحصر تدل المريض وترشده على استبصار مشكلته والوعي بأسبابها وبآثارها ونتائجها، لكنها مع ذلك تمهد له الطريق للوقوع في براثن مرض آخر، فالمدرسة الفرويدية مثلاً نقلت الإنسان في الغرب المسيحي من حالة التزمت والكبت الجنسي التي فرضها التشدد الديني والأخلاقي إلى حالة الحرية المفتوحة، والإباحة الجنسية، وهذا النقل مثال على معالجة خاطئة من ضد إلى ضد آخر.

كما أن مناهج المعالجة النفسية الوضعية تهمل ـ متعمدة أو بغير تعمد ـ البعد الأخلاقي، فلا يهم أن يمارس المريض تفريغاً انفعالياً للشحنات المخبوءة، حتى لو ارتكب عملاً محرماً كغيبة الآخرين أو سبهم أو قذف أعراضهم، فالتحليل النفسي يترك الحرية كاملة لمريضه للتعبير عما في نفسه وتفريغ شحناتها الوجدانية المحبوسة، مما يؤدي دون شك إلى ندم المريض على ما فعله بحق الآخرين، فيعود المريض مرّة أخرى في صورة شعور بالذنب بخاصة إذا ترتب عن هذه الممارسة المحرمة ظهور مشكلات للآخرين.

وبسبب هذه العوامل أو بعضها تعاود الاستجابة المرضية ظهورها، وقد تأخذ هذه المرة وضعاً أكثر توتراً وتأزماً، لأن ثقة المريض بمعالجيه وبمناهجهم أصبحت أسوأ حالاً، وبالتالي يكون تجاوبه ضعيفاً في أية محاولة علاجية جديدة، ويزداد التوتر النفسي حدة عند المريض، فيشعر بمزيد من الضياع والتشتت، وقد يبذل جهداً مضاعفاً لاستعادة الثقة المقطوعة، ومن الممكن أن يفشل في ذلك.

أما في منهج العلاج الإسلامي فالأمر مختلف، إذا لا يقف العلاج عند حدّ مرحلة دون أخرى، بل يستغرق دورة الحياة والنمو النفسي للفرد، ويظل المريض ومعالجه يتابعان بدقة عملية العلاج حتى آخر العمر، وإن بدت بوادر تحسن كبير، فليست الأهداف عندهما دنيوية محضة كما هو الحال عند الغربيين، كما أن العلاج النفسي الإسلامي يدرك بالتأكيد خطر انقطاع الإنسان عن المجاهدة الروحية، وأثر ذلك في إعاقة كل جهد لتغيير الاتجاهات الخاطئة عنده.

إن المعالجة النفسية بمنهج الأضداد عملية ممتدة، لا تنقطع طوال العمر كله، لأن الإنسان الذي يعتمد على هذا المنهج في مداواة نفسه من أخطائها، وآثامها، لا يضمن أبداً تحقيق قدر ملحوظ من التغيير إذا قطع المجاهدة الروحية في حياته حتى لفترة قصيرة من الزمن، فإن من السهل جداً، كما أثبتت بعض تجارب العلاج في الغرب، أن تعود خلال فترة الانقطاع سلبيات النفس، وتظهر رواسبها مرّة أخرى في الوعي والشعور والسلوك، بل تظهر خلال هذه الفترة عيوب جديدة بسبب ما تعوده خلال فترة العلاج من تجاوزات غير أخلاقية بحق الآخرين كالغيبة والكذب، فالإنسان على كل حال عرضة في كل حين لظهور عيوب في ذاته حتى في حالة دوام المجاهدة النفسية، فكيف إذا كفَّ عنها، وعطل فاعليتها؟

ولهذا يحرص المشرّع الإسلامي على المعالجة النفسية بكل رفق، وأناة، واستمرارية، فلا تنقطع الهجرة كما جاء في المرويات، وليست الهجرة نقلة مكانية في حياة الفرد، بل هو هجرة للسيئات، وقد أكّد على استمرارية المعالجة ودوام المجاهدة النفسية نصّ شريف ورد عن الإمام علي عليه السلام:

«املكوا أنفسكم بدوام جهادها»[١].

فالنفس المؤمنة «كالسنبلة»[٢] ـ على حدّ تعبير الحديث الشريف ـ تستقيم تارة، وتخرّ مرّة أخرى حتى تستقيم نهائياً بالمجاهدة الدائمة، قال الإمام الباقر عليه السلام:

«إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها ـ عوجها ـ ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها، فينعشها الله فينتعش ويقيل الله عثرته، فيتذكر ويفزع إلى التوبة والمخافة، فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[٣].

وهكذا فإن مفهوم المجاهدة ليس استمرار التغيير وديمومته فحسب، والتحكم في حركة النفس وضبط دوافعها، وإنما هو توجيه هذا التغيير والضبط في الطريق الذي يزيد العبد بصيرة ومعرفة وتعبداً لله»[٤] ويزيده صحة نفسية.

وما دامت عملية المعالجة النفسية بمفهومها الديني الإسلامي جهد إنساني قد تستغرق العمر كله، فيجب البدء ـ بها ـ مبكراً منذ اللحظة الأولى لاكتشاف المرض السلوكي وتحديد آثاره ومظاهره وطرق السيطرة عليه، لأن التبكير في المعالجة السلوكية يحقق للذات المسلمة نتائج أفضل.

(١) ميزان الحكمة، ج١٠، ص١٤٣.
(٢) تحف العقول، ص٣٣.
(٣) تحف العقول، ص٢٠٦ ـ ٢٠٧.
(٤) يمكن للقارئ الكريم أن يقرأ وصية الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام لصاحبه جابر الجعفي في كتاب تحف العقول، ص٢٠٦ ـ ٢٠٧.

ومن هنا تبدو أهمية استمرارية العلاج النفسي، والمجاهدة الروحية كشرط أساسي لضمان إحداث تغيير داخلي مقبول في اتجاهات وأفكار وعادات المريض يؤدي إلى تغيير حاسم في حياته، فعن طريق المتابعة والاستمرارية تتحول الذات تدريجياً من واقعها المريض إلى عهد آخر، وينقل نفسه من أوضار الدنس والرذيلة، وذلك كي تستظل ذاته فيء الفضيلة الإسلامية ومعانيها الإنسانية، وتتدفق في أجوائها إشاعات منهج الله، فتتوهج القلوب حرارة وحيوية.

رابعاً: الصبر والاحتمال(١):

يحث منهج المعالجة النفسية بالأضداد في نصوصه التربوية والمعرفية المتعددة على احتمال الشدائد والصبر عليها في عملية العلاج، ولن يتمكن الفرد من بلوغ مقاصده ـ الدنيوية والأخروية ـ بدون تدريب النفس على المواجهة الجادة لكافة المشكلات، فالاحتمال «قبر العيوب»(٢) كما يقول الإمام علي عليه السلام وهو الذي يذلل الصعاب في حياة الأفراد، ويفسح للعقل الإنساني مجالاً لحلّ المشكلات السلوكية أو الثبات العاطفي حين مواجهتها، وهذا ما يسميه علماء النفس «وصيد الإحباط»(٣).

وطالما أن المعالجة النفسية في الإسلام عمل صالح وعبادي يتقبله الله عز وجل بمقدار ما انطوى في القلب من نية، وبمقدار التصبر عليه، فإن الخطوة الأولى للصبر على معاناة العلاج تبدأ من استبعاد الضجر والكسل

---

(١) انظر كتاب مختصر القاصدين، لابن قدامة المقدسي، ص١٥٤.

(٢) نهج البلاغة ج٤، ص٤.

(٣) استخدم عالم النفس المصري د. احمد عزت راجح هذا المصطلح السيكولوجي في كتابه «أصول علم النفس» ويقصد به قدرة الفرد على الصبر وتحمل الشدائد، والثبات العاطفي ومقاومة الإحباط والحرمان والصدمات الانفعالية بطريقة توافقية بالمعيار العبادي والوضعي معاً. انظر الكتاب المذكور، ص٤٩٨.

معاً استبعاداً كلياً، وهما لا يحبطان الأمر فحسب، بل يمنعان تحقيق الشفاء السليم للذات، وفي ضوء ذلك نفهم ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام:

«إياك وخصلتين، الضجر والكسل، فإنك إن ضجرت لم تصبر على حق، وإن كسلت لم تؤد حقاً»[1]، فالجزع مدخل نفسي للشعور بالمذلة، ومقدمة لإخفاق كبير في التوافق النفسي للفرد.

وأراد منهج المعالجة النفسي الإسلامي أن يقفل الباب منذ اللحظات الأولى لظهور الجزع وضعف الاحتمال، فأطلق الإمام علي عليه السلام حكمته: «امش بدائك ما مشى بك»[2].

فما دام الفرد المؤمن يقدر على احتمال الداء، فلا ينبغي عليه أن يضعف عن متابعة العمل واقتحام الأمور، أي عليه بحسب التوجيهات الإسلامية أن يواصل الجهد ما احتمل ذلك، وأن يصعب على الأمور ما صعبت عليه، فيتحمل المسؤولية كاملة بلا جزع ولا خوف، ويثبت للآخرين أن المؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف.

إن المريض المسلم إذا تذكر هذه التوصية وغيرها استمر في مواجهة ما يتعرضه، واحتمل شدائدها، وهنا تبدو مهارة المعالج المسلم في استثمار هذه النصوص في استعادة التوازن لشخصية المريض، وقد أرسى نظام المعالجة الإسلامي مجموعة من الأسس التي تحرر الذات من ضعفها، وترددها في مواجهة الأمور، ويمكن للفرد المسلم معالجاً كان أو مريضاً أن يوائم بين نفسه، وبين هذه الأسس العبادية عن طريق الاحتمال، وعندما سئل أبو سهل التستري عن حسن الخلق قال: حسن الخلق «أدناه الاحتمال»[3].

---

(١) تحف العقول، ص٢١٦.

(٢) تحف العقول، ج٤ص ٤.

(٣) إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، ج٣، ص٥٢.

خامساً: المعالجة بالأضداد ليست تغييراً في الطباع الفطرية:

تقوم أسس المعالجة السيكولوجية الإسلامية على تتبع الجوانب المرضية في الذات البشرية، وهي تركز كذلك على تغيير الاتجاهات والعادات الخاطئة، ولا يكون العمل بمنهج الأضداد موجّهاً ـ بالتأكيد ـ نحو تغيير الطباع الأصلية في جبلتنا النقية التي زوّدنا بها الله عز وجل لحكمة اقتضتها مشيئته، ونحن ـ هنا ـ أمام خطأ آخر يمارسه الإنسان بحق نفسه، والآخرين، فقد حاول ـ بجهله ـ وعبر تاريخ مديد، أن يغيّر من الطباع المركوزة في طبيعته كما فعل إزاء محاولاته اقتلاع نوازع التدين وإماتة شهوة النساء ـ نهائياً ـ أو رفع الغضب ـ كلياً ـ عن النفس واستئصال رغبة النفس في التملك كما أرادت الماركسية ذلك، ومدرسة التحليل النفسي وغيرهما، عندما حاولتا حذف رغبات الإنسان وحاجاته في التملك، والتدين، وحب الذات.

وقد أخطأت أيضاً بعض مناهج العلاج الأرضي في سيرها بهذا الاتجاه، وفشلت في ذلك فشلاً ذريعاً، وكشفت عن جهل أصحابها بحقيقة النفس، وخباياها، وطباعها الأصلية، حيث أراد منهج التحليل النفسي عند فرويد وصحبه استئصال العفة كعامل أساسي في ضبط النفس عند الإسراف في شهوة الوقاع والمجامعة، وكان يسوغ لنفسه بنظريات مغلفة بالموضوعية والدقة العلمية، فيتحدث فيها عن خطر الكبت الجنسي، وضرورة رفع القيود عن الطاقة الجنسية وإطلاق حركتها في عقالها.

أما الماركسية، والوضعية المنطقية، والوجودية السارترية، فقد صبَّت جهدها بقوة لانتزاع التدين من كياننا الفطري الأصيل، لكن قانون الفطرة أقوى من جهد جميع العلماء والفلاسفة المتمردين الذين يستغلون العلم والمعرفة لتزوير الواقع البشري، وستبقى الحقائق الفطرية أكثر صلابةً وثباتاً

ونفعاً ما دامت مشيئة الله عز وجل تريد تنظيم الوجود الإنساني بأسره على هذا الأساس.

والمنهج الإسلامي حسم الأمر، فالشهوات ـ ونقصد الطيبات منها ـ أوجدها الله عز وجل في فطرتنا لفائدة كبرى تنظم حياتنا، ولهذا وجّه هذا المنهج جهده البنائي والعلاجي نحو استئصال الزوائد الضارة للشهوات أو السيطرة عليها وتوجيهها في المسار السليم، وليس اقتلاع أصل الشهوات نهائياً، لأن الله سبحانه زوّد بها الكيان الإنساني لحكمة اقتضتها مشيئته في تدبير الوجود وتعمير الحياة.

تقول الآية القرآنية الكريمة:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[١].

ونص الإمام علي عليه السلام في مقولة معبرة بدقة عن هذا المعنى حينما قال:

«كل شيء يستطاع إلاّ نقل الطباع»[٢] وكان يقصد من ذلك أن القدرة الإنسانية عاجزة عن الإزالة الكلية للطباع المركوزة بإرادة الله عز وجل في فطرتنا.

هذا الموقف العقائدي المميز أعان المعالج المسلم على تجنب الخطأ الذي وقع فيه المعالجون والأطباء غير المسلمين قديماً وحديثاً،

(١) سورة آل عمران، ١٤.
(٢) ٢٠٠٠ كلمة /، ص٧٨.

وساعد على نجاح المعالجات الإسلامية للنفس في مختلف حالاتها المرضية، ولا غرابة في ذلك، فجميع التوصيات التربوية ـ وقائية أو علاجية ـ التي عرضها المشرّع الإسلامي في مصادره الأساسية تلائم التركيبة النفسية للآدمي.

وقد أشار المشرّع الإسلامي إلى خطأ محاولة تغيير طباعنا الأصلية عن عدد من العلماء المسلمين كأبي حامد الغزالي وابن قدامة المقدسي، والشيخ النراقي، وأبو الفيض الكاشاني، وهذا يعني أن تاريخ هذه المحاولة ليس حديثاً علينا، إذ عبرت أقوال هؤلاء العلماء عن وجود هذا النوع من المحاولة في زمانهم.

يقول أبو حامد الغزالي رحمة الله عليه:

«بأن الآدمي ما دام حياً لا تنقطع عنه الشهوة والغضب، وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق»(١).

ثم يواصل هجومه على أصحاب هذه المحاولة المضادة للفطرة فيقول:

«فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها، وهيهات، فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك، ومهما بقي أصل الشهوة، فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة، حتى يحمله ذلك على إمساك المال، وليس

---

(١) إحياء علوم الدين ج٣، للغزالي، ص٥٥.

المطلوب إحاطة ذلك بالكلية، بل المطلوب ردّها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط»[١].

فذلك أمر ممكن كما سنرى فيما بعد، وقد تابعه في هذا الرأي المقدسي، حيث أعاد قوله بالكامل عندما لخّص كتاب (إحياء علوم الدين) بأجزائه الأربعة لأبي حامد الغزالي، وذلك في كتابه (مختصر القاصدين)[٢].

أما حجة الإسلام العلامة الشيخ النراقي فيقول عن ذلك:

«إنَّ المراد من التغيير ليس رفع الغضب والشهوة، وإماطتهما بالكلية، فإن ذلك محال لأنهما مخلوقتان لفائدة ضرورية في الجبلة، إذ لو انقطع الغضب عن الإنسان بالكلية، لم يدفع عن نفسه ما يهلكه ويؤذيه، وامتنع جهاد الكفار، ولو انعدم عنه شهوة الطعام لم تبق حياته، ولو بطل عنه شهوة الوقاع بالمرة لضاع النسل، بل المراد ردهما من الإفراط والتفريط إلى الوسط، فالمطلوب في صفة الغضب خلو النفس عن الجبن، والتهور، والاتصاف بحسن الحمية»[٣]، «كذلك الحال في صفة الشهوة»[٤].

سادساً: الاعتدال في قوى الذات:

مبدأ (التوازن)[٥] أوسع المبادئ في المنهج الإسلامي كله لا في مجال السلوك وحده، بل في مجال الكون ومظاهرها كلها، وهو أحد المبادئ التي جعلت من الإسلام منهجاً متميزاً عن غيره في نظرته للطبيعة، والإنسان والعلاقة بينهما، وما بينهما هنا هو تحديد أثر التوازن في المعالجة الإسلامية

(١) إحياء علوم الدين ج٣، للغزالي ص٥٥.
(٢) مختصر القاصدين / لابن قدامة المقدسي، ص١٥٢.
(٣) جامع السعادات ج١، ص٥٨.
(٤) جامع السعادات، ج١، ص٥٨.
(٥) انظر كتاب الشيخ محمد علي التسخيري «التوازن في الإسلام».

للأمراض السلوكية، بل هو نقطة مركزية في نظام المعالجة السيكولوجية بالأضداد. . وهذا سر تفرده.

لقد حرص المنهج المعرفي في الإسلام على رسم الخطوط العامة التي تنتظم عليها عملية توازن الذات وقاية وعلاجاً، ولذلك يبدأ المربي المسلم بتوجيه عناصر الذات توجهاً متوازناً هادفاً، وإذا أخفق في الوصول بالشخصية إلى قدر معقول من التوازن انعكس ذلك على سلوكها.

وهنا تكون أمام المعالج النفسي المسلم مسؤولية كبيرة وصعبة لاستعادة التوازن النفسي المفقود للذات، ويساعده في هذه المهمة التربوية دينامية منهج المعالجة الإسلامية للسلوك، وكذلك تجاوب المريض مع هذا المنهج العبادي، فإذا انتظمت هذه العناصر الثلاثة ـ مهارة المعالج ـ وتجاوب مرضاه، ومنهج العمل ـ سارت عملية العلاج في الاتجاه الصحيح.

إن التوازن بين القوى الفطرية الكامنة في النفوس شرط أساسي آخر لانتفاع الفرد من أسلوب المعالجة بالأضداد، وتوجيه الذات نحو الاعتدال بعيداً عن الإفراط والتفريط، وكلاهما طرف غير سوي في الشهوة، ولهذا حرصت نصوص المشرّع على ترتيب التوازن بين القوى المتقابلة في النفس، لتكون الذات في حالة استقامة أو سلوك إيماني سوي، ومن هنا يرى المشرّع التربوي الإسلامي أن ثمرة التوبة في حياة المريض المسلم هي «استدراك فوارط النفس»[1]. . . أي تدارك ما فاته من تقصير في الواجبات والمسؤوليات الدينية عن طريق بذل ما يمكن بذله من القيام بالأنشطة والواجبات العبادية الإسلامية.

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص٩٤ ـ ٩٥.

ولنتأمل مقطعاً من دعاء (مكارم الأخلاق) للإمام السجاد عليه السلام وهو الدعاء الذي حدّد أهمية التوازن وضرورته في أية عملية علاجية حينما قال:

«اللهم صلِّ على محمد وآله، ولا ترفعني في الناس درجة، إلاّ حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزاً ظاهراً، إلاّ أحدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها»[1].

ففي هذا الدعاء الشريف يتضرع الإمام عليه السلام إلى ربه عز وجل آملاً منه أن يحفظه من كل إفراط أو تفريط كي تتوازن قوى ذاته الكريمة، إنه عليه السلام يرجوه عز وجل بزيادة تواضعه بين الناس كلما رفعه درجة بينهم، وأن تتعادل الرفعة الاجتماعية بمثلها من الذلة الباطنة في نفسه، فالتواضع معادلة بين عز ظاهر وذلة باطنة في النفس لله عز وجل.

وهذا النص الشريف للإمام يطالب ـ المؤمن ـ بأن ينسج عن نفسه نظرة صحيحة، بأن يعرف قدر نفسه فيتحسس الذلة والحطة بين يديه ـ سبحانه ـ بدلاً من الإحساس بالعزة الظاهرية بين أوساط الناس، بل يجب أن يقابل العز الظاهري بإحساس القصور تجاه الله، فإذا تعادلت هذه الاحساسات في نفسه لازم التواضع وباين التكبر، والتطاول، والعصبية.

ونظراً لأهمية هذا المبدأ في عملية المعالجة بالأضداد، فقد بسط القول فيه عدد من علماء العلاج النفسي الأخلاقي من المسلمين، وقد تحدثوا عن أجناس الفضائل والرذائل معاً وتصنيفاتهما، فقال الشيخ النراقي:

ـ «عند التحقيق يظهر أن لكل فضيلة حداً معيناً، والتجاوز عنه بالإفراط أو التفريط يؤدي إلى الرذيلة، فالفضائل بمنزلة الأوساط، والرذائل

(١) دعاء مكارم الأخلاق، الصحيفة السجادية، ص١١٢.

بمثابة الإطراف، والوسط واحد معين لا يقبل التعدد، والأطراف غير متناهية عدداً، فالفضيلة بمثابة مركز الدائرة، والرذائل بمثابة سائر النقاط المفروضة من المركز إلى المحيط، فإن المركز نقطة معينة مع كونه أبعد النقاط من المحيط، وسائر النقاط المفروضة من جوانبه غير متناهية، مع أن كلاً منهما أقرب منه من طرف إليه»[١].

ثم أخذ هؤلاء العلماء في ذكر بعض الأمثلة عن الأوساط والأطراف وهي (الفضائل والرذائل) مثال ذلك «الحكمة وسط بين السفه والبله، والذكاء وسط بين الخبث والبلادة، والذكر وسط بين النسيان والعناية، وسهولة التعليم وسط بين الرغبة فيه والتصعب عليه أو تعذره، والتعفف وسط بين رذيلتين هما الشره وخمود الشهوة، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والعدالة وسط بين الظلم وتحمل الظلم أو تقبله»[٢].

ويمكن القول في هذا الصدد إن بعض الفضائل كالصدق، والعدل، تعتبر صفات حدية ينبغي اعتبارها وسطاً بلا أطراف، ومع ذلك فإن الاعتدال في الأخلاق هو الصحة في النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض، وكما يقول الشيخ المقدسي: «فإن مثال النفس في علاجها كالبدن في علاجه، فكما أن البدن لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل بالتربية والغذاء، كذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق، والتثقيف العلمي.

وكما أن البدن إذا كان صحيحاً، فشأن الطبيب العمل على حفظ الصحة، وإن كان مريضاً، فشأنه جلب الصحة له، كذلك النفس إذا كانت

---

(١) جامع السعادات، ج١، ص٩٤ ـ ٩٥.
(٢) انظر كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، ج٣، ص٥٣ ـ ٥٤، وكذلك كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه، ص٤٥ ـ ٤٨.

زكية طاهرة مهذبة الأخلاق، فينبغي أن يسعى بحفظها وجلب مزيد القوة لها، وإن كانت عديمة الكمال، فينبغي أن يسعى بجلب ذلك له»[١].

سابعاً: البناء قبل الهدم:

تبدأ بعض المناهج العلاجية الأرضية بعملية الهدم لكافة السلبيات والأخطاء الموجودة في النفوس، وقد حاولت هذه المعالجات أن تقوم بإصلاح بعض العادات الخاطئة في الذات، وهي في واقع الأمر لا تملك تصوراً إيجابياً كاملاً، يساعدها على إعادة البناء وتعديل السلوك، ولعل المعالجات الخاطئة للأضداد التي سبق الحديث عنها مظهر لهذا الخبط العشوائي، فالمعالج النفسي المسلم يحاول أن يقتلع اليأس ـ مثلاً ـ من النفوس، فيطوح به تيهه في فهم الأضداد إلى المبالغة في طلب الأمل، حتى يتحول فعلاً إلى رغبة في طول الأمل لا قصره، أو يريد أن يزيل من النفس شعورها بالنقص، فيقوده قصوره في معرفة أضداد السلوك إلى إذكاء روح التكبر دون وعي.

فالمعالجات التي تبدأ الطريق دون أن تملك تصوراً إيجابياً لعمليتي البناء والعلاج معاً تجعل الشخص لا يغيِّر شيئاً من واقعه، فيحل صفات سلبية محل صفات سلبية أخرى، ولا يكشف ذلك إلاّ بعد ظهور مشكلات سلوكية جديدة نتيجة للمعالجة الخاطئة.

إن إعداد التصور الإيجابي لعملية العلاج النفسي هو الضمان الأكيد الذي يوفِّر الطاقات والجهد، ويؤدي إلى تصحيح وضع الذات بخطوات متتابعة منظمة، وهنا يهم ـ المعالج والمريض معاً ـ أن يقوم البناء العلاجي

---

(١) مختصر القاصدين لابن قدامة المقدسي، ص١٥٤.

الجديد للذات على نسف أسوار الوضع الفاسد السابق لها، وإعادته في ضوء النظرية العلاجية العبادية.

وإذا أردنا تصور حجم المسؤولية في هذه المسألة فلنتصور فرداً ـ كما نشاهد دائماً ـ أراد أن يهدم بيتاً أو يرمِّم بعض جوانبه، فإنه يضع قبل كل شيء مشروعاً مسبقاً متكاملاً ومخططاً له يعيّن فيه سير عملية البناء ومتطلباتها ومراحلها، وهو يفعل ذلك قبل الهدم، لأن المشروع المذكور يعتبر التصور الذي ينتظم على أساسه سير العمل أثناء عملية بناء الذات، ولا بدّ أن يكون للمشروع خطة عمل منظمة تستند على إمكانيات الفرد مثل خبرته وأمواله المدخرة لإنجاز العمل على أحسن وجه.

وإذا كان بناء بيت أو عمارة سكنية يحتاج مسبقاً إلى خطة عمل دقيقة تكون جاهزة للتنفيذ قبل البدء في الهدم، فإن التعامل مع الذات أشد حاجة إلى تصور إيجابي متكامل لعملية البناء قبل محاولة تغيير العادة الضارة، فالتخلية والتحلية متلازمتان في عملية المعالجة النفسية، وسوف نوضح ذلك في ثنايا البحث، ومن هنا لا بدّ أن تتضمن مداواة النفوس أسلوبين متساندين:

الأولى أسلوب هدم.. والآخر أسلوب بناء.

إن النفس التي أثقلتها الذنوب تكون كالمرآة التي اجتمع على سطحها ركام كثيف من الغبار، بسبب الإهمال وعدم العناية بتنظيفها، وليس أمام الفرد الذي يرغب في الانتفاع بهذه المرآة سوى القيام بتنظيف سطحها، وإعادة تلميعه، ولكن طريقة التنظيف مهمة، وأداة التنظيف أهم، فإذا استعمل ـ المنظف ـ خلال عملية مسح الغبار قطعة لينة من القماش النظيف، الناعم، عادت إلى صورتها الأصلية السابقة، وتهيأت للاستعمال مرّة أخرى دون حدوث خدش على سطح المرآة.

أما حين تكون أداة المسح خشنة، جافة، فإن ذلك العمل يؤدي إلى خدش في سطح المرآة بقدر خشونتها، وقد يكون لهذا الخدش أثر دائم لا يزول، ويبدو واضحاً على السطح، حتى وإنْ زال الغبار كله، لأن الحفر في سطح المرآة يكون بأثر الضغط عليه، وبمقدار عمق الخدش.

ويبدو لنا أن وضع النفس المثقلة بسيئاتها وأخطائها، والتي ران عليها ركام من انحرافات السلوك، يشبه إلى حدّ كبير ما يتراكم على سطح هذه المرآة من غبار وأتربة، فإذا كانت هذه المعالجة حفراً خاطئاً في النفس بسبب قصور، وأخطأ المربي في تحديد النظرة، واختيار المنهج، والخطوات العلاجية المناسبة، فإن النفس المريضة تصاب بمزيد من الجراحات، مما يؤدي إلى اضطرابات أشد خطراً، وأعمق أثراً فيها.

وعندما يحاول المربي المسلم أن يمسح عن النفس المضطربة عناصر الانحراف برفق وأناة ودون استعمال، فحينئذ يمكنه تدريجياً إعادة الذات المنحرفة إلى نقاء فطرتها، ويزيل عن جهازها العصبي شيئاً فشيئاً كل تبلد عقلي وانفعالي يمنعها عن التلقي والأخذ والعطاء، وبعد ذلك تستأنف حياة إيمانية مؤسسة على تعاليم الكتاب والسُّنة وعلى قيم المشرّع العبادية.

ومن المؤكد أن مبدأ الرفق ضروري جداً في عملية البناء والهدم معاً، فإذا اقتحم المعالج النفسي المسلم المواقع الداخلية للذات ووضع يده على أخطائها، دون ترتيب أو تنظيم يتمشى مع سلم الأولويات، فإن هذا التبعثر سوف يخلط فعلاً بين ما هو مهم وبين ما هو أهم، فترتبك المعالجة بحيث يمكن أن تبدأ في علاج ما هو مهم وتترك معالجة الخطأ الأهم.

ومن الأسس والقواعد العامة لنظام المعالجة الإسلامية أن يبدأ المعالج بتصحيح الخطأ الأهم ثم يتدرج بعد ذلك إلى الخطأ الأقل أهمية فما دونه، ولعل هذا الخلط قد يؤدي إلى ذوبان حتى العناصر الصحيحة التي تختزنها الذات في كيانها قبل فترة المعالجة، فتكون فترة المعالجة أسوأ حالاً مما

قبلها، وهنا يخفق المعالج في اقتلاع سلبيات النفس، ولذلك يتطلب مشروع بناء الذات استعمال الرفق في البناء والهدم، وتحديد الأولويات المطلوب استبدالها من العادات الخاطئة.

وعلى كل حال، فإن المربي المسلم الذي لديه دراية وحذقاً بمعرفة النفس وأحوالها وتقلباتها، لا يجد سوى التصرف مع النفس المخطئة بحكمة، تتفوق على أسلوب مسح الغبار عن المرآة، فأي خدش في المرآة يشوِّه صفاءها حتى لو كان بسيطاً، أما النفس المخدوشة بسبب أخطاء المعالجة فتتداخل فيها الخطوط المحفورة بحيث يعطل على أقل تقدير جزءاً من فعالية جهازها العصبي، ويحول دون استئناف نشاطه بشكل طبيعي في الأخذ والعطاء من جديد، وحينئذ تتجمد خلاياه، وتتبلد النفس عن قبول كل محاولة تستهدف تغيير كل انحراف في أعماقها.

وبالتأكيد فإن مشروع البناء قبل عملية هدم سلبيات النفس يتضمن أيضاً مخططاً مفصلاً يحدّد أولاً ما ينبغي هدمه، وأساليب وشروط البناء، وطرائقه، وكيفية استعمال القدرات الحقيقية التي تحقق هذا الهدف، ومدى استعدادها لكافة المواقف العلاجية، كما يتطلب المشروع تحديد الخطوات المنهجية قبل تفريغ الذات من استجاباتها غير السوية، ثم الملاءمة بين الذات ومنهج المعالجة.

وهكذا عرفنا أن البناء الجديد للذات يجب أن نحدّده بوضوح قبل مباشرة عملية تصفية ما في النفس من عيوب لأن كل جهد من هذا النوع غير المنظم هو في الواقع جهد غير مأمون النتائج، فالتخطيط ضرورة علمية وإسلامية لضمان نجاح المعالجة للذات على أسس عبادية، وصدق الإمام علي عليه السلام حين قال:

«من عرف الأيّام لم يغفل عن الاستعداد»[(١)].

وقول الإمام الحسن السبط: «من تذكر بُعد السفر استعد»[(٢)].

ثامناً: ضرورة معرفة الأضداد:

أكّد منهج العلاج النفسي الإسلامي على أهمية معرفة الأضداد سواء كانت أنماطاً من السلوك، أو حالات وجدانية وفكرية متقابلة أو غيرها، لهذا التأكيد دلالته الهامة، وهو أن عملية المعالجة بدون هذه المعرفة تتعرض للارتباك والتعثر، مما يؤدي إلى أن تتعرض الشخصية لعلاج طويل نسبياً، ورغم ذلك فإنها لا تستطيع ضمان النجاح في محاولاتها، ومن هنا تبدو أهمية معرفة الأضداد كخطوة منهجية، وشرط أساسي لأداء المعالج لوظيفته العلاجية، وقد نصّ على فهم الأضداد القرآن والسنة معاً.

تقول بعض الآيات القرآنية الكريمة بأن الحسنات تمحو السيئات:

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[(٣)].

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[(٤)].

و﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾[(٥)].

وقد روي عن الإمام علي عليه السلام قوله الشريف:

«واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي

---

(١) تحف العقول، ص٧٠.
(٢) تحف العقول، ص١٧٠.
(٣) سورة القصص، ٥٤.
(٤) سورة هود، ١١٤.
(٥) سورة الفرقان، ٧٠ ـ ٧١.

نبذه، ولن تعرفوا الضلالة حتى تعرفوا الهدى، ولن تعرفوا التقوى حتى تعرفوا الذي تعدى»[١].

وفي رواية أخرى قوله الشريف: «إنما يعرف قدر النعم بمقاساة ضدها»[٢].

وقوله في نصيحة لابنه الإمام الحسين: «في خلاف النفس رشدها»[٣].

وقوله أيضاً: «الرشد في خلاف الشهوة»[٤]... والمراد الاستجابة للشهوة الحرام غير السوية بالمعيار الديني والإنساني هو خلاف الرشد العقلي للإنسان.

وثمة نصوص كثيرة في هذا الصدد، وجميعها تؤكد على أهمية هذا المنهج في تحقيق التوافق بالمعيار الإيماني، فالعلم كما يقول عالم الأخلاق المسلم الشيخ النراقي:

«فضيلة وحسنة، وهو أعون شيء على إزالة ما يضادها من الرذيلة»[٥].

وسوف نعرف إن شاء الله عز وجل قائمة للأضداد مروية عن الإمام الصادق عليه السلام رغم أن هناك قائمة أخرى مماثلة، غير أن التشابه بينهم كبير، بل هما متطابقتان ـ في الألفاظ والمعاني ـ اللهم إلا في ترتيب مواقع بعض الألفاظ فقد تتأخر ألفاظ في القائمة الأولى، وتتقدم ألفاظ مماثلة في قائمة الأخرى، ومع ذلك فإن الهدف من صياغة هاتين القائمتين ـ للأضداد هو تعريف المسلم بها، فتعينه على تربية شخصيته.

---

(١) نهج البلاغة ج١، ص٤٥٠.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ج١، ص١٣٤.
(٣) تحف العقول، ص٦٦.
(٤) تحف العقول ص١٥٣.
(٥) جامع السعادات، ج١، ص١٣٤.

ولنقرأ الآن قائمة الأضداد للإمام الصادق ﷺ، حيث تضع القائمة قبال كل سمة إيجابية سمة سلبية على نحو ما نلحظه في تصنيفات البحث الأرضي لسمات الشخصية.

السمة	السمة المضادة	السمة	السمة المضادة	السمة	السمة المضادة
الإيمان	الكفر	التصديق	الجحود	العدل	الجور
الرضا	السخط	الطمع	الياس	التوكل	الحرص
الرحمة	الغضب	العلم	الجهل	العفة	التهتك
الزهد	الرغبة	الرهبة	الجرأة	التواضع	الكبر
الحلم	السفه	الصمت	الهذر	العفو	الحقد
الرقة	القسوة	الصبر	الجزع	الصفح	الانتقام
التفكر	السهو	الحفظ	النسيان	المواساة	المنع
الوفاء	الغدر	الخضوع	التطاول	السلامة	البلاء
الصدق	الكذب	الحق	الباطل	القنوع	الحرص
المهنة	البغى	الإخلاص	الشوب	الشهامة	البلادة
المعرفة	الإنكار	المداراة	المكاشفة	الكتمان	الإفشاء
الجهاد	النكول	البر	العقوق	الحقيقة	الرياء
التقية	الإذاعة	الإنصاف	الحمية	الحياء	الخلع
القصد	العدوان	السهولة	الصعوبة	البركة	المحق
القوام	المكاثرة	الحكمة	الهوى	السعادة	الشقاء
التوبة	الإصرار	الالفة	الفرقة	السخاء	البخل
المحافظة	التهاون	الاستغفار	الاغترار	الرجاء	القنوط
الامانة	الخيانة	الشكر	الكفران	الدعاء	الاستنكاف
الرأفة	العزة	الفهم	الغباوة	الفهم	الحمق
سلامة الغيب	المماكرة	الرفق	الخرق	الصون	النميمة
التؤدة	التسرع	المعروف	المنكر	الاستسلام	الاستكبار
النظافة	القذارة	اليقين	الشك	الراحة	التعب
الغنى	الفقر	العافية	البلاء	التعطف	القطيعة
الوفاء	الخفة	الطاعة	المعصية	الفرح	الحزن
الحب	البغض	النشاط	الكسل	الستر	التبرج

«ويلاحظ في القائمة المذكورة أنها تتناول أصولاً عامة للعصاب من نحو: الحقد، القسوة، الانتقام، البغض، الخيانة، الغدر، المماكرة، النميمة، وهي جميعاً سمات لافتة لـ (الشخصية العدوانية)».

كما أن سمات من نحو: الحزن، الشقاء، الجزع، السخط، اليأس تظل طوابع الشخصية المنطوية والمكتئبة، فضلاً عن أن سمات من نحو: الشك، الجحود، الإنكار، النكول تظل طابعاً للشخصية القلقة، وهكذا.

ولا يغيب عن بالنا أن بعض السمات التي وردت في القائمة المذكورة تمثل سمات عقلية من نحو الغباء، النسيان، والمهم: أن السمات البالغ عددها أكثر من (٧٠) سبعين سمة، تظل أنماطاً من السلوك العصابي الذي تألفه البحوث الأرضية في شتى تصنيفاتها لأمراض العصاب أو لسمات الشخصية المريضة: في حين أن السمات الفكرية الخالصة تمثل سمة واحدة أو اثنتين، وردت في أول القائمة، ونعني بها سمة (الكفر) ومقابلها (الإيمان) مما يعني مدى صلة الأمراض النفسية ـ في شتى أنماطها ـ بالمرض الفكري (الكفر)، ونواتج الأصول النفسية لهما، أي: وحدة العصاب الفكري والنفسي مقابلاً لوحدة السوية نفسياً وفكرياً»[1] على حدّ تعبير د. البستاني.

وحاول بعض علماء النفس أمثال ريموند كاتل أن يقدم تصنيفاً لسمات الشخصية المتقابلة، كالسيطرة وضدها الخضوع، الشجاعة وضدها الجبن، المرح وضده الاكتئاب.

وكذلك فعل العالم السويسري آيزنك حين قابل في تصنيف صغير

(١) دراسات في علم النفس الإسلامي، ج١، ص١٤٩.

متداول بين نمطين هما الانطواء والانبساط، ثم تفرع عن هاتين السمتين سمات فرعية متقابلة، حيث يندرج بعض السمات الفرعية ضمن سمات الشخص المنبسط وتندرج سمات أخرى ضمن سمات الشخص المنطوي، ولكن يلحظ أن هذه التصنيفات غير شمولية.

* * *

ونلحظ أن هذا التشابه ـ بين القائمتين ـ منطقي جداً لأن قائمة الأضداد الأولى منسوبة للإمام جعفر الصادق عليه السلام بينما تنسب القائمة الثانية لابنه الإمام موسى بن جعفر[١].

والابن ـ وفق الطريقة التقليدية السائدة آنذاك ـ يتتلمذ بالتأكيد على يد أبيه ويتعلم مباشرة من علمه، وبذلك ينقل الابن عن والده القائمة بمفرداتها وألفاظها تقريباً، وإن اختلفت في ترتيبها اللفظي هنا وهناك، ولذلك كان المعنى أو المحتوى المعرفي للقائمتين واحد، فعندما نشير إلى قائمة الأضداد نعني القائمتين عند الإمامين.

القائمتان ـ قائمة الأب وقائمة الابن ـ تتحدثان عن (٧٥) سمة إيجابية، وعن (٧٥) سمة سلبية، تتقابل جميعها على نحو واضح يحدّد للإنسان المسلم ما أسمتاه القائمتان (جنود العقل) مقابل (جنود الجهل)، والمطلوب كما هو من القائمتين أن يترك الفرد المسلم السمات السلبية أو جنود الجهل ويربي نفسه على السمات الإيجابية أو جنود العقل.

* * *

ولا شك أن هذه الأنماط من الأضداد الواردة في القائمتين تعين

(١) تحف العقول لابن شعبة الحراني، ص٢٩٦.

المعالج النفسي على تحديد السلوك العصابي والسوي وفق المعايير الإيمانية، فيختار منها ما يحقق أهدافه في عملية المعالجة.

والحق أن ما ارتكبه الناس من الأخطاء في أنفسهم، كان بسبب أنهم لم يستطيعوا تعيين الأنماط المتضادة المتقابلة، فجاءت محاولاتهم العلاجية خاطئة تنقل المريض من مرض عصابي إلى مرض آخر لم يكن موجوداً في النفس، وقد أسمى العلامة الشيخ النراقي هذا النوع من المعالجة (المداواة بالسم) كما ذكرنا.

تاسعاً: تناسب الأضداد وتجانسها:

ذكر علماء السلوك والأخلاق المسلمين شرطاً هاماً هو تناسب الأضداد وتجانسها، غير أن اهتمامات بعضهم كانت أقل أو أكثر من اهتمامات البعض الآخر، فمسألة التناسب بين الأضداد تبدو أكثر وضوحاً عند ابن مسكويه، والغزالي، والعلامة الشيخ النراقي، ولكنها أقل وضوحاً عند آخرين مثل أبي بكر الرازي[١].

ومهما كان التفاوت واضحاً بين اهتمامات علماء الأخلاق المسلمين فإن لهذه الفكرة جذرها الأصيل في منهج الله عز وجل، وهذه دون شك خاصية أخرى تؤكد تميز هذا المنهج عن غيره وتفرده، يقول الإمام علي عليه السلام في هذا الصدد:

«كل جنس يميل إلى جنسه، وكل شيء ينفر من ضده، وكل أمرئ يميل إلى مثله»[٢]، وهذا النص كما يبدو ـ والله أعلم ـ فيه لفت نظر إلى فكرة تناسب الأضداد.

---

(١) راجع رسالة أبي بكر الرازي في الطب الروحي.

(٢) نهج البلاغة، ج١، ص٧٨.

ولكن ما المقصود بفكرة التناسب بين الأضداد؟

إن كل سمة عصابية تُمحى بسمة إيجابية سوية من نوعها، وكل سيئة تعالج بحسنة من جنسها، فالدواء من معيار الداء كما قال حجة الإسلام أبو حامد الإمام الغزالي رحمه الله: «فإن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمصيبة، فلا يمحوها إلاّ نور يرتفع إليها بحسنة تضادها، والمتضادات هي المتناسبات، فلذلك ينبغي أن تُمحى كل سيئة بحسنة من جنسها، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة»[١].

والحرارة تزال بالبرودة لا بالبياض، وهكذا تضاد كل سمة سلبية بأخرى إيجابية من نوعها، ومن جنسها. . أي تناسبها.

أما الشيخ النراقي رحمه الله فيقول:

إن الفرد ينبغي عليه: «أن يبادر بعد معرفة الانحراف إلى تحصيل الفضيلة التي هي ضده ـ ومن جنسها كما قلنا ـ والمواظبة على الأفعال التي هي آثارها، وهذا بمنزلة المضاد للمرض، فكما أن حصول الحرارة في المزاج يدفع البرودة الحادثة فيه، فكذا كل فضيلة تحدث في النفس تزيل الرذيلة التي هي ضدها»[٢].

ويقول الإمام الغزالي:

ـ «إنَّ العلة المغيّرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلاّ بضدها، فإن كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت من برودة فبالحرارة، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها، فيعالج مرض الجهل

---

(١) إحياء علوم الدين ج٤، ص٣٦.
(٢) جامع السعادات ج١ ١٣٣.

بالتعلم، ومرض البخل بالتسخي، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفاً»(١).

كذلك يقدم لنا الشيخ محمد الغزالي «المعاصر» رحمه الله عز وجل نموذجاً لكيفية استعمال فكرة التناسب في منهج المعالجة بالأضداد فيقول:

«عندما يكون المرء بخيلاً مثلاً، فعلاج شحه أن يتعلم الكرم ويتعوده، فيصبح على مرّ الأيام طبيعياً، أما أن يلجأ إلى الصلاة الطويلة كي تخفي نقيصته ـ في البخل ـ فذلك لا يجديه، وسيبقى بخيلاً لو صلى آناء الليل وأطراف النهار»(٢).

والكلام واضح جداً، فعلاج السيئات لن يكون مجدياً وفعّالاً إلاّ بما يناسبها من الأضداد، فلا يعالج الخوف إلاّ باقتحام الأمور والوقوع فيه لا بالسخاء، ولا يعالج الكسل إلاّ بالنشاط والحماس لا بالصفح، ولا تمحى عادة ظلم الآخرين إلاّ بالعدل لا بالنشاط، وهكذا يغيّر المعالج النفسي المسلم كل عادة سيئة في مرضاه بما يناسبها من الفضائل، وما يصلح لها من القيم العبادية، فكل جنس يميل إلى جنسه، وكل شيء ينفر من ضده كما قال الإمام علي عليه السلام:

«وكل رذيلة تعالجها فضيلة تناسبها».

«إنما يعرف قدر النعم بمقاساة ضدها»(٣).

إن اختيار المتناسبات من الأضداد يوجّه عملية العلاج في طريقها الصحيح، لأن الاختيار يقع إما على سمة إيجابية تتوسط سمتين متقابلتين

---

(١) إحياء علوم الدين ج٣ للغزالي، ص٥٩.
(٢) الشيخ محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص١٩٢.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، ص١٣٤.

من السمات الإيجابية أو يقع على سمة حدية لا وسط لها، فالانتقاء المحكم للأضداد يحقق اعتدالاً سوياً في حركة الذات، فيحصنها ضد شتى أنماط المرض النفسي وأنماطه المختلفة.

ويلاحظ أن تناسب الأضداد لا يتحقق من خلال الأساس النظري للمنهج الإسلامي، فالعلم النظري يرشد المعالج والمريض إلى اختيار المتناسبات بين الأضداد، لكن المعالجة أبعد في واقع الأمر من حدود المعرفة النظرية، فيجب أن تكون المعرفة، مرشداً ودليلاً خلال فترة المعالجة، غير أن العمل هو الذي يحقق التغيير والشفاء النفسي، فلا يكفي الفرد علمه بأن ما يناسب البخل هو سمة الكرم، لأن التسخي في منهج الله موقف، وعلم، واختيار، وتدريب متواصل وتضحية بما في اليد، وتسليم كامل لله عز وجل.

عاشراً: التخلية والتحلية:

تسلك المعالجة النفسية الإسلامية للانحراف طريقاً شاقاً تصاحبه آلام المعاناة وحلاوة المجاهدة، ويبدأ هذا الطريق بمحو تدريجي مرتب للأخلاق المذمومة من النفس، وهذه خطوة تسبق عملية تحليتها بالسمات الإسلامية فكما قال القرآن الكريم:

﴿ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[١].

وقوله ﷺ في حديثه الشريف: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»[٢].

ولا يكفي كما يقول العلامة النراقي في تدارك الشهوات والتوبة، مجرد تركها في المستقبل، بل لا بدّ من محو آثارها التي انطبعت في جوهر

(١) سورة هود، ١١٤.

(٢) جامع السعادات، ج٣، ص٦٣.

النفس بنور الطاعات، إذ كل شهوة ومعصية صدرت من الإنسان ارتفعت منها ظلمة إلى قلبه، كما ترتفع من نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات والمعاصي صارت ريناً، كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثاً»[١].

فالعبد لا يستغني أولاً عن البدء بخطوة محو آثار السيئات عن قلبه، تتبعها بعد ذلك خطوة تزويد النفس بالقيم والفضائل الحسنة وتعزيزها بكل سلوك عبادي سوي، شرط أن تتوفر في عملية التعديل فكرة التناسب بين الأضداد، وهذا العلاج كمنهج، بمثابة تفريغ الإناء من الخل، وإعادة ملئه بالماء النقي فإنه لا يكفي كما يزعم بعض علماء النفس، أن نفرغ النفس من المكبوتات والرغبات الدنيئة عن طريق التنفيس والتداعي الحر أو أي طريقة أخرى من طرق العلاج الحديث، سواء كان طريق الفن «الفن» أو العلاج باللعب أو بأسلوب آخر.

كل ذلك لا يكفي ليكون الإنسان صالحاً مؤمناً، ومتوافقاً سوياً.

إذ أننا لا نشك في أن الإنسان معرض دائماً لأن يعبأ مرّة تلو الأخرى ـ بعد عملية التنفيس هذه ـ بحكم العادة والتطبع والتقليد بشهوات ورغبات ومتطلبات أكثر جنوحاً وأعظم انحرافاً لأن نفسه في هذه الحالة فارغة تماماً وفي حالة ظمأ شديد.

«كما أن النفس مستعدة لقبول الجديد، متشوقة لمصادفة أول لذة لتشبعها، وحريصة على الإقبال على الشهوة دون أن تتبين ما هو جميل لها، وما هو قبيح، فتتحرك في شغف لتشبع النفس بكل ما يقابلها من احتياجات

---

(١) جامع السعادات ج٣، ص٦٢ ـ ٦٣.

تريد إشباعها، ومن أفعال تود القيام بها، وأعمال تسعى لها، دون أن تسكن إلى شيء أو ترضى عن شيء فإذا شفيت من مرض بليت بأمراض أخرى، وإذا استكان فيها الخوف هاجمها الغرور، وحب الذات، وإذا تفرغ منها اليأس انتابها الرياء والكبر»[1] وأمراض سلوكية أخرى.

وتخلية النفس من ذمائمها ـ أولاً ـ ضرورة أساسية للمعالجة، فما لم تحصل التخلية لم تحصل التحلية أبداً، ولم تستعد النفس للفيوضات القدسية، كما أن المرآة ما لم تذهب الكدورات عنها لم تستعد لارتسام الصور فيها، والبدن ما لم تزل عنه العلة لم تتصور له إفاضة الصحة، والثوب ما لم ينق عنه الأوساخ لم يقبل لوناً من الألوان، فالمواظبة على الطاعات الظاهرة لا تنفع ما لم تتطهر النفس من الصفات المذمومة كالكبر، والحسد والرياء، وطلب الرئاسة والعلى وإرادة السوء للأقران والشركاء، وطلب الشهرة في البلاد وفي العباد، وأي فائدة في تزيين الظواهر مع إهمال البواطن[2].

وخلافاً لمناهج العلاج النفسي الوضعي، لا يقف منهج المعالجة الإسلامي عند الخطوة الأولى دون الأخرى لأن ذلك يسمح للرواسب أن تنبعث من جديد، كما أنه يحتمل أن تتعرض لدخول انحرافات جديدة يزيد الذات فساداً، يختلط فيها الخير بالشر معاً.

يقول العلامة النراقي رحمه الله:

«وكما أن البدن الذي ليس بالنقي كلما غذوته، فقد زدته شراً،

---

(١) د. حسن الشرقاوي، نحو علم نفس إسلامي، ص٤٥ ـ ٤٦، وكذلك كرر ذلك في مقال آخر للمؤلف كتبه بعنوان «طبيب النفس الإسلامي»، ونشره بمجلة الثقافة العربية الليبية، العدد العاشر، السنة الثالثة ١٩٧٦ م ـ ١٣٩٦ هجرية.

(٢) جامع السعادات، ج١، ص٤٢.

فكذلك النفس التي ليست نقية عن ذمائم الأخلاق لا يزيده تعلم العلوم إلاّ فساداً»[١].

وفي ضوء ذلك يجب ترشيد المريض بهذه الحقيقة، ويعلم ضرورة انصياع نفسه لها، فكما أن المعالج المسلم يسير بالخطوتين ـ التخلية والتحلية ـ جنباً إلى جنب، كذلك ينبغي على المريض أن يبدأ عملية التخلية النفسية والفكرية قبل التحلية، فالنفس الإنسانية كما تقول بعض المرويات: «إن لم يستقم بها الهدى جار بها الضلال».. ولا وسط بينهما.

وقد وردت نصوص عن الإمام علي عليه السلام في هذا الصدد:

«واصلح إذا أنت فسدت، وأتمم إذا أنت أحسنت»[٢].

«للنفوس طبائع سوء، والحكمة تنهى عنها»[٣].

وفي رواية أخرى أن الحكمة تزجر النفوس عن طبائعها السوء، فتقول الرواية إن للنفوس طبائع سوء، والحكمة «تزجر عنها».

«غالبوا أنفسكم على ترك العادات، وجاهدوا أهواءكم تملكوها»[٤].

يقصد ـ هنا ـ ترك الفرد المسلم للعادات الخاطئة واستبدالها بعادات السلوك العبادي الصحيحة التي تتمتع بقدر كبير من السواء، وذلك عن طريق التدريب وتحمل مشقة العملية الجهادية بوعي وصبر وقصد، فالمغالبة تعني حالة التدافع داخل النفس بين قوة ضغط العادات القديمة المستحكمة التي لا تريد فكّ سيطرتها على النفس وبين جاذبية التغيير الجديد وقواه.

(١) جامع السعادات، ج١، ص٦٠.
(٢) ٢٠٠٠ كلمة، ص٢٩.
(٣) ٢٠٠٠ كلمة، ص٨١.
(٤) ميزان الحكمة ج٧، ص١٢٣.



الفصل السادس

معوقات العلاج النفسي بطريقة الأضداد



ليست المعالجة النفسية بأسلوب الأضداد عملاً جهادياً سهلاً كما سبق الإشارة إلى ذلك عدة مرات، فهي مجاهدة نفسية وذهنية وحركية طويلة المدى تستغرق العمر كله بالنسبة للإنسان المؤمن، ولكن بالنسبة للمريض والمعالج النفسي المسلم فهما يعيشان خلالها لفترة مؤقتة ـ أي خلال الجلسات العلاجية ـ في مواجهة مع كافة التحديات والقوى المترسبة والدفاعات المرضية التي تمنع الفرد المريض من استعادة توازنه الداخلي المفقود، والعودة إلى حياة التكيف والرضا النفسي، ثم يواصل كل منهما دوره المعتاد في الحياة.

وسوف نوضِّح في الصفحات القادمة ـ بإذن الله تعالى ـ أن الحالة السيكولوجية التي أطلق عليها علماء النفس الوضعي المعاصرون مصطلح الصراع النفسي[١] لا تنشأ أبداً من فراغ، وإنما تولد بسبب تدافع داخلي بين قوى النفس المتقابلة في اتجاهين متعارضين أحدهما يمثل قوة الشهوة وزوائدها الضارة، والآخر سمو الروح ورقي العقل، وحكمة الدين والنظام والأخلاق.

---

(١) سنناقش في الفصل القادم ـ إن شاء الله تعالى ـ موضوع الصراع النفسي وقدرة منهج العلاج النفسي بالأضداد على حسم حالات الصراع النفسي حسماً موفقاً وسوياً في ضوء القيم العبادية التي أكّد عليها المشرّع التربوي الإسلامي، وإحداث توازن في سيكولوجية الفرد.

ومما لا ريب فيه أن ثمة معوقات تواجه المرضى النفسانيين، وتعيق حركتهم في الوصول إلى الهدف الجهادي المرجو وهو تحقيق حالة معقولة من الرضا النفسي الموصول بإحساس المريض برضا الله عنه، وتكوين علاقة مزدوجة ذات بعدين رأسي مع الله عز وجل وآخر أفقي مع الناس والمجتمع كما أوضحنا ذلك في موضع سابق من هذه الدراسة.

وتتأثر شخصية المريض بعدد من المعوقات ينبثق بعضها من داخل النفس، وينبثق البعض الآخر من المعوقات التي تواجهه وتصنعه البيئة الاجتماعية والثقافية، وسواء كان المجتمع أو الفرد نفسه مصدراً لهذه المعوقات، فإن تأثيرها يلحق ضرراً أكيداً بذات المريض وسيكولوجيته وبتوافقه في الحياة ويؤثر ـ بدرجة ما ـ على سير المعالجة السلوكية ونظامها، لهذا ينصح المعالج النفسي المسلم مرضاه بالصبر والاحتمال، والثبات أمام صعوبات التعديل السلوكي ومعوقاته الداخلية المرتبطة بالظروف النفسية للمريض أو الصعوبات الخارجية المرتبطة بالمحيط الاجتماعي ومثيراته وضغوطاته.

سوف نشير إلى بعض هذه المعوقات:

أولاً: معوقات النفس «المعوقات الداخلية»:

وهي معوقات تصدر من داخل الفرد كالرواسب النفسية، والشهوات الشخصية، وكل القوى التي تضعف من إرادة الفرد، كعدم القناعة الذاتية بالعلاج النفسي أو بتعديل السلوك، أو الإعجاب بالذات، أو النظرة الرثائية للذات، وهكذا.

ويمكننا الآن تحديد بعض هذه المعوقات على سبيل المثال لا الحصر النهائي بما يلي:

١ ـ اتباع هوى النفس.

٢ ـ العجب والجهل.

٣ ـ الرواسب النفسية.

٤ ـ مقابلة الناصح بمقالته.

٥ ـ الإسراف في لوم الذات وتأنيبها.

٦ ـ استصغار ذنوب الذات.

١ ـ اتباع هوى النفس:

ويشير هذا العائق إلى مقاومة سلبية تنطلق من داخل النفس لمعالجة الرذائل بالفضائل، والقيم العبادية، ولا تحتاج معرفة أثر هذا العائق في المعالجة إلى جهد كبير، إذ تؤثر أهواء الشخص ـ سوياً أو مريضاً ـ على تقدم حركة العلاج وتعديل السلوك، وتعطيل طاقات الإنسان عن استئناف نموها الطبيعي.

وقد نبّه المشرّع التربوي الإسلامي إلى خطورة هذا العائق. كما ذمّ المشرّع التربوي الإسلامي الفئة التي تنقاد لزمام الهوى، فتحبط أجرها عند الله سبحانه وتعالى، وتدمر إمكاناتها التي سخرها عز وجل لتعمير الحياة.

إن النفس الأمارة بالسوء والمنقادة تتمشى في أحيان كثيرة مع رعونة الشهوة خاصة إذا كان العلاج يستهدف كف تأثير عادة مستحكمة، مضى عليها زمن طويل أو بناء عادة سلوكية جديدة، ومن المؤكد أن سهولة ميل النفس إلى الباطل، يمنعها من قبول الحق والانصياع لنهجه في الحياة، وقد نبّه القرآن الكريم لفعل الهوى ودوره ومخاطره الفعلية على استقامة الشخصية وانضباطها، تقول بعض آياته المجيدة:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[١].

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٢].

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[٣].

كما أن المرويات والنصوص الروائية تؤكد ـ بقوة ـ على ضرورة المجاهدة النفسية لضغط الهوى ومقاومة الشهوات الزائدة والسيطرة عليها مثل:

«لا اجتهاد كمجاهدة الهوى»[٤].

«أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه»[٥].

«جاهدوا أهواءكم تملكوها»[٦].

«لا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى»[٧].

و«قف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم»[٨].

وإذا لم يلتفت الإنسان كثيراً إلى أثر إغراءات الهوى، فإن خطة العلاج النفسي سوف تتعثر حتى لو كان متجهاً لمداواة النفس من عادة واحدة، كالحسد، والعقوق مثلاً، ولن تستطيع النفس بعد ذلك بلوغ ما تصبو إليه، لأن أول الثمرات المرة التي يتركها عامل الهوى في النفس هو غفلة القلب

(١) سورة الجاثية، ٢٣.
(٢) سورة الروم، ٢٩.
(٣) سورة القصص، ٥٠.
(٤) تحف العقول، ص٢٠٨.
(٥) نهج البلاغة ج٤، ص٥٤.
(٦) ميزان الحكمة ج٧ ص٢٣.
(٧) تحف العقول، ص٢٠٨.
(٨) تحف العقول، ص٢٠٧.

عن الهدى، وصدّه عن قبول الحق، وليس من شك في أن هذه المشكلة النفسية هي رأس المشكلات في اتساع دائرة الانحراف تدريجياً في حياة الفرد، فالعجب، والتكبر، والعصبية، والغضب، والسفه ناشئة عنها.

٢ ـ العجب والجهل:

قد يعجب المرء بنفسه، فلا يراها بحاجة إلى مزيد من الكمال الروحي والعقلي، فكما قال الإمام علي عليه السلام:

«الإعجاب يمنع الازدياد»[(١)].

ويراد من ذلك أن الفرد إذا استعظم ذاته وركن إلى الوهم الذي صنعه لنفسه... (وهم كمال الذات)، فإن هذه الحالة النفسية تزين له سوء عمله فيراه حسناً، مصداقاً لنص الآية القرآنية الكريمة: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾[(٢)].

وفي شرح لهذه الآية الشريفة يقول أبو الحسن عليه السلام:

«العجب درجات: ومنها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً، فيعجبه، ويحسب أنه يحسن صنعاً، ومنها أن يؤمن العبد بربه، فيمن على الله ـ عز وجل ـ ولله عليه فيه المن»[(٣)].

والإعجاب بالذات مرض سلوكي وجهل بالنفس قد لا ينتبه له الفرد الذي تتضخم ذاته دون وعي منه، ويطالب المشرّع التربوي المسلم بسد سبيل العجب ومقاومته بقوة وبشجاعة، ويتم التغلب عليه كما أكّد نصّ شريف عن طريق معرفة النفس، يقول النص:

---

(١) نهج البلاغة ج٤ ص٤١.
(٢) سورة فاطر، ٨.
(٣) جامع السعادات، ج١، ص٣٥٩.

«سد سبيل العجب بمعرفة النفس»[١].

وليس أمام المعالج النفسي المسلم إزاء هذه الحالة النفسية المرضية سوى البدء بتحليل المشكلة ومعالجة الأسباب، ورصد آثارها في حياة الفرد المريض نفسه قبل القيام بعملية المعالجة النفسية وأثناءها ومقارنة ذلك بالنتائج المترتبة عن عملية العلاج بطريقة الأضداد، فيحل المعالج النفسي المسلم محل هذا الإحساس المريض إحساساً آخر، وهو تدريب الشخصية المسلمة على الشعور بالقصور في كل أعمالها إزاء الله، واتهام النفس ـ بنقص العمل ـ حتى تتابع العمل، فأخطر مساوئ هذا الإحساس المرضي ـ أو الإعجاب بالذات ـ موت الضمير والشعور بالمسؤولية، وتوترات نفسه مع المجتمع، وإضاعة الأجر، لأن المعجب يطلب التقدير من المجتمع، فإن لم يظفر به تراجعت الذات عن متابعة العمل.

لهذا يحثّ المشرّع الإسلامي الشخصية على التحرك من خلال شعورها بقصور العمل دائماً لاستكماله، فتكون باستمرار في حالة استعداد للترقي والنمو والسعي للكمال، وفعلا فإنه «لا جهل أضرّ من العجب»[٢].

٣ ـ الرواسب النفسية:

تتصدر الرواسب النفسية الفاسدة قائمة مشكلات العلاج النفسي التي تواجه الشخصية المسلمة، حيث تسهم مباشرة في الحد من حركة الجهاز العصبي في الأخذ والعطاء، وتساهم بذلك في تعطيل كثير من الطاقات الفاعلة في النفوس، وإبقائها مجمدة عاجزة عن أداء وظيفتها التربوية وكأنها لم تعرف بعد، فالرواسب تركة ثقيلة متراكمة من المشاعر الأفكار والعادات

(١) تحف العقول، ص٢٠٧.
(٢) بحار الأنوار ج٧٢ ص٣١٥.

التي قد تبلد النفس والفكر معاً إذا كانت جذور هذه الرواسب ذات طبيعة مرضية، وظلَّت قابعة في قاع النفس.

إن الرواسب وعاء نفسي للميراث الثقافي للفرد والجماعة معاً، ويمكن أن تفسد هذه الظاهرة المرضية على المربي المسلم جهده التربوي والعلاجي وتحرمه من فرصة الاستفادة الكاملة من الكنوز والطاقات الدفينة في الذات الإنسانية، وتفسد عليه صوغ النفس صياغة عبادية تحررها من أسر الشهوات وضغوط الماضي.

وتنشأ الرواسب النفسية في شخصية الفرد عادة من تراكم الخبرات التي يمر بها الإنسان في حياته سواء كانت هذه الرواسب صالحة أو فاسدة، فتشكل على مرّ الأيام رصيداً تعين المربي على التربية والتوجيه الحسن أو تكون له عقبات كأداء تثقل عليه جهده وتعوق عمله التغييري.

وهذه الخبرات الوجدانية والفكرية والسلوكية تتسرب إلى أستر جزء من نفوسنا، وتهيمن عليها، ولعل ذلك هو السر الحقيقي لقوتها في التأثير على حركة العلاج النفسي وتعديل السلوك تأثيراً ضاراً أو نافعاً، ويكاد يكون من الصعب إلغاء تأثيرها من النفوس ما دامت قدراتنا عاجزة عن مقاومة ضغطها تدريجياً، وهي بذلك من أهم مشكلات العلاج النفسي بالأضداد.

وكما هو واضح فإن للرواسب عمق زمني تتأثر به، وتستمد منه قوتها وضعفها، فامتدادها التاريخي في النفوس يمدّها بقدرة وفاعلية أكبر، وبالعكس تماماً كلما كان رصيدها الزمني أقصر كان تأثيرها الحركي أقل تأثيراً في القلوب، وأكثر عرضة للزوال، ولهذا فإن تفاوت الاكتساب الزمني لهذه التركة المتراكمة من الأفكار والعادات يجعلها تتفاوت في قوة تأثيرها النفسي، فالشخصية البشرية تستجيب عادة لضغط العادات والأفكار الراسخة

منذ فترة طويلة، بحيث يصعب على عادات ذات عهد جديد أن تكتسب قوة ضغط مماثلة لضغط قوة العادات المترسخة، ولا يرفض المسلم بالتأكيد تأثير البعد التاريخي للرواسب.

غير أن قدرة المنهج العلاجي في ميدان النفس تتضح بسيطرته الفعالة على حركة الرواسب وتوجيهها في مسار يحقق الأهداف العبادية، ومن هنا نبّه المشرّع التربوي الإسلامي في نصوصه الكثيرة إلى أثر ضغوط الرواسب الراسخة، ومشاعر انفعالية لدورها في تكوين قوة دفاعات مرضية لمقاومة كل تعديل للسلوك.

إن الرواسب بلغة بسيطة مجموعة أفكار، وعادات تشكلت بالتدريج، ووجدت لها مكاناً في النفس بمرور الأيام، ولو شبهنا النفس بإناء واسع وعميق، لقلنا إن الرواسب تستقر عادة في قاع هذا الإناء، وتظل في الطبقة السفلى منه تتحفز لمواجهة النفس العاقلة كما يقول الفلاسفة في لحظة الاستثارة، فتعكر صفو هدوئها، فإذا حدثت الاستثارة سببت صدمة لها، تناثرت تلك الرواسب في داخل النفس من أدناها إلى أقصاها، وظهرت عواصف العفن في المياه الآسنة، بل يصبح تبعثرها عملاً تلقائياً يتجه صوب الاستثارة، لكن حركة الرواسب من حيث قوتها لا تكون دائماً بعمرها التاريخي كما يذهب الماديون، فهناك رواسب هشة وجدت طريقها إلى النفس بدون قناعة عقلية داخلية، أو فرضت على الناس لاعتبارات تخلو من الإيمان القلبي والعقلي بها.

ومثل هذا النمط من الرواسب ينهار بمجرد أية مواجهة عنيفة من قبل المعالج النفسي المسلم، حتى لو كانت هذه الرواسب ذات بعد تاريخي طويل إلى حدّ ما، لأن هذه الرواسب تبدو غير منطقية، ولا تحتاج إلاّ إلى مواجهة جهلها بالعلم والمعرفة الصحيحة وتعرية مخزونها وتصفيته وتدميره.

وسواء كانت الرواسب ذات عمق تاريخي أو حالة مفروضة بلا قناعات عقلية، فإنها على كل حال تبقى ولو فترة ما حية فاعلة في النفوس، وضاغطة في فترة المعالجة بمقدار قوة استحكامها، وهذا في الواقع قدر كل الثائرين على أنفسهم الراغبين في تغيير أنفسهم وتعديل أفكارهم واتجاهاتهم، وخلال هذه الفترة يبسط الصراع النفسي وجوده دونما رحمة، ويؤجج الشعور بالقلق، والتوتر، غير أن حدته تخف أو تشتد بحسب نجاح أو فشل برنامج المعالجة في السيطرة على قوة الرواسب، فتصفية «العمل أشد من العمل»[١] على العاملين وأصعب كما جاء في الرواية الشريفة المنسوبة للإمام علي عليه السلام.

ويقول في نصّ آخر:

«تخليص النية عن الفساد أشد على العاملين من طول الجهاد»[٢].

ومعناه أن تخليص النية من الشوب، ورواسب الشر أصعب على الفرد من أداء عمل معين، فالصلاة عمل عبادي قد ينجح الفرد في أدائه بحركات متقنة، جرياً وراء عادة رسخت في ذاته منذ أمد، لكن ذلك لا يعني أبداً نجاحه في إخلاص النية، وتصفيتها من الشوب والرياء، وهذا يؤثر في نظر المشرّع الإسلامي على إتقان العمل، لأن الإتقان في مفهومه الإسلامي ليس حركياً فقط، إنما هو أيضاً عادات عبادية متكاملة تمتد من عنصر النية إلى عملية التفكير ثم العمل والأداء.

فالرواسب الفاسدة تبدو فعلاً مشكلة صعبة إذا فرضت على الفرد حالة من الصراع النفسي العنيف، المقلق للشخص، لكنها أشد إيلاماً إذا ضعفت

---

(١) تحف العقول ٧١.
(٢) تحف العقول، ص٧١.

المقدرة الذاتية لدى الأفراد، وحجبت عندهم كل مقاومة لها، ومن هنا يزداد إيذاء الرواسب للنفس التي اعتادت الانصياع للشهوات، وهذا يمنعها من الانتفاع من استثمار قواها الضاغطة المتمثلة في العقل والإرادة، وقد اجتمع صوت هذه الرواسب فيما أسماه علم النفس التحليلي بالمقاومة النفسية، حيث يلجأ الفرد عادة في مقاومة فهم ذاته، ويعجز عن الصمود في وجه التركة الثقيلة من الأفكار والعادات المضادة، مهما كان إخلاصه، واجتهاده، إذ تتوقف خواطره، وأفكاره عن التذكر الصحيح بسبب مقاومة شديدة من داخل نفسه أو إعاقة الرواسب لأي تقدم ملحوظ في المعالجة، وإذا استبصر المريض في صبر وأناة، ما خفي عليه، عادت خواطره إلى التذكر، والانسياب، وتهيأ لاستقبال وتلقي الجديد، وإحداث تعديل في السلوك.

ويعتقد رجال علم النفس التحليلي أن هذه الرواسب لا شعورية طواها الزمن تحت ضغط خبرات غير سارة، وأصبحت مصدراً للألم عند استعادتها لحظة غفلة الوعي عن مراقبتها، لهذا تحاول النفس كبت هذه الخبرات وطردها من دائرة الوعي والشعور لفترة معينة تطول أو تقصر، وهي تتحين الفرصة للظهور ـ مرّة أخرى ـ في وعينا لتحرجنا، ويقترح فرويد مغالبة هذه المقاومة ومدافعتها حتى تصير شعورية، ولا بدّ أن يتناسب جهدنا المبذول للتغلب عليها مع قوة المقاومة ودفاعاتها المرضية التي تبديها النفس في حالة استعادة خبرات مكبوتة مزعجة، وأدى ذلك إلى صياغة نظرية فرويد في الكبت، التي أصبحت فيما بعد حجر الأساس لمفهومه عن العصاب.

وانتهى فرويد إلى إمكانية ضعف المقاومة النفسية باستخراج جزء من مكبوتات النفس إلى عالم الشعور، وحينئذ تصحو النفس ويستبصر الفرد مشكلته، غير أن الشفاء يكون مؤقتاً كما اعترف بذلك أحد العلماء

السلوكيين، لأنه من المحتمل أن تعود أسباب المرض، وتنشط مرّة أخرى دوافع المشكلة، لقد أكّد آيزنك هذه الحقيقة بقوله:

«إن معدل شفاء المصابين ثابت فعلياً سواء عولجوا بأساليب العلاج النفسي المعروفة أو تركوا دون علاج»[١] وهذا يرجع إلى عقم الفروض والنظريات التي أسسها علماء التحليل النفسي عن حقيقة النفس البشرية[٢].

إن المقاومة النفسية التي تبديها عادة كل نفس ـ مريضة أو عادية ـ طبيعية وحقيقية مادام الفرد قد اكتسب خلال فترات عمره تجارب متنوعة من الأفكار والعقائد والمشاعر الوجدانية وأنماط مختلفة من السلوك، ولا أحد يلوم الفرد على إبداء مقاومة فهم نفسه واستعادة ذكرياته خاصة المؤلمة منها، لكن المرفوض إسلامياً، بل في العيادات النفسية الأرضية أن يجعل الفرد من نفسه كياناً ضعيفاً وعاجزاً، وقد أمده الله بالقدرة على قهر القوة الفاسدة من الرواسب النفسية لأنه كما تقول توصية الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «ما ضعف بدن عما قويت عليه نية»[٣].

والمعالج النفسي المسلم يحاول تفهم طبيعة وقوة هذه المقاومة ليبلغ الغاية، فيقوي الرواسب الإيجابية، ويحطم الرواسب السلبية، فيبدو (المرض) بعد ذلك مكشوفاً، عارياً أمام المريض، ويتعرف على دوافع المرض، وشحناته الانفعالية، ويتقبل الأساليب العلاجية التي يقترحها المعالج النفسي المسلم لصوغ ذاته من جديد بوجهة نظر إسلامية، وهي صياغة لا تكتفي فحسب بالتغلب على روح المقاومة التي تبديها رواسب النفس، وإنما بتثبيت عناصر إيمانية جديدة تعين الفرد على استئناف دوره الجديد وتكوين عادات سلوكية عبادية مرغوبة.

---

(١) د. حسن الشرقاوي، نحو علم نفس إسلامي، ص٨.

(٢) المصدر السابق، ص٨.

(٣) جامع السعادات، ج٣ ص١١٩، وميزان الحكمة ج١٠، ص٢٧٧.

ومن المسائل الثابتة في المنهج السلوكي الإسلامي أنه لا يغفل أبداً عن هذه المقاومة التي تبديها النفس، ولا يتجاهل أثر الرواسب على سير المعالجة للذات المسلمة، فقد وضع برنامجاً متكاملاً لمواجهة هذه الرواسب، فهو يقدر في أول خطوة له واقعية الضعف في الطبيعة البشرية، ويحاول أن يتعامل مع هذه الواقعية بمنطق إيجابي يقرّه الإسلام.

لقد أقرت الروايات الشريفة بدور هذه الرواسب وأثرها في مقاومة تعلم العادات الجديدة، وفعاليتها السلبية في تغيير اتجاهات الأفراد، ولكنها من جانب آخر تحث على تواصل التدريب التربوي العبادي في تكوين العادات الجديدة المرغوبة وتنميتها لدى الشخصية.

ومن هذه النصوص:

«رياضة الجاهل ورد المعتاد عن عادته كالمعجز»[١].

«إزالة الجبال أهون من إزالة قلب عن موضعه»[٢].

«ما أصعب على من استعبدته الشهوات أن يكون فاضلاً».

ويدرك المنهج التربوي الإسلامي خطورة نتائج هذه المقاومة على سير المجاهدة والمعالجة السلوكية، وبيَّن كذلك العلاقة بينها وبين البعد الزمني والتاريخي، وكذلك عامل الاقتناع الداخلي بالأفكار والعادات، وهذا يعني أن المنهج السيكولوجي الإسلامي ينظر إلى الرواسب نظرة واقعية خالية من التهويل والتهوين، وقد اتخذ من ذلك قاعدته لتشخيص الأمراض السلوكية، لأنه يدرك أن خطأ فادحاً في تقدير الوجود الحقيقي لروح المقاومة يعني إمكانية فشل المعالجة بأسرها.

---

(١) تحف العقول، ص٤٩٢.

(٢) تحف العقول، ص٢٦٣.

ولعل سوء المبالغة في تقدير حجم هذه الرواسب جعل بعض النظريات الغربية ترى أن الفرد أسير دائماً لهذه الرواسب مهما حاول التخلص منها وتحرير نفسه من قبضتها وسلطانها، فيظل الإنسان رهن إشارتها بين فترة وأخرى، مما يشعر المريض بخيبة أمل دائماً، وهذا وضع لا يقرّه الإسلام، لأنه دين يتجه بالإنسان دائماً نحو المستقبل، ويعمل على إذابة تأثير الماضي على نفسه إذا كان عنصراً معوِّقاً للنمو الطبيعي.

ومما لا شك فيه فإن التغرف على حقيقة الرواسب من حيث قوتها، ونوعيتها، يمثل جزءاً هاماً من منهج الإسلام في تربية الذات وعلاجها، وبعد أن يرصد المعالج النفسي المسلم حركة الرواسب، والمقاومة النفسية ودفاعاتها المرضية ويبذل جهده لإضعافها، يعمد إلى متابعة نقطة أخرى أكثر تقدماً في موضوع العلاج، حيث يجعل من الرواسب قوة حيادية لا تحمل شحنة انفعالية ومعرفية سالبة وعائقة لسير المعالجة، ثم يتابع المعالج خطواته بواقعية، فيتجه جهده ـ بعد ذلك ـ لاستئصال كل خطأ تربوي نبت في المرحلة الأولى من العمر، أو عادة مرضية وقعت في فترة أخرى لاحقة من فترات النمو، ويعينه في ذلك شعور المريض بأنه الآن في مرحلة الرشد، وسن التكليف الشرعي الذي لا يجوز فيه للمسلم أن يسكت عن أخطاء ماضيه، بدعوى أنها أصبحت رواسب غير ممكن تغييرها، أو تأثيرها يعاود تسلطه على النفس مرّة بعد أخرى.

إن لمرحلة الرشد أهمية كبرى في نقل العلاج نقلة نوعية في حياة المريض، ففي مرحلة الشباب الراشد تنمو لدى الفرد قدرته العقلية ويزداد مستوى ذكائه وتتنوع قدراته العقلية الخاصة، ويتوق كذلك إلى استقلال الذات، والاعتماد على قواه الذاتية في تدبير أموره، وهو لذلك يضحي بأعز ما يملك، ليحقق استقلاليته، ويكون دائماً مستعداً للمواجهة مع كل قوة

تعوق نمو هذا الشعور لديه، وينبغي للمعالج النفسي المسلم أن يستثمر هذا الإحساس الطبيعي لنجاح نظام المعالجة، بالتغلب على تأثير رواسب النفس إزاء التعلم الجديد.

وينبغي للمعالج كذلك أن يرعى الإحساس السليم بعطف الإسلام وحنانه الدافئ الهادئ، وينمي في سيكولوجية المريض روح المسؤولية، فيهيئه لتحمل مسؤولية تغيير ذاته على أساس الإيمان بالله، بل عليه أن يستفيد ـ كامل الاستفادة ـ من استثمار قوة هذا الشعور في مواجهة الراشد لرواسب تربيته في السنين المبكرة، فإذا استطاع المربي أو الموجّه المسلم إدراك هذه المسألة بوعي، وأجهد نفسه في توظيفها لصالح المعالجة، فإن المريض لن يتردد بإذنه تعالى في اقتحام الأمور، وتحطيم كل ما يخشاه، وستنجح محاولة التعديل السلوكي كما أثبتت تجارب الإسلام مع الناس على مدار تاريخه الطويل.

وهناك عامل آخر يعين الراشد على تذويب رواسبه تدريجياً، وهو أنه لا يشعر أبداً بالخجل، أو لا يحس (بالذنب) المرضي إزاء أفعال صدرت عنه وهو في سن الطفولة، وإن كان يأباها في رجولته، لأنه غير مكتمل النضج لحظة تشكلها، وهو على قناعة تامة بأنها نبتت في مرحلة لا يملك إزاءها خياراً، ولا إرادة في دفعها، ولهذا يتعذر أن يتسلل الإحساس بالذنب ـ المرضي ـ في وجدانه، على ارتكاب أخطاء وقعت في سن اللعب (سن الطفولة)، وهو سن يغلب عليه عدم قدرة الطفل على التمييز أو قدرته على الاعتقاد بقناعة عقلية، فإعفاء الإسلام للفرد من أخطاء ما قبل التكليف يعطيه دفعاً معنوياً لتجاوزها في مرحلة الرشد خاصة وأنها لا تشكل رصيداً وجدانياً مريضاً ومعقداً.

وفي ضوء هذا الإحساس السوي لا تتفاءل الذات الراشدة فحسب في سعيها للتخلص من عادة غير مرغوبة، بل يغمرها أمل كبير بالقضاء على كافة سيئاتها الأخرى، وحينئذ تندفع الذات المسلمة الراشدة إلى أمر أكبر يستهدف إعادة البناء العبادي للذات بشمولية، وينمو هذا الإحساس بدرجة أكبر عندما تكون طريقة الرد على الرواسب المكبوتة تتم في صورة اعتراف أمام الخالق العظيم، لا يعلم عنه الناس شيئاً.

وما دام هذا الاعتراف يتمّ في وضع نفسي يختلف جذرياً في النية والهدف، والمضمون عن الوضع النفسي الذي يفترضه أساساً رجال التحليل النفسي الغربيون، فإن نتائجه مختلفة عن نتائج الاعتراف في عملية التحليل النفسي، كما أن دافعية الاعتراف ترتبط عند المريض المسلم برغبته الصادقة في تطهير نفسه امتثالاً لأوامر الله ونواهيه عز وجل.

كما أن الراشد يتجاوز ـ بفتوته، وثقته في نفسه، وتميزه الطبيعي في إثبات ذاته ـ كل أخطائه التي نبتت في طفولته، ولا يرضى أن يعامل في المجتمع كطفل يقبل الأوامر والإملاءات عليه، ويريد أن يحدّد وجهة نظره الخاصة، كما أنه أيضاً يفتش من خلال هذا الشعور على دور مقبول في المجتمع، ويريد أن يحصل على تقدير الله من خلال تأكيد قيمة الذات التي يقرّها المشرّع الإسلامي، ومن خلال تفجير طاقاته المبدعة المكنوزة في أعماق نفسه، وبالتالي تنشأ عن الراشد شجاعة جديدة لإسقاط رواسب ماضيه وتلقي التعلم الجديد.

وتمتاز شخصية الراشد عادة بالاستعداد للتضحية، وحسن الاختيار العقلي، وتنمو لديه قابليته الانقلابية، فتحركه هذه العوامل جميعاً نحو ثورة شاملة أو جزئية على أوكار (الانحراف) نفسه، وهو على هذا الأساس

مستعد لقبول الجديد حتى لو كان صعباً على نفسه، ومضنياً لها، فالرشد في مرحلة الشباب كما يقول بعض الحكماء (ربيع العمر) تتوفر فيه أفضل الفرص للتعبير عن إمكانات الذات، ومن هنا اعتبر المشرّع الإسلامي الشاب المسترشد بوعي عبادي أحد السبعة الذين يستظلون بظل الله يوم لا ظلّ إلاّ ظله عز وجل.

ولا شك أن مرحلة الشباب هي بدء مرحلة النزوع إلى تشكيل الجماعات، والانخراط الفعال في الحياة الجماعية وممارستها ضمن أطر جماعية كضرورة تربوية لا تعوض بغيرها، فيما يتمّ التدريب على الأعمال المشتركة، ومن خلالها تنمو الروح الجماعية، وتتحقق قيم المجتمع الإسلامي من الأخوة، والإيثار، والإحسان والتعاون والتواصي بالحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة البنيان الذي يشد بعضه بعضاً، وفي إطارها تضمحل الأمراض النفسية من الانزواء والعزلة والأنانية والانسحاب من المجتمع، فلا بدّ ـ والحالة هذه ـ من الاستجابة لهذا النزوع[1]، وتنمية الشعور بالمسؤولية عند الشخص الراشد.

وثمة نقطة أخرى يؤكد عليها منهج المعالجة النفسية الإسلامي، وهي أن الرواسب لا ينبغي أن تكون دائماً عائقاً أمام دوافع الخير، لذلك يوجّه نشاطه، وجهده نحو تصفية الرواسب الفاسدة، ويحرص بجدية على إزالتها مهما كانت الصعوبات، أما الرواسب الطيبة، فهي في نظر المعالج المسلم رصيد أخلاقي وقيمي وفكري يمدّه بالقدرة على مواجهة الانحراف، فالأفكار والعادات المستمدة من الإسلام بقيت رصيداً حياً في نفسية المسلم، وحصناً لها من عمليات التغريب وعمليات تغيير الهوية الثقافية للذات المسلمة.

(١) من مقدمة كتاب مجلة الأمة القطرية، مشكلات الشباب، العدد ١٠.

وقد ظلّ هذا الرصيد يقاوم بقوة عناصر فاسدة في الثقافة الغربية، وما يزال هذا الرصيد يوفّر الآن حماية داخلية للذات المسلمة، ولم تتسرب عناصر الفساد في الشخصية المسلمة إلاّ بعد أن ضعف عند بعض الأفراد أثر وحيوية هذا الرصيد من الرواسب الطيبة المتدفقة.

وكما استطاعت رواسبنا الطيبة من إعاقة الفكر الجاهلي ـ ولو مؤقتاً ـ في تحقيق هدفه الكبير المتمثل في محو أصالة الشخصية المسلمة وتذويب تميزها الحضاري، فإن الرواسب الفاسدة ـ بالمقياس الإسلامي ـ أصبحت كبرى مشكلات السلوك التي يواجهها الإسلام المعاصر، فكثير من ضغوطها المباشرة وغير المباشرة، كانت سبباً في تأخير عملية تخليص الذات المسلمة من محنتها الحضارية التي تعيشها اليوم في وسط أجواء عاصفة، وكانت سبباً في إبراز مشكلات التناقض في سلوك أفراد الأمة.

وفي اعتقادنا أن هيمنة الرواسب الفاسدة على شخصية المسلم، وعرقلة علاج مشكلاته السلوكية ليس راجعاً إلى صحة المناهج الوضعية وحذق مهارة أنصارها، وإنما يعود إلى الإمكانيات الكبيرة التي يمتلكها أصحاب هذه المناهج، وقبضة التخلف الحضاري على المسلمين، وغياب التربية الإسلامية لزمن طويل عن البيئة العائلية والاجتماعية للمسلمين.

ولما كانت طبيعة الرواسب ليست بالضرورة ضرراً على النفس، بل تكون أحياناً نافعة، وحيوية ووعاءً ثقافياً أصيلاً، ولها الأثر الفعال في إيقاف حركة زحف بعض عناصر الثقافة الأجنبية الفاسدة الغريبة عن بيئة المسلم، فإن المنهج العلاجي والتربوي في الإسلام يقف منها موقفاً طيباً، حيث يعمل منهج التربية الإسلامي على إنماء هذا الميراث الثقافي للأمة وتقويته في وجدان أفرادها، ويحاول توظيفه لدعم عملية المواجهة بين المسلم وبين

فساد العناصر الثقافية الوافدة الفاسدة، كما يجهد المعالج المسلم نفسه من أجل استئصال الزوائد الضارة التي تخالف طبيعتنا السيكولوجية وتكويننا الثقافي والأخلاقي.

وعادت أحداث التاريخ اليوم تكشف عن تهافت منطق مدرسة التحليل النفسي ـ الفرويدية ـ القائل بأن الرواسب باقية رغم محاولات الجهد التغييري المبذول، وقد أثبتت التجارب الجهادية قدرة الإنسان الفائقة على صوغ النفوس وتنظيمها مرات، فالرواسب التي انطوت عليها النفس العربية وغير العربية عند مجيء الإسلام، قد تقلصت تدريجياً بعناء المجاهدة وإخلاص إرادة المعالج والمريض معاً، وكشف أيضاً أنه لا جبرية في السلوك، ولا استحالة في تغيير الرواسب الثقافية والأخلاقية والسلوكية للناس.

فكل ما في الأمر أن التحليل الغربي للنفس خاصة الفرويدي، يقنعنا بوهم لا وجود له هو حتمية تأثير هذه الرواسب واستحالة التخلص من قبضتها، ثم تحول هذا الوهم ـ فعلاً ـ إلى أحد المرتكزات الأساسية في نظرية التحليل النفسي، وبدوره تحول إلى اتجاه في العلاج النفسي الفرويدي.

فاستقراء ظاهرة التغيير السلوكي والروحي للناس في بدء الدعوة الإسلامية وخلال عمرها المديد، يؤكد أن الجهد التغييري الإسلامي لم يستهدف كل السمات ولا جميع الأفكار والمشاعر والعادات السلوكية السائدة آنذاك، بل صبّ ـ كامل جهده ـ على الفاسد منها فقط، رغم أن النظام القيمي يمثل الإرث الحضاري للناس، فمن العبث حقاً أن يستبدل سلوك محمود في حياة أمة أو مجتمع أو جماعة، لمجرد أن منهجاً معيناً يريد تأكيد قدرته على محو الموروثات الثقافية عند البشر ـ أفراداً

وجماعات ـ خاصة وأن المعالج المسلم كان بحاجة إلى استثمار الوقت وتوفير الجهد والطاقات وكسب مودة الناس.

وفي الوقت نفسه، كان هذا المنهج لا يربت على شهوات الناس ليريح المعالج والمريض من مشقة الجهد، وعناء المواجهة مع روح المقاومة التي تبديها النفس ـ عادة ـ أثناء فترة العلاج النفسي وتعديل السلوك.

ورغم هذا كله، فإن منهج التربية الإسلامي لم يكن توفيقياً في معالجته لمشكلة الرواسب، يقبل بالترقيع هنا وهناك، بل هو ذو طبيعة انقلابية، جذرية، شاملة، تنسف من الجذور أساس السلوك العصابي، ويستأصل كل انحراف يضرّ بتماسك الذات المسلمة وتوازنها الداخلي.

وحتى السلوك الحسن الذي أقره المشرّع الإسلامي لم يقبل به كسلوك فاضل سوي مجرداً عن النية السليمة والأهداف العبادية السامية، والمحتوى المرتبط بالله عز وجل، ولهذا حاول المشرّع التربوي الإسلامي منذ بداية تطبيقه لمنهجه، أن يجعل من تغيير المحتوى الداخلي للذات قاعدته في تعديل السلوك واستبقاء الموروثات السلوكية السليمة، وبالتالي استهدف الإسلام بالتغيير كل أثر جاهلي يختفي وراء هذا السلوك الحسن أو ذاك، وتعديل بواعثه الداخلية، فأبقى مثلاً على شجاعة العربي وعزته وأنماها، لكنه مع ذلك صاغ شخصيته القتالية بروح جديدة، وبمنهج آخر يفصله عن قيم الانحراف بقدر الفواصل المعنوية بينه وبين الإسلام، وباعد بينه وبين ماضيه في الغايات، والوسائل والأساليب، وفنون القتال، واختفت في داخل الوعاء الثقافي الجديد الذي قدمه الإسلام عن عادات القتال، والكرم، وعزة النفس وغيرها، كل رواسب الجاهلية المعتادة عند العربي حين يحارب، وحين يتسخى، وحين يستعلي بنفسه.

فلم يعد العربي المسلم يتفاعل بنزعة جاهلية مع المبدأ القائل: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، وإنما أبقى «المبدأ» كما هو، وغيَّر محتواه وأضفى عليه طابعه الأخلاقي ومفهومه المعرفي الإنساني، فنزع منه الروح الجاهلية وألبسه معنى عبادياً سامياً، وهكذا امتدت نظرية العلاج والتربية في الإسلام إلى كل أثر بيئي منحرف.

وفي هذا الصدد نتذكر الحادثة التاريخية النموذجية المشهورة عندما امتلك الإمام علي عليه السلام في نفسه نزعة التشفي والانتقام حين أراد قتل عمرو بن عبد ود العامري في مبارزة بينهما بمعركة الأحزاب، وذلك بسبب أن الأخير حاول أن يستثير غضب الإمام وأن يهينه في تلك اللحظة التي تمكن منه الإمام وطرحه أرضاً، حيث بصق في وجه الإمام علي، لكنه عليه السلام تمكن من ضبط غضبه حين تركه برهة من الوقت وتنحى عنه ليسكن غضبه وتهدأ نفسه تماماً، ثم عاد إليه وقتله، وقد تصرف الإمام بهذا السلوك ـ كسابقة إنسانية ـ ليكون دافع القتل نبيلاً يراد به وجه الله تعالى لا انتقاماً ذاتياً لثورة غضب أو تشفياً شخصياً، وبذلك قدم الإمام للناس كيف يجمع المقاتل المسلم بين سمو الهدف وطهر الوسيلة... بين نبل القتال وآدابه وبين شرف المقاتل على نحو لا ينفك أحدهما عن الآخر.

وفي ضوء ذلك لا يجب أن يتخذ المسلم اليوم ـ معالجاً ومريضاً ـ موقفاً عدائياً إزاء للعناصر الفاسدة من موروثات نفوسنا، ويتطلب الأمر في هذه المواجهة تخطيطاً متقناً يفصل بين الرواسب المستحسنة، والرواسب المستقبحة، ويقدر بواقعية حجم تأثير كل نوع منها في حركة الذات المسلمة، كما على المعالج أن يفهم التفاوت في قدرات المرضى على التفاعل مع رواسبهم السيئة، فهناك من المرضى من تحكمه الرواسب بقوة، وآخر يمتلك قدراً أكبر، وعزيمة أقوى للسيطرة عليها، وهذا بلا شك يؤثر على حركة العلاج.

قال الإمام علي عليه السلام: «إذا قلت المقدرة كثرت الشهوة، وإذا كثرت المقدرة قلت الشهوة»[١].

٤ ـ مقابلة الناصح بمقالته:

تعتبر هذه المشكلة عائقاً آخر تواجه المعالج والمريض معاً، فهي لا تقل خطراً عن سابقتها على سير المعالجة النفسية، فإن استطاع المريض أن يتقبل الدور الذي أنيط به من قبل المعالج المسلم، ساعده ذلك على التغلب على المشكلات التي يعاني منها، رغم أن المريض بأشد الحاجة إلى دور معالجه النفسي.

وهذه الظاهرة أو العادة السيئة تبدو أحياناً في سلوك المريض، تتمثل في مقابلة المريض لناصحه بمثل مقالته، فإذا حاول البعض تقديم المشورة، والنصيحة لغيره من الناس عملاً بمبدأ التواصي بالحق، فإن بعض المنصوحين يقابل هذا النصح بنفس المقولة، فيرد المستنصح على الناصح بأنك أيضاً فعلت كذا وكذا، فيتحول مبدأ التواصي بالحق إلى مواجهة شخصية بين الناصح والمستنصح، ومن هنا فإن المستنصح لا يلتفت إلى عيوبه، ولا يتفقدها في نفسه من باب أولى، وإنما يشاغل قلبه بذكر عيوب الآخرين والناصحين بخاصة، وينسى أن:

«من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ»[٢].

«من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها»[٣].

وينسى كذلك أنه:

---

(١) نهج البلاغة ج٤ ص٥٤.
(٢) نهج البلاغة ج٤ ص٤٢.
(٣) تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون، ص٤٥٣.

«إذا أراد الله بعبد خيراً زهده في الدنيا، وفقهه في الدين، وبصره بعيوب نفسه»[1].

إن عدم تقبل المستنصح للنصح والمشورة من الآخرين، وبخاصة إذا كان معالجاً، يقتل كل محاولة علاجية في أول خطواتها، ويحول دون توطيد علاقة حميمة بين المعالج والمريض، فيؤدي هذا التساهل إلى تحقير الفرد لذنوبه واستصغار زلاته، ومما لا شك فيه أن التسويف بحر يغرق فيه الهلكى ويقود إلى قساوة القلب، و«ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب»[2] كما يقول الإمام الباقر عليه السلام.

فالرفض لنصح المعالج ومقابلة نصيحته بالرد عليه بأنك فعلت كذا وكذا يجعل ذنوب العبد تتراكم أكثر يوماً بعد يوم، فلا ينفع ـ بعد هذه المكابرة والاستنكاف ـ علاج ما دام المريض نفسه يغلق مدخل المعالجة ويقوض صرحها بنفسه.

يقول الإمام الباقر عليه السلام:

«إياك والتسويف، فإنه بحر يغرق فيه الهلكى، وإياك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب»[3].

كما أن الانشغال بعيوب الآخرين بدلاً من التركيز على عيوب النفس، يمثل مظهراً للإعجاب بالنفس وزهواً مريضاً بأعمالها، وهذه الحالة النفسية المرضية تمنع بالتأكيد «تقدم حركة العلاج» وبالتالي فهو بوابة الشيطان.

---

(١) ميزان الحكمة ج٣، ص٢٠٨.
(٢) ميزان الحكمة، ج٦ ص٣٩٠.
(٣) تحف العقول، ص٢٠٧.

جاء في الأحاديث:

«سيئة تسوؤك خير عند الله من حسنة تعجبك»[١].

ففي هذا الحديث ذمّ للنفس، واعتراف بعيبها، وهذه خطوة هامة يحتاجها المستنصح لضمان قبول عمله عند الله عز وجل.

ثم بعد ذلك أن لا يستعظم محاسنه: «إذا أردت أن تعظم محاسنك عن الناس، فلا تعظم في عينك» وتتبع هاتين الخطوتين بثالثة هي استقلال الخير عنده، يقول أحد النصوص:

«استقلل من نفسك كثير الطاعة إزراء على النفس وتعرضاً للعفو»[٢].

وقوله: «لا تستكثروا الخير، وإن كثر في أعينكم»[٣].

ومما لا شك فيه أن ترويض النفس على قبول آراء الآخرين الصحيحة، يؤدي إلى استجمام القلب وشعوره بالراحة وتحقيق قدر كبير من الصحة النفسية، لأن المناصحة بين المؤمنين، وتقبل المناصحة يقلل بكل تأكيد من أخطاء الذات، وينمي في النفس الشعور بالثقة، ويصب في جنباتها الطمأنينة والسكينة.

قال الإمام علي عليه السلام:

«تخلص إلى إجمام القلب بقلة الخطأ»[٤].

وفي نصّ آخر: «اطلب راحة البدن بقلة الخطأ»[٥].

---

(١) نهج البلاغة ج٤، ص١٣.
(٢) تحف العقول، ص٧٢.
(٣) ميزان الحكمة، ج٦، ص٤٨.
(٤) تحف العقول ص٢٠٧.
(٥) تحف العقول، ص٢٠٧.

ولهذا ذمّ التشريع التربوي الإسلامي إصرار النفس على عدم تقبل المشورة من الناس، وبخاصة من المعالج أو الناصح الذي يشرف على التوجيه والتربية للمستنصح، والذي يضطر إلى القيام بجهد كبير لتعديل نظرة المريض أو المستنصح ليتقبل عملية علاج أمراضه أو يعترف بأخطائه السلوكية ويكون مستعداً للتعاون مع المعالج لتعديلها.

٥ ـ الإسراف في لوم الذات:

هذه حالة نفسية عكس الحالة السابقة، فإن كان رفض المناصحة مكابرة عن اتهام النفس بالخطأ يعد سلوكاً معوقاً للمعالجة، فإن الإسراف الشديد في لوم الذات، هو الآخر سلوكاً مريضاً مبالغ فيه، وكلاهما سلوك لا يرتضيه المشرّع التربوي الإسلامي.

لقد دعا منهج المعالجة النفسية الإسلامي إلى اعتماد مبدأ النقد خاصة نقد الذات واستثماره كأسلوب تربوي للتعرف على الأخطاء التي تقع فيها شخصية المسلم اليوم، كما دعا أيضاً إلى تدريب المسلم لنفسه على تقبل نقد الآخرين عملاً بمبدأ التناصح والتواصي على الحق.

ومبدأ النقد الذاتي واضح إلى درجة كبيرة في نصوص إسلامية كثيرة سواء في القرآن الكريم أو نصوص السنة المطهرة، أو في تراث أئمة الإسلام واجتهاداتهم ورصيدهم الثقافي.

ومن ذلك على سبيل المثال قوله عز وجل:

﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[١].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾[٢].

---

(١) سورة النجم، آية ٣٢.

(٢) سورة النساء، ٤٩.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ﴾(١).

ففي الآيتين تذكير للإنسان بأن نفسه ليست دائماً فوق مستوى الشبهات، وإنها لا تكون دائماً بريئة ما لم يتعهد منهج الله عز وجل بالتربية والتوجيه، وما لم يتعهدها الفرد بتدريب عبادي هادف.

وفي السنة النبوية المطهرة نصوص أخرى كقوله ﷺ:

«رحم الله امرأً أهدى إلي عيوبي».

وفي قول آخر للإمام الصادق عليه السلام:

«أحب إخواني إليّ، من أهدى إلي عيوبي»(٢).

وقول الإمام علي عليه السلام: «من استقبل وجوه الآراء، عرف مواقع الخطأ».

وعن الإمام الكاظم روي عنه قوله: «ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم»(٣).

ويقول الإمام الحسين بن علي عليه السلام:

«من دلائل العالم انتقاده حديثه، وعلمه بحقائق فنون النظر»(٤).

والنصوص في هذا المعنى كثيرة.

إن نظام المعالجة الإسلامي للسلوك المنحرف يستهدف بمنهجه نقد

---

(١) سورة يوسف، ٥٣.
(٢) تحف العقول، ص٢٧٠.
(٣) تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون، ص٣٢٨، تحف العقول، ص٢٩٢.
(٤) تحف العقول، ص١٦٩، ١٧٨.

الذات وتخليصها ما أمكن من الإحساس المرضي بالذنب، واستصغار ذنوبها، وحثّها على متابعة العمل لتستكمل تجربتها الروحية والعقلية، ولا يكون ذلك إلاّ برصد موضوعي للعيوب ومعالجتها بواقعية، بحيث تستعيد الذات المسلمة توازنها، لأن استجمام القلب ـ وهو تعبير عن تمتع الفرد بقدر عال من الصحة النفسية ـ مرتبط بقلة الخطأ.

لكن نفراً من المجتهدين في مجاهدة النفس يحاولون بصدق تطبيق مبدأ النقد على تلك المجاهدة، فيهولون فيه ويسرفون في تأنيب ضمائرهم بقسوة يأباها نظام المعالجة الإسلامي، بل إن البعض منا يتفقد معايبه إلى درجة شديدة من الحزن، ويبالغ في تضخيم التأنيب، فيوهم نفسه بوجود عيب في ذاته لا وجود لها أساساً، وهو يفعل ذلك على ظن منه بأن ذلك هو السبيل لبناء شخصية سوية تخشى الله وتنتظم بمنهاجه القويم في الحياة.

ولا شك أن إسراف الفرد في لوم نفسه لوماً شديداً، دونما مسوغ مقبول، يحمل النفس على الوقوع في سلوك مرضي يأباه الله عز وجل للمسلم، فالمبالغة في تقريع الذات ـ بسبب وبدون سبب ـ يمهد الطريق لنمو مشاعر الذنب على نحو عصابي، ويربي في أعماق الذات إحساساً دائماً بالإثم حتى في اللحظات التي يسعى فيها المريض إلى إزالة هذا الإحساس من داخل قلبه والتغلب عليه، ومن هنا يبدأ الصراع يبسط سيطرته على الأجواء الداخلية للنفس.

صحيح أن اتهام النفس في تصرفاتها ممارسة علاجية يحتاجها المؤمن في حركة الحياة، لكن المبالغة في هذا الشأن بقسوة يؤدي إلى تبلد في انفعالات الفرد، ويعطل حيوية النفس اللوامة في تحديد مواقع الخطأ، والعمل على الحد منها، فيفقد ـ كذلك ـ خصائصها الإيجابية التي يتحرك

الفرد من خلالها نحو التوافق النفسي والتوازن الداخلي لشخصيته، وإقامة صلح بينه وبين الله من جهة وبينه وبين المجتمع من جهة أخرى.

تقول النصوص التربوية الإسلامية:

«من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله أمر دنياه، ومن كان له في نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ»[١].

وفي نصّ آخر يقول الإمام علي عليه السلام: «من أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن عمل لدينه كفاه أمر دنياه، ومن أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس»[٢].

وفي نصّ ثالث: «ومن أحسن فيما بينه وبين الله أحسن الله ما بينه وبين الناس»[٣].

٦ ـ استصغار ذنوب الذات:

كما يوجد من يسرف في تقريع النفس ويبالغ كثيراً في ذمّ الذات ولومها، كذلك يوجد منهم من يبالغ في استصغار الذنوب التي تصدر عنه والتهاون في أمرها، فيزين الشيطان في نفسه حب الإطراء، والمدح، والرضا عن النفس، والغفلة عن محاسبتها.

إن البعض قد يعترف بخطئه، لكنه على عكس الصنف السابق ينظر إلى الخطأ على أنه من «الصغائر» فلا يقدر هؤلاء التأثير الحقيقي ـ

---

(١) نهج البلاغة، ج٤ ص٢٠.
(٢) نهج البلاغة، ج٤، ص٩٩.
(٣) تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون، ص٤٤٥.

لأخطائهم ـ في النفوس مستقبلاً، وهذا بلا شك يعطل عملية تخليص النفس من أدرانها، وأوضارها، لأن التساهل بالخطأ والتهاون في أمره يقتل في ذواتنا كل إحساس طبيعي بالندم على ما ترتكبه من أعمال خاطئة، وتموت معه الرغبة في تجاوز الواقع إلى الممكن الأفضل، وحينئذ يضعف في الذات المسلمة حماس الاندفاع النفسي الذي يبديه الفرد إزاء ذنوبه، فيهمل الفرد مواجهتها ويضعف أمامها، ومن ثم تتقوى هذه الأخطاء الصغيرة بمرور الوقت ـ شيئاً فشيئاً ـ في النفس، وتكون جزءاً منها.

ومن المؤكد أن هذا الموقف السيكولوجي الخانع يؤثر ـ بصورة مرضية ـ على تكيف الذات المسلمة وغير المسلمة في آن واحد وتوافقها، لأن هذه الصغائر قد تتحول إلى كبائر تزيد من دوائر سوء التكيُّف لدى الذات.

وقد نهى المشرّع التربوي الإسلامي عن تهاون الفرد في أمر ذنوبه، صغيرها وكبيرها، أو النظر إليها بنظرة أقل من حقيقة أمرها في الواقع الذي تعيشه الذات، بل إن هذا المنهج اعتبر هذا التساهل من أشد الذنوب التي يرتكبها الإنسان المسلم، لأن الاستخفاف يجعل الذنوب تتراكم حتى تغرق ذاته في بحر الانحراف.

قال الإمام علي عليه السلام:

«أشد الذنوب ما استهان به صاحبه»[١].

وفي رواية أخرى بلفظ آخر:

«أشد الذنوب ما استخف به صاحبه»[٢].

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص١١٠.

(٢) نهج البلاغة ج٤، ص٨١، ١١٠.

وحين ينهى المشرّع التربوي الإسلامي عن الإسراف في لوم الذات أو عندما يندد بتساهلنا مع أخطائنا، فإنه يتعامل مع النفس تعاملاً واقعياً متزناً، فلا يطلب من الذات أن تفعل هذا الرأي أو ذاك إلا في حدود ما تستطيع، فاللوم الزائد يوهم الذات بوجود عيوب لا أساس لها، والاستخفاف يجعل من صغائر الأخطاء كبائر، فمن ضيّع المهم ضيّع الأهم كما جاء في النصوص، فالاعتياد على تحقير صغائرنا، يفقدنا القدرة على التمييز بين الحق والباطل، ولا يحقق منهج المعالجة بالأضداد أهدافه العبادية في تعديل السلوك.

إن من حسن التدبير أن المسلم اليوم ـ معالجاً ومريضاً ـ قادر على أن يتفقد الأخطاء، وتغيير أهمها، ثم بالانتقال من الأكثر أهمية إلى ما هو أقل أهمية، ونعتقد شخصياً أنه من الحكمة أن لا يقطع المسلم الصلة بين كبائر الأمور وصغائرها بحجة أن هذا أهم وذلك أقل أهمية لأنَّ المنهج الإسلامي يحاول منذ البدايات الأولى للعلاج أن يسير بالأخطاء ـ صغيرها وكبيرها ـ في اتجاه واحد، ولا يمانع أن يكون التركيز مركزاً على الأهم في المقام الأول، فإذا كانت الذات تعاني من أكثر من مرض، فيجب أن يوجّه جهده ـ للمرض البارز ـ مع عدم إهمال كلي للأمراض الأخرى.

ويبدو لنا أن سكوت الفرد المسلم عن أخطائه شديد الارتباط بمرض آخر قد ينمو لديه بصورة واضحة، وهو أن يشغل نفسه بعيوب الآخرين، فما دام لا يشغل نفسه بمعرفة نقائصه، فمن الممكن أن يجد لذة، ومتعة ومتنفساً لإشباع نزعة النقد لديه بالتفتيش عن عيوب غيره، إذ تأنس النفس بالكفّ عن تتبع عيوبها الخاصة وتستريح بنقد الغير، ولا يخفى أبداً مخاطر هذا النزوع السلوكي المريض وأثره على سيرة الذات.

ولهذا قيل في المرويات الشريفة الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام:

«طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»[١].

وعنه صلى الله عليه وآله: «فمن أذاع فاحشة كان كمبديها»[٢].

وقول الإمام علي عليه السلام: «طوبى لمن كان له من نفسه شغل شاغل عن الناس»[٣].

وقوله: «من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره»[٤].

«من نظر في عيوب الناس فأنكرها ثم رضيها لنفسه، فذاك الأحمق بعينه»[٥].

* * *

ثانياً: ضغوط المجتمع:

لا تنبثق دائماً معوقات المعالجة من داخل النفس فحسب، فثمة ظروف خارجية ضاغطة تواجه الذات، وهذه الظروف تنبثق من البيئة التي تعيشها الشخصية، حيث لا يترك الناس غيرهم يتحملون عبء المسؤولية الجهادية فقط، بل يكون هؤلاء الناس مصدر قلق، وضغط يوهن من عزيمة الفرد في بلوغ وتحقيق الهدف المرجو، وقد تنطلق هذه الضغوط أحياناً ـ من أفراد يكنون له حباً ومودة، لكنهم يخطئون في استخدام طريقة النصح، وأساليب الإرشاد، والتوجيه، فتثمر تلك المفارقة عن ضغوط تعطل برنامجه

(١) ميزان الحكمة، ج٧ ص١٤٠.
(٢) تحف العقول، ص٣٩.
(٣) ٢٠٠٠ كلمة، ص١٣.
(٤) نهج البلاغة ج٤، ص٨١.
(٥) نهج البلاغة ج٤، ص٨١.

العلاجي إلى حدّ ما، فيضعف وعيه، وتقل خبرته بمشكلات الحياة فهماً وبصيرة، ومن هذه الضغوط الخارجية:

- ضغط الآباء والأجداد.
- تسلط الضالين ومداهنتهم.
- قصور خطة المعالجة.

١ ـ ضغط الآباء والأجداد:

ذم القرآن الكريم بقوة تقليد الآخرين ـ آباء وغيرهم ـ بدون تعقل أو روية، وامتدح مسايرتهم إذا كانت أعمالهم تعبدية لله تعالى، غير أن بعض الآباء بسبب ثبات نفوسهم على أنماط محدّدة من السلوك الموروث ـ حسناً كان أو خطأ ـ يميلون دائماً إلى التدخل في حياة أبنائهم ـ ويمارسون ضغطاً لا مسوغ له، من أجل أن يكون أبناؤهم رهن الإشارة بالحق والباطل معاً، فبعض الآباء يريحه ـ بدون وعي منهم ـ استنساخ أبنائهم استنساخاً ضعيفاً وقد أمر الله أن يكون التطور في عجينة النمو والتكوين، قال الإمام علي عليه السلام:

«لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم»[1].

وخلال هذه المرحلة من المحنة الحضارية والعقائدية للأمة يحاول العائدون إلى الله عز وجل أن يعيشوا منهجه بروح مختلفة كل الاختلاف عما ألفوه في حياتهم العائلية، والاجتماعية، فيضطرهم التفاوت بين الرؤية العائلية للحياة، وبين رؤية المشرّع الإسلامي للأمور إلى محاولة التعديل

---

(١) تصنيف نهج البلاغة، ص٢٩٩.

السلوكي، والوجداني، وإصلاح الخلل في النفوس، وهنا يدخل الكبار من خلال ضغوط مستمرة، وقاسية أحياناً، لوقف هذا التغيير.

وما يفعله الآباء ليس صادراً عن رغبة في الانتقام من أبنائهم، وإنما يحسبون أن ما يصنعونه حسناً، أو يعتقدون أنهم يحمون صغارهم التي لم تصقل بعد نفوسهم تجارب الحياة، من زلل الفتوة وحماسها المفرط، وأحياناً يصدر ذلك التدخل من حرصهم على متاع الحياة، أو لسبب آخر قد يكون شاذاً لو استهدف الإضرار بمصلحة الأبناء.

والملحوظ أن الروح التي تختفي وراء هذه الضغوط ذات طبيعة دنيوية، فبعض الآباء ـ مثلاً ـ يمنعون بناتهن من طاعة الله في أمر زيهن، ويصدونهن عن إجراء تعديل لمفهوم العفة لديهن، إمَّا لانحراف سلوكي عند الكبار، أو لخوف عصابي من توقع مكروه يأتي من سلطة عليا تملك القدرة على القمع، ويشعر إزاءها بالضعف عن مواجهتها، وإمَّا خوفاً من فقدان امتيازات أو لسبب آخر.

فالمشرّع الإسلامي أوجب لولي الأمر توجيه الأبناء في الطريق الذي يعمر قلوبهم بذكره عز وجل، ويبارك جهود الآباء إذا استهدفوا تربية صغارهم على شريعته، ولكنه رفض كل ضغط ـ بل حرمه ـ يمارسه الكبار لسبب دنيوي يفصل بين الأبناء والمنهج الإلهي، ومن الممكن أن يثمر هذا الضغط عن سلوك عاق بحق الكبار.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه سلم:

«لعن الله والدين حملا ابنهما على عقوقهما»[١].

(١) الطفل بين الوراثة والتربية ج٢ ص٨ نقلاً عن كتاب وسائل الشيعة، للحر العاملي، ج٥ ص١١٥.

قال الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام متحدثاً عن نمطين من أنماط السلوك المرضي وهما مشكلتا تدليل الأولاد وعقوق الوالدين: «شر الآباء من دعاه البر إلى الإفراط، وشر الأبناء من دعاه التقصير إلى العقوق»[1].

٢ ـ مداهنة الضالين:

تشعر بعض النفوس في معركة التغيير والمجاهدة الروحية بالضعف فتميل أحياناً إلى مجاراة المنحرفين، ومداهنتهم خوفاً من الضغوط، خاصة وأن قسوة المنحرفين تكون ـ عادة ـ أشد وقعاً من ضغط المربين، وربما بسبب هذه المداهنة لا تسير المعالجة الإسلامية للنفس سيراً عادياً طبيعياً، لأن الذات تقع في ازدواجية وتناقض في الموقف، فهي ترغب في تغيير حالها، وتخشاه تحت وطأة ضغط المنحرفين، مما تضطر إلى المداهنة، والنفاق.

وليست المداهنة في إطارها العام سوى استجابة عصابية تتصل بأنماط أخرى من السلوك غير السوي، كالخوف من الآخرين، والخشية من قوة الضالين، والإحساس بالحقارة، والنقص، وفقدان الثقة بالذات أمامهم، ومما لا شك فيه أن المداهنة مستودع لهذه الأنماط من السلوك العصابي التي لها تأثير كبير في إثارة القلق، والتوتر، والتناقض في النمط الأساسي للشخصية، ومن هنا ندّد المشرّع الإسلامي بموقف الضالين، ونهى الناس عن مداهنتهم.

قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[2].

(١) تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص٥٣.
(٢) سورة النحل، ٢٥.

وفي نصّ قرآني آخر تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1].

وجاءت آية ثالثة تنهى ـ بوضوح تام لا لبس فيه ـ عن مداهنة الضالين الظالمين لأنفسهم والناس معاً.

قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[2].

وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[3].

إن المداهنة بلغة بسيطة أن تصبح الذات كائناً مستلباً وإمعة ضعيفة فاقدة لإرادتها، وتتحرك في الاتجاه المنحرف الذي ارتضاه الضالون لها، ويكفي لرفض المداهنة كسلوك مرضي أن تمنع الذات نفسها من التفاعل الحي مع منهج الله، وما يترتب عن المنع من نتائج اجتماعية وسيكولوجية وأخلاقية تدمر الذات الإنسانية من داخلها وتفسد ودها مع الله تعالى ومع المجتمع.

قال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[5].

ويقول الإمام علي عليه السلام:

«وعظموا أقداركم بالتغافل عن الدنيء من الأمور»[6].

---

(١) سورة العنكبوت، ١٣.
(٢) سورة النجم، ٢٩.
(٣) سورة هود، ١١٣.
(٤) سورة المائدة، ٤٨.
(٥) سورة المائدة، ١٧.
(٦) تحف العقول، ص١٦١.

وفي الحديث الشريف قوله ﷺ: «من أقر بالذل طائعاً فليس منا»[١].

وهو ذل قد يوجّه للذات من الآخرين أو تتقبله طواعية من داخلها كتقبلها تسلط الشهوة والإذعان لهيمنتها، وقد عبر أحد النصوص عن هذا المرض بقوله: «عبد الشهوة أذل من عبد الرق»[٢]، وفي كليهما مرض نفسي من النظرة الدينية الإسلامية.

إنه من الصعب جداً أن يكون الفرد قادراً على تجاوز انحرافه السلوكي هذا، ما دام عاجزاً عن تحقيق حتى الحد الأدنى من الاستقلال الذاتي والشجاعة، ومواجهة الأمور، فأمام هذا الضعف تجتر النفس أخطاء الماضي ظاهر الإثم وباطنه، وتشكل الذات في سلوكها المداهن نفاقاً، وخداعاً لله، وللجماعة الإيمانية وللمعالج النفسي المسلم ولنفسها.

وسيكولوجية الضال تقوم على أساس النزعة الأبوية للآخرين المنطوية على (ظلم) الغير، ولا يملك المداهن سوى القبول بالمذلة طائعاً، أو خانعاً لها تحت ضغط التسلط الضال الذي وجهه المنحرفون، رغم أن نفسية ـ المداهن ـ قد تكون غير معترضة على التغيير أو راغبة فيه ولكنه مغلوب على أمره، وحينئذ يكون كياناً (إمعة) فاقداً لتميزه كمسلم.

يقول الرسول ﷺ في حديثه الشريف:

«لا يكن أحدكم إمعة يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإنْ أساءوا أنْ تجتنبوا إساءتهم»[٣].

---

(١) تحف العقول، ص٤٧.
(٢) ميزان الحكمة، ج١٠، ص٣٧٩.
(٣) صفوة صحيح البخاري، عبد الجليل عيسى.

٣ ـ قصور في خطة المعالجة:

ينبغي أن تتوفر في شخصية المعالج النفسي المسلم مجموعة من الصفات والسمات الأساسية[١] لضمان نجاح المعالجة السلوكية برؤية تربوية عبادية، غير أن القصور ممكن في خطة العمل التي يعدها المعالج مهما كان حذقه في فهم الذات ومنهج العمل، فقد يقصر نظره عن اكتشاف عناصر أساسية تحتاجها المعالجة، أو يخطئ في تطبيق إحدى الأساليب الفنية، فتخفق خطة أسس ومبادئ المعالجة النفسية على الذات أو يكون تطبيقه لهذه الأسس والمبادئ غير مناسب.

وبالطبع فإن ذلك ليس ناجماً عن قصور في منهج المعالجة بقدر ما هو خطأ في فهمه من قبل المريض أو حتى المعالج نفسه، فمن أبرز الأخطاء في فهم منهج المعالجة الإسلامية للانحراف ـ مثلاً ـ التركيز على طابع التشخيص للمرض، فنجد محاولات من بعض رجال الفكر المسلمين تركز على العيوب لإنعاش المسلم اليوم من غيبوبته الطويلة، وتشغل نفسها ـ فقط ـ بتحديد علل المرض في ذاته، حتى ليشعر الفرد أن وصفة الدواء ليست موجودة في منهج التربية الإسلامية، وقد أضعف ذلك من أثره في علاج بعض النفوس.

إن محاولات الإنعاش المستمرة لبعض النفسيات المسلمة قد صرفت في كثير منها على النقد، والكشف عن الأمراض الروحية فحسب، بينما أهمل العلاج التفصيلي لهذه المشكلات، وتحديد دواء كل داء، وأصبح الأمر توقفاً عن مرحلة تحديد الداء، ولم تأخذ مرحلة تحديد الدواء حظها، كي يستكمل العلاج خطواته.

---

(١) سنبحث إن شاء تعالى هذه السمات والصفات التي ينبغي أن تتوفر في شخصية المعالج النفسي المسلم في الفصل التاسع.

كما أن الاكتفاء بتشخيص المرض الروحي دون الأمراض العقلية والفكرية مثلاً قد يؤثر على خطة المعالجة، فالإنسان وحدة متكاملة، وكل جانب منها يؤثر على جانب آخر، فقد تكون بعض الأمراض الروحية ناشئة عن عاهة أو إعاقة في البدن ـ كالجذام ـ أو التشوه الخلقي، وقد تنشأ أمراض عضوية كالقرحة، والسل الرئوي، وتصلب الشرايين وغيرها من الانفعالات الشديدة، كما أن المرض العقلي ثمرة خلل في العلاقة بين النفس والبدن أحياناً.

ونعتقد أن بعض المربين يقفون عند تشخيص المرض وينجحون في ذلك، لكنهم يعجزون عن تحديد الدواء، وهذا الخلل قصور في فهم المعالج النفسي المسلم لآلية العمل للمنهج الذي يؤكد على تشخيص المرض وتحديد وصفة الدواء.

وينبغي على المعالج أن يدرك ذلك حتى لو اضطر لتنويع وصفات العلاج، وبعد أن ينجح المربي المسلم في تحديد الداء والدواء، يتابع التجربة الجديدة في حياة الفرد، ويحاول رفع مستواه الإيماني بإضافة سمات عبادية في جميع المستويات عن طريق تكوين عادات سلوكية يرتضيها المشرّع الإسلامي.

ويبدو لنا أن وقوع المعالج المسلم في خطأ كهذا، يعود إلى سبب رئيسي هو سوء التخطيط وضعفه وقصوره، فيؤدي تبعاً لذلك إلى خلل واضح في سير المعالجة السلوكية، قد يكون هذا الفشل أصعب على الفرد من معاناته المرضية نفسها.

ومبدأ التخطيط لكل أمر، قاعدة أساسية في منهج الله، وهو ضرورة شرعية وعقلانية لبناء الذات وترشيد خطواتها، جاء في الحديث الشريف:

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

وفي قول أيضاً: «أتقن العمل فإنّ الناقد بصير».

وعن الإمام علي عليه السلام قوله: «التدبير قبل العمل يؤمنك من الندم»[١].

وعنه أيضاً: «الفكر في الأمر قبل ملابسته يؤمن الزلل»[٢].

وأيضاً يقول عليه السلام: «التدبير قبل الفعل يؤمن العثار»[٣].

وقوله عليه السلام أيضاً: «سبب التدمير سوء التدبير»[٤].

وقوله أيضاً: «من عرف الأيّام لم يغفل عن الاستعداد»[٥].

وقوله: «ما من حركة إلاّ وأنت محتاج فيها إلى معرفة»[٦].

وفي النص كذلك قوله عليه السلام: «قف عند كل أمر حتى تعرف مدخله من مخرجه قبل أن تقع فيه فتندم»[٧].

وجاء في حديث آخر: «لا تقدمّن على أمر حتى تخبره»[٨].

ويتضمن التخطيط وعياً بمنهج المعالجة وفهماً بصيراً بالنفس وبحالاتها، وأداءً متقناً لخطة العمل، وتحقيقاً سليماً ـ ما أمكن ـ للملاءمة بين متطلبات الذات وأحكام المنهج، فمن أخطاء العمل التغييري وعثراته في

(١) تحف العقول، ص٦٦ ـ ٧٠.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، ص٩٦.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، ص٧٢ رقم الحديث ١٥١٩.
(٤) تحف العقول ٦٥.
(٥) تحف العقول، ص٧٠.
(٦) تحف العقول، ص١١٩.
(٧) تحف العقول، ص١١٩.
(٨) ميزان الحكمة، ج٢، ص٢٤.

معالجة الذات محاولة الحصول على النتائج على عجل قبل نضوجها، فيحدث هذا الاستعجال حالة ندم في النفس.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«لا تعجلوا الأمر قبل بلوغه، فتندموا»[١].

فالتخطيط ضرورة أساسية لبلوغ الكمال الروحي والعقلي، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إنه بقدر وعي المريض وتقيده بمبادئ وأساليب وخطط المنهج العلاجي الإسلامي تكون معدلات الشفاء النفسي، ونرى أيضاً أن عدم الأخذ بالتخطيط لإحداث التغيير والتعديل يؤدي إلى الإخفاق، وإلى التكيف غير السوي مع برنامج المعالجة السيكولوجية بطريقة الأضداد.

هذه مجموعة متداخلة من العوائق ينتظر حدوثها أثناء فترة المعالجة، فتعرقل توثيق العلاقة بين المريض والمعالج، وعلى كل منهما أن يتعاونا معاً ـ كل حسب طاقته ـ على إنجاز برنامج المعالجة النفسية وفق الأهداف العبادية مهما كانت ضراوة الصعوبات المتوقعة من هذه المجاهدة، فالوعي بالأضداد، وإرادة الفرد، وخطة المعالج شروط هامة للعمل الجهادي ومدخل لتوفيق الله.

ومسؤولية المعالِج المسلم أكبر في تفهم هذه العوائق، لأنه المربي الخبير الذي يتمتع بالخصال الحميدة التي لا بدّ أن يتشبه المريض بها، لكن على المريض في الوقت نفسه التعاون مع معالجه والاستجابة لمتطلبات المعالجة ليضمن كلاهما نتائج إيجابية.

---

(١) تحف العقول ص٨٠.



الفصل السابع

منهج الأضداد
وحل مشكلة الصراع النفسي



الأضداد والصراع النفسي:

أشرنا من قبل إلى أهمية الاحتمال والصبر كشرط أساسي في عملية العلاج النفسي، ذلك أن إقبال المريض على تغيير اتجاهاته وتعديل أنماط سلوكه التي ألفها منذ فترة طويلة يواجه بلا شك بمقاومة داخلية شديدة من قبل نفسه، فهي.. أي إن النفس.. لا تستجيب ـ كما قلنا ـ بسهولة لتعلم جديد مضاد، وتحتاج إلى فسحة من الوقت والصبر والانتباه والمثابرة ومتابعة العمل حتى يستقر التعلم الجديد عند مستوى الإتقان المطلوب، والتخلص من ضغوط السلوك القديم المألوف.

وتحاول خلال فترة المعالجة أن تجذب صاحبها نحو عاداته القديمة التي ما زال سلطانها قوياً أو قادراً بعد على التأثير، وهي بهذا التوجه نحو السلوك المألوف تحاول إراحة نفسها من عناء المواجهة مع أنماط السلوك الجديد وعاداته.

وقد أشارت بعض المرويات الشريفة إلى أهمية الضغط النفسي للعادات المألوفة خاصة المتجذرة في أعماق الذات منذ زمن بعيد، يقول الإمام علي عليه السلام:

«ما أصعب من استعبدته الشهوات أن يكون فاضلاً»[١].

«آفة الرياضة النفسية غلبة العادة»[٢].

«أصعب السياسات نقل العادات»[٣].

«رياضة الجاهل ورد المعتاد عن عادته كالمعجز»[٤].

«إزالة الجبال أهون من إزالة قلب عن موضعه»[٥].

غير أن التدافع بين العادات القديمة والعادات الجديدة قد يحسمه الفرد لصالح عناصر الخير في ذاته، فيصب نتائجه في جدول الفضيلة بعد أن يتمكن من قهر العادة المذمومة ويحطم أسوارها، ومما لا شك فيه أن النفس البشرية تعاني في سبيل ذلك المكاره، وتحتمل ضغطاً شديداً.

ومن هنا تبدو أهمية توفر الاحتمال والتصبر كأساس لضمان تحقيق الملائمة بين حاجات الذات ومتطلبات الواقع العلاجي في ضوء نظرية تربوية إسلامية تحترم الإنسان وتكرمه، حيث ضمنت هذه النصوص نتائج إيجابية في هذه المواجهة إذا ما تمكن الفرد من الاستجابة لشرط الصبر والاحتمال. وقد وردت بهذا الشأن توصية تربوية إسلامية:

«لا يعدم الصبور الظفر وإنْ طال به الزمان»[٦].

«عوِّد نفسك الصبر على المكروه، تظفر به، وإن طال الزمان»[٧].

---

(١) شرح نهج البلاغة، ج٢٠ حكمة ٤٢.
(٢) ميزان الحكمة ج٧ ص١٢٣.
(٣) المصدر السابق، ص١٢٥.
(٤) تحف العقول، ص٣٩٢.
(٥) تحف العقول، ص٢٦٣.
(٦) تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون، ص٣٢٢ ـ ٤٥٤.
(٧) المصدر السابق، ص٥٤.

«اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين»[١].

كما أشارت نصوص إسلامية أخرى إلى الفعالية السلبية للعادات القديمة المألوفة، ودور الإرادة الإنسانية في التغلب على هذه العادات وتحطيم قبضتها على شخصية الإنسان، ووصول ذاته المنتصرة إلى أشرف «المقامات».

فالمجاهدة النفسية تعني مقاومة سلبية من النفس بسبب رواسبها المستقرة في أعماقها، ومقاومة إيجابية جاذبة من وعي الإنسان وعقله النقي، وحسم هذه المواجهة أو حالة الصراع الداخلي حسماً موفقاً بالوصول إلى نتيجة صحيحة يمتلك فيها الإنسان المؤمن نفسه وتطويعها وترويضها بالمفاهيم والقيم العبادية الإسلامية، ويستعيد بها توازنه النفسي المفقود ويرد «لذاته» اعتبارها المهدور.

لنتأمل ـ معاً ـ النصوص التالية التي تجعل من التغلب على العادات السيئة طريقاً إلى أشرف المقامات العبادية وهي طاعة الله تعالى كما ينبغي:

«بغلبة العادات الوصول إلى أشرف المقامات»[٢].

«غالبوا أنفسكم على ترك العادات، وجاهدوا أهواءكم تملكوها»[٣].

«غيروا العادات تسهل عليكم الطاعات»[٤].

«ذللوا أنفسكم بترك العادات، وقودوها إلى أفضل الطاعات، وحمّلوها أعباء المغارم، وحلُّوها بفعل المكارم، وصونوها عن دنس المآثم»[٥].

---

(١) ميزان الحكمة، ج٢، ص٣٩٤.
(٢) ميزان الحكمة، ج٧، ص١٢٣.
(٣) المصدر السابق، ص١٢٣.
(٤) المصدر السابق، ص١٢٣.
(٥) المصدر السابق، ص١٢٣.

إن الله عز وجل خلق الأضداد ـ كما يقول الشيخ النراقي ـ لحكمة بالغة، وبدونها لا تتقدم حركة الذات بالحياة، فلو كانت الغلبة والسلطنة لقهرمان العقل ظهر في مملكة النفس أحكامه، وآثاره، وانتظمت أحوالها، ولو كانت لغيره من القوى ظهر فيها آثاره، فتهلك النفس»[١].

ويوضح العلامة الشيخ النراقي طبيعة هذا التدافع بين عناصر الخير والشر، فيقول رحمه الله:

«ولا ريب في أن كل نفس في بدو فطرتها قابلة لأثر كل منهما ـ الخير والشر ـ على التساوي، وإنما يترجح أحدهما بمثابة الهوى، وملازمة الورع والتقوى، فإذا مالت النفس إلى مقتضى شهوة أو غضب وجد الشيطان مجالاً، فيدخل بالوسوسة، وإذا انصرفت إلى ذكر الله ضاق مجاله وارتحل، فيدخل الملك بالإلهام، فلا يزال التطارد بين جندَي الملائكة والشيطان في معركة النفس»[٢]. . . «إلى أن يغلب أحد الجنديين ويسخر مملكة النفس ويستوطن منها»[٣].

فالنفس تشهد في داخلها معركة دائمة بين السلوك الحسن والسلوك المستقبح، حتى يتمّ في نهاية الأمر تثبيت العادة المرغوبة، فتهدأ النفس وتعتاد على السلوك السوي بمعاييره العبادية.

إن حالة الصراع النفسي مشكلة قائمة في حياة الإنسان، لكنها قد تكون سبباً لكشف إمكانيات الذات المجاهدة وصقل تجاربها، وبالتالي فإن الصراع يعتبر جزءاً من عملية المجاهدة ذاتها، فإذا كان الصراع النفسي في

---

(١) جامع السعادات، ج١، ص٦٦.
(٢) تحف العقول، ج١ص ١٨١.
(٣) المصدر السابق، ص١٨١ ـ ١٨٢.

نظر المحلل الوضعي يمثل مواجهة بين دافعين متعارضين، فإن المجاهدة في مفهومها الإسلامي لا تتضمن فحسب هذا التدافع بين أجزاء النفس، بل تشمل كذلك قدرة الفرد على الانتصار على شهواته من خلال محدّدات إيمانية مستمرة من الكتاب والسنة.

ومن هنا يقال إن أحد الحكماء قال: بأن «النفس لا يمكن ترويضها بسلسلة من الحديد، وإنما بشعرة من الإيمان».

ومما لاشك فيه أن حسم الصراع النفسي بين الدوافع يتمّ عن طريق السيطرة على دوافع الشر، وإنماء دوافع الخير، فقد شاءت حكمة الله تعالى ورحمته أن يمدّ الإنسان بجميع الإمكانات اللازمة لحلّ هذا الصراع، واجتياز هذا الاختبار الصعب، بأن وهبه العقل ليميز به بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، كما أمده سبحانه بحرية الإرادة، والاختيار، ليستطيع أن يبت في أمر هذا الصراع، وأن يختار الطريق الذي يريده لحلّ هذا الصراع، وإن حرية إرادة الإنسان، وحريته في اختيار الطريق الذي يحل به هذا الصراع إنما يمثلان أساس مسؤوليته وحسابه»[١].

وبملاحظة بعض النصوص التربوية الإسلامية ـ قرآنية ونبوية ـ نجد أن حلّ الصراع يتمّ بتزكية النفس، وانتصار قوة التقوى على قوة الفجور كما ورد في النصوص التالية، قال تعالى:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾[٢].

وقوله: ﴿وَنَفْسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[٣].

---

(١) د. محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، ص٢٠٥.
(٢) سورة يوسف، ٥٣.
(٣) سورة الشمس، ٦ ـ ١٠.

وقوله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾[١].

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[٢].

كما أن النصوص الشريفة لأئمة أهل البيت عليهم السلام تصب في هذا المجرى.

يقول الإمام علي عليه السلام: «إن الله ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم»[٣].

غير أن حلّ مشكلة الصراع النفسي لا جدوى منه ما لم تكن مواجهته خالصاً لله وتقرباً له عز وجل، وهذا يقتضي أن تكون مواجهة حالات الصراع النفسي عملية إيجابية ذات هدف عبادي يتمّ من خلالها مجاهدة أهواء النفس وميولها وشهواتها بطريقة توافقية وصحيحة وحسم هذه المواجهة بنحو يرضي الله تعالى ويتيح للفرد الانتصار على نفسه والاستفادة من قواه الخيرة، ومن هنا أكّدت النصوص على أن أجر العمل بقدر المشقة فيه، قال الإمام علي عليه السلام:

«ثواب العمل على قدر العمل فيه»[٤].

وفي نصّ آخر: «على قدر البلاء يكون الجزاء»[٥].

---

(١) سورة الأعلى، ١٤.
(٢) سورة النازعات، ٤٠ ـ ٤١.
(٣) الوسائل، ج٢، باب جهاد النفس، كذلك ميزان الحكمة، ج١، ص٣٦٢.
(٤) كتاب ٢٠٠٠ كلمة، ص٤٢.
(٥) كتاب ٢٠٠٠ كلمة، ص٧٣.

ولما كان الصراع النفسي لا ينشأ إلاّ بسبب تعرض الفرد لإحباطات مستمرة ولمواقف تصادمية بين الآمال والطموحات، فإنه من الضروري أن نحدّد أولاً مفهومي الإحباط، والصراع، ونوضح ثانياً وجهة نظر المشرّع الإسلامي فيهما.

الإحباط والصراع النفسي:

الإحباط النفسي بمفهومه الأرضي هو إعاقة السلوك عن الوصول إلى هدفه المرجو، فعندما يبحث الكائن الحي عن الطعام لسد جوعه أو إرواء ظمئه إذا كان عطشاناً، فإن توتره النفسي سوف ينخفض وينتهي بتحقيق إشباعٍ كاملٍ أو جزئي لهذه الحاجة، غير أن مواقف الحياة لا تحقق للكائن الحي إشباعاً كاملاً في كل الأوقات، وبالتالي كثيراً ما يفشل في بلوغ هدفه، ويحرم من إشباع حاجاته أو يؤخره بشكل مضر، وهنا يشعر الكائن الحي بالقلق النفسي نتيجة هذه الإعاقة، وهذا ما يسميه علماء النفس «بالإحباط النفسي».

ومن ثم يبدأ الكائن الحي المحبط في البحث عن خيارات أو بدائل لتخفيف توتره، إما بتغيير طريقة الإشباع كتأجيل الفرد لموعد زواجه مثلاً أو بتغيير الهدف كأن يتحول من الاهتمام بالثقافة إلى الاهتمام بالمجال الرياضي، أو يتحول من تخصص معين لم يوفق في الحصول عليه إلى تخصص آخر.

وثمة سؤال في هذا الصدد: هل يوافق المشرّع الإسلامي على هذا المعنى؟

وفي هذا المجال، يمكن القول بأن الإحباط بمعناه الإسلامي ليس مجرد إعاقة لسلوك الكائن الآدمي عن بلوغ الهدف المحدّد في دنياه، لأن

العبد يتمكن أحياناً من إشباع حاجاته، والبلوغ بسلوكه إلى نهايته، ومع ذلك فإن مفهوم الإحباط النفسي ـ إسلامياً ـ ينطبق على هذه الحالة، حيث إن المعنى الإسلامي للإحباط يتجاوز هذا المفهوم القريب ولا يتضمن فقط منع تحقق الإشباع المادي للحاجات العاجلة، أو عجزه عن إتقان العمل إتقاناً صحيحاً، وإنما هو كذلك عجز المكلف المسلم عن تخليص نيته من شوائب الدنيا، كالرياء، والمفاخرة، والرغبة في الحصول على تقدير اجتماعي، وهو عجز مقرون ـ بالتأكيد ـ بإحباط الأجر.

ويكفي الفرد «إحباطاً للأجر» إعاقة سلوكه عن تحقيق الهدف العبادي الذي يرنو إليه، وهو أمر لا يلتفت إليه المشرّع أو المعالج النفسي الوضعي، وبالتالي يغطي المفهوم الإسلامي للإحباط إعاقة سلوك الفرد أمّا في دنياه أو آخرته... في جانبه المادي وفي جانبه المعنوي.

لهذا لا يركز المفهوم الإسلامي للإحباط على مسألة الإخفاق الظاهري للسلوك في بلوغ الهدف، فهناك من لا يعاق جهده ظاهرياً في إشباع حاجاته المادية، لأنه استطاع بلوغ المستوى المناسب لتحقيق هدفه، كأن نجح في تأمين إشباع حاجته من الطعام، فإن علم النفس الوضعي لا يعتبر هذا الموقف «إحباطاً» نفسياً طالما تمّ الإشباع بطريقة ما دون النظر إلى مشروعية الإشباع أو عدم مشروعيته.

أما المشرّع التربوي الإسلامي فيرى أن هذا الموقف قد لا يخلو من إحباط لأن الهدف من إتيان سلوك معين في نظام التربية العبادية ليس دنيوياً محضاً معزولاً عن التقويم الإلهي للسلوك في اليوم الآخر، إذ يعرف إحباط الجهد من عدمه من خلال ارتباطه برضا الله.

وفي ضوء هذه النظرة فإن إحباط السلوك لا مناص منه، طالما أن

دوافع السلوك لم تنطلق من أجل تحقيق هذا الرضا، فالمشرّع الإسلامي لا يرى أن تجنب الإحباط ممكن بإشباع الحاجات المادية ـ دنيوياً ـ فقط، وإنما يتطلب تفاديه بطريقة أخرى لا يريد علم النفس الوضعي أن يلتفت إليها، وهو ضرورة تخليص النية فعلاً من شوائب الدنيا ومتاعها العابر، فالإحباط في مفهومه الإسلامي ليس فقط إعاقة السلوك عن إشباع قصير وعاجل بدنيانا، وإنما لعدم تحقق الصيغة العبادية للإشباع، فإذا تمّ الإشباع المادي للحاجات، بمعزل عن هذه الصيغة أحبط «أجر» الفرد على هذا السلوك متى اقترن بنية لا علاقة لها بمرضاة الله سبحانه وتعالى، لذا يقول نصّ إسلامي إن: «تنقية العمل أشد ـ على العاملين ـ من العمل».

إذ لا يتحقق الإحباط النفسي بمجرد عجز الكائن الآدمي عن بلوغ الإشباع الدنيوي المباشر، وإنما يتمّ أيضاً بعجزه عن تخليص نفسه من الشوب، والنفاق، وتنقيتها من الرياء والأهداف الدنيوية المحضة، مما دامت نوايا الفرد خالصة لله، فإن مثوبة عمله قائمة، ومضمونة سواء تحقق الإشباع الدنيوي أو لم يتحقق.

وبهذا لا يتمّ إحباط السلوك إسلامياً بمجرد إعاقة السلوك عن بلوغ الهدف الدنيوي وهو إشباع الحاجات، وإنما كذلك بإعاقة النية عن تحقيق رضا الله عز وجل، ولهذا يحبط أجر «فلان» رغم أن سلوكه الدنيوي لم يعرف الإعاقة في إشباع الحاجات، ولا يحبط أجر «فلان» وإن لم يبلغ ما يريده دنيوياً، ما دامت نيته خالصة لله، فكما جاء في الحديث الشريف: «نية المؤمن خير من عمله»[1].

ولكي يتجنب الفرد الإحباط النفسي يجب عليه أن يقرن الإشباع

(١) جامع السعادات ج٣، ص١١٩، وكذلك ميزان الحكمة، ج١٠ص ٢٧٧.

المادي والمعنوي الذي يحصل عليه الكائن الآدمي بنية خالصة لله تعالى لا يشوبه غرض آخر، قال الرسول الأكرم في حديثه الشريف ﷺ:

«إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختمة، فتلقى بين يدي الله عز وجل فيقول: ألقوا هذه الصحيفة، فإنه لم يرد بما فيها وجهي، ثم تنادي الملائكة اكتبوا كذا، وكذا، فيقولون يا ربنا، إنه لم يعمل شيئاً من ذلك، فيقول: إنه نواه»[١].

أما الصراع النفسي فهو ثمرة مرّة للخبرات الإحباطية المتراكمة الناجمة عن الممارسة المحرمة والشعور بالاستياء، وهو يتأثر به، فكلما كان الإحباط خفيفاً كان الصراع كذلك مساوياً له في درجته، وعندما يكون عنيفاً يغدو الصراع كذلك عنيفاً في النفس، ولكن الشيء المشترك بينهما أنهما يؤديان للمرض النفسي إذا لم تستطع النفس حسمهما بطريقة توافقية سوية.

ولكن ماذا نعني بالصراع النفسي؟

إذا تعارضت بعض دوافع الإنسان بأن يجذبه مثلاً دافع إلى اتجاه معين، ويجذبه دافع آخر إلى اتجاه مضاد، أحس الإنسان بحالة من الحيرة، والتردد، والعجز عن اتخاذ قرار في أي اتجاه يسير، وتعرف هذه الحالة بالصراع النفسي[٢].

ويلاحظ هنا أنه من الصعب إشباع دافعين متعارضين في آن واحد، لتساوي قوتيهما في الجذب والتأثير على النفس، كالصراع بين رغبات الإنسان والقيود المفروضة عليه، وبين نواته والمبادئ الأخلاقية التي تحكم حياته، أو الصراع خلال فترة المجاهدة بين العادات القديمة التي اعتاد عليها

(١) منهاج النجاة، للمولى الفيض الكاشاني، ص١٣٨.
(٢) د. محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس ص٤٩.

وبين العادات الجديدة المضادة التي يسعى لتعلمها، كالرغبة في أن يكون كريماً، وحبه وتمسكه الشديد بماله، أو بين حب الفتاة للعفاف وارتداء حجابها وبين خوفها من نظرة أصدقائها الساخرات منها، فهذا النوع من الصراع يسميه علماء النفس الوضعي الغربيون صراع إقدام إحجام[١].

وقد أشار القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة إلى حالة التصارع بين دوافع النفس[٢] كما قلنا في الصفحات السابقة، لكن ما يعنينا في موضوع بحثنا هو ما أسماه المشرّع التربوي الإسلامي «بمجاهدة النفس» التي بواسطتها يتجنب الفرد المؤمن الإحباطات النفسية أو يضعف على الأقل من قوتها وفعاليتها، وبالتالي تخف الصراعات إذا تمكن من التحكم في سلوك النفس، وإذا تمكن من تربيتها بأضدادها من أنماط السلوك الإسلامي الفاضل، وذلك يساعد على نجاح الفرد ـ معالجاً ومريضاً ـ بحسم حالة الصراع حسماً موفقاً يرتضيه المشرّع التربوي الإسلامي.

كيف تواجه منهج الأضداد مشكلة الصراع النفسي؟:

مما سبق أكّدنا على ثلاثة أمور، يتصل الواحد منها بالآخر وهي:

أولاً: إن عملية التغيير النفسي، وصياغة الذات تواجه دون شك ما أطلق عليه المشرّع الإسلامي «المجاهدة النفسية».

ثانياً: إن عملية المجاهدة النفسية تتضمن عنصرين هما:

---

(١) هناك نمطان آخران لحالة الصراع النفسي أحدهما أسماه علماء النفس صراع الأقدام، ويتعين فيه اختيار الفرد أمرين كلاهما حلو كاختيار مهنتين مناسبتين يرتاح لهما الفرد ويجد فيهما متعة، والآخر عرف بصراع الأحجام، وفيه يتوجب على الفرد اختيار أمرين كلاهما صعب ومر مثل المفاضلة بين طرده من عمله أو دخوله السجن، أو يخير السارق بين ردّ الأموال المسروقة ومصادرتها بالقوة أو يحاكم محاكمة علنية تفضحه أمام الملأ.

(٢) انظر سورة الأنعام، ٧١ وكذلك سورة التوبة، ٤٥، وسورة النساء، آيات ٩٠ ـ ١٤٢ ـ ١٤٣.

١ ـ إنه لا مناص من حتمية الصراع الداخلي بين دوافع النفس وقواها المتعارضة، بين الشهوة والعقل.. فالصراع بمختلف أشكاله وأنواعه يعتبر أحد مظاهر عملية الجهاد النفسي، وهو جزء من التركيبة البشرية.

٢ ـ قد يصاحب هذا الصراع ـ ولفترة مؤقتة توتر وقلق في داخل النفس ـ قد يلحق الضرر بها إذا لم يستطع الفرد التحكم فيه، وتوجيهه في الطريق الصحيح، لكن عند الفرد المؤمن تكون حالة الصراع النفسي موقف علم، واختيار، ومسؤولية تمكنه من صقل شخصيته وتحقيق توازنها الداخلي، وهو في الوقت نفسه اختبار لا بدّ للمؤمن من اجتيازه بطابع عبادي نقي.

ثالثاً: ولما كانت المجاهدة النفسية عند المؤمن موقف علم، وتحمل مسؤولية، فإن المشرّع الإسلامي يحاول من خلال منهج الأضداد أن يجنب المؤمن الإحباطات الشديدة، وأن ينهي الصراع بضبط الشهوة، وتنظيم طرائق إشباعها، وإخضاعها لقوة العقل، ولكن السؤال:

كيف استطاع منهج الأضداد حلّ مسألة الصراع، بحيث تؤدي المجاهدة إلى انتصار العقل كقوة موضوعية على الشهوة؟

للإجابة على هذا السؤال نلفت النظر إلى ما يلي:

أولاً: يلاحظ الباحث ظهور الصراع النفسي في كل الأمراض العصابية، فهو سمة مشتركة بينها جميعاً، إذ ينشأ كل مرض نفسي من تراكم الإحباطات التي تصاحبها حالة صراع بين الدوافع، ولما كان الصراع هو السمة المشتركة لهذه الأمراض، فإن الهدف الأساسي لمنهج الأضداد هو معالجة النفس من عللها، وآفاتها، لذلك يبدأ المعالج في تركيز جهده على إنهاء الصراع وتجنب الإحباط، وإحلال السكينة والطمأنينة والسلام في حياة الفرد.

ومما لا شك فيه أن خطوات المعالج المسلم لإنهاء حالة الصراع النفسي تتم بخطوتين إحداهما وقائية والأخرى علاجية.

إنه أولاً يبدأ بتوفير الإجراءات الاحتياطية والوقائية اللازمة لتأمين إشباع حاجات الفرد وتقدير عمله وتثمين منجزاته دنيوياً وأخروياً، وثانياً عندما يتأخر الفرد المسلم عن فهم وتطبيق البرنامج الوقائي للإسلام، فإن الفرصة ما زالت قائمة بإجراء وإعداد خطوات علاجية تساعد على استعادة التوازن الداخلي للشخصية المسلمة في عالم متغير وصعب.

ثانياً: إن حلّ مشكلة الصراع النفسي يتمّ بمنهج الأضداد ـ موضوع بحثنا ـ وإن لهذا المنهج نصوص شرعية كثيرة لكننا آثرنا أن نحقق التوازن الداخلي للشخصية المسلمة عن طريق قائمتي الأضداد(١) اللتين قدمهما الإمامان الصادق، والكاظم عليهما السلام، حيث طالبت هاتان القائمتان بتخلية النفس عن السمات العصابية، وتحقيق توازن للشخصية بإحلال السمات السوية الإيجابية، أو يعمل على إبعاد الصراعات العنيفة عن النفس البشرية.

والواقع أن المفاهيم التي تضمنتها قائمتي الأضداد التي وردت عن الإمامين عليهما السلام تشتمل على رؤية معرفية إسلامية جامعة بشقي التربية الوقائية والعلاجية، فالمربي المسلم كما قلنا يبدأ أولاً بغرس السمات الإيجابية، كالإيمان والعدل والرحمة والعفة، والحلم، والصبر والإخلاص، والشكر والدعاء، والفهم والإدراك، والجهاد والصمت، والتواضع والزهد والحب والألفة والتأني وغيرها، فإن قدر المربي على تربية الشخصية على هذه السمات بلغ مرماه في تحقيق النضج للشخصية.

---

(١) انظر قائمة الأضداد التي ذكرناها في الفصل الخامس.

وحينما يخفق المربي المسلم في جهده هذا في تعميق سمة ما أو أكثر، يلجأ مرّة أخرى إلى البرنامج العلاجي لمنهج الأضداد، فيردم السمات العصابية شيئاً فشيئاً، لتأخذ مكانها في النفس سمات السلوك السوي وفق المحدّدات الإيمانية الواردة في قائمتي الأضداد عند الإمامين.

وثالثاً: إن هذه المفاهيم التي يؤكد عليها منهج الأضداد الإسلامي لا يطرحها علم النفس الوضعي، ولا يلتفت إليها أبداً، ويطرحها بعيداً عن أبحاثه، لأنه يبدأ في فهمه للنفس الإنسانية من منطلقات مادية دون النظر إلى القيم الروحية التي تمثل جانباً حيوياً من تركيبة الآدمي، والتي تضمنتها قائمتي الأضداد.

ورغم أن هذه المفاهيم قادرة على تشكيل جديد للإنسان الفاضل كما أثبتت ذلك تجربة الأديان والمذاهب الروحية جميعها، إلاّ أن مختلف مدارس علم النفس الوضعي رفضت التأكّد من فاعلية هذه المفاهيم في الحياة الإنسانية وأوصدت الباب أمامها باستثناء مدرسة القيم بزعامة ماسلو وجماعته التي حاولت مؤخراً التنبيه إلى ضرورة القيم الروحية في تربية وعلاج الشخصية.

رابعاً: تضمنت قائمتا الأضداد سمات عصابية وسوية، لكن يلاحظ كذلك أن السمات السوية منها، سمات متكاملة، إدراكية، مزاجية، أخلاقية، فكرية، فالسمات العصابية تجسد الصراع في النفس، وهذا خلاف السمات السوية التي تحقق التوازن، فكل مفهوم من المفاهيم التي تضمنتها قائمة الأضداد تعمل على تجنيب الفرد الإحباطات العنيفة، وإزالة الصراع النفسي، وسوف نرى ـ بالأمثلة ـ كيف استطاعت مفاهيم قائمتي الأضداد حلّ مشكلة الصراع النفسي عند الفرد.

خامساً: إن وعي المسلم بأضداد السلوك يعينه يقيناً على تجنّب الإحباط والصراع، غير أن وقوفه على المعوقات الرئيسية التي تعطل علاج الذات، ومحاولته تجاوز هذه المعوقات بشيء من الحكمة والفطنة، يسهم بقدر كبير في التفتيت الجذري المتدرج لمشكلة الصراع النفسي، وبخاصة أن ألفاظ قائمتي الأضداد تضم بين جانبيها معوقات المعالجة وطرقها، باعتبار أن بعض المعوقات سمات عصابية، والطرق سمات سوية كالزهد، والتوكل، والرضا، والحلم، وصون الحديث... الخ.

سادساً: تضمنت قائمتا الأضداد السابقتان (٧٥) سمة أساسية متقابلة تمثل الأصول العامة للعصاب النفسي، غير أن المشرّع التربوي الإسلامي لم يكتف بهذا التصنيف العام، إذ نجد كثيراً من النصوص الإسلامية خاصة الأحاديث ـ قد صنفت كل سمة أساسية سواء كانت عصابية أو سوية، إلى عدد من السمات الفرعية، المنتمية إليها، رغم أنه يلاحظ تداخل السمات الفرعية وانتماؤها لأكثر من سمة عامة، ولا يفسر ذلك إلاّ على أساس تعامل المشرّع الإسلامي مع الإنسان كوحدة متكاملة مكونة من سمات عقلية وبدنية وانفعالية ولغوية واجتماعية وروحية، وهي جميعاً سمات مترابطة لا تنفصل فيها سمات الإنسان البدنية عن سماته المزاجية، والإدراكية وغيرهما، ويؤثر كل منها في الآخر كما سبق القول في الفصل الثاني.

ولهذا يكون من الصعوبة بمكان على الباحث المسلم حصر هذه السمات بدقة إلاّ لشخص له دراية واسعة بالنصوص، ومع ذلك فإن المسلم العادي لديه القدرة على معرفة الكثير من السمات العامة، والفرعية المتشعبة عنها، كي يستخدمها في تحديد ما هو سوي وما هو عصابي في سلوكه وفق المحدّدات الإيمانية.

ويستهدف المشرّع الإسلامي من تصنيفه الفرعي للسمات العامة إمداد المسلم بوعي أعمق ومعرفة أوفى لهذه السمات، حتى يتمكن من فهم مسؤوليته التكليفية في الحياة، ويتمكن من تحديد دائرته العقائدية التي ينتمي لها، ويتحرك في إطارها، ونظافتها، ومحيطها.

وليس هذا التصنيف الفرعي للسمات الأساسية التي حدّدتها قوائم تصنيف السلوك إلاّ دليلاً على عظمة هذا المنهج، وتفرده، وقدرته على التمييز الدقيق بين سمات الشخص السوي، وسمات العصابي من الناحيتين النفسية والفكرية، فمن الناحية النفسية نلاحظ أن بعض السمات العصابية ـ مثلاً ـ كالشعور بالنقص، يضمّ إليه سمات أخرى لا يقرّ بها علم النفس الوضعي مثل الكفر، والنفاق، الفسق، الرياء، الذنوب، المراء، التسويف والمماطلة التعبدية.

ويلاحظ كذلك أن المفهوم الواسع للعصاب بناحيتيه النفسية والفكرية يشمل حتى الفئة التي تشتغل بعلم النفس، فبعض رجال هذا العلم عصابيون وفق المحدّدات الإيمانية[١] فهم منتمون إلى دائرة الكفر أو النفاق، وهما بكل تأكيد خطان فكريان يميزان بين السوي والعصابي من الناحية العقائدية.

ولعل اقتصار مفهوم السواء والعصاب عند العلماء على أساس محدّدات الناحية السيكولوجية، قد أسهم بشكل مباشر في فشل كثير من الجهود العلاجية، فعلم النفس يقرّ المعصية، والنفاق، والكفر، والجحود لله ونعمه، وجميعها مظاهر للعصاب الفكري الذي أكّد عليه المشرّع الإسلامي، ومما لا ريب فيه أن العصاب النفسي غير منفصل في التصور

(١) نجد بعض علماء التحليل النفساني يختلق مسوغات للشذوذ والدفاع عنه وتبرير السلوك الجنسي العصابي.

الإسلامي عن العصاب الفكري، فظاهرة «لبس الحق بالباطل» عند بعض الناس ليست عصاباً فكرياً فحسب، بل يعبر فيه هؤلاء عن شكوكهم في الله وإصرارهم على الاستمرار في طريق الكفر، بل هو كذلك تجسيد لحالة عصابية نفسية، إذ هو إعجاب المرء بنفسه، مما يجعله ينازع في الرأي بتبريره الأخطاء، وتأول العوج.

كما أن فظاظة السلوك وسوء الخلق وهو حالة عصابية نفسية أيضاً، متصلة بعصاب فكري هو الكفر بالله والجرأة على تعاليمه وقيمه ونكران تشريعاته، وكما ارتبط العصاب النفسي بالفكري، كذلك ارتبط مفهوم السواء النفسي والفكري في وحدة واحدة.

ولنقرأ ما كتبه الإمام علي عليه السلام في تصنيف آخر للسلوك السوي والعصابي:

بني الإيمان على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل والجهاد.

فالصبر على أربع شعب: على الشوق، والشفق (الخوف) والزهد والترقب. فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن الحرمات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات.

واليقين على أربع شعب: على تبصرة الفطنة وتأول الحكمة، وموعظة العبرة وسنة الأولين، فمن تبصر في الفطنة تأول الحكمة، ومن تأول الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة عرف السنة، ومن عرف السنة عاش في الأولين.

والعدل على أربع شعب: على غائص الفهم، وغمرة العلم، وزهرة

الحكم، وروضة الحلم، فمن فهم فسّر جميع العلم، ومن عرف الحكم لم يضل، ومن حلم لم يفرط أمره، وعاش في الناس حميداً.

والجهاد على أربع شعب: على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدق عند المواطن، وشنآن الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شدّ ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف الكافرين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه، ومن شنأ الفاسقين غضب لله، ومن غضب لله غضب الله له، فذلك الإيمان ودعائمه وشعبه.

والكفر على أربع دعائم: على الفسوق والغلو والشك والشبهة.

والفسق على أربع شعب: الجفاء، والعمى، والغفلة، والعتو.

والغلو على أربع شعب: التعمق والتنازع والزيغ والشقاق.

والشك على أربع شعب: المرية والهول، والتردد، والاستسلام.

والشبهة على أربع شعب: إعجاب بالزينة وتسويل النفس وتأويل العوج، ولبس الحق بالباطل.

ثم صنف الإمام علي عليه السلام هذه الشعب إلى سمات أخرى متفرعة عنها.

ثم قال الإمام علي عليه السلام مصنفاً للعصاب النفسي والفكري ـ النفاق ـ فقال:

النفاق على أربع دعائم: على الهوى، والهوينا، والحفيظة، والطمع.

فالهوى على أربع دعائم: على البغي والعدوان، والشهوة والطغيان.

والهوينا على أربع شعب: على الغيرة، والأمل، والهيبة، والمماطلة.

والحفيظة على أربع شعب: على الكبر، والفخر، والحمية، والعصبية.

والطمع على أربع شعب: على الفرح والمرح واللجاجة والتكبر.

وصنف الإمام كذلك هذه الشعب إلى سمات أخرى متفرعة عنها[١].

أما النبي ﷺ فقد وضع قائمة مطولة لتصنيف أنماط السلوك العصابي والسوي، نقتبس منه بعض التصنيفات[٢]، قال ﷺ رداً على سؤال وجهه إليه أحد الرهبان، فآمن به وصدقه:

تشعب من العقل الحلم، ومن الحلم العلم، ومن العلم الرشد، ومن الرشد العفاف، ومن العفاف الصيانة، ومن الصيانة الحياء، ومن الحياء الرزانة، ومن الرزانة المداومة على الخير، ومن المداومة على الخير كراهية الشر، ومن كراهية الشر طاعة الناصح، فهذه عشرة أصناف من أنواع الخير، ولكل واحد من هذه العشرة الأصناف عشرة أنواع، ثم بدأ يصنف كل سمة أساسية إلى سماتها الفرعية، فمثلاً تشعب من الحياء: اللين والرأفة والمراقبة لله في السر والعلن، والسلامة، واجتناب الشر، والبشاشة والسماحة، والظفر، وحسن الثناء على المرء في الناس.

وكذلك في تصنيفه للسمات الأساسية الأخرى.

ثم بدأ ﷺ يحدّد للراهب سمات المؤمن، والصابر، والتائب، والشاكر، والخاشع، والصالح، والناصح، والمؤمن، والمخلص، والزاهد، والبار، والتقي. وبعدما انتهى من تصنيفه للسمات السوية تمثل قوله عن

(١) انظر هذا التصنيف للسلوك السوي والسلوك العصابي في نصّ مطول إلى حدّ ما في كتاب (تحف العقول)، ص١١٥ ـ ١١٧.
(٢) تحف العقول، ص١٩ ـ ٢٤.

علامة الصالح: يصغي قلبه ويصلح عمله، ويصلح كسبه، ويصلح أموره كلها، وهكذا اتبع طريقته في تصنيف السلوك عن العصابيين، كالمتكلف، والظالم، والمرائي، والمنافق، والحاسد، والمسرف، والغافل، والكسلان، والكذاب، والفاسق، والخائن، إذ شعب النبي ﷺ لكل عصابي من الفئات المذكورة مجموعة من السمات مثل تصنيفه لسمات المرائي، فيقول الرسول الكريم ﷺ:

«وأما علامة المرائي فأربع: يحرص في العمل لله إذا كان عنده أحد، ويكسل إذا كان وحده، ويحرص في كل أمره على المحمدة، ويحسن سمته بجهده» وقوله ﷺ:

«وأما علامة الظالم فأربع: يظلم من فوقه بالمعصية، ويملك من دونه بالغلبة، ويبغض الحق ويظهر الظلم».

وثمة ملاحظة هامة في التصنيف الفرعي، وهي أن سمات الشخص السوي المذكورة في القوائم الآنفة الذكر، تتداخل فيما بينها، فسمات المخلص كسمات الصالح، والخاشع، وهذا يؤكد على وحدة العناصر النفسية والفكرية لتركيبة المؤمن، وكذلك الحال إذا نظرنا إلى تداخل سمات العصابي أدركنا تفسخ شخصيته وانحلالها عقائدياً، ووجدانياً، وسلوكياً، فسمات المرائي شبيهة ببعض سمات المنافق، وبعض سمات الحاسد مماثلة لبعض سمات الفاسق، فمثلاً من سمات الحاسد «الغيبة» وهي مظهر لسمة العدوانية التي انطبع بها سلوك الفاسق، والمرائي.

وهكذا نجد أن التصنيف الإسلامي للسلوك يكشف عن أنماط وحالات السواء التي تجسد الشخصية المؤمنة السوية، ويكشف كذلك عن حالات المرض في شخصية العصابي وسماته الفكرية والنفسية والسلوكية.

ونعود الآن إلى قائمتي الأضداد نتأمل فيهما، ونختار منها سمات تحقق للفرد توازناً داخلياً، لأنها تجنبه الإحباط في إشباع حاجاته وتأمين متطلباته المعنوية والمادية، وهذا بدوره يمنع أساساً نشوء صراع بين الدوافع في النفس، وهذه السمات السوية يتمتع بها بكل تأكيد الشخص المؤمن.

كما أننا سنختار في مقابل ذلك السمات العصابية المضادة للسلوك الإيماني، وهي عصابية أو مرضية بمقاييس العلاج النفسي الوضعي، وبمعايير المشرّع الإسلامي معاً، فهذه السمات أمراض سلوكية في الشخصية الإنسانية.

ولإثبات وجهة نظرنا، سنحاول إن شاء الله عز وجل أن نبين ـ بالأمثلة ـ أثر اللفظين المتضادين في الحياة النفسية للفرد، وسيكون حديثنا عنهما بطريقة التقابل، فعندما نتحدث عن سمة ما من قائمة الأضداد يتداخل معه الحديث حول السمة المضادة له، فمثلاً نتحدث عن الإخلاص وضده النفاق، وعن الصفح وضده الانتقام، والصبر وضده الجزع، وهكذا يجري الحديث عن اللفظين المتضادين في سياق واحد، لنعرف أثر كل منهما في السلوك، فالسمات العصابية تنشأ الصراع في النفس وتقلق مضجعها، والسمات السوية بالمعيار الإسلامي التي تحقق ـ للفرد ـ توازناً، وتكاملاً، وتوافقاً لشخصيته.

ولأن عدد السمات في القائمتين يبلغ (٧٥) سمة سوية يقابلها عدد مماثل من السمات العصابية، فإنه من الصعب على الباحث أن يتناول أثر هذه السمات جميعها إلاّ في دراسة مستقلة، مستفيضة، ولهذا السبب آثرنا ـ كمثال فقط ـ شرح نماذج من السمات المتقابلة في قائمتي الأضداد المذكورتين لمعرفة الأثر النفسي لكل سمة وللسمة المقابلة لها.

ونأمل أن يجد القارئ الكريم توضيحاً للسمات التي اخترناها والسمات المقابلة لها من القائمتين، وهي عشر سمات آثرنا أن تكون سمات تنتمي جميعاً إلى المكون الروحي والأخلاقي للذات الإنسانية، بحيث تكون هذه السمات نموذجاً لأحد مكونات التركيبة البشرية الذي تغفله أدبيات التربية الحديثة عن عمد وإصرار مسبق، وإذا اهتم بعض علماء النفس السلوكيين - كما فعل عالم النفس الأمريكي كاتل - بهذه السمات وتصنيفها فإن اهتمامه بها كان مبعثه عنايته بالسمات الوجدانية التي يعترف بها هؤلاء العلماء.

وعرضنا في قبالها عشر سمات مضادة لها تنتمي للمكون الروحي والأخلاقي ذاته، مع أنه تتنوع في القائمتين المذكورتين سمات مختلفة للشخصية الإنسانية من إدراكية ومعرفية واجتماعية وجسمية وانفعالية ولغوية، بيد أن بعض التصنيفات الوضعية لبعض علماء النفس الغربيين تقدم محاولات متطرفة لفهم هذه المكونات عدا المكون الروحي والأخلاقي، إذ أهملته انسجاماً مع البيئة الثقافية الغربية التي تعادي المكون الروحي والأخلاقي وتتجاهل وجوده في التركيبة البشرية، وإن حاول اتجاه قيمي وأخلاقي جديد ظهر مؤخراً في وسط أوروبا التأكيد على قيمة الدين وأهمية العنصر الروحي والوازع الأخلاقي في توجيه السلوك الإنساني وضبطه.

ويمكن وضع هذه السمات المختارة التالية والسمات المقابلة لها - كمظاهر للمكوّن الروحي والأخلاقي - في جدول كما يلي:

رقم السمة	السمات الإيمانية السوية	السمات العصابية المقابلة أو المضادة لها
١	العفة	التهتك
٢	الصبر	الجزع
٣	الإخلاص	الشوب
٤	الرضا	السخط
٥	التوكل	الحرص
٦	الزهد	الرغبة
٧	الصفح	الانتقام
٨	الجهاد	النكول
٩	السخاء	البخل
١٠	الدعاء	الاستنكاف

أولاً: العفة والتهتك:

العفة في طابعها الأخلاقي والعبادي هي طريق الاعتدال والوسطية في الاستجابة للشهوات بشكل سوي، والتوازن في إشباع الحاجات كالمأكل، والشراب، والجنس، والبنوة، والجاه، والتملك، وسائر الحاجات المعنوية الأخرى، لأنها ضبط داخلي لسلوك الذات وتنظيم عقلي صحيح لإشباع حاجاتها، ولذلك فالعفة هي وسط بين طرفين.. طرفي الإفراط والتفريط كالشره وخمود الشهوة مثلاً، وبذلك تجسد العفة ـ في شكليها الداخلي والخارجي ـ حكمة العقل وصحة التفكير وسلامة التفكير، فإنه كما قال الإمام علي عليه السلام:

«لا ترى الجاهل إلاّ مفرطاً أو مفرطاً»[1].

يقول العلامة الشيخ النراقي عن مفهوم العفة بأنها:

(١) نهج البلاغة ج٤ ص١٥.

«انقياد قوة الشهوة للعقل في الإقدام على ما يأمرها به من المأكل، والمنكح كمّاً وكيفاً، والاجتناب عما ينهاها عنه، وهو الاعتدال الممدوح عقلاً وشرعاً، وطرفاه من الإفراط والتفريط مذمومان»(١).

وأكّدت النصوص الشرعية على أهمية العفاف في توازن الشخصية مثل قوله تعالى:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾(٢).. تشير إلى عفة الفرد في ضبط إشباع حاجته للطعام والشراب.

وقوله عز وجل في قرآنه المجيد: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾(٣).. تشير إلى العفة الجنسية.

وقوله أيضاً في كتابه المجيد: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾(٤).

وقال الإمام علي عليه السلام: «أفضل العبادة العفاف»(٥).

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «ما من عبادة أفضل من عفة بطن وفرج»(٦).. ويشير النص إلى عفة الفرد في ثلاث حاجات بيولوجية أساسية هي تنظيم دافع الجوع والحاجة للشراب والضبط والسيطرة على الدافع الجنسي.

إن المشرّع التربوي الإسلامي يوازن بين دوافع الإنسان، ويعادل بينها في طريقة إشباعها، فلا هو ينكر الإشباع أصلاً، ولا هو يسمح بالإشباع

(١) جامع السعادات، ج٢، ص١٦.
(٢) سورة الأعراف، ٣٠.
(٣) سورة البقرة، ٢٢٣.
(٤) سورة البقرة، ١٨٧.
(٥) جامع السعادات، ج٢ص ١٦.
(٦) جامع السعادات ج٢، ص١٢.

الطليق، غير المقيد بضوابط أخلاقية، لقد اعتبر هذه الحاجات «متاعاً للحياة الدنيا» كما صرّحت بذلك الآية رقم (١٤) من سورة آل عمران:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

ويطالب المشرّع الإسلامي بتأجيل الإشباع الجنسي مثلاً، لا بإنكاره أصلاً، حينما لا يستطيع الفرد لسبب ما تحقيق الإشباع المناسب لبعض حاجاته الملحة، وصرّحت بذلك الآية القرآنية الكريمة:

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[1].

ولضبط النفس في هذا الصدد ينهى عن إبداء الزينة، ويأمر بستر الجسد، وغضّ النظر، وهي أهم المثيرات الجنسية، ويحدّد المشرّع آداباً أخرى لتنظيم العلاقة الجنسية، ولتربية المسلم على العفة في الإشباع لهذا الدافع أو غيره.

ففي مثل هذا التوازن بين إشباع الشهوة بقدر الحاجة، وقدرة الفرد على التحكم فيها، لا ينشأ أصلاً صراع في النفس، لأن الصراع لا ينشأ إلاّ عن إنكار الرغبة أصلاً، ورغبة الفرد في الاستجابة لها، أو بين رغبة الأفراد في الإشباع، والمواقف التحريمية المقيدة التي تفرضها السلطة الاجتماعية وقيمها المتزمتة، فالعفيف ليس محروماً من الإشباع، وليس عبداً لشهوته، فهو ينتقي الإشباع السوي بقدر ما يحتاجه، وهو في الوقت نفسه قادر على كفّ الزوائد الضارة للشهوة.

(١) سورة النور، ٣٣.

ومن هنا يختفي التوتر النفسي نتيجة عدم وجود حرمان، ولا يهدده قلق بسبب عدم وجود ضغوط من التحريمات الأخلاقية للمجتمع، وفي الوقت نفسه مسموح له بتأجيل الإشباع حتى الوقت المناسب أو اللحظة المطلوبة، جاء في الحديث الشريف لرسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أنه قال:

«طوبى لمن أجّل شهوة حاضرة لموعود لم يره»[١].

لكن الأمر غير ذلك في حالة «التهتك» أو سعي الفرد إلى ممارسة الإشباع الزائد عن الحاجة حتى لو اخترق قوانين المجتمع وتعاليم السماء وحكمة العقل، فلا المتهتك قادر على تأجيل الإشباع، ولا هو مقتنع داخلياً بفكرة التأجيل، فالحياة عنده «لحظة حاضرة» يجب اغتنامها قدر المستطاع، ولا الحياة نفسها تسمح له دائماً بالإشباع الطليق الذي لا يقيده قيد، وبالتالي ينشأ الصراع في نفسه بين رغبات الذات المنفلتة وقيود الواقع ومتطلباته التنظيمية.

إن شهوات النفس تضغط عليه بقوة وبإلحاح مستمر للحصول على إشباع لها بأية صيغة سواء كانت مشروعة أو بطريقة غير مشروعة، لكن ضوابط الدين والأخلاق وقوانين المجتمع وتحريماته تمنع هذا الإشباع، وحينئذ لا يجد «المتهتك» أمامه سوى القلق والإحباط والجزع الدائم، والشعور بالاستياء الناجم عن ممارسة الفعل المحرم وما يترتب عليه من مشاعر الاستياء والإحساس بالإثم.

وقد شبَّه الإمام الغزالي ضغط شهوة الجنس عند الإنسان المتهتك

(١) تحف العقول، ص٤٠.

المنفلت أخلاقياً بأنه العامل الظالم الذي لو أطلقه السلطان، ولم يمنعه من ظلمه أخذ أموال الرعية على التدريج بأسرها، وابتلاهم بالفقر والفاقة أهلكهم الجوع، وعدم تمكنهم من تحصيل القوت[١]، كذلك هذه القوة المفرطة في الإشباع، تستفرغ طاقة الإنسان كلها في مجال يميت ـ بكثرة الطروقة أو كثرة ممارسة الفعل الجنسي ـ القلب، ويشغل العقل عن التفكر النقي في عظمة الله عز وجل، ويجعله «حيواناً» هابط الروح، والتفكير، بعيداً عن وظيفته العبادية.

ثانياً: الصبر والجزع:

يتعرض الأفراد لابتلاءات ومواقف ممتحنة كثيرة، كموت عزيز أو خسارة مالية أو فقدان مركز اجتماعي، لكن هذه المواقف تتفاوت شدة، فيتبرم البعض ويضجر، ويعاني خلال هذه المواقف من حالة صراع بين رغبته في الإبقاء على العزيز، أو استعادة مركزه الاجتماعي المفقود، وبين عدم قدرته على استعادة المفقود، فاستعادة «العزيز» غير ممكنة أبداً، واسترجاع المال، والمركز الاجتماعي يحتاج كذلك لصبر غير متوفر حينذاك عند الفرد، وبالتالي ينشأ صراع في النفس نتيجة هذا الجزع، فلا المفقود العزيز عاد إلى «الحياة» ولا هو تخلى ـ بهذا الجزع ـ عما فقده، فيقتل نفسه حسرة وألماً، وتبقى نفسه مقراً لتعارض دافعين أحدهما رغبته الشديدة في استعادة ما فقده، والآخر فشله في الحصول على ما يبتغيه.

حقاً كما قال الإمام علي عليه السلام: «من لم ينجه الصبر أهلكه الجزع»[٢].

---

(١) جامع السعادات ج٢، ص١٠.
(٢) نهج البلاغة ج٤ ص٤٣.

إن الشخص الجَزِع لا يتعامل مع نفسه كعابر سبيل في هذه الدنيا، لذلك ينافس أهلها في عزها وقد لا يستطيع أن ينجح في هذه المنافسة، وفي الوقت نفسه يعجز عن أن يحرر نفسه من جزع «ذلها»، لذلك أبقى كيانه في عصابية الصراع النفسي، لا لأنه لم يتمكن من تجنب حالة الصراع في عمق الذات، بل لأنه لم يوفق في حسم صراعه الداخلي حسماً سوياً وإيجابياً من النظرة الإيمانية.

أما «الصبر» فتأثيره في النفس مضاد تماماً لحالة الجزع، فهو ثبات النفس عاطفياً، وعدم اضطرابها في الشدائد، إذ تستوي عند الصبور مختلف حالات المواقف النفسية، وينظر إلى تقدير الله للأمور بعين الرضا، فلا يتبرم، ولا تضجر نفسه، ولا يلهث وراء إشباع عاجل لحاجات يعلم بأن الله عز وجل هو مصدر تأمينها للناس جميعها، فهو الرزاق، وهو وحده ـ عز وجل ـ الذي يعوّض الصابرين، ويستبدل إشباعهم العاجل بآخر أسمى منه في دنياهم، وهو مطمئن إلى تأجيل إشباعه، وأجره في عالم الآخرة.

فإذا فقد الإنسان الصبور «عزيزاً» احتسبه عند الله، وإن ضاع منه مال أو فقد داراً أو جاهاً فما عند الله خير وأبقى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

وفي هذه المواقف المعبرة عن الثبات العاطفي في شخصية المؤمن تختفي الأجواء المرضية المعقدة، ولا تنشأ حالة صراع نفسي صعبة بين رغباته ودوافعه المتعارضة، فتعيش نفسه في ظلال الرحمة الإلهية، ولعل هذه السكينة ما أشارت إليها الآية الكريمة:

---

(١) سورة الزمر، ١٠.

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾[1].

إن الذي يجعل موقف الصابر سكينة وطمأنينة وتوافقاً أنه لا يرى في داخل الفرد تعارضاً بين إرادته وبين إرادة الله، وهذا عكس ما يشعر به الجزوع الذي يرى فعل الله مخالفاً لهواه، ويشعر بأن المجتمع يتهدده بالخطر، فكما قال الإمام عليه السلام:

«إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور»[2].

وقوله عليه السلام أيضاً: «اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين»[3].

وأخيراً ثمة شبهة ضد فكرة الصبر وهي أنّ الثبات في الشدائد وتحمل المكاره في نظر البعض من الناس موقف سلبي في شخصية المؤمن، الذي يرى أنَّ الدين لا يمنعه من المثابرة، ولا يعوقه عن الجهد المنظم لصنع الأحداث التي تحقق له أهداف الوظيفة العبادية المكلف بأدائها، فالثبات العاطفي أو سمة الصبر شرط ضروري لتحقيق هذه الأهداف ونمو الشخصية ونضجها بمعاييرها العبادية.

ثالثاً: الإخلاص والشوب:

ولكليهما تأثير في توازن النفس أو اضطرابها، فالمرائي يبحث عن طلب المنزلة الرفيعة لنفسه أو يسعى للحصول على تقدير اجتماعي ـ زائف ـ

---

(١) سورة البقرة، ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٢) منهاج النجاة، ص١٢٤.

(٣) ميزان الحكمة، ج٢ص ٣٩٤.

لأعماله التي أنجزها، فهو إذن يحب أن يمدحه الآخرون تقديراً، ويعشق التباهي، ويشعر ـ بصورة مرضية ـ بالزهو الداخلي بذاته عن طريق إظهار خصال طيبة أمام غيره لتحسين صورة ذاته أمامهم، ويكسل عن التمسك بهذه الخصال الحميدة إذا كان وحده أو مختلياً بنفسه.

ولقد سبق أن أوردنا الحديث الشريف الذي يحدّد لنا علامات المرائي، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه:

«وأمّا علامة المرائي فأربع: يحرص في العمل لله إذا كان عنده أحد، ويكسل إذا كان وحده، ويحرص في كل أمره على المحمدة، ويحسن سمته بجهده»[١].

لكن الرياء إذا أخضعه المعالج النفسي الإسلامي للتشخيص نجده يمثل حالة عصابية تسبب لصاحبها القلق، والتوتر، والانفعال المرضي الشديد، وذلك عندما يحبط سلوكه في الوصول إلى الهدف المطلوب، وهو الحصول على التقدير الاجتماعي الزائف الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، أو يتلذذ بعشق عمله، فيطلب من أجله مكافأة من الآخرين.

لكن المجتمع قد يحرمه من لذة الاستمتاع «بزهوه» الداخلي، بل إنه قد يسفّه ما أنجزه ولا يعيره انتباهاً، وحينئذ ينتاب المرائي القلق، ويعتريه صراع في نفسه، بين حاجته إلى التقدير الاجتماعي، ـ وهو مظهر يخلع فيه المجتمع حبه له ـ وبين الموقف الاجتماعي الذي لم يحقق له إشباعاً لحاجاته، بل سفه إنجازاته، فأصابه بإحباط شديد، فيدخل في صراع نفسي قد ينتهي بتكوين حالة مرضية في شخصية المرائي.

---

(١) تحف العقول، ص٢٣.

وربما تشتد حالة الصراع النفسي سوءاً وعنفاً عندما تتحول رغبة المرائي في تبوأ مكانة اجتماعية مرموقة إلى كره مقيت لشخصيته من قبل الأفراد الذين أراد أن يخلعوا عليه حبهم، ولا نستبعد أبداً أن تبدأ النفس المرائية في البحث عن انتقام ضد من يحرمها الحب، والتقدير، والمكانة الاجتماعية اللائقة، لأن تصرفاته العصابية تؤجج الكره لا الحب، وتزرع الشعور بالفوقية لدى المرائي فيبادله الناس كرهاً مقيتاً بصورة علنية أو سرية.

فالمرائي ـ مثلاً ـ قد يكتب كتاباً يحسبه في نظريته الخاصة عملاً قيِّماً، وينتظر أن يقدره المجتمع، فتكتب عنه أجهزة الإعلام، ويتحدث عنه الجميع في أحاديثهم الخاصة، لكن كل شيء من هذا الوهم لم يحصل، فلم يقدر الكتاب بالنظرة التي تشبع زهوه، ولا أشبعت رغبته في حاجته إلى التقدير الاجتماعي، فيداهمه القلق والإحباط، والصراع بين رغبته في البحث عن حب الآخرين له، وبين توهمه بأن المجتمع حرمه من هذا الحب، وهذا التقدير، وبالتالي قد يتصور بأن المجتمع مصدر إحباط لا مصدر حماية وأمن وتقدير.

وتبلغ قمة الاضطراب النفسي للمرائي خاصة إذا كان مسلماً، بمكاشفته المباشرة بأن شوائب الرياء التي يخلطها بعمله، مبطلة لأجره، ومحبطة لمثوبة الله عز وجل، فمن الممكن أن يصارحه الناس بذلك، أو قد يواجه بنفسه النصوص الشريفة التي تذم الرياء كسمة عصابية، فعلم المرائي بمصير عمله، وإحباط أجره عنده تعالى يمثل في واقع الأمر ذروة القلق، لأن إعاقة السلوك عنده لم تقف عند حدّ عالمه الدنيوي القصير الغالي المتشبث به، بل يشعر بإبطال أجره وإحباطه في العالم الآخر، فلا المجتمع حقق له إشباعاً في التقدير، ولا اطمأن على تقدير الله تعالى لعمله.

ومن المؤكد أن عودة التوازن الداخلي ـ للمرائي ـ لا تتم بغير معالجة الرياء، وتطهير قلبه بالإخلاص من الشوائب، ولكن كيف يحقق الإخلاص كسمة إيمانية سوية هذا التوافق النفسي والعقلي في الشخصية الإنسانية؟

يوجّه المسلم المخلص لدينه جل أعماله لله عز وجل، ولا يشرك بعبادة ربه تعالى أحداً، فهو لا ينجز أعماله من خلال الإحساس بالإعجاب كما يفعل المرائي، وإنما بوحي الشعور بالتقصير في إنجاز كل عمل يؤديه لله واتهام النفس في ظنونها، وأوهامها، وهذه المفارقة الكبيرة تجعل المرائي قلقاً إذا أحبطت رغبته في طلب التقدير، لتصوره بكمال عمله، وتجعل المسلم الملتزم آمناً، مطمئناً بأن التقدير الإلهي لعمله واقع لا مناص، وأن المثوبة مكتوبة له لا ريب، طالما أن بذل جهده في الإخلاص له، فالعزيز جلت قدرته وعد بضمان أجر المحسنين:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١).

وقوله ﷺ: «اخلص العمل يجزك منه القليل»(٢).

وهذا قمة الاطمئنان النفسي بضمان تقدير العمل، حتى القليل منه، فالمخلص لا يعتريه ريب بقبول عمله ولا يعرف الإحباط، والتوتر، لتأكّده من التقدير الإلهي الذي لا يعجزه شيء، ولإيمانه بعدالة السماء.

والمفارقة الأخرى في سيكولوجية المخلص أنه يقدر نفسه إزاء ربه تقديراً حقيقياً، فالله عز وجل يعلم ظاهر الإثم وباطنه عند الإنسان، ويعلم إخلاص النية وشوبها، لهذا تستوي شخصية المؤمن سراً وعلناً عن طريق استشعاره المراقبة الإلهية، وباستواء السر والعلن تنمحي الازدواجية، وتغلق

---

(١) سورة التوبة، ١٢٠.

(٢) جامع السعادات ج٢، ص٤١٦.

منافذ القلق في النفس بطاعة الله، فالمؤمن المخلص يدرك ـ كما جاء في حديث شريف ـ أن:

«من كان ظاهره أرجح من باطنه خفّ ميزانه»[1].

فاستواء الذات سرها وعلنها، لا يسمح للإحساس المرضي بالذنب أن يتسرب إلى نفسية المخلص لله المستسلم له استسلاماً كاملاً، لأنه لا يتكاسل عن إنجاز العمل العبادي أولاً، ولا يحاول ـ ثانياً ـ أن يخلط عملاً صالحاً بآخر سيئ، فيأكله الإحساس باللوم على تقاعسه، ويقلق مضجعه تأنيب الضمير، ولا يشعر ـ ثالثاً ـ بأن مصيره الأخروي مهدد، لاطمئنانه إلى عدالة الله سبحانه.

إن المخلص باستواء ظاهر ذاته وباطنها، يتفيأ ظلال الرحمة، والاطمئنان القلبي بعدالة تقدير العمل الذي أنجزه، فأجر العمل كما صرّحت النصوص الشريفة على قدر المشقة فيه، وهذه المشقة تشتمل بالتأكيد على الأداء، وتصفية العمل التي هي أشد على العاملين من القيام بالعمل نفسه كما في الرواية الشريفة.

إذن الفارق كبير بين سيكولوجية المؤمن المخلص لربه وبين سيكولوجية المرائي الذي يسكن فيها رغبة مريضة في التظاهر بالصلاح، ويمارس المن العلني ويشعر الناس ـ دائماً ـ بتفضله عليهم فيأكل إحسانه شعر بذلك أو لم يشعر.

رابعاً: الرضا والسخط:

السخط ـ كموقف نفسي ـ حالة انفعالية أو عقلية يحتج فيه الفرد على

---

(١) تحف العقول، ص٢١٤.

ما يصدر عن الله والناس من تقدير للأمور، ويشعر بالضيق والتبرم والإحباط الشديد والاستياء من مقدرات المسخوط عليه وأفعاله، ومن هنا فإن نفسية الساخط عرضة للتناقضات الداخلية والصراعات بين دوافعه، بين ما يرغب في تحقيقه، وما يتطلع إليه، وبين ما هو موجود في الحياة والواقع العملي.

وينعكس هذا الإحساس المرضي إلى نزعات عدوانية مدمرة، وموجّهة نحو المجتمع، ومؤسساته، كالتخريب، والإخلال بالأمن، وإحداث الأضرار بالمؤسسات العامة والخاصة.

ولعل ما عنته الآية القرآنية الشريفة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[١] هو قلق النفس وضجرها بسبب كثرة اعتراضات الساخط على الله، وعلى الواقع الإحباطي الثقيل السائد في المجتمع، وعلى منغصات الحياة، فهو يحتج على النظام الاجتماعي، ونمط الحياة الاقتصادية، والأخلاقية، ومستويات التفكير عند الناس، وقد يراهم ـ على حدّ تعبير جان بول سارتر ـ جحيماً لا يطاق يهددون وجوده باستمرار.

ولأنه يرغب في نوازع وتصورات مقبولة وغير مقبولة، وبسبب إخفاقه في تحقيق المطلوب من هذه النوازع، وتقع نفسه في صخب، وضجر، وكراهية، وسخط للجميع، وقد يوجّه إحساسه المرضي هذا نحو الله تعالى، وربما تسول له نفسه توجيه السؤال لخالقه: لماذا خلقتني؟ إنه يشعر بوجوده مقهوراً في عالم متناقض، لا انسجام فيه، ولا عدالة فيه، ومليء بالإحباطات.

أما الرضا كسمة إيجابية وسوية في النظرة العبادية، فيحدث توافقاً بين

(١) سورة طه، ١٢٤.

أجزاء النفس، فالفرد الراضي عن نفسه وعن ربه يسلم بكل ما يصدر عن إرادة الله، ويتحرك بشجاعة وإرادة حية لتحسين ظروف الحياة المادية والمعنوية، حياة لا تتبرم من مقدرات الله تعالى، بل يستأصل منها كل مظاهر الفساد الاجتماعي بلا ضجر أو شعور بالملل.

فالراضي يؤمن بأنه ليس بمقدوره أن يسير الوجود وفق رغبته، وليس بمقدوره أن يحقق دائماً كل ما يحلو له، ويعتقد بأن ما يجهله أكثر مما يعلمه، لذلك حذف من نفسه السخط على الغير، ويسعى بدلاً من التبرم والاستياء، إلى تبديل حالهم حسب الموازين العبادية، ومن هنا لا ينشأ في نفسه مجال لصراع داخلي، فهو على رضا تام من تقدير الله للأمور، وما وفره له من إشباع حاجاته، ولا هو يتطلع إلى المجتمع ليؤمن له الإشباع، فهو نفسه يتعامل مع الحياة بسلوك الزاهد، وبعين الرضا، والتقدير الدقيق لحركة الوجود كله.

قال تعالى عن أصحاب النفس المطمئنة: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[1].

وبالرضا تتوازن الذات، وتختفي المتاعب والآلام المسببة للمرض النفسي أو تقل آثارها في النفس على الأقل، وتظهر محلها مشاعر الراحة، وتقبل أقدار الله طواعية، والاطمئنان من تقدير الله تعالى في سعة العيش أو الضيق في الحياة، ومن صحة أو مرض، ومن تقتير أو عطاء، حيث تستوي عنده جميع هذه الأحوال، بل لا يزيده تنوع ما يصدر عن الله إلاّ حباً لمحبوبه، وعشقاً لذاته القدسية.

---

(١) سورة التوبة، ١٠٠.

إن الراضي من الناس بقضاء الله وقدره لا يستبطئ رزقه، ولا يتهم ربه في تقديره، ولا يلح في الطلب تأميناً لحاجاته، لأنه يعرف قدره، ويدرك أن اعتراضه لا يؤثر في مجرى الأحداث، ولا سخطه يغيِّر من التقدير الإلهي المتقن، ولأنه يتعامل مع هذا القدر بنظرة إيجابية تثق بالله وحكمته في توجيه مجرى الحوادث، لذا يتقبل ما يرد عليه من سرور أو سخط فإن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[١].

خامساً: التوكل والحرص:

كيف يؤثر كل منهما في حركة النفس سلباً وإيجاباً، فيتحقق بأحدهما التوازن الداخلي لها، والانسجام بين أجزائها، وتعيش بالآخر قلقاً، وتوتراً، وصراعاً بين قواها؟

إن التوكل بمعناه الإسلامي هو الاعتماد على الله سبحانه وتعالى، وإحالة الأمر إليه، والثقة بقدرته جل وعلا كمؤثر حقيقي في الوجود كله لا سواه، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾[٢].

ويرى المولى الفيض الكاشاني ـ رحمه الله ـ أن التوكل[٣] يطلق في ثلاثة مواضع هي:

أحدهما في موضع القسمة وهو الثقة بالله، فإنه لا يفوتك ما قسم عليك، فإن حكمه لا يتبدل، وهذا واجب بالسمع.

---

(١) سورة النساء، ٤٠.
(٢) سورة هود، ١٢٣.
(٣) منهاج النجاة، للفيض الكاشاني، ص١٢٨.

والأمر الثاني في موضع النصرة: وهو الاعتماد والوثاقة بنصر الله عز وجل لك، وإذا نصرته وجاهدت، قال الله عز وجل: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾(١) وقال: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾(٢) وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣)، وهذا واجب الوعد.

والأمر الثالث: في موضع الرزق والحاجة، فإن الله تعالى متكفل بما تقيم به بنيتك لخدمته، وتمكن من عبادته، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(٤) أي كافيه.

ويتضمن النص السابق عنصرين أساسيين هما:

أولاً: إن الله سبحانه هو مصدر تأمين الحاجات لا غيره، وهو موضع الثقة، والنصر، والرزق باعتباره المؤثر الحقيقي في الوجود بأسره الذي لا يعجزه شيء، ولذلك وجب على المسلم أن لا يشعر بقلق، فإشباع الحاجات موكول إلى الله عملياً، فهو ـ عز وجل ـ يرزق من يشاء بغير حساب، ومن حيث لا يحتسب الفرد شرط أن يتوفر وعي عبادي بمفهوم التوكل.

إن الاطمئنان إلى توفر الإشباع وتأمينه دائماً لكل العباد، يزيح بكل تأكيد كل توتر نفسي ينجم عن صعوبات الحياة، بل إن الاطمئنان إلى توفر الإشباع يجنب الفرد منذ البداية أية إحباطات، وحتى مع تعرض العبد لمواقف، وخبرات إحباطية بين حين وآخر، فإن ذلك لا يؤدي إلى صراع في داخل نفسيته بدرجة حادة مريضة ليقينه بأن الله عز وجل قد ابتلاه بذلك.

---

(١) سورة آل عمران، ١٥٩.

(٢) سورة محمد، ٧.

(٣) سورة الروم، ٤٧.

(٤) سورة الطلاق، ٣٢.

ثانياً: والعنصر الثاني الذي تضمنه النص السابق هي السعي في الأرض، والكدح، وتحمل المسؤولية من العبد في البحث الفعلي عن الإشباع، وتأمين الحاجات، فلا يرزق العبد دون توفر هذا الوعي العبادي لمفهوم التوكل وفهمه بطريقة إيجابية، وهو شرط ضروري لمعرفة العلاقة بين التوكل وقانون السببية للأشياء، ولذا لما أهمل الإعرابي بعيره قائلاً: «توكلت على الله».

رد عليه النبي ﷺ: «اعقلها وتوكل»..

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«أوجب الله لعباده أن يطلبوا منه مقاصدهم بالأسباب التي سبّبها لذلك، وأمرهم بذلك»[١].

ونصت آيات أخرى على ضرورة تحمل الإنسان مسؤولية الكدح والسعي ليحقق المعنى الصحيح للتوكل، قال تعالى:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[٣].

وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾[٤].

وعلى هذا، فإن العبد إذا أوكل أمره لله، وسعى من خلال وعيه

(١) المصدر السابق، ص١٢٩.
(٢) سورة النجم، ٣٩ ـ ٤٠.
(٣) سورة الملك، ١٠.
(٤) سورة الأنفال، ٦.

العبادي بمفهوم التوكل إلى الكدح والسعي في الأرض اطمأنت نفسه، واستيقنت بنعمة تأمين حاجاته من قبله عز وجل لا الآخرين، ومثل هذه النفس لا تتعرض أبداً للإحباطات القاسية المؤدية للصراعات الداخلية، فاختفاء الإحباط العنيف يمنع نشأة الصراع المرضي، فضلاً عن أن وصيد الإحباط للمتوكل على الله يمنع ـ بالتأكيد ـ من تعرضه للمرض النفسي.

ولكن إذا تخلف العبد عن الفهم الصحيح للتوكل، فإنه قد يوقع نفسه في المرض النفسي بسبب تمسكه بالدنيا، وحرصه الشديد على ملذاتها ومتاعها، وبسبب أنه وكل تأمين حاجاته ومتطلباته إلى نفسه، وإلى غيره من الناس، غير أن المجتمع كثيراً ما يعجز عن تلبية الإشباع، وأحياناً يتعمد عدم توفير الحاجات وتأمينها، فيعيش إحباطاً نفسياً يتحول فيما بعد إلى قلق، وتوتر، لأنه توهم ـ في داخله ـ بأن الإنسان هو مصدر تأمين الحاجات، ويلغي السماء من حسابه تماماً كمصدر للإشباع.

إن الحريص قد يفهم معنى السعي في الأرض، ويدرك أهمية الكدح في تأمين حاجاته، لكنه إدراك معزول عن السماء ومرتبط بالأرض وبالمجتمع وبنفسه الضعيفة العاجزة، وهذا الفهم يكلفه كثيراً ويعرضه للصراع النفسي، فهو يرغب في إشباع وتأمين حاجاته، لكنه يصطدم بوضع آخر في الحياة، فالمجتمع يعجز عن توفير الإشباع، وربما يتعمد عدم تأمين الحاجات لسبب يتخذه ضد إنسان ما، لذلك تتدافع في هذا الموقف قوتان، إحداهما حرصه بمنطلق مادي على تأمين الإشباع لحاجاته وتأمينها، والثانية عجز مجتمعه عن ذلك، فيتسرب القهر إلى نفسه، وتهدد سلطة المجتمع بمنع تأمين الحاجات، ما لم يقبل بالموقف الذليل، والمتوقع أن يقبل المريض قهر الآخرين وإذلالهم لنفسه لأنه يبحث عن إشباع يؤمن له حاجاته بأي ثمن لا يعير الكرامة وزناً.

ومع افتراض أن المجتمع يمتلك وسائل الإشباع، ويوفّر له حاجاته بعد «تنازله» فإنه في هذا الموقف يشعر بالذلة، فأفراد المجتمع يشعرونه بالمن والتفضل عليه، وهذا يتعارض مع استقلاله الذاتي، ولذلك يبقي نفسه نهباً لصراع بين رغبته في تأمين حاجاته، وبين ما يهدده من مذلة وقهر، إنه صراع بين رغبته في المحافظة على استقلال الذات وبين إحساسه بأن ذاته مهددة طالما أن وسائل الإشباع بيد إنسان يفرض القهر عليه ويشعره بالمن والتفضل والمعايرة.

سادساً: الزهد والرغبة:

ليست الرغبة ـ هنا ـ نقص الحاجة وسعي الكائن الآدمي للإشباع الطبيعي لحاجاته بمقدار مناسب، وإنما هي اندفاع نحو إشباع زائد عن الحاجة، ولو اكتفى ـ الراغب ـ بإشباع قدر حاجته لكان ذلك إشباعاً طبيعياً من وجهة نظر المشرّع التربوي الإسلامي.

ويلاحظ هنا أن رغبة الإنسان تتجه في أغلب الأحيان إلى إشباع الحاجات المادية أكثر من اتجاهها نحو إشباع الحاجات المعنوية، ومن هنا يختل نظام التوازن في سلوك الإنسان وينسف أسوار «التعادل» بين قوى الذات ومكوناتها.

ولكن الحياة نفسها قائمة على مبدأ الإحباطات المستمرة، فلا تسمح دائماً بإشباع غير مقيد للشهوات، وتؤكد وقائع الحياة أن الذي يميل إلى الشهوات ميلاً عظيماً، لا يحب أبداً التعامل مع شهواته من خلال مبدأ التأجيل، وهذا وضع نفسي يهيئ مناخاً للتعارض بين رغبة الفرد في إشباع حاجته بلا حدود، وبين قيود الحياة نفسها التي تحول دون تلبية الحاجات في كل وقت.

فالفرد ـ مثلاً ـ قد يريد أن يجمع المال المشروع، ويحب الجاه، والتسلط، والولد بلا حدود، لكن الحياة لا تجاريه، ولا تحقق له أمنياته، بل تضاد رغباته أحياناً، إنها لا تعوقه ـ فحسب ـ عن الإشباع الزائد عن حاجته، بل تحرمه أيضاً حتى من الإشباع الطبيعي المقيد، كأن تحرمه من بناء دار للسكن أو لا توفر له ما يمكنه من جمع المال الضروري للقوت اليومي، والعمل، والنكاح، وكل متطلبات حياته الأساسية.

وأمام هذه التحديات وضغط رغبته في الحصول على هذه الشهوات تنشأ في نفسه حالة صراع بين رغبته في جمع الثروة والحصول على الملذات الدنيوية المختلفة وبين عجزه عن ذلك، قد تنتهي بوقوعه في براثن المرض النفسي، براثن الشعور بالقهر والحقد والحسد والرغبة الشديدة في الانتقام ممن يحرمه، أو التبرم من تقديرات الله له، ويعترض على نظام الحياة وقوانينها التي يراها ضيقاً وضنكاً وقلقاً لأنها تهدد إشباع رغباته، وتسلب منه متعة الإشباع العاجل، واللحظة الحاضرة التي يقاتل من أجل استمرارها وبقائها، وتتدافع في نفسه المتضادات دونما توازن، ما دامت مفاهيمه لا تستطيع أن تعقد حبل المودة بينه وبين أجزاء نفسه، وربما يؤدي العصاب النفسي إلى حالة عصاب أكثر تعقيداً... هي حالة الكفر.

وفي ضوء ذلك يمكن فهم النص التالي:

«أركان الكفر أربعة: الرغبة، والرهبة، والسخط، والغضب»[1].

إن الرغبة في تحقيق إشباع زائد عن الحاجة سمة مرضية تؤدي إلى نشوء خلل في النفس، وقد أطلق المشرّع الإسلامي على ذلك مصطلح

(١) تحف العقول لابن شعبة الحراني، ص١٤٧.

«الرغبة» أما المصطلح المضاد له فهو «الزهد» الذي له فاعلية كبيرة في تحقيق التوازن الداخلي للشخصية المؤمنة.

إن الزاهد ينظر إلى الحياة كمتاع عابر، ويعيش فيها بمفهوم قصر الأمل، ويكتفي ـ عادة ـ بإشباع على قدر حاجته، وربما إلى حدّ الكفاف، وهو بالتأكيد تأمين بسيط لمتطلبات الحياة، فهو لا يطلب داراً فخمة، ولا يلهث وراء جاه أو منصب أو مكانة اجتماعية أو عقار أو امتيازات أخرى، ويكتفي منها بما يسد الرمق، ويعينه على إنجاز مهمته العبادية في الحياة.

ومن الطبيعي أن قناعة «الزاهد» بإشباع قدر الحاجة يجنبه الإحباط، ويتفادى الوقوع في حالة صراع نفسي فهو لا يصاب بإحباط لأنه لا يجري وراء إشباع زائد عن حاجته، ولا يعتريه صراع، لأنه بزهده يتيح لنفسه هدوءاً وتوازناً داخلياً.

والذي يجعل الزهد وسيلة فعالة للتوازن الداخلي للشخصية العبادية، أن الزاهد قد يمتلك الأشياء لكنها لا تمتلكه، فهي تحت تصرفه يتحكم فيها بما يشاء وليس لها سلطان عليه، فيمكنه أن يملك الدار، والزوجة والمحل التجاري، لكنه لا يفعل ذلك بدافع تحقيق إشباع يفوق حاجته، وإنما تلك الحاجات من «المباحات» يأخذ منها قدر حاجته، ويتصرف بالزائد منها في سبيل تحقيق وإنجاز مهمته العبادية في الحياة.

وتنسب للإمام علي عليه السلام مقولة دقيقة معبرة عن مفهوم الزهد: «ليس الزهد أن لا تملك شيئاً، وإنما لا يملكك شيء».

وبهذا النص يحرر الإمام الزهد من مفهومه الخاطئ لدى بعض الناس الذين يشعرون بحساسية مفرطة من الزهد والزاهدين بسبب التراكمات التاريخية والاجتماعية المترسبة في أدمغتهم.

لهذا فإن «الزاهد» كما جاء في حديث: «غريب في هذه الدنيا، لا يجزع من ذلها ولا ينافس أهلها في عزها، ولا يأخذ منها إلاّ بقدر ما يحتاج من نعم».

قال ﷺ: «الزهد في الدنيا: قصر الأمل، وشكر كل ذي نعمة، والورع عن كل ما حرم الله»[1].

فالزاهد بتأثير مفهوم «قصر الأمل» ينظر للدنيا نظرة «العابد» المستعد للقاء ربه، وينتظر هذا «أجله» في أية لحظة، ولهذا يبادر إلى العمل العبادي، ويحرر نفسه من منافسة أهل «الدنيا» في عزها، ومن ذل «الجزع» الذي تتركه في نفوسهم.

أما «الشكر» فمعناه ببساطة اعتراف الزاهد بنعم الله تعالى حتى في المدة التي تقل عن الثانية، فلا يشغل نفسه بغير ردّ هذا الجميل وهذا العطاء، من خلال أنشطته العبادية، وهو يعلم أنه لا سبيل لهذا الشكر سوى زهده، وعبادته.

ولا يتحقق الزهد إلاّ بكفّ النفس عن السعي وراء الإشباع الزائد عن الحاجة، وهذا ما عناه الحديث الشريف بكف النفس عن «كل ما حرم الله» والامتناع عن الرضا بما أفاض الله سبحانه وتعالى وأسبغ عليه من نعم، يقول الحديث الشريف:

«من أكل ما يشتهي، ولبس ما يشتهي، وركب ما يشتهي، لم ينظر الله إليه حتى ينزع أو يترك»[2].

---

(١) تحف العقول، ص٤٧.
(٢) تحف العقول، ص٣٣.

سابعاً: الصفح والانتقام:

وتضمنت القائمة المذكورة مصطلحي الصفح والانتقام، وهما سمتان متضادتان وكلتاهما تؤثر في سيكولوجية الكائن الآدمي وسلوكه الأخلاقي، لكن الصفح يصنع توافقاً إيمانياً في الشخصية، ويحقق لصاحبها توازناً داخلياً بين مكونات ذاته، وفي علاقاته الاجتماعية مع الآخرين، بينما الانتقام لا يثمر عنه سوى الإحباط، والاضطراب النفسي، وسوء التوافق، وسنرى تأثير كليهما في الصحة النفسية للفرد.

اعتادت النفس في مواقف الإهانة والإيذاء ـ كأحد الاستجابات المتوقعة ـ أن تتحفز لردّ اعتبارها بالانتقام بخاصة إذا كان الإيمان لم يخالط النفس مخالطة صحيحة يمنعها من تجاوز الحد في الرد على المعتدي، إذ تبدأ بممارسة سلوك انتقامي ضد الطرف الآخر تفريغاً للنفس من شحناتها الانفعالية كالقهر، والغبن، والمظلومية.

وفي هذه الحالة لا يمانع المشرّع الإسلامي من ردّ العدوان بمثله أو القصاص القانوني والشرعي من المعتدي، ولكنه مع ذلك لا يترك الأمر بلا تنظيم، فيتدخل في تحديد كيفية الرد أو يعيّن أسلوب القصاص والجهة التي تملك زمام القصاص، ومن المؤكد أن ردّ الاعتداء يختلف في نظر المشرّع الإسلامي عن الانتقام، فالأخير يتجاوز فيه المعتدى عليه الحد الشرعي لرد عدوان الآخرين، فيعاقب أو يرد عليهم ـ تحت تأثير دوافع شخصية ـ دون مراعاة للحدود الشرعية.

إن المعتدى عليه قد يشعر بحالة قهر ضد خصمه الذي أوقع الأذى به، وهو على هذا الأساس يحاول إراحة نفسه من ضغط هذا الشعور وتفريغ الشحنة الانفعالية للقهر المخبوءة في النفس، فيندفع تجاه خصمه

يوجّه له ما يمكنه من الإهانات التي قد تكون غير مناسبة مع مقدار الاعتداء عليه، فيحدث ما لا يحمد عقباه، وهنا يكون الموقف على أحد أمرين:

أولاً: إن «المعتدى عليه» ارتكب فعلاً محرماً ومخالفاً للقانون والأخلاق الدينية والاجتماعية كالقتل مثلاً تحت ضغط إحساسه بالقهر، وهو حالة وجدانية قد تجرده عن الاعتبارات الشرعية المحدّدة للرد بالمثل، فيؤدي فعله هذا بعد هدوء النفس وسكونها إلى معاتبتها بشدة، فتعيش حينئذ نفسه قلق الإحساس بالذنب، خاصة إذا لم يتمكن القانون من معاقبته، وبقي تحت تأثير عذاب الضمير، وربما تكون لهذا القلق مضاعفات تؤدي إلى المرض النفسي.

ومما لا شك فيه أن الانتقام على هذا النحو يفرز صراعاً في النفس بين الرغبة في الاعتراف بالجريمة استجابة لنداء الضمير أو لأية قوة أخلاقية أخرى كالخوف من العقوبة الإلهية، وبين خوفه من قسوة القانون وعقابه الصارم.

ثانياً: وفي الحالة الثانية يتعرض الفرد لصراع نفسي بسبب رغبته في الانتقام ممن اعتدى عليه، لكن إذا عجز عن الانتقام لسبب ما كقوة خصمه الجسمية أو قوة نفوذه الاجتماعي مثلاً، أوقعه ذلك العجز في إحباط نفسي، يترتب عليه فيما بعد صراع مرير بين رغبة الانتقام لديه وعجزه عن الانتقام، ولا يستبعد أن ينجم عن ذلك حالة مرضية كالحقد على المجتمع الظالم والعاجز عن حمايته.

ولا شك أن هذه الحالة تهيئ تربة نفسية لوقوع الفرد في براثن سلوك عصابي، فهو لم يستطع الانتقام فعلاً، ولم يحرر قلبه من شحنات القهر الانفعالية المصاحبة لها، وهو من جهة لم تسمُ نفسه عن الانتقام، فعفت، وصفحت عن المعتدي، وزالت من النفس الرغبة في الانتقام.

ومما يدهش فعلاً أن يكون الانتقام هو الحل الذي يقترحه بعض علماء النفس التحليلي مثل كارن هورني، على اعتبار أن ذلك يؤدي إلى خفض القلق، وإزاحة التوتر الناجم عن السلوك العدواني الموجّه إليه.

وكما يكون السلوك العدواني سبباً لاختلال التوازن الداخلي للشخصية، فإن المشرّع الإسلامي طالب بالعفو والصفح بدلاً من الانتقام وإن أكّد على مبدأ ردّ العدوان بمثله، فالصفح يجسد طهارة حقيقية للقلب، ويحيل عداوتنا لبعضنا حباً، ويجعل تنازع الأفراد تعاوناً ومودة، فالإسلام يأمر بالصفح ويؤسس العلاقات بين الأفراد على قاعدة الحب، والتعاون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1].

فالصفح يذيب كل نزعة عدوانية في النفس، قال تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[2].

وقال جلّ وعلا: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾[4].

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾[5].

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ﴾[6].

وورد عن الإمام الصادق: «ما أقبح الانتقام بأهل الأقدار»[7].

(١) سورة البقرة، ١٠٩.
(٢) سورة الحجر، ٨٥.
(٣) سورة البقرة، ١٠٩.
(٤) سورة البقرة، ٢٣٧.
(٥) سورة الشورى، ٤٠.
(٦) سورة آل عمران، ١٣٤.
(٧) تحف العقول، ص٢٦٤.

فالعفو في مفهومه الإسلامي خلق رفيع يفتت في النفس شحناتها العدوانية، ويمتص اندفاعها غير العقلاني نحو التدمير وإيذاء الآخرين حتى لو كانوا ظلمة، ولهذا فإن عفو الذات ليس قبولاً مريضاً بظلم الآخرين، لأنه حين يصفح الإنسان المؤمن يفعل ذلك وهو قادر على الانتقام، لكنه آثر الصفح الجميل عن قناعة داخلية، وحباً للناس في سبيل الله الآمر ببناء علاقات اجتماعية قائمة على أسس الأخوة الإيمانية.

وسواء اكتفى المعتدى عليه برد الإهانة في حدود معقولة شرعاً وقانوناً واجتماعياً أو ردّ العدوان بمثله دونما تطرف أو مبالغة، أو عفا وأصفح، فإنه لا سبيل أبداً لمواجهة موقف نفسي مريض، لأنه انتقى الصراع، فلا هو راغب في الانتقامْ، ولا هو عاجز عن الانتقام، وبالتالي لم يعد هناك مجال لنمو إحساس مرضي يدفع الفرد للانتقام بشحنة قهر قوية وغير منضبطة، مما يؤدي إلى توازن قوى النفس وتحرك عناصرها في اتجاه واحد.

ثامناً: الجهاد وضده النكول:

بتأمل قائمتي الأضداد للإمامين عليهما السلام اللتين عرضناهما في الفصل الرابع، يلاحظ المرء أن سمتي الإيمان والكفر يأتيان في الصدارة ويأخذان موقعاً أساسياً، وما جاء بعدهما مما أسمتاه القائمتان (جنود الخير والشر) يمثل في الواقع سمات سوية وعصابية متشعبة عنهما، فجميع السمات المنطوية تحت دائرة الإيمان تجسد السلوك السوي، أما ما تفرع عن سمة الكفر فجميعها سمات غير سوية، وتجسد السلوك العصابي.

وعندما نحاول تذكر تصنيف الإمام علي عليه السلام للعصاب والسواء، نجد أن الإيمان بُني على أربع دعائم هي: الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد، وسنأخذ منهما دعامتين أساسيتين فقط هما الصبر والجهاد، لمعرفة أثرهما في تحقيق التوافق النفسي للمسلم.

ونظراً لأننا تحدثنا عن سمة الصبر في موضع سابق من هذه الدراسة، فإننا سنتحدث عن فريضة الجهاد لمعرفة أثرها الإيجابي الفعال في حقل الصحة النفسية.

كما أننا كذلك سنحاول إيضاح دور سمة النكول المضادة لسمة الجهاد، في اضطراب الشخصية وانعدام استقرارها النفسي.

إن الجهاد الذي نعنيه هنا هو الجهاد السياسي والاجتماعي الذي يمثل دعامة أساسية للإيمان، فقد تشعب الجهاد من الإيمان، وتشعبت سمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن سمة الجهاد.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«من أمر بالمعروف شدّ ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف الكافرين»[1].

في هذا النص القصير حقيقة نفسية أثمرتها عملية الجهاد نفسها من خلال قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمستكبرون ـ بما يملكون من أدوات القوة المادية ـ هم في أغلب الأحيان مصدر قلق الذات المؤمنة وتهديدها كما يحدث الآن في المشكلة الفلسطينية خاصة بعد استغلال الاستكبار الأمريكي لحادث تفجيرات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م، وكي يتجنب المؤمن هذا الخطر أوصى المشرّع التربوي الإسلامي في نصوصه بممارسة أنواع الجهاد السياسي والاجتماعي، وذلك من أجل أن يتيح للمجتمع المؤمن فرص بناء القوة والإرادة بمختلف أشكالها، وهذا من شأنه تحقيق السكينة والطمأنينة النفسية لأفراده سواء في حالتي النصر أو الشهادة.

---

(١) تحف العقول، ص١١٦.

ففي حالته الأولى يرغم المؤمن بجهاده أنف الكافرين، ويزرع المجتمع المؤمن هيبته في قلوبهم، فلا يتجرأ الكافرون على إيذاء المجتمع المؤمن لشعورهم بقوتيه المادية والمعنوية، فيشعر أفراد هذا المجتمع بالعز، والكرامة، والاستقلال الذاتي، ولا ينتابهم قلق تهديد الأعداء، ولا يشعرون بالحاجة إليه أذلاء، لأن من احتجت إليه ذليلاً هنت عليه كما قال الإمام علي عليه السلام.

فالمؤمنون عن طريق الجهاد قادرون على المحافظة على وجودهم المتميز، ولعل هذا ما عناه النص بأن الأمر بالمعروف يشد ظهر المؤمن، ومن هنا ليس هناك مجال للتوتر والقلق بصورة غير طبيعية، وليس هناك فسحة لتسرب الشعور بالهزيمة في النفوس، لأنه لا توجد هيبة مريضة من الأعداء تقتل إرادتهم وتهزمهم قبل بدء المعركة، بل على العكس تماماً يطوي أفراد المجتمع المؤمن في داخله الشعور بالعزة والاستعداد ـ بالقوة ـ لمواجهة الأعداء والدفاع عن أنفسهم.

أما في حالة الاستشهاد، فقد نال أفراد المجتمع المؤمن إحدى الحسنيين، كما يطمئن الشهيد إلى مصيره عندما يكون بين رحمة ربه، وتحت مظلة رضاه عز وجل، فالجهاد يحقق التوازن النفسي ـ للمؤمن ـ ببعدين أحدهما دنيوي، والثاني بعالم الآخرة.

والسؤال الآن: ماذا لو ترك الإنسان المسلم مسؤوليته في جهاد أعدائه؟

لا ينشأ عن ذلك سوى القلق النفسي، وسوف تحاصر داخله مشاعر المذلة والتبعية للآخرين، فالفرد النكول عن جهاد أعداء الله تعالى وأعدائه مغلوب على أمره يفرض عليه خصومه ما يشاءون، ويجبرونه على قبول

مطالبهم التي تنطوي على إذلال نفسه، وهذه الضريبة العادلة لمن يترك الدفاع عن نفسه، جاء في أحد النصوص التربوية الإسلامية أنه: «من ترك الجهاد ألبسه الله ثوب الذل».

إن الشخص النكول المتخلي عن جهاد أعدائه وأعداء الله ذليل في دنياه ـ كما هو حال الكثير من المسلمين اليوم ـ يهدده بين لحظة وأخرى قلق الاستكانة وألم الاستسلام ويضغط عليه رق العبودية ومرارة الإحساس بالهزيمة.

ومن هنا لا يشعر بطمأنينة في نفسه، ويتملكه صراع شديد بين رغبته في التخلص من هذه المذلة، والتبعية، وبين شعوره بالضعف أمام أعدائه وعجزه عن قهرهم.

ومن هنا نفهم قول الإمام علي عليه السلام:

«من تردد في دينه سبقه الأولون، وأدركه الآخرون، ووطئته الشياطين»[١].

ومن هؤلاء الشياطين في هذه الأيام سوى المستكبرين الظالمين الذين ملأوا الأرض فساداً بغرور القوة وديكتاتورية الطاغية؟

بل إن أثر الصراع النفسي يشتد ألماً عندما يتذكر الذليل عقوبة الآخرة لتقبله طواعية ظلم «الظالمين» ويصاحب هذا الصراع قلق حقيقي على مصيره بعالمه الآخر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[٢] لأن الله فوض ـ للمؤمن ـ كل شيء إلاّ أن يذل نفسه، وبالتالي لا يجد الناكل لحقه في الجهاد راحة لا في دنياه ولا يشعر بطمأنينة على مصيره يوم الحساب بين يدي الله تعالى في آخرته.

(١) تحف العقول، ص١١٦.
(٢) سورة هود، ١١٣.

وهكذا نجد المفارقة السيكولوجية واضحة بين آثار الجهاد وآثار ضده النكول، فالأول طريق التوازن الداخلي للذات واستقلالها، وهي تجسيد واقعي لمفهوم عزة المؤمن وحيوية مبادئ القوة والكرامة، والثاني. .أي حالة النكول. . مصدر اضطرابها، وخضوعها الذليل.

تاسعاً: السخاء والبخل:

والبخل سمة مرضية يمجّها الذوق الإنساني السليم، ويكرهها كل دين سماوي أو وضعي، لأن البخل جامع للمساوئ والعيوب كما جاء في الروايات والتوصيات التربوية الإسلامية، أما سمة السخاء فتمثل عنصراً إيجابياً في كيان الإنسان، فما أثر كل منهما في ميدان الصحة النفسية؟

البخيل يشعر دائماً بتوتر نفسي تتفاوت شدته بتفاوت حركة الصراع التي تنجم عن رغبة البخيل في تمسكه الشديد بما تحت يده من مال، ورغبته في التمتع بما يملك، لكنه بسبب بخله يحرم نفسه من متع الحياة، ويتلذذ ببخله، والبخيل ـ مع ذلك ـ يبقى قلقاً في الحالتين. . إن أنفق أو امتنع عنه. . فإن أنفق حَسِبَ إنفاقه «تلفاً» ضائعاً لا يعود عليه بالفائدة، أو داهمه إحساس عصابي بتناقص ماله، كما يقلق البخيل إنْ امتنع عن الإنفاق لأن ذلك يحرمه من التقدير الاجتماعي، والإثابة الأخروية معاً، ويزداد قلقه حين يرى الآخرين كورثته يستفيدون من ماله.

وللصراع النفسي في شخصية البخيل صورة أخرى، فأفراد المجتمع قد يعايرونه، وقد يتنابز الناس حوله، ويرى تجهم وجوههم في وجهه، وقد يذكرونه دائماً بحرمانه لذاته من متع الحياة ولذاتها، إن المعايرة وأشكال النقد الاجتماعي لذاته تعتبر جميعاً مصادر قلق للبخيل لا تريحه أبداً، وتسبب لشخصه إحساساً بالنبذ الاجتماعي، والعداء الموجّه ضده، ومن ثم

يسيطر عليه صراع بين رغبته في التمسك بما في يده، ورغبته في الانتفاع بماله ونفسه تمانعه، ويقلق البخيل حين تتدافع في نفسه شهوة البخل لديه، ورغبته في استرضاء المجتمع، وقد يفكر في رفع استياء المجتمع عن نفسه فيحاول أن يبذل شيئاً من ماله للمجتمع، لكن شهوة البخل المتحكمة في نفسه تشده بعيداً عن البذل والانفاق، فتعتريه الحيرة، وينتابه صراع مرير بين رغبة محدودة في البذل ورغبة الشح المضادة.

ومن المؤكد أن قلقه يزداد حدة، وتوتره يتضاعف سوءاً عندما تؤنبه نفسه اللوامة، ويتحسس عقوبة الله في البخل، لأن نفسه حريصة على نيل الأجر، والمثوبة الإلهية، ولا يتحقق ذلك إلاّ بالإنفاق الذي لا يستسيغه، ومرة أخرى تتعرض نفسه للصراع بين حرصه على إبقاء ماله لا ينقص منه شيئاً، وبين خوفه الشديد من عقاب الله عز وجل.

وأعتقد أن هذه الحالة هي أعنف صورة للصراع النفسي في شخصية البخيل، لأنه قد يتقبل حرمان نفسه من متع الحياة، لكن ترمومتر «القلق» النفسي يصل إلى مداه في سيكولوجيَّة بخيل متديِّن حين يتحسس خطر «الحرمان» من الرضا الإلهي له صلة بسيكولوجية بخيل متدين.

ولا شيء من ذلك التوتر يحدث في شخصية السخي، فالأجواء النفسية مختلفة تماماً.

إن السخي يؤدي واجبه تجاه أوامر الله في البذل والإنفاق، وتعمير الكون، والحياة باستثمار ما استخلفه الله فيه، ويوفِّر لنفسه جزيل الأجر، ويبعد نفسه عن غضب الله عز وجل، ويشعر بالانسجام والتوافق، والرضا، هذا إذا كان ـ السخي ـ مؤمناً يتصرف فيما تحت يده من مال بسهولة، ولا يجد هناك شد وجذب خلال إنفاقه، لأنه هو الذي يتصرف في شهوته، وليست هي التي تحكم سلوكه.

فعن طريق ـ السخاء ـ يحقق المسلم توازناً في شخصيته، باسترضاء الله عز وجل، والبحث عن تقديره الذي لا حدود له، فليس المال الذي بيد الإنسان السخي ملكاً خاصاً به، بل هو مستخلف فيه، يؤجر عليه بسلامة نِيَّة الإنفاق، وبمقدار كيفية التصرف فيه، وليس للإنسان من حق سوى الإنفاق ليحقق الرضا في نفسه من خلال تطبيق مبدأ الاستخلاف الإلهي للإنسان في الأرض.

وموقف المجتمع من السخي يختلف عن موقفه من البخيل، فقد انتفت المعايرة التي كانت توجه دائماً للبخيل، وبرزت محلها البشاشة في وجه السخي، وتذكر الجميع له بالخير، وامتداحهم المستمر لخصاله الطيبة، بل إن هذا المدح يمتد إلى أكثر من جانب في شخصية السخي، فيغطي حتى عيوبه، ومساويه، ومحاولة تفسيرها دائماً بشيء من حسن الظن.

ومما لا شك فيه أن نفسية السخي لا تعرف القلق العصابي، ولا تكتوي بشدة المرض النفسي الذي يعاني منه البخيل، لأنه لا وجود لمصادر القلق أبداً، فهو يعبد الله سبحانه بما يبذل مما استخلف فيه من المال، ويبحث عن تقدير الله عز وجل بالعطف على الفقراء، والمساكين، وإكرام الضيف، وتوجيه المال في المشروع الخير هنا وهناك، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١].

بل إن شخصية السخي تصل إلى قمة التوافق، والرضا النفسي بالإيثار، والجود بما عنده رغم الحاجة إليه، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٢].

---

(١) سورة الحشر، ٩، وكذلك سورة التغابن، ١٦.

(٢) سورة الحشر، ٩.

عاشراً: الدعاء والاستنكاف:

للدعاء فاعلية كبيرة في تحقيق التوافق النفسي للشخصية المسلمة، غير أن هذه الدراسة لا تستهدف بيان تلك الآثار، لذا نكتفي بقدر يسير لمعرفة فعالية الدعاء في ترشيد النفس وتحقيق توازن داخلي بين أجزائها[١].

إن الدعاء علاقة مباشرة بلا حواجز بين كائنين أحدهما مطلق الكمال، وغني بذاته، ومصدر للإفاضة المستمرة والعطاء، والآخر وعاء الفقر والحاجة والمسكنة، فكل إنسان (مسلم وكافر) ينتابه شعور بالحيرة والضياع، ويعتريه دائماً إحساس بالحاجة إلى قوة ذلك الكائن الأعلى والتوجه إليه لإنقاذه، ومساعدته على الخلاص من محنته، وهذا الإحساس كما نعلم فطري في كل نفس بشرية، وليس مخصوصاً بفئة من الناس، ولا يختلف الجميع إلاّ في تفسير هذا الإحساس.

وهنا نجد المفارقة بين المسلم والكافر، وهي مفارقة لها علاقة كبيرة بالصحة النفسية لشخصية كل منهما.

فالمسلم يعرف المصدر، والجهة الذي يتوجه إليه وهو الله سبحانه وتعالى، فيفرغ إليه عن طريق الدعاء كل ما في نفسه من آلام، ويبث شكواه، وهمومه، وأحزانه، ويعترف إليه بذنوبه، وإحساسه بالحاجة إلى ذلك الكائن الأعلى الذي يثق بحسن إجابته، وجزيل عطائه، ودوام إفاضته، وعفوه عن ذنوب عيوبه، فترتاح نفسه بعد هذه المكاشفة، وتعود إليه الطمأنينة، ويعاهد الداعي ربه عز وجل بالاستقامة وترشيد سلوكه.

وما يحقق التوازن النفسي، والعقلي لشخصية ـ الداعي ـ كذلك، أنه

---

(١) اقرأ دراستنا عن فاعلية الجانب السيكولوجي للدعاء في كتابنا «بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي».

يبوح بما في قلبه لكائن مطلق عليم بأسراره وخفاياه حتى لو لم يكشفها للآخرين، وأن هذا البوح في الواقع لا يسبب له حرجاً، ولا يفشي أسراراً يخشى اطلاع الناس عليها، فيفتضح أمره بينهم، فهو ـ عز وجل ـ ستار على عباده، ومن هنا يمحو العبد كل أثر لذنوبه بتأثير طريقة الدعاء للمشاعر الوجدانية دون أن يضطر إلى كشف سره للغير فالله لا يطلع أحداً على أسرار عباده، بل لا يكتفي الدعاء بإسقاط تبعة الذنوب فحسب وإنما باستبدال هذه العيوب بسمات صالحة.

ومن يقرأ ـ بتأنٍ ـ دعاء مكارم الأخلاق للإمام السجاد عليه السلام يدرك العلاقة بين الدعاء كأحد آليات منهج الأضداد وبين النتائج الإيجابية التي يحصدها الفرد المسلم من استخدامه لهذا الأسلوب في تربية نفسه ومعالجة بعض أمراضه، إذ قال الإمام السجاد عليه السلام:

«اللهم صلِّ على محمد وآله، ولا ترفعني في الناس درجة إلاّ حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزا ظاهراً إلاّ أحدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها)»[1].

وفي مقطع آخر من هذا الدعاء يقول الإمام السجاد عليه السلام:

«اللهمّ لا تدع خصلة تعاب مني إلاّ أصلحتها، ولا عائبة أُأنب بها إلاّ حسنتها، ولا أكرومة فيّ إلاّ أتممتها، اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، وأبدلني من بغضة أهل الشنآن: المحبة، ومن حسد أهل البغي: المودة، ومن ظنة أهل الصلاح: النصرة، ومن حب الدارين: تصحيح المقة، ومن

(١) ورد هذا المقطع من دعاء الإمام السجاد (زين العابدين) المعروف بدعاء «مكارم الأخلاق» بالصحيفة السجادية.

ردّ الملابسين: كرم العشرة، ومن مرارة خوف الظالمين.. حلاوة الأمنة»[١].

وقوله في مقطع آخر من هذا الدعاء:

«اللهم صلِّ على محمد وآله، وسددني لأن أعارض من غشني بالنصح، وأجزي من هجرني بالبر، وأثيب من حرمني بالبذل، وأكافئ من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر، وأن أشكر الحسنة، وأغضي من السيئة»[٢].

أما المستنكف[٣] حتى لو كان مسلماً متمرداً على أوامر ربه سبحانه وتعالى، فإن لا فرار له من جحيم القلق، بل إن ألم المكابرة يزداد شدة وحدة وبخاصة عندما يكون كافراً جحوداً، لأنه بعناده الصلف يرفض التوجه إلى الجهة التي يفتقر إليها، ومع ذلك يعاند ويتكبر ويتأفف من اللجوء إلى الله الأعلى طلباً للعون والحماية وإشباع الحاجة، ومن هنا يعيش الحيرة، والقلق في نفسه، إنه لا يدري إلى أين يتوجه، ولا يعلم الجهة التي تمتص هذا الإحساس المؤلم، فالمستنكف تمزق نفسه رغبة التوجه إلى مصدر يحميه كلما شعر بالضعف، لكنه مع ذلك يأبى عناداً أن يسلم بأن الله عز وجل هو ـ وحده ـ المنقذ، وطريق الخلاص، ظناً منه أنه مستغن عن سواه.

وكلما زاد ضغط ألم المكابرة بين جنبيه باعد هذا الإحساس النفسي

---

(١) أيضاً دعاء مكارم الأخلاق.
(٢) دعاء مكارم الأخلاق.
(٣) المستنكف هو كل من يرفض طلب التوجه إلى الله تعالى عناداً ومكابرة واستكباراً، ويرفض الشعور بالعجز أمام قدرته غير المتناهية تعالى.

بينه وبين السكينة القلبية، فهو ـ كأي إنسان يواجه الضغوط ـ يود أن يبوح بهمومه، ويبثّ شكواه لأحد ليريح نفسه من عنائها، لكنه يخشى الفضيحة من أولئك الذين أفشى لهم سره، فيخشى أن تتحول تلك الإباحة، وتلك المصارحة إلى قلق مدمر لنفسه، لأنه لم يستفرغ هموم النفس وأحزانها المضنية لدى جهة تستر العيوب، وهذا باعث قلق يضغط عليه دونما شك، ومع ذلك يحس الفرد بأن عملية البوح بالأسرار وبما في النفس من هموم متعبة له أكثر منها مريحة، فيقع في وسط صراع نفسي بين قوتين متعارضتين.. بين الرغبة في التفريغ لهمومه، وبين إحساسه بالخوف من العار والفضيحة.

ولو اضطر المستنكف إلى ترك مكابرته، والتوجه إلى أحد يطلب عونه واستشارته، لوجد أنَّ سوء الظن بالآخرين حرمه من هدوء البال، واستقرار القلب، ولذلك يبقى المستنكف أسيراً لهواجسه، وصراعاته الداخلية.

وليس للمستنكف سبيل ناجح لتفريغ همومه وبث شكواه والبوح بأسراره وبآلامه وآماله ـ دون متاعب التوجس من الآخرين والخوف من الافتضاح منهم ـ سوى الالتجاء الكامل إلى الله سبحانه وتعالى إذا كان يخشى أن تتحول عملية إفشاء الأسرار إلى الناس إلى افتضاح أمره، وقد منح المعالج التربوي المسلم للمستنكف ـ أو غيره ـ باب الالتجاء إلى الله بلا قيود أو شروط، والانفتاح على ربه تعالى في علاقة قائمة على حرية التخاطب والتجاذب، وذلك لتطهير ما في داخل الذات من متاعب وعقد ومعاناة وجدانية.

ويوضح الإمام السبط الحسن بن علي عليه السلام دور الدعاء وفعاليته وقيمته العلاجية في تحسين وضع الذات المسلمة أو تعديل سلوكها سواء

تلك التي تعاني من أمراض سيكولوجية وأخلاقية أو التي تريد حماية نفسها من غائلة ما قد يداهمها وساوس الشيطان.

يقول الإمام الحسن بن علي عليه السلام في أحد النصوص الكريمة المنسوبة إليه:

«يا بن آدم من مثلك؟ وقد خلا ربك بينه وبينك، متى شئت أن تدخل إليه، توضأت وقمت بين يديه، ولم يجعل بينك وبينه حجاباً ولا بواباً، تشكو إليه همومك وفاقتك، وتطلب منه حوائجك، وتستغيثه على أمورك؟»[1].

(١) كلمة الإمام الحسن، ص٢٤٦.

الفصل الثامن

منهج الأضداد
وتكوين العادات الحسنة

تقوم حقيقة العادة ـ وكل أنماط السلوك الإنساني ـ على أساس قابلية الكائن الآدمي لإمكانية التعلم والمران والاكتساب المستمر، فهي المادة التي يتشكل بها سلوكه، ويتم بها اكتساب المهارات، والقدرات، والمعلومات تدريجياً حتى تستقر عند حدّ معين من الرسوخ والثبات، ثم يتمّ أداء السلوك بعد ذلك بسهولة وإتقان، سواء صدر هذا السلوك بالتفات كامل من العقل أو بانفعال رشيد من القلب أو لم يكن.

ولهذا فإن نشاطنا خيراً أو شراً، صحيحاً أو خاطئاً يقوم على العادة السلوكية، فجميع أنماط سلوكنا من أكل وشرب، وملبس، ومشي، وحديث، وكذلك انفعالاتنا من غضب، وحزن، وضحك، عادات سلوكية ابتدأت أولاً من إثارة وجدانية محدّدة ثم تكررت في أنماط من السلوك، فثبتت بالتكرار عند حدّ معين، ثم أصبحت سلوكاً تلقائياً سهل الأداء.

والواقع أن ما نفعله من أقوال وحركات وأصوات وتعبيرات إيمانية هو عادات سلوكية تصدر عنا في مجالات مختلفة من حياتنا تؤدي في مجموعها إلى نمو شخصية الإنسان وتكاملها، وهذه العادات نمارسها بسهولة وعفوية وتلقائية سواء كانت ذات هدف مفيد أو ضار.

ومن المؤكد أن العادات بمختلف أنماطها تحقق للإنسان إشباعاً

لحاجاته المختلفة، فطرائق الأكل عادة حركية لإشباع حاجة فسيولوجية، والمشي الوقور والتعامل الجيد مع الآخرين والتعاون والنظام عادات اجتماعية، وممارسة تنمية مهارات التفكير كالملاحظة والنقد بمختلف أشكاله والاستدلال والتحليل والتقويم وغيرها عادات عقلية تحقق للفرد إشباعاً لحاجاته المعرفية.

والابتسامة والضحك والحزن والدهشة وتأنيب الضمير عادات تحقق للفرد إشباعاً للجانب الوجداني من كيان الشخصية الإنسانية، وهكذا فإن كل فعل نقوم به هو في حقيقته عادات سلوكية وتشكل جزءاً من كياننا النفسي.

ونظراً لأهمية تكوين وبناء عادات السلوك السوي المقبول بمعايير المشرّع التربوي الإسلامي، فقد كثرت نصوصه في القرآن والسنة وأقوال أئمة أهل البيت عليهم السلام، وذلك بغرض توجيه حركة الذات المسلمة ومساعدتها على تكوين العادات المرغوبة التي تحقق في نظر المشرّع الإسلامي الأهداف العبادية في حياة الإنسان المسلم.

والملاحظ أن النصوص التربوية الإسلامية في هذا الشأن لا تتحدث عن تكوين العادات العبادية بطريق مباشر دائماً، فقد تدعو هذه النصوص المسلم إلى بناء مكونات الشخصية بألفاظ وعبارات ومفردات لغوية لا تذكر أبداً لفظ «العادة» والألفاظ القريبة منها.

وتكتفي هذه النصوص في سياقها اللغوي بالتركيز على حث الفرد المسلم وتشجيعه على تكوين عادات لغوية وحركية وعقلية واجتماعية وروحية يريد المشرّع سيادتها في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، فسياق ألفاظ النصوص التربوية والمعرفية الإسلامية تتضمن تطبيع النفس وتدريبها بالفضائل والقيم وأنماط السلوك السوي التي تمثل جوهر العادات وقيمتها الإنسانية في النظرية التربوية الإسلامية.

بيد أن بعض النصوص التربوية الإسلامية تتوجه مباشرة إلى تكوين العادات العبادية السوية المطلوبة بألفاظ وعبارات واضحة ومحدّدة، وتشير إلى لفظ «العادة» وما يتصل بها من ألفاظ مباشرة، مثل (الخير عادة.. الشر عادة.. حسن عادة. غلبة العادة.. العادات قاهرات.. العادة عدو تملك.. ضراوة عاداتها.. ترك العادات.. غيروا العادات.. من أطاع العادات.. عوّد نفسك السماح أو عوّد نفسك لين الكلام أو بذل السلام.. عود أذنك حسن الاستماع. لسانك يستدعيك ما عودته، وهكذا تتنوع في ثنايا النصوص التربوية الإسلامية ألفاظ تدل بوضوح على رغبة المشرّع الإسلامي في تكوين العادات السوية بالمعايير العبادية، وسوف نجد هذه الألفاظ متداولة بصورة مباشرة أو غير مباشرة وموضحة في خطاب المشرّع التربوي الإسلامي كما سوف نعرضها في نصوص لاحقة.

ومما لا شك فيه أنه يظل للعادة بعد ذلك تأثير كبير على النفس، وسلطان على حركتها وسكونها، فإن كانت خيراً أسهمت في تكامل الشخصية وبناء قدراتها المختلفة وتحقيق توازنها الداخلي والاجتماعي، وإن كانت سيئة ألحقت ـ بالإنسان ـ ضرراً بالغاً وحالت دون النمو الطبيعي لقدراته، ولطاقاته، وفصمت أسوار العلاقة مع الآخر.

ولما كانت العادة حركية كانت أو عقلية أو نفسية، هي مادة السلوك الإنساني، فإن المنهج التربوي الإسلامي، حدّد رؤية واضحة متكاملة لبناء العادة الحسنة وتغيير العادة السيئة من حياة الإنسان، ومما لا ريب فيه أن هذه الرؤية هي زاد المعالج النفسي المسلم وسلاحه في تغيير أفكار واتجاهات المريض وعادته السيئة.

كما أنها الوسيلة التربوية الموجّهة، لبناء العلاقات، ومهارات التفكير،

وسائر القدرات التي تصوغ الذات المسلمة من جديد، وسنحاول إن شاء الله عز وجل تحديد ما نراه وجهة نظر إسلامية من العادة وأنواعها، وأنماطها وكيفية تكوينها، وعناصرها، وأهميتها في نمو الذات المسلمة المتميزة.

مفهوم العادة:

وضع بعض علماء النفس المحدثين تعريفاً لمفهوم العادة كالأقدمين، فالعادة عند بعضهم هي نمط من السلوك الذي تستثيره مواقف معينة بأسلوب آلي ميكانيكي، فكلما وضع الكائن الحي في ذلك الموقف كلما جاءت هذه الاستجابات الآلية المعروفة باسم «العادة»[(١)].

يتضح من مصادر التراث التربوي الإسلامي في موضوع السلوك، أن بعض العلماء المسلمين ـ بخاصة علماء السلوك والأخلاق أمثال ابن سينا وابن مسكويه والإمام الغزالي ـ كانوا أسبق من المحدثين في محاولتهم تحديد مفهوم العادة[(٢)]، ومصادر نشأتها، وقد كانوا على وعي بأهميتها في تكوين السلوك الإسلامي، ولذلك كثرت بين علماء السلوك الأقدمين والمحدثين محاولات تحديد مفهوم العادة، ويلاحظ أن هذه المحادثات اشتركت تقريباً في الوصول إلى معنى واحد، وإن تفاوتت ألفاظ اللغة بحسب التطور التاريخي للبشر.

(إن العادة بوجه عام هي نمط ثابت من الأفعال والحركات والاستجابات المكتسبة التي ظلت تتكرر زمناً طويلاً نسبياً، سواءً تمت من غير روية أو صدرت عن موقف عقلي وجداني موجّه».

---

(١) د. سيد محمد خيري، علم النفس التربوي، ص١٦٣.
(٢) انظر بعض تعريفات علماء الأخلاق والسلوك والتربية المسلمين في كتاب «الدراسات النفسية عند المسلمين» لمؤلفه د. محمد العثمان، ص٢٠٧ وما بعدها.

ونعتقد شخصياً أن هذا التعريف للعادة يتخطى النظرة القاصرة التي ترى في العادة سلوكاً يتمّ بسهولة، وعفوية، وآلية رتيبة جامدة يختفي فيها عنصر التوجيه والقصد، فليست العادة في نظرنا سلوكاً آلياً يصدر دائماً عن عفوية بعيدة عن الاختيار العقلي الراشد للإنسان.

وسنرى فيما بعد أن العادة الإسلامية تتكون بسبب موقف نفسي يختاره المسلم عن وعي مقصود، ويصاحب نشأة العادة الإسلامية مجاهدة روحية صعبة يختارها المسلم عن قصد، وطواعية ذاتية، مستهدفاً من ذلك نيل شرف المقام عند الله عز وجل، ويتم ذلك سواء في تغيير عادة سيئة أو تدعيم عادة حسنة.

فالعادة الإسلامية سلوك خير تلقائي، لكنها تصدر عن وعي تام بما تفعله الذات الإنسانية لأن سلامة النية والهدف والمنهج في بناء العادة يجعلها عملاً عبادياً، وليست الفضائل والأعمال الصالحة التي تصدر عن المسلم سوى كتلة متكاملة من العادات الإسلامية التي نشأت في حياتنا، وباختيارنا، من أجل تحقيق الوظيفة العبادية للمكلفين.

ويشتمل المفهوم البسيط على عناصر العادة الإسلامية من تكرار للسلوك، وطريقة تعلمه واكتسابه، وتقارب الوقت في الاستجابة السلوكية كلما تكررت المثيرات الخاصة بها، وأهم هذه العناصر هو القصد الذي يجعل صدور السلوك بسهولة، وبميل قلبي، والتفات هادئ مقصود من النفس، وتوجه حركتها نحو هدف معين، فلا ينبغي للمسلم أن يستجيب بطريقة آلية لمثيرات معينة دون وعي، فإذا حدث ذلك اختفت المجاهدة، وغابت قدرة العقل عن المواجهة للعادات المذمومة، واختفى بذلك أبرز عنصر يجعل من السلوك عادة إسلامية خالية من الشوب.

وقد صرّحت النصوص الإسلامية بأهمية عنصر القصد والإخلاص في المجاهدة النفسية وبناء السلوك في شخصية المسلم حيث قال تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾[١].

وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢].

وقال الإمام علي عليه السلام: «تخير لنفسك من كل خلق أحسنه، فإن الخير عادة، وتجنب من كل خلق أسوأه، وجاهد نفسك على تجنبه، فإن الشر لجاجة»[٣].

فالنصوص السابقة حدّدت عناصر العادة، لكنها أكّدت على الاختيار العقلي، والمجاهدة كأبرز هذه العناصر، وبدونها تفقد العادة طابعها العبادي وإن بدت للناس سلوكاً خيراً، فالعادة في مفهومها الذي أقره علم النفس الأرضي لا تتطلب سوى التكرار، والاكتساب، وتقارب الزمن، وتشابه الاستجابة مع سابقاتها، وهذا يصح على مختلف أنماط السلوك، غير أن المشرّع الإسلامي حين يؤكد على عنصر القصد العبادي والمجاهدة والإخلاص لله يريد أن يتحول السلوك كأداة لأداء الوظيفة العبادية، ويتم ذلك بترويض النفس على إتيان الطاعة، وتجنب المعصية.. إنّه يريد أنْ تتحول العادة إلى إرادة توجه النفس إلى ممارسة العبادة.

قال الإمام علي عليه السلام في هذا الصدد: «ذللوا أنفسكم بترك العادات، وقودوها إلى أفضل الطاعات، وحملوها أعباء المغارم، وحلوها بفعل المكارم، وصونوها عن دنس المآثم»[٤].

---

(١) سورة النازعات، ٤٠.
(٢) سورة العنكبوت، ٦٩.
(٣) ميزان الحكمة ج٧ ص١٢٢.
(٤) المصدر السابق، ص١٢٣.

وقوله أيضاً: «غالبوا أنفسكم على ترك العادات، وجاهدوا أهواءكم تملكوها»[١].

وبمقتضى النصوص الإسلامية السابقة، فإن الاختيار العقلي للعادة لا يكفي لتكون سلوكاً إسلامياً، فلا بدّ أن يكون هذا الاختيار عملاً قائماً على إرادة عبادية، ونية نقية موصولة بطاعة الله سبحانه وتعالى، قال الإمام علي عليه السلام:

«عود نفسك حسن النية، وجميل القصد تدرك في مباغيك النجاح»[٢]... أي تحقيق الأهداف المحدّدة بنجاح تام.

مصادر العادة ومراحل نشأتها:

أولاً: مصادرها:

حدّد علماء السلوك المسلمين مصدرين أساسين لتكوين العادة هما:

- الفطرة.

- التدريب والمران.

١ ـ الفطرة:

كل عادة سلوكية لها أساس أو استعداد داخلي في النفس، فكل نشاط يصدر عنا له رصيد في فطرتنا وتكويننا الداخلي، ويعني أن أي شعور أو سلوك أو فكرة لا يمكن أن تبدو في حياتنا ما لم يكن هناك استعداد فطري في نفوسنا، فلا يمكن أن نقوم بنشاط معين في حياتنا كالتدين أو الممارسات التعبدية أو الانفعالات مثلاً إذا لم تكن نفوسنا مجبولة على

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٣.
(٢) المصدر السابق، ص١٢٣.

الاستجابة لها فطرياً، فالفرد يغضب، ويحزن، ويفرح، ويندهش، ويغار، ويخاف لأن النفس تحوي بين جنبيها استعدادات فطرية للسلوك الانفعالي كله.

فالفطرة الإنسانية مخزن لقدراتنا ودوافعنا واستعداداتنا، وتظل هذه القوى الفطرية دفينة حتى يتوفر لها عامل منشط من البيئة، فيؤدي دور الإبراز والتوجيه والتنشئة لا الخلق والإنشاء من فراغ، وبهذا فإن جميع العادات قبل أن تكون سلوكاً واضحاً في حركة الذات اجتماعياً، وحركياً، وانفعالياً، وعقلياً، كانت في أساسها الفطري قابليات مركوزة في أعماق النفس، ولولا تدخل المجتمع وتساند عوامله المؤثرة لبقيت هذه القابليات كامنة متكدسة ـ على حالها ـ تنتظر من يبرزها كخامات طبيعية في داخلنا ونقلها في صورة طاقات متحركة إلى الحياة الاجتماعية.

صحيح أن بعض هذه الاستعدادات تظهر مباشرة في سلوك فطري كالرضاعة عند الوليد، لكن المربي يتدخل كثيراً في توجيه الاستعداد الفطري بما يتفق مع المبادئ العامة للأمة، وفلسفتها العقائدية، غير أن المجتمع لا يقدر على منع فاعلية قوانا الفطرية، وهكذا فإن جزءاً كبيراً من الأساس الذي تقوم عليه العادات السلوكية مستمد من الفطرة، ولها قابلية (داخلية) في تركيبتنا الآدمية.

وفي مقابل ذلك، نجد بعض أنماط السلوك عن الإنسان تبقى مجرد استعدادات فطرية حية وكامنة في النفوس، قد لا تسمح لها البيئة الخارجية بالنمو والتنفس الطبيعي كإعاقة بعض بيئات الكفر لرغبة الإنسان في التدين، ومن المؤكد أن تجاهل المربي ـ أيّاً كان ـ لهذه الاستعدادات الفطرية لا يميتها، ولا يستأصلها، لأن لها رصيد فطري مركوز في أعماق النفس،

وجذر متأصل بقوة في جبلتنا، وقد أكّدت الآية القرآنية التالية على قابلية الإنسان للتفاعل الفطري مع عناصر الخير والشر، ومع نظام المجتمع المؤمن في تكوين العادات العبادية السليمة.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾[١].

ثم أشارت آيتان أخريان إلى دور المربي والموجّه بقوله عز وجل:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾[٢].

ففي هذه الآيات الأربع الكريمة تحديد واضح للأساس الفطري والمكتسب للعادة، ولدورهما الأساسي في تكوينها.

٢ ـ التدريب والمران:

يبقى السلوك كما قلنا مجرد استعدادات فطرية كامنة في النفس قبل أن تتحول إلى سلوك في شكل عادات، ومهارات حركية وعقلية واجتماعية وغيرها، وهذا ينطبق على العادات الحسنة والسيئة على حدّ سواء، فالكره والحب، والمسالمة والعدوان، وتكبر النفس وتواضعها، وكرمها ودناءتها، والجزع وصبرها، والحياء والقحة، وحلمها وغيظها وغيرها مجرد خطوط فطرية متقابلة في نفوسنا سوف تمتد إليها وسائل التربية الاجتماعية، فتعمل على تنميتها عن قصد وإرادة واعية.

إن الواحد منا لا يولد خائفاً أو متكبراً أو حاقداً، رغم أن النفس تطوي بين أضلعها رصيد فطري لمثل هذه الحالات النفسية في شكل استعدادات فطرية كامنة فقط تنتظر التوجيه الخاطئ أو السليم من المربي

(١) سورة الشمس، ٧ ـ ٨.
(٢) سورة الشمس، ٩ ـ ١٠.

لتظهر، وتأخذ مكانها في سلوك الفرد، ويمكن للمربي أن يبقي هذه الحالات دفينة عن طريق إنماء العناصر الطيبة في النفس المسلمة، وتحكم هذه العناصر في عملية مجاهدتها للحالات الفاسدة التي يمكن أن يستثيرها المجتمع بين لحظة وأخرى.

وتبدأ العادات بحركات صعبة وثقيلة في المرحلة الأولى من مراحل تكوينها، ثم يعاود الإنسان تدريب نفسه عليها حتى تصير ـ بالممارسة والمران ـ ملكة راسخة أو خلقاً على درجة كبيرة من الرسوخ والثبات، فآداب الحديث، والزيارة، وتبادل التحية والسلام، والكرم، والشجاعة، وضبط النفس وقت الغيظ، وكتمان السر، وأسلوبنا في ارتداء الملبس، وطريقة تناول الطعام، كلها عادات استقرت وثبتت من خلال مواقف تدريب مستمرة حتى تحولت بالصبر والمجاهدة، والإدراك، إلى سلوك حسن متقن يصدر عن الفرد والجماعات بتلقائية وسهولة ويسر.

ولكن كما قلنا من قبل، لا تتم العادة الإسلامية في نظر المشرّع الإسلامي بتلقائية لا وعي فيها، ولا التفاتة مقصودة من القلب، فمثل هذه العادات الخاوية من كل روح تعبدية تفقد كثيراً من قوتها، وحيويتها.

قال الرسول الأكرم ﷺ: «ليست الصلاة قيامك وقعودك، إنما الصلاة إخلاصك، وأن تريد بها وجه الله»[1].

وقال الإمام علي عليه السلام في نصيحة لصاحبه كميل بن زياد النخعي:

«ليس الشأن أن تصلي وتصوم، وتتصدق... الشأن أن تكون الصلاة بقلب نقي وعمل عند الله مَرْضِي وخشوع سوِّي، وانظر فيما تصلي وعلامَ تصلي، إن لم يكن من وجهه وحله فلا قبول»[2].

---

(١) ميزان الحكمة ج٣ ص٦١.
(٢) تحف العقول ص١٢٢.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «الخلق خلقان أحدهما نية، والآخر سجية».

قيل: «فأيهما أفضل»؟

قال عليه السلام: «النية، لأن صاحب السجية مجبول على أمر لا يستطيع غيره ـ ويقصد السلوك كعادة صدورها عن عفوية وتلقائية ـ وصاحب النية يتصبر على الطاعة تصبراً فهذا أفضل»(١).. أي جعل العادة إرادة عبادية ناتجاً عن اختيار عقلي مدرك ورشيد، وعن مجاهدة النفس وعن تحملها لمشقة المعاناة مع الشهوات، لهذا جاء في أحد النصوص التربوية قوله: «لا تجعلوا قلوبكم مأوى للشهوات»(٢).

فكل سلوك يصبح عادة بعد أن كان في أصله الفطري مجرد استعداد، وبعد تدريب استجابتنا عليه، وعلى وتيرة واحدة لنمط معين من السلوك، وهذا يعني أننا قمنا بعملية اكتساب وتعلم، ثم بقينا نكرره مرات وفي مواقف محدّدة لمدة زمنية، وبوعي، وخلال هذه الممارسة يثبت السلوك، ويتحسن الأداء، وتزول النواقص، ويقوى التدعيم، ويصل إتقان التعلم للعادة السلوكية إلى مداه الأقصى.

ثانياً: نشأتها:

تحدث بعض علماء السلوك المسلمين وعلماء النفس المحدثين عن دورين أو مرحلتين أساسيتين تنشأ خلالهما العادة السلوكية عند الكائن الآدمي سواء كانت عادة إسلامية أو عادة غير إسلامية وهما:

١ ـ الدور الأول:

ويسميه بعض العلماء بمرحلة تكلف الأفعال، حيث يبتدئ المكلف

(١) المصدر السابق، ص٢٧٥.

(٢) تحف العقول، ص٢٨٩.

بتكوين عادة جديدة، ويصاحب تكوين العادة معاناة شديدة تتفاوت من شخص لآخر، حسب قدرة المكلف على مواجهة رواسبه، وتحمل قدرته لكافة الضغوط الأخرى الناجمة عن المجاهدة النفسية.

وترنو النفس المسلمة باستمرار إلى سابق ما اعتادت عليه من سلوك، وهي في الوقت نفسه تسعى إلى مغالبة هذه الموروثات بحثاً عن تعلم جديد لعادة إسلامية فاضلة، ولهذا السبب كان نقل العادات من أصعب السياسات كما جاء في الحديث الشريف[١]، فعملية النقل تحتاج إلى برنامج رشيد منظم للمجاهدة، واحتمال شدائدها ومتاعبها، قال الإمام علي:

«أيها الناس، تولوا من أنفسكم تأديبها، واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها»[٢].

ولا يتمّ هذا التغيير إلاّ باحتمال أعباء المغارم الضاغطة على نفوسنا حين نعمل على تغيير عاداتنا.

وفي هذه المرحلة تتصف الأعمال التي يقوم بها المكلف بالتحسن المستمر كلما تكررت مواقف التدريب على العادة حتى تصبح تلقائية يؤديها الفرد عن تفكير واعٍ، وقصد نبيل، فإذا حدث تقدم ملحوظ في أداء الفرد للفعل التكليفي زادت قدرته على المجاهدة، فمثلاً تتكرر مواقف البذل والعطاء والإنفاق، ويسخى المكلف بماله شيئاً فشيئاً فتقوى قدرته على مغالبة بخله أفضل، وقد شددت نصوص المشرّع الإسلامي على هذا المعنى مثل:

«الفضيلة بغلبة العادة»[٣].

---

(١) كتاب إحياء علوم الدين، لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي ج٣، ص٥٧ ـ ٥٨.
(٢) ميزان الحكمة ج٧، ص١٢٣.
(٣) المصدر السابق، ص١٢٥.

«أفضل العبادة غلبة العادة»[١].

«بغلبة العادات الوصول إلى شرف المقامات»[٢].

«غيِّروا العادات تسهل عليكم الطاعات»[٣].

٢ ـ الدور الثاني:

وهو ثبات العادة ورسوخها، حيث يقوى سلطانها تدريجياً على النفس، لكن الثبات في العادة الإسلامية ليس معناه ـ خلافاً لمفهوم علم النفس الوضعي ـ أن السلوك يتوقف عن التقدم أو التحسن، فالنماء الحر الذي يوفّره المنهج التربوي الإسلامي للعادة السليمة لا يجعلها تتوقف عند حدّ معين، فإذا غفل الفرد في هذه المرحلة عن تقوية عاداته وبالذات تخليص النفس من الشوائب، أثر ذلك على نفح شخصيته، وسموها الروحي، فمثلاً لو كانت عادته متمثلة في السخاء، وأصبحت نفسه تتعاطى السخاء بسهولة وتلقائية، فإن ذلك لا يكفي في نظر المشرّع الإسلامي، فما المانع أن تغفل ـ النفس ـ عن دوافع البذل؟

وبلغة أوضح، إن البذل ربما يكون عادة في سلوك الإنسان المسلم، لكن المهم أن يصدر البذل عن النية السليمة الخالصة لله، نية لا رياء فيها ولا رغبة في كسب سمعة أو تقدير آخر غير رضا الله تعالى، وهي حالات مرضية تقتحم النفس وتشوّه بواعث حركتها، وهذا بكل تأكيد لا يلتفت إليه علم النفس الوضعي، فهدف المعالج النفسي الوضعي هو تغيير عادة ما دون التفات إلى بواعث تصفية العمل لله عز وجل والتقرب إليه.

(١) المصدر السابق، ص١٢٣.
(٢) المصدر السابق، ص١٢٣.
(٣) المصدر السابق، ص١٢٣.

إن التلقائية والآلية وسهولة الأداء، والإتقان هي نهاية التقدم في نمو العادات في مفهوم المعالج الغربي، بينما التقدم الحقيقي للعادة الإسلامية لا يتوقف عند هذا الحد، وإنما كذلك بتنظيفها المستمر عن شوائب الدنيا، «نوايا الفساد» ولا شك أن حرص المعالج المسلم على مقاومة تسرب الشوائب إلى النفس المسلمة خلال صدور أفعالها، يعني استمرار التقدم حتى آخر العمر، ويعني ذوبان الذات في علاقتها مع الله عز وجل.

وما يعنيه المعالج الغربي من ثبات العادة هو إقرار ضمني بعجز الذات بعد هذه المرحلة عن إحراز تقدم في مجال نمو العادات وتقويتها، ويمكن أن تكون هذه النظرة جائزة إلى حدّ ما في العادات الحركية مثلاً، وهو ما يهتم به علم النفس الغربي كثيراً، لكن هذه النظرة خاطئة دونما شك مع العادات الروحية والأخلاقية كالكرم مثلاً، فقد تخطو الذات المسلمة إلى مستوى أكثر تقدماً وأحسن حالاً، فمن الممكن أن تبالغ الذات في عطائها، فتنتقل إلى مرحلة الإيثار وإنكار الذات.

وخلاصة الأمر أنه لا آلية جامدة عند المشرّع الإسلامي للعادة الإسلامية، فيمكن للفرد أن يبلغ بها أبعد مدى ولو من خلال عمل بسيط يحسبه الناس لا قيمة له، فقد يتكرم الفرد بقليل من ماله، وهو ليس بحاجة له، لكن الإيثار ـ عطاء للآخرين وفي نفسه خصاصة أو حاجة ـ فيقول عالم الأخلاق المسلم ابن مسكويه:

«الكرم إنفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأمور الجليلة القدر، الكثيرة النفع كما ينبغي، وأما الإيثار فهو فضيلة للنفس بها يكفّ الإنسان عن بعض حاجاته التي تخصه حتى يبذله لمن يستحق»[١].

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لابن مسكويه، ص٤٣.

أهمية العادة:

أجمع علماء السلوك على أهمية العادة السوية في نمو الشخصية، وقد أبرز هؤلاء العلماء بعض الآثار التي تدل على هذه الأهمية، وحصر البعض آثار العادة في النقاط التالية:

١ ـ دور العادة السليمة في بناء الشخصية:

إن العادة وسيلة تساعد على البناء المتكامل للشخصية، فعن طريق اجتماع عدد كبير من العادات يتمّ البناء الأساسي للشخصية وتحديد نمطها العام المميز، وإذا كانت العادات المكونة للشخصية تمثل سمات حسنة فإنها دون شك تساهم بشكل كبير في إبراز جوانب الإبداع عند الفرد، فيزداد عطاؤه، وانتاجه، وتكون علاقاته بالله، والناس مؤسسة على العناصر الطيبة في شخصيته. فليست الفضيلة في نظر المشرّع الإسلامي إلاً بغلبة العادة.

٢ ـ سهولة العمل المعتاد وسرعته ودقته:

تنشأ العادة السليمة في بدايتها من ميل إيجابي في وجدان الإنسان أو استثارة في قلبه، ثم يتحول هذا الميل بعد ذلك إلى إتيان متكرر وممارسة للفعل حتى يرسخ ويثبت، وإذا بلغ هذه المرحلة أصبح أداء الفرد ـ للسلوك ـ سهلاً، وسريعاً، وتلقائياً، وعلى درجة كبيرة من الإتقان، فالنفس الكسول عن الاستجابة للمثيرات الخيرة يستنهضها منهج الله عز وجلّ بإشارة وجدانية عنيفة أو من خلال وضعها في موقف انفعالي شديد، ومن ثمّ تظل النفس تواظب على أداء الخير فترة من الزمن حتى تعتاد على إتيانه، وحينئذ ترفع من داخلها استثقالها لعمل الخير، وتتجه تدريجياً إلى حبه، فالفضيلة بغلبة العادة والمران عليها، وقد أكّد المشرّع التربوي الإسلامي في أكثر من نصّ على هذا المعنى مثل النصوص التالية:

«تخير لنفسك من كل خلق أحسنه فإن الخير عادة»[١].

«غيروا العادات تسهل عليكم الطاعات»[٢].

«كفى بفعل الخير حسن عادة»[٣].

فالتصدق بالمال عند بعض الأفراد لا تأنس إليه نفوسهم، وتعرض عنه، والإتيان به لأول مرّة يكون ثقيلاً، غير أن هذا الاستثقال يذوب في النفس بمرور الوقت كما يذوب الثلج تحت وهج الشمس، بدءاً من مقاومة المكلف لميله إلى إمساك المال، ومروراً بتكرار فعل التسخي، وانتهاءً بسهولة إتيان الفعل، وإقبال النفس عليه طواعية وإيثاراً.

والمصلي ـ كذلك ـ يستصعب صلاته بادئ الأمر، لكنه بتكرار أداء الصلاة يقوي وعيه بحقيقة الصلاة ويتذوق تدريجياً الجرعات الروحية لهذه العبادة، فيشعر بحلاوتها، حتى تزول في نهاية الأمر أسوار الاستثقال، ومما لا شك فيه أنه يصاحب تلك المجاهدة تحسن مستمر في إتقان حركات الصلاة وزوال الحركات الخاطئة، وهكذا يسهل بالعادة أداء الفعل العبادي.

٣ ـ العادة وتوفير الوقت والجهد:

تسهم العادة في توفير الوقت، والجهد البشري في أداء السلوك، فمثلاً لا يحتاج الفقيه في معرفة الأحكام الشرعية إلى نفس الجهد الذي يبذله عامة الناس في فهم هذه المسألة الشرعية أو بيان الحكم الشرعي لمسألة أخرى، والسبب في ذلك أنه اعتاد استعمال المقاييس الشرعية والطرائق لاستنباط الأحكام الشرعية، وكذلك ينطبق الكلام على الطبيب والمهندس والعامل والموظف الإداري وهكذا.

---

(١) ميزان الحكمة، ج٧، ص١٢٢.

(٢) ميزان الحكمة، ج٧، ص١٢٣.

(٣) ميزان الحكمة، ج٧، ص١٢٣.

ولهذا فإن وقت الفقيه في تحديد الرأي الشرعي يكون أقصر بكثير مما يستغرقه الآخرون، لأنه قضى عمره بين نصوص الكتاب والسنة بحثاً وتنقيباً واستنباطاً، واعتاد على التعامل المستمر معها عشرات السنين، فالعادة الراسخة لا تساعد على سهولة العمل وإتقانه فحسب، بل توفر الوقت والجهد معاً، وهي بكل تأكيد عوامل مساعدة على إنضاج جوانب الإبداع في شخصية المكلف، وتجعل عطاءه غنياً خصباً في مجالات أوسع وتمنحه قدرة أكبر على التكيف، وكذلك علماء التخصصات العلمية الأخرى.

تحكم العادة في النفس:

يقدر المشرّع التربوي الإسلامي حقيقة العادة من حيث قوتها، ودرجة تحكمها في النفوس، وعلى أساس ذلك نجده يحذر من قوة تحكم العادة السيئة، ويدعو إلى تغييرها بأضدادها من عادات السلوك العبادي ومجاهدة تسلطها على نفوسنا كما يدعو أيضاً إلى تدعيم العادات الحسنة، ويؤكد بقوة على إبقاء استكانة النفس للعادة الإسلامية، فالمنهج الإسلامي يدرك أثر كل منهما، ويحدّد لذلك نمط التعامل مع كليهما، وسوف نقف في مكان آخر على موقفه التربوي من هذه المسألة.

إن للعادة سلطان كبير يملك على النفس حركتها وسكونها، فيمنعها من إتيان عمل مضاد لما ألفته، وقد أكّدت نصوص تربوية إسلامية على مدى قوة تحكم العادة في النفس، وهو هنا في هذه النصوص يشير إلى أثر العادة الحسنة والسيئة، قال الإمام علي عليه السلام:

«للعادة على كل إنسان سلطان»[1].

---

(١) ميزان الحكمة ج٧، ص١٢٢.

وقوله أيضاً: «العادات قاهرات»[(١)].

وقوله ﷺ: «لا تسرعن إلى الغضب، فيتسلط عليك بالعادة»[(٢)].

وقوله: «آفة الرياضة ـ ويقصد النفسية ـ غلبة العادة»[(٣)].

وقوله: «العادة عدو تملك»[(٤)].

لهذا نهى المشرّع الإسلامي عن فعل ـ عمل ما ـ دون التفاتة واعية من القلب، ومن هنا تبدو أهمية المجاهدة وإخلاص النية في ضبط النفس وإخراجها من ظلمة الأمراض النفسية الناجمة عن خضوع النفس خضوعاً أعمى للعادة السيئة، والفرد المسلم لا يسعه بأمر من الله أن يكون عبداً لعاداته، يستجيب لها كلما استثارته مواقف معينة بأسلوب آلي، لأن المنهج الإسلامي يشترط دائماً على العبد المسلم تذكيره بالله عز وجل، فلا يفعل سلوكاً لإثارة عمياء، ولا ينفعل إحساسه باستثارة مريضة، ولا بدّ أن يربط عادته بذكر الله، فالعادة التي تحكم النفس بعيدًا عن منهج الحق تبارك وتعالى، تعتبر عائقاً يلحق الأذى بشخصية المسلم.

إن العادات قاهرات كما أكّد على ذلك النص الشريف، فمَن ألف شيئاً من الانفعالات السلبية كالحقد، والكبت، والغضب وممارسة العادة السرية في خلواته فضحه هذا الشيء في علانيته، وظهر جلياً في سلوكه الخارجي، وهذا يعني أن بعض الناس يتظاهر بسلوك حسن أمام غيره، لكن اعتيادهم سراً على سلوك مشين أو إخفاء نزعة مرضية يغالبهم في لحظة ضعف، فيبدو في السلوك الخارجي الذي يصدر عنهم ويفضحهم علانية أمام الملأ.

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٢.
(٢) المصدر السابق، ص١٢٢.
(٣) المصدر السابق، ص١٢٢.
(٤) المصدر السابق، ص١٢٢.

وترتبط هذه الظاهرة بقوة العادة وسيطرتها، وتحكمها في النفس بسبب غفلة الوعي أيضاً، قال الإمام الحسن السبط عليه السلام:

«العادات قاهرات فمن اعتاد شيئاً في سرّه وخلوته، فضحه الله في العلانية وعند الملأ»[١].

ويلاحظ أحياناً أن الضغط النفسي للعادة يبدو أيضاً في هفوات الكلام وقسمات وجهه وتعبيراته الخارجية، قالت النصوص:

«ما أضمر أحد شيئاً إلاّ ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه»[٢].

وفي نصّ آخر: «ما أضمر أحد شيئاً (إلاّ أظهره) في فلتات لسانه وصفحات وجهه».

ويقول الإمام علي أيضاً: «اللهم اغفر رمزات اللحاظ، وسقطات الألفاظ، وشهوات الجنان، وهفوات اللسان»[٣].

«تكلموا تعرفوا، فإن المرء مخبوء تحت لسانه».

«لسانك يستدعيك ما عودته، ونفسك تقتضيك ما ألفته»[٤].

فهذه النصوص تكشف عن أثر ما نعتاده سرّاً وتجليه واضحاً في حياتنا العلنية مع الآخرين بوعي وبغير وعي، فقد يغفل عقل الإنسان ويفلت المحبوس في النفس ويفتضح ما اعتاد عليه الفرد في خلواته وبخاصة أن الغافلين عن مراقبة أنفسهم لم يدربوها على المجاهدة النفسية وتركوا

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٢.
(٢) نهج البلاغة / ، ج٤، ص٤.
(٣) شرح المائة كلمة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، لفيلسوف البحرين الكبير الشيخ ميثم البحراني، ص٢١٣، وكذلك شرح عبد الوهاب للمائة كلمة ذاتها، ص٦٥.
(٤) ميزان الحكمة، ج٧، ص١٢٢.

لأنفسهم العنان بلا رقيب، مما يجعل الباطن يعبر عن نفسه كلما ضعف الوعي الظاهري عن المراقبة.

وتؤكد بعض النصوص الإسلامية على بعض الدلالات التربوية، فالنفس التي تسترسل بلا حدود في اعتياد ما لم تعتده هي في حقيقتها مسرفة في شهواتها، لا تطيق احتمال الصبر عن تلبيتها، ولا تكتفي بقدر الحاجة من الإشباع، فمن الممكن أن تتجاوز النفس في غفلة من صاحبها حدود اللذة الحلال إلى الشهوة المحرمة، لهذا منع الإمام علي عليه السلام نفسه من تعويدها على إشباع بعض اللذات الحلال، فقد عرضت عليه بعض الأطعمة الحلال، لكنه أبى أن يعطي نفسه سؤلها، خشية أن تعتاد، لذلك يطالب كل مؤمن بضرورة ضبط النفس وحبها عن بعض ما أحلّه الله، خوفاً من أن تداوم النفس على كل طلب، وأنه ينبغي على المؤمن أن يبحث عن إشباع متوازن بقدر الحاجة.

إنه عليه السلام ينبه الناس إلى ضرورة كفّ النفس عن بعض شهواتها الحلال، حتى لا تطمع فيما بعد، فتبالغ في الإقبال على الملذات فتفسد، وهو كذلك يعود النفس على استشعار الجوع الذي اكتوت به بطون الفقراء والمحرومين، فالإمام علي عليه السلام في موقفه السابق لا يستهدف من ذلك منع الحصول على الإشباع الحلال وإنما يريد أن يؤسس في شخصية المؤمن زهداً في الحياة، ويربي فيها الإرادة الخيرة القادرة على مواجهة العادة، والتحكم فيها متى شاء، واختيار الاستجابة الحلال قال:

«غير مدرك الدرجات من أطاع العادات»[1].

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٢.

تذكر بعض الروايات أنه أتي أمير المؤمنين عليه السلام بفالوذج فوضع قدامه فقال:

«إنك طيب الريح، حسن اللون، طيب الطعم، ولكن أكره أن أعوّد نفسي ما لم تعتد»[١].

ونظر أيضاً إلى حبة البرني، وصفاته حسنة، فوجأ بإصبعه فيه حتى بلغ أسفله ثم سلها، ولم يأخذ منه شيئاً، وتلمظ إصبعه وقال:

«إن الحلال طيب وما هو بحرام، ولكن أكره أن أعوّد نفسي ما لم أعوّدها، ارفعوه عني فرفعوه»[٢].

وأتي له بخبيص فأبى أن يأكله فقالوا له: أتحرمه؟ قال: لا، ولكني أخشى أن تتوق نفسي فأطلبه، ثم تلا هذه الآية:

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم﴾[٣].

انطوت هذه النصوص في داخلها على دروس تربوية عملية يحاول فيها الإمام عليه السلام ضبط النفس عما تشتهي، ويحاول فيها تربية إرادة المسلم ليتحكم في سلوكه وتنظيم الإشباع الحلال، وليس في هذا الحديث تنطع عن الدين، لأن ما فعله الإمام ليس تحريماً لحلال، وإنما هو تنازل عن حق، وعن إشباع مؤقت للذة، وتدريب الذات على مواجهة صعاب الحياة، وتقديم «نموذج حسن» يقتدي به الآخرون.

ويلاحظ هنا أن نموذج التربية لم يؤخذ من نصّ معزول عن الممارسة العملية، وإنما عن قدوة ومثل أعلى، رغم أن الإمام عليه السلام لم تعرف

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٦ ـ ١٢٧.
(٢) المصدر السابق، ص١٢٦ ـ ١٢٧.
(٣) سورة الأحقاف، ٢٠.

شخصيته قط خبطاً في توازنها فما يقوله دائماً ليس مأخوذا عن خبرة لأحد قرأها من كتاب أو تعلمها من مصلح اجتماعي آخر سوى النبي ﷺ، وإنما يعبر عن معاناة نفسية خبرها بنفسه، واستمد روحها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فكان النص بذلك علماً وعملاً، فهما وإرادة.

وعلى كل حال فإن العادة السيئة ليست وحدها التي تملك زمام النفس وليست وحدها التي تبسط نفوذها على حركة الذات في الحياة، فالسلوك الذي تميل إليه بعض النفوس يتحول بالتكرار الهادف والتدعيم الموجّه إلى عادات طيبة تصدر عن وعي، ويقبلها عقل وقلب، فأفضل العبادة غلبة العادة كما جاء في القول الشريف، لذا تفعل الطيبات في نفوس الأخيار كما تفعل الرذائل في نفوس الأشرار، وقد نصت على ذلك[١] :

«تخير لنفسك من كل خلق أحسنه، فإن الخير عادة».

و«كفى بفعل الخير حسن عادة».

«الفضيلة غلبة العادة».

إن العادة الحسنة كذلك، إذا تمكنت من النفاذ العميق في النفس، فإن قدرتنا في أداء السلوك الخير تكون سهلة، طيعة، تسارع إلى سابق الخيرات، وليس معنى ذلك أنها لا تحتاج إلى مجاهدة دائمة، فهذا العنصر هو القوة التي تجعل الفضيلة متسيدة في النفس.

وبهذا لا يكون أداء السلوك الحسن عند النفوس الفاضلة كأداء السلوك السيئ عن الضالين، والقلب عند الفضلاء أكثر وعياً بما تصدر عنه من سلوك حسن، وأكثر إدراكاً بقيمة الفضائل، وإذا صدر السلوك السوي من

(١) حدّدنا مصادر هذه النصوص في أماكن سابقة من الدراسة.

الأشرار، فيحتمل أن يكون الرياء والمفاخرة، وشوائب الدنيا بواعث هذا السلوك الطيب فتفسده وتجرده من القصد العبادي.

والنفس المطمئنة توجه السلوك مسترشدة بمنهج الله، وتهيئ للعقل مجالات واسعة للتفكير السليم والإبداع، والتنظيم وتحقيق الانتصار الحاسم الكامل على الشهوات، وتحاول بإسناد النفس اللوامة لها بتفعيل إيجابي لدور الوجدان الأخلاقي دائماً، وفي أجواء هذا التوجيه تتحرك الذات المؤمنة تجاه الفضائل باطمئنان وثقة، وتتفوق بالصبر والمجاهدة، وتوفيق الله وعونه على كل عناصر الفساد المتوقعة.

العادة في إطار منهج الأضداد:

يركز منهج المعالجة النفسية بطريقة الأضداد في موقفه من العادة المكتسبة على خطوتين يصحح بهما الوضع النفسي والعقلي للذات المسلمة، وسوف نحاول في الصفحات القادمة، التعرف على الموقف النظري لهذا المنهج وخطواته العملية لتكوين العادة الإسلامية التي تعتبر مادة السلوك في الشخصية العبادية المؤمنة.

والخطوتان الأساسيتان اللتان يتحرك بهما المنهج الإسلامي ـ الأضداد ـ لصياغة هذه الشخصية هما:

الأولى: تغيير العادات السيئة (الرذائل أو أمراض السلوك).

الثانية: بناء العادات الحسنة (الفضائل أو أنماط السلوك العبادي).

أولاً: تغيير العادة السيئة:

يسعى منهج المعالجة بالأضداد إلى تغيير العادات المذمومة لتأخذ مكانها العادات العبادية الإسلامية المضادة لها، وقد ربط هذا المنهج بين

مسألتي التغيير وتنمية الطاعات في شخصية المسلم، فلا يسهل إقباله على فعل الطاعات قبل أن يحرر محتواه الداخلي من نوازع المعصية، ودنس الذنوب، قال الإمام علي عليه السلام:

«غيِّروا العادات تسهل عليكم الطاعات»[١].

ففي هذا النص تأكيد على العلاقة بين تغيير العادات المستقبحة، وإحلال العادات المستحسنة.

وقد نصت النصوص الشريفة بصيغة «فعل أمر» على وجوب التغيير كما وجدنا في النص السابق، كما جاء في النصوص التالية:

«غالبوا أنفسكم على ترك العادات»[٢].

و«ذللوا أنفسكم بترك العادات»[٣].

وقوله: «أيها الناس، تولّوا من أنفسكم تأديبها، واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها»[٤].

فالتغيير وترك العادات المذمومة وتذليل النفس وتطويعها للسلوك العبادي، فكلمات «غيّروا ـ غالبوا ـ ذلّلوا ـ اعدلوا» تعبر عن دعوة مباشرة من المشرّع الإسلامي لتعديل السلوك وتزكيته.

واستعمال صيغة «الأمر» يبين ضرورة البدء بالتعديل فوراً، وضمان حصاد ثمرة التعديل في مستقبل الأيام، لأن عملية التعديل تأخذ متسعاً من الوقت، فالنصوص تتحدث عن الواقع والمستقبل، فإذا كفت النفس عن

---

(١) ميزان الحكمة ج٧، ص١٢٣.
(٢) المصدر السابق، ص١٢٣.
(٣) المصدر السابق، ص١٢٣.
(٤) المصدر السابق، ص١٢٥.

الاستجابة لعاداتها السلبية القديمة، واستجابت للسلوك المطلوب تغييره بالمعايير العبادية، فحينئذ يسأل المسلم نفسه ماذا سأفعل؟ ولماذا سأفعل؟

ويواجه الفرد المسلم مريضاً كان أو معالجاً، صعوبة في مسعاه بتعديل السلوك وتزكية الاستجابات، فالمريض مشدود لتركته من الرواسب السابقة والمعالج يجهد نفسه في وضع برنامج لمعاونة مرضاه على مقاومة هذه التركة من العادات المرفوضة إسلامياً، فكلاهما يتفاوت بين المربي وتلميذه يحاولان الوصول إلى الهدف.

ولكن الصعوبة في إحداث تعديل عبادي للسلوك أمر متوقع، ولابد من توطين النفس وترويضها على تحمل تلك الصعوبة، ولهذا أشار المشرّع التربوي الإسلامي لها في أحد نصوصه وهو «رياضة الجاهل ورد المعتاد عن عادته كالمعجز»[١].

لكن ذلك لا يعني استحالة[٢] التغيير بل يعني فقط مشقته وصعوبته.

وبعد أن أشرنا مسبقاً للشروط، والخطوات، والعناصر المساعدة على

---

(١) تحف العقول، ص٣٦٣.

(٢) رغم صعوبة العمل التغييري للسلوك الإنساني التي أكّدت عليها نصوص المشرّع الإسلامي والتي واجهت بالتأكيد النبي وصحابته خلال عصر الدعوة الأولى، وكذلك ما واجه المربين المسلمين خلال فترات ما بعد عصر الرسالة، غير أن المشرّع التربوي الإسلامي رفض رأي فرويد الذي أوهم تلاميذه باستحالة تغير عادات الإنسان المكتسبة في سن الطفولة، فلا يمنعنا شيء من تغيير ما ورثناه من سلوك في مرحلة ما، إذ تثبت حقائق الحياة أنه بمقدور المسلم أن يغيّر ذاته باستمرار إذا وفر الشروط المنهجية اللازمة، والتزم بخطوات الإسلام في التغيير السلوكي، واعتقد أن ما تؤكده شواهد الحياة أقوى وأثبت من رأي فرويد وزبانيته، وستظل تجارب التغيير والمحاولات العلاجية التي قام بها الأنبياء والمصلحون شاهداً على قابلية النفس للتغيير الجذري، ولولا هذه القابلية لكانت دعوات الأنبياء لا مسوغ له، ولا معنى لها، ولكانت النصوص التربوية الإسلامية الداعية للتغيير خطاباً لا قيمة له.
أما علماء النفس وبخاصة المعالجين السلوكيين فقد أكّدوا على أهمية تعديل السلوك، بل إن انتقادات فرويد نفسه للقيم والأديان والموقف الاجتماعي من أنماط السلوك كالجنس والطفولة والكبت واللاّشعور إنما أراد به بالتأكيد تغيير اتجاهات الناس وأفكارهم وسلوكهم وفق نظرياته، وهذا يدل على رغبة فرويد المبطنة والمعلنة معاً في علاج السلوك الإنساني كما يراه.

عملية المعالجة النفسية بمفهومها الإسلامي، نحاول هنا معرفة عناصر هدم العادة السيئة، فأثر ذلك في إعادة تشكيل الشخصية المسلمة.

عناصر هدم العادة السيئة:

هناك بعض العناصر التي يمكن للمعالج النفسي المسلم أن يستثمرها في عملية هدم العادة السيئة وتحطيم قدسيتها، ونسف أسوار وجودها من داخل الذات، ومن هذه العناصر:

أ ـ تنفير القلب من العادة المذمومة:

إن المعالج يحاول أولاً إحداث تغيير داخلي وتكوين استجابة مضادة للسلوك المرضي، فإذا كان المريد بلغة الصوفية غضوباً أو ظلوماً أو حسوداً أو حقوداً، فإن دور المعالج المسلم هو إثارة روح الكراهية عند مرضاه ضد هذه الحالات المرضية وتنفيرهم، فيبدأ في ذكر سلبيات هذه الخصال وأثرها في عدم تكيف الشخص، ثم يذكر المرضى بمبادئ الترغيب والترهيب لهذه الخصال وما يضادها من السلوك، والتي أكّد عليها القرآن والسنة، ومما لا شك فيه أن الثقافة العلاجية للمربي مستمدة من هذين المصدرين، وهما قادران على أن يحدثا تعديلاً واضحاً في ميل القلب عن الرذائل والنفور منها كما حدث للفيَّاض بن عيَّاض[١].

---

(١) قصة هذا الرجل مثال للتغير الذي يحدثه النص القرآني في الذات البشرية، فقد كانت حياته نموذجاً للفسق والابتذال والعدوان على الآخرين، إذ مارس القرصنة والاعتداء على ممتلكات الناس، وذات يوم همَّ بارتكاب جريمة، حيث رأى فتاة جميلة وحدثته نفسه بالحرام وتبعها إلى البيت الذي اتجهت إليه، وعندما همَّ بتسلق البيت خاطبه هاتف داخلي نزل عليه كالصاعقة، وكان هذا الهاتف نداء من داخل نفسه في صيغة تذكر قوي لنص قرآني هو ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فقال في نفسه حين سمع النص القرآني بعد دهشة أشبه بالصاعقة: بلى يا ربُ.. قد آن، وكررها ثلاثاً، ثمّ هجر المعاصي والسيئات بعد هذا الموقف وتحوَّل لحياة الزهد والصوفية تكفيراً عن آثامه السابقة.

وأهمية هذه العناصر تأتي من كونها إحدى قنوات المعالجة ومفاتيحها في إزالة السلوك الخاطئ، فإن تأخر جهد المربي أو تعثرت خطوة تنفير الميل القلبي ضد العناصر الفاسدة لدى شخصية الفرد انعكس ذلك على سائر الخطوات العلاجية الأخرى، وإن سرى في القلب ميل داخلي مضاد للأخلاق المذمومة، وتهيئة القلب لاستقبال العادات العبادية الإسلامية والتدرب عليها يقول ﷺ:

«من المداومة على الخير كراهية الشر»[١].

ب ـ تحديد العادة السيئة:

حيث يسعى المريد أو المريض بتحديد العادة المذمومة التي ينبغي تغييرها، ونعتقد أن من المرضى من يتبع نظام ذاتية العلاج الذي يمكنهم في بعض الأحيان من معرفة أمراضهم السلوكية بأنفسهم، لكن لا يعني أنَّهم ليسوا بحاجة إلى ناصح أو مرشد إذا تشابكت في نفوسهم مجموعة من أمراض السلوك، خاصة إذا كان هؤلاء المرضى يفتقدون إلى وعي بمبادئ الثقافة العلاجية الإسلامية، ومن هنا يصبح تحديد العادة السيئة المرغوب في تعديلها أو إزالتها كلياً أمراً ضرورياً لبناء وإعداد خطة العلاج النفسي، وتوفيراً للوقت والجهد.

وعلى المريض أن يتقبل بشجاعة ما يحدّده المعالج المسلم من سلبيات في ذاته، ويتأمل بدقة مدى إصابة شخصيته بهذا المرض أو ذاك، فإذا اتفق المريض والمعالج على خطة مشتركة، سارع كل منهما إلى العمل بها بمقتضى الدور الذي حدّدته الخطة أو البرنامج العلاجي.

---

(١) بحار الأنوار ج١، ص١١١.

ج ـ إيقاف تكرار السلوك الخاطئ:

لو شحذ المرء المسلم همته وعقد العزم على إيقاف ممارسة عادات خاطئة لديه، وترك الاستجابة لها ـ بصورة سلبية ـ ولو مرّة واحدة، فإنه سيجد نفسه بالمواظبة ميالاً إلى تركها عدة مرات، وإذا استطاع أن يقاوم ميله لها في المرة الأولى، فستكون قدرته على مقاومتها في المرات اللاحقة أقوى وأصلب، حتى تستقيم نفسه على السلوك القويم الذي ينسجم مع الحق والقيم والمعايير العبادية، ومن هنا نفهم الدعوة إلى مغالبة أهواء النفس ومجاهدة ميولها المنحرفة وترك العادات الخاطئة المنافية مع نظرية المشرّع الإسلامي ومنهجه التربوي في جانبيه الوقائي والعلاجي.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«غالبوا أنفسكم على ترك العادات، وجاهدوا أهواءكم تملكوها»[1].

فالعادة السيئة تنشأ دون شك بالتكرار والممارسة، لكنها تضمر بتركها وإهمالها وعدم ممارستها، فلو ترك الفرد كسله مرّة واحدة عن أداء صلاة الفجر، وصمم بوعي، وعاهد الله عز وجل على أن يعاود ترك كسله غداً، وبعد غد، فسوف يصلي بعد ذلك في وقت الفريضة المناسب، وسوف يكون تحكمه في ترك عادته السيئة بتأخير صلاة الصبح أقوى، ولو عاهد ربه على أن يتحكم في غضبه عندما يثار من أحد، فإنه سيكرر ترك العادة المذمومة (الغضب الزائد عن الحد)، وسيتعود على الحلم وضبط سلوكه في مواقف الإثارة، قال الإمام علي:

«إن لم تكن حليماً... فتحلم»[2].

---

(١) ميزان الحكمة ج٧ ص١٢٣.

(٢) نهج البلاغة ج٤، ص٤٧.

و«تحلم. . . إذا جهل عليك»[1].

وهذا ما يتفق مع منطق المنهج السلوكي في معالجة أمراض السلوك، حيث يرى المعالجون السلوكيون أن الأمراض مجرد عادات خاطئة متعلمة من وسط البيئة، ويحتاج الفرد إلى تعلم جديد من بيئة سوية وصحية لتكوين عادات سليمة كالتدرب على التحلم ومواجهة مشاعر الخوف مثلاً.

إن ترك العادات السيئة مجاهدة يخالف الفرد فيها نوازع نفسه، ويكرهها على مقاومة ضغوط الميل لهذه العادات، ولعل هذا ما أشارت إليه نصيحة الإمام علي لابنه الحسين عليه السلام:

- «في خلاف النفس رشدها»[2].

فالتصميم يجعلك تركز على نقطة الضعف، ويجعلك تستجمع لديك القوة في المواجهة التي تعينك على إيقاف تكرارك لعادة تنبذها، وصدق الإمام الصادق عليه السلام عندما قال:

«ما ضعف بدن عما قويت عليه نية»[3].

د ـ تخلية النفس:

لا نقصد من عملية إيقاف تكرار العادة سوى تخلية النفس من رواسبها السلبية وآثارها الضارة، حتى لا يختلط في سلوك الذات عادات الخير بعادات الشر، فإذا أخلى المعالج النفسي المسلم ما بنفس مريضه من ميل للعادة السيئة وأفكار خاطئة ضمن بنسبة أكبر فرصة نجاح برنامجه العلاجي

---

(١) تحف العقول ص٢١٣.
(٢) المصدر السابق، ص٦٦.
(٣) ميزان الحكمة ج١٠ ص٢٧٠.

وتهيأت سيكولوجية المريض لتغيير اتجاهاته الخاطئة، وقد سبق أن أشرنا إلى أهمية هذا العنصر في ضمان نجاح العلاج باعتباره شرطاً هاماً للمعالجة النفسية بالأضداد[١].

وإذا نجح المعالج النفسي المسلم في تنمية إرادة مرضاه على مقاومة ميولهم إلى عاداتهم السيئة المألوفة في حياتهم من قبل، واجتهد في تدريب هؤلاء الأفراد على فعل الطاعات ومقاومة كل المتاعب النفسية الناجمة عن ممارسة الأفعال العبادية الصالحة والسوية، فإنه سوف تتحول هذه الطاعات بالممارسة إلى عادات طيبة بمعايير المشرّع التربوي الإسلامي، ومن هنا نقف عند مضمون هذا النص الشريف:

«ذللوا أنفسكم بترك العادات، وقودوها إلى أفضل الطاعات، وحمّلوها أعباء المغارم، وحلوها بفعل المكارم، وصونوها عن دنس المآثم»[٢].

هـ ـ ايقاف التدعيم:

حينما يصر الفرد على تكرار عادة سيئة في سلوكه، فإنه بالتأكيد يشعر بلذة ومتعة نفسية، لكنها لا تخلو من إحساس مرضي، وهذا يعني أن تكرار الاستجابة الخاطئة يصحبه لذة وإشباع معين بصرف النظر عن قربه أو بعده من معايير السواء، فإذا حصل ـ بصورة خاطئة ـ على المال أو بعض الاغراءات المادية أو الامتيازات الأخرى كانت هذه الأمور تدعيماً لاستجابته المرضية.

ومن المؤكد أن استمرار التدعيم المنحرف يقوي ممارسة عاداته

---

(١) انظر الشرط الخامس من شروط المعالجة النفسية بالأضداد الخاص بالتخلية والتحلية، والذي ناقشناه في فصل سابق من البحث والدراسة التي بين يديك.

(٢) ميزان الحكمة، ج٧ ص١٢٣.

السيئة، فلن يترك الفرد المنحرف نفاقه ما دام يحصل على معزز يأنس به، كالحصول على منصب أو جاه ممن يشجعونه على ارتكاب وممارسة هذه الممارسة الخاطئة المرضية.

وسيبقى الخائن والكذاب والكسول والقنوط على عاداتهم، وصفاتهم، مادام يعقب كل استجابة خائنة أو كاذبة أثر مريح ـ نوعاً ما ـ من المال أو السلطة أو تحقيق أية مصلحة خاصة، وقد أدرك قادة جماعات الانحراف بمختلف أشكاله أثر الإثابة الضالة في استمرار السلوك الضال عند مرضى القلوب، لهذا يسارعون دائماً إلى توظيف هذه الإثابة، وتسهيل الاغراءات لمن أراد تنفيذ المآرب، والخطط التي تستهدف تدمير حياة الآخرين وإيذائهم.

وهناك عادات سيئة كالبخل مثلاً ـ تبدو في ظاهرها ـ غير معززة بتدعيم ما أو غير مرتبطة بإشباع معين حتى لو كان مرضياً، وهذا خطأ فالبخيل عندما يتمسك بما يملك، يعبر في حقيقة الأمر عن تلذذه بمرضه، رغم أن هذه اللذة نفسها تحرمه من الالتذاذ بممتلكاته، فيأنس بلذة حبس المال عن الآخرين، وتغمره فرحة خاصة لا يعرفها سوى أمثاله من البخلاء، ومن ثمَّ يجد في استجداء الآخرين له لذّة نفسية تريحه، ويجد في داخله صدى لهذه اللذة المريضة.

وقد يشعر بلذة المن والتفضل وهو يعطي غيره قليلاً من المال الزائل، فالتدعيم المنحرف ليس بالضرورة مادياً، بل يكون أحياناً معنوياً، واعتقد أن هذا النمط من التدعيم يصعب ضبطه، وملاحظته من قبل الأفراد العاديين.

وعلى المعالج النفسي المسلم أن يبدأ فوراً بإيقاف التدعيم المنحرف وعزل تأثيره الذي يجعل صاحب العادة السيئة يصر على تكرارها على نحو مرضي، ولكن كيف يوقف التدعيم خاصة إذا كان خارجاً عن ذاته؟

إذا كان التدعيم المنحرف للعادة السيئة عند المريض يستمد من إغراءات المنحرفين، وليس في مقدوره إيقاف تأثير انحراف هؤلاء فعليه أن يغيّر من اتجاهات المريض نحوهم، ونحو مصدر التدعيم الضال، وهو هنا يحاول تنفير المريض من عمل المسيئين أو يشجعه على قطع الصلة بالمنحرفين، وعندما ينجح في إيقاف العادة السلبية نفسها ويتركها المريض يجب أن ينتبه المعالج النفسي المسلم إلى أنه قد لا يتوقف التدعيم في بادئ الأمر من المنحرفين رغبة منهم في إعادة المريض إلى عادته السابقة.

ولكن سيتوقف التدعيم للسلوك الضال نهائياً إذا حلّ محله تدعيم إيجابي وإذا استمر المريض بتوجيه من المعالج أو المرشد بمتابعة تعديل سلوكه بإرادة صلبة وترك عاداته الخاطئة، وسوف تبدأ العلاقة بين المريض والمنحرفين في التباعد والضعف.

ويمكن للمعالج النفسي المسلم أن يوظّف الكثير من النصوص التربوية الإسلامية الشريفة القادرة على تغيير وجهة نظر مرضاه إزاء كل عادة سيئة يرفضها المنهج الإسلامي، وذلك عن طريق لفت انتباه المريض إلى النتائج السلبية لهذه العادات لا على مستقبل ذاته بالدنيا فقط، بل على مصيره بعالم الآخرة.. عالمه الحقيقي.. ويسعى إلى إقناعه بأن تكون عاداته العبادية السليمة هي زاده الذي يعمر آخرته، وبعبارة أوضح يستطيع المعالج المسلم أن يعين مريضه على ترك عاداته السيئة بتذكيره باليوم الآخر الذي يربي في النفس الخشية من الله تعالى.

ونعتقد أن صدأ القلب من بعض الأفكار، والعادات السيئة، يمكن إزالته بتذكير المرء باليوم الآخر الذي لا ينفع فيه مال أو بنون، ولا يجدي فيه سوى العمل الخالص لله عز وجل، فالتذكير بهذا اليوم يحدث انفعالاً

إيجابياً شديداً في النفس قد يغيِّر العادة السيئة من مرّة واحدة أو يكون البداية الأولى لتغير النمط العام للشخصية، فكما جاء في كلام الإمام علي عليه السلام:

«من خاف العقاب.. أي من عقوبة الله تعالى في اليوم الآخر.. انصرف عن السيئات»[١].

وقوله كذلك: «غير مدرك الدرجات من أطاع العادات»[٢].

ويقصد بالنص الأخير التأكيد على من استجاب لعادات السلوك الخاطئ التي يرفضها المشرّع الإسلامي.

ثانياً: بناء العادة الحسنة:

ينتقل المعالج النفسي المسلم بعد ذلك إلى خطوة البناء، وهي الخطوة التي تسهم بقدر كبير في إعادة صياغة الذات على أسس إسلامية، فبعد أن تتجاوز النفس مرحلة التهيئة وإحياء قابليتها للتعلم السلوكي الجديد، يبادر المعالج المسلم إلى تدريب مرضاه تدريجياً عملاً ما مؤسساً على عادات السلوك العبادي الإسلامي كي يستكمل بناء الذات، ولا جدوى من التهيئة النفسية لاستقبال العادات الحسنة بدون مواظبة النفس على فعل الطاعات وتحليتها بمكارم الأخلاق.

فإذا كان أحد مقاصد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٣] هو الإحساس بضرورة التغيير والإيمان بتعلم الجديد من الأفكار والعادات، وتفريغ النفس من محتواها الداخلي السابق والإحساس

---

(١) ٢٠٠٠ كلمة، ص٨٢.

(٢) ميزان الحكمة، ج٧، ص١٢٢.

(٣) سورة هود، ١١.

بضرورة التغيير والإيمان بأهمية تعلم جديد وصحيح للأفكار والعادات والممارسات، فإن المقصود من قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1]، هو ملء النفس بالعادات الحسنة، فالآية الأولى تدعو (لتخلية النفس) وتريد الآية الثانية توجيه المؤمن نحو مسار الخير بتحلية الذات بالقيم والفضائل العبادية.

وجاء في بعض المرويات[2] التالية:

«عوّد نفسك فعل المكارم، وتحمل أعباء المغارم، تشرف نفسك، وتعمر آخرتك، ويكثر حامدوك».

«عوّد نفسك التصبر على المكروه، ونعم الخلق التصبر في الحق».

وقد أفاضت النصوص التربوية الإسلامية بتحديد العادات العبادية الحسنة التي ينبغي أن يتعود عليها المسلم مثل:

«عوّد نفسك السماح».

«عوّد نفسك الحلم».

«عوّد نفسك لين الكلام، وبذل السلام».

«عوّد أذنك حسن الاستماع».

«سنّة الكرام الوفاء بالعهد».

«خيركم من أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى بالليل والناس نيام».

---

(١) سورة الإسراء، ١٠.

(٢) يمكن مراجعة هذه النصوص التربوية الروائية في كتاب ميزان الحكمة، ج٧، ص١٢٤ ـ ١٢٦.

ما جاء في النصوص التربوية السابقة مجرد إشارات لأنماط السلوك العبادي المرغوب فيه والذي يراد من المسلم إتيانه والتعود عليه.

وبناء العادة الحسنة ليس أمراً هيناً، لكنه مسؤولية عبادية كبيرة يحاول من خلالها المربون المسلمون صوغ الشخصية المسلمة، وتكوين المجتمع المؤمن، فإذا كلف كل منا نفسه مسؤولية تربية العادات الإسلامية في كيانه النفسي والعقلي، اجتمع الجهد كله في إصلاح الأمة وتغيير حياتها، وأنظمتها، وقيمها.

فبناء العادة الطيبة في ذواتنا كأفراد مسلمين هو المقدمة الأولى لبناء المجتمع على روح العادات الإسلامية، وحينئذ تمتزج في سلوك المسلم مسؤوليتان إحداهما تكمن في مسؤوليته عن تكوين العادة الحسنة في ذاته الفردية، والأخرى مسؤوليته في صوغ الشخصية الأساسية للأمة على أساس وجهة النظر الإسلامية للذات الاجتماعية.

عناصر بناء العادة الإسلامية:

كما أن هناك عناصر لهدم العادة السيئة من حياة الفرد، كذلك هناك عناصر لبناء العادة الحسنة في شخصيته، ويجب على المعالج النفسي المسلم أن يستفيد من الفعالية الإيجابية لهذه العناصر في تكوين العادة الإسلامية، ورغم أن هذه العناصر تبدو في ظاهرها مناقضة لعناصر الهدم السابقة غير أنها مكملة لها، فقد أشرنا من قبل إلى أن نجاح المعالج في هدم السيئات، لا يعني ضمان نجاحه في عملية البناء، وهنا ندرك ضرورة توفر العناصر الإسلامية لبناء العادات الفاضلة في الفرد معاً، ويمكن إيجاز هذه العناصر على النحو التالي:

١ ـ الوعي والاختيار والمجاهدة:

لما كانت وظيفة المعالج المسلم تنفير القلب من عادة ما، أو من مجموعة عادات سيئة، فإنه كذلك يجهد نفسه لإيجاد ميل قلبي إيجابي نحو عادة حسنة تضادها أو نحو مجموعة من العادات الإسلامية التي تكون بديلاً حسناً للسيئات، فإذا فرغ المعالج من ترغيب النفس في سلوك ما، أعقبه حثّ لها على الفعل المرغوب، وهذا يتطلب بكل تأكيد قيام المعالج ومرضاه بعملية انتقاء واختيار من كل خلق أحسنه، وتطبيع النفس عليه، ولا يخلو هذا من جهد ومشقة، لكنه أفضل وأضمن.

فالانتقاء ببساطة يعني اختيار الفرد عن روية وتأمل وعلم السلوك المرغوب، رغم أنه قادر على اختيار آخر يضاده، ولذلك لا بدّ أن يصاحب الاختيار وعي تام بالرذائل والفضائل معاً، ووعي بالمنهج الذي يقول الفصل في أضداد السلوك، وهنا يتلازم الوعي، والإرادة، والمجاهدة في اتجاه واحد، يصب في بناء العادة الإسلامية.

إن العادة الإسلامية يتوفر فيها السهل، والاكتساب، والتكرار، لكنها تمتاز عن العادة غير الإسلامية بصدورها عن إرادة واعية وتفكير ناضج يجعل من العادة الإسلامية أداة عبادية لتحقيق رضا الله سبحانه وتعالى، وقد جمع أحد النصوص هذه الخصائص في مفهوم العادة الإسلامية:

«تخير لنفسك من كل خلق أحسنه، فإن الخير عادة، وتجنب من كل خلق أسوأه، وجاهد نفسك على تجنبه، فإن الشر لجاجة»[١].

ونعتقد أنه لولا تميز العادة الإسلامية بهذه الخصائص لما أصبحت العادة فعلاً تكليفياً يؤجر العبد عليها، فالانتقاء والإرادة، والمجاهدة في اختيار الخلق الحسن، وتجنب أسوأه هو روح التكليف الذي أنيطت به

---

(١) ميزان الحكمة، ج٧ ص١٢٣.

شخصية الإنسان المسلم، ويقيناً فإن الانتقاء لا يؤكد قيمة الذات فحسب بمعيار الناس في دنياهم، بل تجعله يفتش عن التقدير الإلهي، غير أن هذا التقدير لا ينال إلاّ من خلال تفجير الطاقات المحبوسة في نفوسنا.

وإذا لم يقم الفرد بعملية انتقاء جيد لأحسن الخلق الذي يناسب الفطرة، وإذا لم يترك للإرادة حرية الاختيار، فإنه في الواقع أمات تفكيره وإرادته، وأصبحتا من الطاقات المعطلة التي تعوق النفس عن تكوين عادات إسلامية، ولذلك كله فإن الانتقاء المصحوب بمجاهدة واعية يبني في النفس عادات الصدق، والإيثار والثبات الانفعالي، واحترام الآخرين، ويسمح لسائر سمات وطاقات الشخصية أن تنمو، وأنْ تتفيأ ظلالها بمنهج الله الرشيد.

يقول الإمام علي عليه السلام: «ذللوا أنفسكم بترك العادات، وقودوها إلى أفضل الطاعات وحملوها أعباء المغارم، وحلوها بفعل المكارم، وصونوها عن دنس المآثم».

والانتقاء، والمجاهدة الروحية مستمران خلال فترة العلاج وبعده، بل يستغرقان العمر كله، وبدونهما لا يتمّ إحراز تقدم ملموس في تكوين العادة الإسلامية، وإضفاء البعد العبادي عليها، فاختيار الخلق الحسن لا يمنع فيما بعد من انحراف النوايا، فيتحول الكرم مثلاً إلى مباهاة وليس خلقاً تعبدياً هدفه التقرب لله، ولهذا لا بدّ من مداومة الفرد على مجاهدة نفسه لمنع أي تحول خاطئ في القصد والإخلاص، فيبطل العمل.

قال الإمام علي عليه السلام: «املكوا أنفسكم بدوام جهادها»[١].

وقال أيضاً: «جاهدوا أهواءكم تملكوها»[٢].

---

(١) ميزان الحكمة، ج٧، ص١٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص١٢٣.

٢ ـ تحلية النفس بالحسنات:

بعد أن يحبب المعالج النفسي المسلم العادات الحسنة إلى قلوب مرضاه ويهيئ نفوسهم وعقولهم للتلقي والأخذ، يبادر إلى تدريب النفس على أحسن الخلق عدة مرات حتى تصبح الاستجابة عادية، سهلة الأداء، فالتدريب العملي للشخصية على فعل الطاعات يسميه علماء الأخلاق المسلمون بعملية تحلية النفس بمكارم (الأخلاق) وفضائل الطاعات.

ونلاحظ هنا أن التحلية كعملية سلوكية تشتمل على ثلاثة جوانب هي:

أولاً: الجانب الوجداني ممثلاً في ترغيب قلب الإنسان المسلم إلى حب العادة الحسنة الموافقة للشروط الإسلامية والمعايير الإيمانية.

وثانياً: الجانب العقلي ممثلاً في المعرفة، وانتقاء السلوك العبادي عن وعي ومعرفة صحيحة، وإدراك قيمة الفضائل والقيم الدينية والأخلاقية لأنه لا يقبل عمل إلاّ بمعرفة سليمة كما جاء في النصوص السابقة.

وثالثاً: الجانب النزوعي والتنفيذي حيث تنزع النفس إلى الممارسة العملية للأفكار والاتجاهات الصحيحة وتمثلها في سلوك واقعي بالحياة.

ولتحلية النفس مكان كبير من الأهمية، إذ يجتهد المعالج المسلم في تحلية النفس بتفجير كافة طاقاتها سواء كانت حركية أو عقلية أو وجدانية أو اجتماعية وغيرها، فإدخال تعديلات أخلاقية يتبعه تحسن واضح في كافة سمات الشخصية، فكثير من مشكلاتنا العقلية والاجتماعية والجسمية ـ أحياناً ـ يعود إلى تدهور السلوك الأخلاقي عند الفرد.

ولا يعني هذا أننا نؤمن بنظرية العامل الواحد في تشكيل السلوك الإنساني، فالشخصية وحدة متكاملة مترابطة الجوانب، وكل تغيّر في جانب من الشخصية يتبعه بالتأكيد تغيّر في سائر الجوانب، لذلك يسعى المعالج

النفسي المسلم إلى تحلية النفس، وهو لا يقصد الجانب الأخلاقي المحض من الذات فحسب، بل يقصد أن هذا الجانب هو جانب هام تتأثر به جوانب أخرى التي تؤثر بدورها في حركة الذات، فالعادة الحركية مثلاً يطبعها المنهج الإسلامي بصبغة أخلاقية، فقد ورد في الحديث الشريف أن: «سرعة المشي تذهب ببهاء المؤمن»[١].

إن الإنسان المؤمن لا بدّ أن يضفي على مشيه طابعاً أخلاقياً كالمشي الوقور والمتأني مثلاً ليضفي على ذاته هيبة وقوة، وعليه في الوقت نفسه أن يختار لها أحسن الخلق بما فيها العادات الحركية التي يرى بعض أنها بعيدة عن الطابع الأخلاقي، وإذا لاحظنا النص الأخير الذي ذكرناه قبل قليل نجد أنه يربط بين «سرعة المشي» كعادة حركية وبين «بهاء شخصية المؤمن» كسمة نفسية وأخلاقية لأدركنا أن التشريع التربوي الإسلامي ينظر إلى الشخصية الإنسانية ككيان متكامل يؤثر بعضه في بعض، فالمشي السريع غير المتزن سلوك حركي يؤثر على هيبة الإنسان ووقاره الاجتماعي، وهذا يعني وجود ترابط بين مقومات الشخصية في المفهوم التربوي الإسلامي، ويقدم المشرّع الإسلامي هنا مجرد مثال على هذا الترابط سلباً وإيجاباً بين مقومات الذات المسلمة.

كما أن الفرد بحاجة لسمات أخرى تعتبر جزءاً من النسيج العام للشخصية مثل لين الكلام، وحسن الكلام، وحسن الاستماع للناس، وبذل السلام، وأسلوب الأكل وهكذا، لأنها تمثل عادات طيبة وإيجابية تضفي على الشخصية مسحة إيمانية وعبادية، وبتأمل بسيط نرى أن العادات السابقة الذكر هي عادات متعددة.. عادات حركية مثل المشي، وعادات حركية

(١) تحف العقول، ص٣١.

فسلجية كطريقة الأكل.. وعادات لغوية مثل لين الكلام، وبذل السلام.. وعادات اجتماعية مثل بذل السلام للآخرين، وحسن الاستماع لهم.. وهكذا لا تنفصل العادات كسلوك في حياة الإنسان عن بعضها، وهذا ما يقرّه المشرّع التربوي الإسلامي في نصوصه التربوية.

تقول بعض الروايات في هذا الشأن:

«عوّد نفسك لين الكلام، وبذل السلام، يكثر محبوك، ويقل مبغضوك»[(١)].

و«عوّد لسانك حسن الكلام تأمن الملام»[(٢)].

و«عوّد أذنك حسن الاستماع»[(٣)].

والنصوص التي تؤكد على تحلية النفس وتطبيعها الطاعات كثيرة تأخذ مساحة كبيرة في التشريع التربوي الإسلامي، وتصب في مجرى واحد لتحقيق الأهداف العبادية، وقد أشرنا من قبل إلى عدد من الآيات والأحاديث التي توجب على المسلم تحلية نفسه بالخصال الحميدة، فهي المادة التي تشكل النمط العام للشخصية العبادية، ويلاحظ أن هذه النصوص تضع القواعد السلوكية العامة للمسلم، وأحياناً تقوم النصوص بتفصيل أنماط السلوك الإسلامي المندرج لتوضيح هذه القواعد.

٣ ـ تكرار السلوك الإسلامي:

هذا العنصر من أبرز عناصر بناء العادة السلوكية إسلامية أو غير إسلامية، غير أن المنهج الإسلامي يحرص على مواظبة الفرد على اعتياد

(١) ميزان الحكمة، ص١٢٤.
(٢) المصدر السابق، ص١٢٤.
(٣) المصدر السابق، ص١٢٤.

السلوك الحسن المتفق مع المقاييس العبادية، وإذا كان السلوك يتكون أحياناً من موقف انفعالي شديد، فإنه كذلك يتكون بفعل تكراره زمناً طويلاً، والعادة الإسلامية لا تخرج عن نطاق هذين الأسلوبين في كيفية نشوئها، لكن التكرار في بناء العادة الإسلامية لا يجعل منها سلوكاً آلياً يتمّ تلقائياً وسهولته لا علاقة لها بالقصد وسلامة نية الفعل بالمعايير العبادية.

فالمسلمون في كل بقاع الأرض يواظبون على صوم رمضان، لكن المشرّع لا يرتضي أن يكون ذلك سلوكاً آلياً يتمّ بغير وعي، ومقطوعاً عن الوظيفة العبادية للفرد، فالمشرّع يوجب تعيين نية الصوم للشهر كله، بل إن بعض الفقهاء يؤكد على ضرورة تجديد النية في كل يوم، وسواء كانت النية معقودة للشهر بأجمعه أو متجددة يومياً، فإن القلب حاضر في ممارسة ما يعتاده من صيام، ولا يقبل عمل لا يلتفت فيه القلب إلى الرضا الإلهي.

وهكذا فإن حضور القلب عنصر أساسي في بناء العادة سواء كانت صلاة، صياماً، معاشرة، تعلماً، تفكراً، زيارة، صبراً على مشكلة أو غيرها، فكل العادات الحسنة قد تبدو في ظاهرها إسلامية، لكنها ليست كذلك ما لم يكن القصد منها طاعة الله وتذكيراً حياً للقلب به عز وجل.

إن أهمية التكرار في بناء العادة الحسنة أنه يؤصل السلوك الطيب بالنفس، فيجعلها ميالة إليه لا بالتعود، بل بالتفاتة واعية من القلب، ولما انحسر فهم المسلم في العصور المتأخرة عن فهم العلاقة بين مبدأي التكرار والقربى والإخلاص، بدأت عاداته الحسنة تنفصل شيئاً فشيئاً عن المفهوم الإسلامي الصحيح.

ويمكن للمعالج المسلم أن يوظف هذا المبدأ في تكوين سلوك إسلامي عند عامة الناس، وبخاصة مرضاه، فأنماط السلوك الإسلامي

تؤسس من خلال مواقف الإثارة الانفعالية الهادفة أو من خلال مبدأ التكرار المقرون بتذكر الله، فالعادات الإسلامية الطيبة تستمد قوتها من خلال هذا المبدأ، فكما يعتاد الفاسق تكوين موبقاته تدريجياً، عن طريق التكرار، كذلك ينمي المعالج المسلم أنماط السلوك الطيب في نفوس مرضاه عن طريق المواظبة وتكرار أدائه، حتى الإتيان به استجابة واعية مقصودة تصدر عن النفس المؤمنة، بسهولة، وتلقائية، وتوجه عبادي لله عز وجل، حيث يريد الله كما ذكرنا أن يكون الخير فينا عادة وإرادة وعبادة.

٤ ـ تدعيم السلوك:

أشار علماء السلوك إلى أهمية عنصر تدعيم السلوك بأثر حسن وإثابة مجزية، وهو من أقوى العناصر اللازمة لبناء العادة، فلا يكفي تكرار السلوك من قبل الأفراد لتكوين العادة الحسنة إذا لم يتبع كل استجابة سلوكية صادرة عنهم تدعيم إيجابي، فكما أن السلوك تضعف قوته حينما يرتبط بحالة منفرة، كذلك تقوى استجابته إن تبعه تدعيم إيجابي، فالمكافأة تؤدي في نظر العلماء إلى تعلم جديد، وإلى تكوين السلوك المرغوب فيه، لهذا كان بعضهم يعتقد أن السلوك المصحوب بإثابة أقوى من تكرار سلوك عدة مرات لا تعززه إثابة.

أما مفهوم الإثابة الإسلامي ـ وإن كان يلتقي أحياناً مع بعض الأسس التي يقوم عليها قانون الأثر أو التدعيم أو بعض مبادئ التعزيز في علم النفس الوضعي ـ فإنه في التشريع التربوي الإسلامي أبعد نظرة وأشمل، فالإثابة الإسلامية التي تعين الفرد على تعلم السلوك الجديد ليست دنيوية تؤدي إلى إشباع سريع، وعاجل للحاجات، بل تمتد إلى العالم الآخر، فتمد الذات المسلمة بشحنات ضخمة من الإثابات المنتظرة التي لا يتذوق

طعمها غير المؤمن بالله تعالى، تلك الإثابات المتصلة بمبادئ السماء وتعاليمها.

ومن هنا فإن روح الإثابة الإسلامية ليست قائمة دائماً على الإشباع الدنيوي العاجل للحاجات، كالبحث عن التقدير الاجتماعي مثلاً أو النجاح أو تقلد المناصب، وإنما هي أيضاً ذات بعد أهم، وأبعد هو الإثابة الأخروية، وقد وضع هذا البعد فارقاً حدياً يميز بين مفهوم الإثابة الوضعي والإسلامي، وترتب عن ذلك اختلاف واضح في أنماط الاستجابة وبواعثها عند المسلم وغير المسلم، وهذه المفارقات جعلت السلوك مختلفاً بين الشخصية الأرضية الباحثة عن تقدير المجتمع، وبين الشخصية العبادية الباحثة عن تقدير الله لأفعالها.

إن علم النفس يربط عادة بين تكرار السلوك وتدعيمه بإثابة سارة، غالباً ما تكون هذه الإثابة ذات أثر مادي عاجل، يحصل عليه الكائن الحي مباشرة بعد أداء السلوك بإتقان، غير أن المشرّع الإسلامي لا يلغي تماماً التدعيم الدنيوي، ويستبقيه بإعطاء الأجير حقه قبل أن يجف عرقه، وهذه إثابة دنيوية فورية ومنتظمة، ولكن العدالة في إعطاء حق الأجير، ورفع الحيف عنه لا تتوقف عند حدود الإثابة الدنيوية... وإنما تمتد إلى تقدير الأجير بإثابة أخروية.

ولما كانت الإثابة بمفهومها الوضعي عاجلة، ومادية محضة معزولة عن مبادئ السماء فإن الشخصية الأرضية تكف عن تكرار السلوك الذي لا يتبعه إثابة مباشرة، ويفتر حماسها عندما تمتنع المكافأة، وما دامت هذه الشخصية لا تنظر لغير الأثر المادي والفوري، فإنها تواجه الإحباط في الإشباع، وتتعرض للصراع النفسي، والتوتر والقلق، فالحوافز المادية

العاجلة هي دوافع السلوك عند الشخصية الأرضية، وحينما تختفي تضعف دافعية التعلم عند الفرد ويقل حماسه عن متابعة السلوك ويضعف أداؤه في أي مجال.

يلاحظ هنا أن الإثابة في نظرة علم النفس تمثل خبرة سارة، فالإنسان يعيد سلوكه مرات ما دامت نهاية ذلك التكرار الحصول على إشباع مريح لحاجاته، ويوقف الفرد استجابته بإيقاف المكافأة، وهنا ندرك تميز الإثابة الإسلامية في جعل السلوك مستمراً سواء حدثت الاستجابة مباشرة أو تمّ تأجيلها، وسواء صاحب الاستجابة ألم ومشقة أو لم يصاحبها.

والسبب في ذلك يعود إلى اتساع مدلول الإثابة الإسلامية، وامتدادها من دنيانا القصيرة العاجلة إلى الآخرة الآجلة أو من زمن معيَّن إلى زمن أبعد في حياتنا الدنيا، ولهذا قال النبي ﷺ: «طوبى لمنْ أجَّل لحظة حاضرة لموعود لم يرَه».

وبهذا يستمر المؤمن في تكوين عاداته المرغوبة ويواظب باجتهاد مخلص على اكتسابها سواء صحب ذلك ثواب عاجل أو انطوى جهده على ألم ومشقة، فنفسه لا تتحرك من خلال الثواب الدنيوي وحده، فما ينتظره من عظيم الأجر من الله لا يضاهيه إشباع عاجل مؤقت، ومن هنا فإن الرغبة لديه في الحصول على هذه الإثابة الأخروية أقوى عنده من مشقة تكرار فعل لم يحصل فيه على إشباع لذة عاجلة أو تلبية حاجة آنية، كالحصول على هدية زائلة أو مجازاته بمدح لا يسمن ولا يغني من جوع.

والإثابة في نظر المسلم ـ كما قلنا دائماً ـ ليست حصولاً على إشباع دنيوي، ومحدود وزائل، بل هي اكتساب لحسنات تنفعه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، ويجدر أن نتذكر بما تنطوي عليه فكرة الحسنات في مبدأ

الإثابة الإسلامي من تميز لا مثيل له في كافة مناهج الفكر الوضعي، فالمشرّع الإسلامي يسجل لمن همّ بفعل الخير وأراده في سريرته ونيته، ولم يفعله، حسنة واحدة، تشجيعاً للفرد وتدعيماً لنوازع الخير في ذاته، ويحسب عشر حسنات أو أكثر لمن صدر عنه السلوك الطيب فعلياً، جاء في الحديث الشريف:

«من همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ومن همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه»[١] وإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة.

لهذا نجد المؤمن يعود نفسه الصبر على المكروه، ويتحمل شدائد الألم الذي يصحب أداء السلوك الإسلامي أحياناً، سواء نجح في تكوين العادة الحسنة أم لم يتمكن بعد، فإن المعاناة وحدها لها إثابة مجزية عند الله تعالى إنْ أخلص النية له عز وجل، فنية المؤمن خير من عمله كما جاء في الحديث، قال الإمام علي عليه السلام:

«عوّد نفسك الصبر على المكروه، ونعم الخلق التصبر في الحق»[٢].

وينبغي للمعالج النفسي المسلم أن يستفيد من قوة الإثابة الإسلامية في بناء العادة المرغوبة، ونعتقد أن قدرة المريض على استعادة السلوك المرغوب فيه سوف يتمّ تثبيته ما دامت الإثابة الدنيوية والأخروية فاعلة في النفس على هذا النحو، من المؤكد أن رغبته في الجنات ستجعله يتحمل ألم المجاهدة، وهو يدرك أن الجنةِ حفت بالمكاره والشهوات، ولا ربح

(١) محمد جواد مغنية، فلسفة الأخلاق في الإسلام، ص١٢٥.
(٢) ميزان الحكمة ج٧، ص١٢٤.

يشبه الثواب الإلهي الناجم عن هذه المجاهدة، وهذا كله يسهم في استمرار المريض على تكوين عادات إيمانية صحيحة رغم ما يصحبها من ألم.

بل إن من الحقائق النفسية أنه يعقب الألم عند المؤمن لذة لا يتذوق حلاوتها غيره بعد كل تجربة انتصار على الشهوات، وتلك التجربة الروحية الخاصة تجعل النفس المؤمنة تكف عن طلب الإثابة العاجلة، حرصاً على الإثابة الآجلة، وإن كان نظام الإثابة الإسلامية لا يمنع المسلم من الحصول على إثابة دنيوية فورية أيضاً.

ويرتبط دور الإثابة الإسلامية في تكوين العادات بعنصرين هما:

١ ـ (خشية الله عز وجل).

٢ ـ (وشكره).

أولاً: خشية الله وتقواه:

فالنفس تتأثر بما توعّدها الله من عقاب، وتتحرك لتكوين العادات المرغوبة، تجنباً لعقابه وشوقاً لثوابه، وقد صرّحت آيات القرآن الكريم بما أسماه العلماء بمبدأ الترغيب والترهيب في صياغة سلوك الإنسان، مثل قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾(١).

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة، ٨١ ـ ٨٢.

(٢) سورة النساء، ٥٦ ـ ٥٧.

ففي هاتين الآيتين مزج بين الخوف والرجاء، خوف من عذاب الله، ورجاء رحمته، ويستهدف هذا المزج إلى إثارة الدوافع الإيجابية عند المسلمين لتعلم أساليب جديدة في التفكير والسلوك مضادة للمألوف سابقاً، ويعبران بهذا المزج المتداخل عن قدرة منهج الأضداد على توجيه أساليب التربية نحو تكوين الفعل العبادي المرغوب.

ثانياً: شكر الله:

أما عنصر الشكر فيؤثر على ذهنية المسلم تأثيراً واضحاً، حيث يستمر المسلم على أدائه للسلوك الحسن وتكراره لا من أجل المثوبة والخوف من العذاب، بل لمجرد الثناء على نعم الله والاعتراف بها والشكر لما أسبغ عليه من نعم، ومن المؤكد أن اتصال هذه العناصر بمفهوم الإثابة الإسلامية يؤدي إلى إمداد المسلم خاصة المريض بشحنة كبيرة من الوعي وهمة العزيمة للتقرب إلى الله عن طريق تكوين السلوك الذي يرضاه عز وجل، فيحاول التعبير بهذه العادات الطيبة عن اعترافه لله بجميل فضله، فتمثل المسلم للسلوك الشرعي تجسيد لمفهوم الشكر، وقد سئل النبي ﷺ ذات يوم هذا السؤال:

«ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فأجاب ﷺ بقوله: أفلا أكون عبداً شكوراً».

وفي نصّ آخر: «ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك».

فإذا امتزجت هذه العناصر الثلاثة... الرجاء والخوف والشكر... استمر السلوك وتحمل المسلم ألمه ومشقته، وتخلى عن الإشباع العاجل، وسمت نفسه عن دناءة الشهوة، وكفت عن تلبية طلبها بطريقة محرمة،

وضحت بإشباعات الدنيا الزائلة وحطامها الزائل، وأدى ذلك إلى خفض القلق عند المسلم، وزيادة طمأنينة نفسه وإن اقترنت بألم المشقة، لهذا طالب بعض علماء النفس المسلمين بإعادة النظر في مفهومي الثواب والعقاب، حتى يصبح قانون الأثر أكثر تمشياً مع الواقع، فيكون الثواب إذن هو كل ما يؤدي إلى خفض التوتر والقلق عند الفرد، وحتى وإن اقترن بالألم، ويكون العقاب هو كل ما يؤدي إلى زيادة التوتر حتى وإن كان غير مؤلم»[١].

لقد كان موقف القرآن الكريم واضحاً من مسألة النظر بجدية إلى الإثابة الأخروية، وقد حشد الكتاب المجيد آيات متفرقة، وأخرى متصلة تجمع بين الترهيب والترغيب، وقد سبق أن أوردنا آيتين جمعتا بين ترهيب القرآن للكافرين من عذاب الله عز وجل، وترغيبه للمؤمنين بالجنان وحسن المآب، قال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[٢].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾[٣].

و﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[٤].

ونصوص كثيرة من الكتاب والسنة مرت على العقل المسلم خلال البحث تؤكد هذا المبدأ (التربوي) الذي له قيمة علاجية فعالة.

---

(١) د. أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، ص٢٣٧.
(٢) سورة النازعات، ٣٧ ـ ٤١.
(٣) سورة الدخان، ٥١.
(٤) سورة الكهف، ٤٦.

ومع ذلك، فإن المشرّع التربوي الإسلامي لم يسقط ـ كلياً ـ الإثابة القريبة المباشرة العاجلة، فمفهومها الدنيوي مؤكد عليه في النصوص لأهميته في تحقيق التوازن في شخصية المسلم، وفي حدود ارتباطاتها بالإثابة الكبرى، إذ يربط الله عز وجل بين المعصية وسوء أحوال الناس، وبين الطاعة وحسن أحوالهم، لأن الله عز وجل يعلم اختلاف مستويات الأفراد في فهم أنماط الإثابة، فكثير من العباد يريد الإثابة المباشرة والقريبة لتطمئن نفسه، ومنهم من يسمو بنفسه، فلا يهتم كثيراً بهذا النمط من الإثابة القصيرة، ويتطلع إلى الإثابة الإلهية في العالم الآخر، بل إنَّ بعض الإثابات الفورية والعاجلة ضرورية للحياة الإنسانية مثل قوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم:

«اعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه»[1] وفي رواية أخرى «أن يجف رشحه».

وعلى كل حال فإن تأكيد نمط الإثابة الدنيوية في المنهج التربوي الإسلامي ليس بديلاً عن الإثابة الأخروية، كما أن الإثابة الأخروية ليست إلغاءً للإثابة الدنيوية، وكلاهما يدل على واقعية الإثابة على إتيان الفعل العبادي لدى المشرّع التربوي الإسلامي.

إن الإثابة الدنيوية تعزيز للسلوك الإيماني بدنيانا، لأن النفس تتأثر بالتشويق، ولا بدّ لمبادئ التعلم السلوكي في الإسلام أن تراعي هذا الميل.

وقد نصت تعليمات المشرّع الإسلامي على دور الإثابة الدنيوية كالربط بين الإيمان الروحي، ووفرة الإنتاج والبركة في الرزق، وزكاة العمل

---

(١) عالجنا في كتابنا «التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية»، الفصل السابع جانباً من نظرية المشرّع الإسلامي في مسألة الإثابة والعقوبة، ويمكن للقارئ الكريم الرجوع إلى هذا الكتاب للاستزادة.

وإتقانه، ونماء المال، وتبادل الهدايا وتقديمها لمستحقيها، وتأكيد قيمة الذات بما تحسنه من عمل، والمدح والثناء، والعطاء المادي فهذه جميعاً أنماط مختلفة لإثابة دنيوية، بعضها مادي والآخر معنوي، لكنها تتم في حياتنا الدنيوية جزاء لنا على أفعالنا الحلال، وتدعيماً للطاعات، وهي من جهة أخرى موصولة بإثابة العالم الآخر لأنَّ الإثابة في المفهوم الإسلامي لا تتجزأ.

ومن النصوص القرآنية التي أكّدت على مبدأ الإثابة الدنيوية وأثره في تعزيز السلوك الإسلامي بأنفسنا قوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

ففي هذه الآية يربط القرآن الكريم بين الإيمان وبركة الأرض والسماء، ونماء المال الذي تحتاج له الأمة أو أية جماعة بشرية، وأكّد على العلاقة بين الطاعة، والتقوى، ووفرة الإنتاج في المجتمع المسلم، وجاء في بعض الروايات تأكيد على هذه المسألة مثل:

«البركة في مال من آتى الزكاة، وواسى المؤمنين، وواصل الأقربين»[2].

ويقول نصّ آخر:

«صلة الأرحام تزكي الأعمال وتنمي الأموال»[3]، فصلة الرحم، ومواساة المؤمنين، يعززهما الله في شخصية المؤمن، بإثباتات مادية دنيوية مثل بركة الرزق وزكاته، ووفرة الإنتاج المادي.

---

(١) سورة الأعراف، ١٩٥.
(٢) تحف العقول، ص١٢٠.
(٣) تحف العقول، ص١٢٨.

كما أن نمط الإثابة الإسلامية الدنيوية يتجسد في صيغ أخرى، كالهدايا وتبادلها بين أفراد المجتمع، فتؤدي إلى تنمية العلاقات السليمة بينهم، فالحب الناشئ عن تبادل الهدايا تعزيز لوحدة المجتمع المسلم.

فقد ورد عن النبي ﷺ (قوله): «تهادوا تحابوا».

وقوله ﷺ: «الهدية على ثلاثة وجوه:

١ ـ هدية مكافأة.

٢ ـ وهدية مصانعة.

٣ ـ وهدية لله»[1].

فالهدايا بمقتضى هذا النص ثلاثة أقسام، فبعضنا يهدي أخاه المؤمن هدية حباً لله وامتثالاً لأمره في توطيد عرى الروابط بين المؤمنين، وهدية أخرى نصانع بها الآخرين ونجاملهم، تجنباً لمشاكلهم، واتقاء لسوء سلوكهم، وصنف ثالث نرد به جميل من كافأنا، وأعاننا في محنة الحياة، أو تقديم هدية لغيرنا ممن يستحقها تقديراً لدوره في إنجاز عمل ما يساهم في البناء الحضاري للأمة، فالهدية مكافأة يؤكد عليها المشرّع، لتدعيم السلوك المرغوب أو تقدير عمل وتشجيع صاحبه، أو ثناء لله وشكراً لنعمه.

ولنقرأ هذه المحاورة بين النبي محمد ﷺ وأعرابي في مقابلة مباشرة هادئة:

لقد رأى النبي أعرابياً يدعو في صلاته، ويتزلف إلى الله تعالى بعبارات عميقة، ومضامين عالية، لقد أثرت كلماته القوية وعباراته المثيرة في نفسية النبي عليه الصلاة والسلام، وكشفت عن درجة الإيمان والكمال

(١) تحف العقول ص٤١.

التي يمتلكها، فعين النبي شخصّ لانتظار الأعرابي حتى يفرغ من صلاته، فيأتي إليه، وما أن فرغ الأعرابي حتى مثل بين يديه، فأهداه النبي ﷺ قطعة من الذهب. ثم سأله: من أين أنت؟

قال: من بني عامر بن صعصعة.

قال له النبي: هل عرفت لماذا أعطيتك الذهب؟

قال: لما بيننا من القرابة والرحم.

فقال له النبي (صلوات الله عليه وآله وصحبه): إن للرحم حقاً، ولكن وهبته لك لحسن ثنائك على الله عز وجل[١].

وفي وصية الإمام الكاظم عليه السلام لصاحبه (هشام بن الحكم) فسر قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[٢] بالمكافأة حيث قال الإمام: جرت في المؤمن والكافر، والبر والفاجر، من صُنع إليه معروف، فعليه أن يكافئ به[٣]، بل إن الإمام لم يكتفِ برد المكافأة وتبادلها بين المؤمنين كتعزيز للسلوك المستقيم، بل دعا إلى المفاضلة في تبادل المكافأة فقال عليه السلام:

«وليست المكافأة أن تصنع كما صنع، حتى ترى فضلك، فإن صنعت كما صنع، فله الفضل بالابتداء»[٤].

وهذا يعني بوضوح تام أنه إذا صدر عن الإنسان سلوك حسن كوفئ عليه، وينبغي أن تكون المكافأة أفضل من الخدمة أو المعروف الذي فعله،

(١) محمد تقي فلسفي، الطفل بين الوراثة والتربية، ج٢، ص٢٩٨.
(٢) سورة الرحمن، ٦٠.
(٣) تحف العقول ج٢، ص٢٩٢.
(٤) المصدر السابق، ص٢٩٢.

فإن قدم خدمة جليلة، كإنقاذ أحد من محنة مالية مثلاً، كافأه الآخرون بأفضل مما فعل، وإن ردوا عليه معروفه بمكافأة مساوية لمعروفه، كان فضله عليهم في ابتدائه بعمل الخير قبلهم، ومعنى ذلك أن سلوكه اجتمع فيه نمطان من المكافأة، إثابة دنيوية يرد الناس له معروفه، وحسن صنيعه بعمل مثله، وإثابة أخروية من عند الله عز وجل.

وقد تكون الإثابة على نمط آخر مثل طمأنينة النفس، وتوفقها في الحصول على الرشاد والهدوء والرضا النفسي.

قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

إن الإثابة الدنيوية التي تقوي السلوك الإيماني ليست على نمط واحد، بل متنوعة الأشكال وإن لكل استجابة سلوكية سوية إثابة دنيوية مناسبة، ورغم ذلك فأنماط الإثابة الدنيوية الباحثة عن إشباع بعيد عن الرغبة في التقدير الإلهي يحبط المثوبة الأخروية لأن عمل الفرد حينئذ لم يتخلص من الرياء، فالإثابة الدنيوية ليست هدفاً للمؤمن وليست بدلاً عن الإثابة الإلهية بالآخرة، والإثابة الدنيوية حق ولكن لا ينبغي للمؤمن أن يجردها من القصد العبادي.

ويستطيع المعالج المسلم القدير أن يجمع بين أنماط الإثابة الدنيوية والأخروية لتحقيق الشفاء النفسي في كيان المسلم، ويستثمر فاعليتهما، ليحرر مرضاه من الأمراض النفسية، ويرغبهم للفوز بالجنة، ومن هنا تبدو أهمية الترغيب في صقل الذات وعلاج آفاتها باستمرار.

---

(١) سورة الرعد، ٢٨.

(٢) سورة الأحقاف، ١٣.

ونعتقد أن المسلم قد يخسر مستقبله باليوم الآخر، ويحول دون تقدم ملموس في ذاته دنيوياً إذا أهمل مبدأ التدعيم، والبحث عن التقدير الإلهي، وبمقدور المعالج النفسي المسلم الذي له دراية بالنص أن يحرك قابلية التعلم لدى مرضاه، ويحذرهم من كسل النفس وفتور همتها، فالنفوس تأمل في ثواب الله بلا عمل، وتخاف عقابه ولا تكف عن شهواتها.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«العجب ممن يخاف العقاب فلا يكف، ويرجو الثواب ولا يتوب»[١].

والفرد «يرجو نفع عمل ما لم يعمله، ويأمن عقاب جرم قد عمله»[٢].

وخلاصة الأمر أنَّ التدعيم الدنيوي الأخروي من أقوى عناصر المعالجة النفسية وأعظمها تكويناً للعادة الإسلامية، فلا يمكن للفرد المسلم أن يواظب على تكرار الفعل العبادي ويعاني ألم تكراره لولا أن وراء كل طاعة مكافأة أو شكراً لله، أو خشية منه عز وجل، لهذا يقبل المريض كفرد مسلم على أداء السلوك الإيماني الرشيد عن طواعية وقناعة داخلية تحت دافع الشكر لله أو الخشية منه عز وجل.

فإذا أراد المعالج النفسي المسلم أن يغيّر في شخصية المسلم سلوكاً مرضياً وخاطئاً كالتكبر، ليؤسس محله أو بديلاً عنه عادة التواضع، فإنه يلتزم بالعناصر التي سبق الإشارة إليها، فيبدأ بتدريب الذات على التواضع في مواقف عملية، وتنفيره ـ في الوقت نفسه ـ من صفة التكبر، وهكذا في تأصيل سلوك ما مرغوب فيه واستئصال سلوك آخر منبوذ.

---

(١) تحف العقول، ص٣٦٢.

(٢) تحف العقول، ص١١٠.

وقد ناقشنا بشيء من التفصيل والتوسع إلى حدّ ما نظرية الإثابة والعقوبة في نصوص التشريع التربوي الإسلامي، وذلك في الفصل السابع من كتابنا «التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية»[١].

(١) هذا الكتاب الذي ما يزال حتى الآن دراسة غير منشورة، ونأمل أن يجد النور ليستفيد منه القارئ الكريم في التعرف على معالم النظرية التربوية والتعليمية لدى المشرّع الإسلامي.

الفصل التاسع

سمات
المعالج النفسي المسلم

وقفنا في الصفحات السابقة من دراستنا التي بين يديك ـ عزيزي القارئ ـ عند موقف منهج المعالجة النفسية بالأضداد من قضية علاج المريض وتعديل سلوكه الخاطئ بمعايير النظام العبادي وقيمه المعرفية والتربوية والأخلاقية، وحدّدنا دوره في تقدم المعالجة، كما أشرنا هنا وهناك ـ على امتداد البحث ـ إلى الوظيفة التربوية الفعالة التي يقوم بها المعالج النفسي المسلم، كما أشرنا إلى تشابك دور كل من المعالج والمريض وتفاعلهما وتداخل المسؤوليات بينهما في علاقة يريد المشرّع التربوي الإسلامي أن تكون إيجابية وإنسانية.

ونظراً للدور الأساسي للمعالج فإنه من الضروري أن يتعرف القارئ على نوعية المعالج المسلم، وأهم السمات التي يجب أن يتمتع بها ليؤدي مهامه على أكمل وجه، ولنؤكد على أهمية دوره في تربية نفوس مرضاه الاعتقادية، والإيمانية، والأخلاقية، والوجدانية، والواقع أن تحديد سمات المعالج يعني تعيين بعض جوانب العلاقة بين المريض والمعالج النفسي المسلم.

ومما لا شك فيه أن المشرّع التربوي الإسلامي يؤكد في نصوصه المتنوعة على أهمية تكامل سمات شخصية المعالج النفسي المسلم، لما لها من أثر كبير في تحقيق الشفاء النفسي لمرضاه ومساعدتهم على استعادة

تكيفهم ودورهم في الحياة، ويلاحظ أنه بقدر ما تتمتع شخصية المعالج من سمات متكاملة أو أقرب إلى التكامل يكون مقدار نجاح المعالجة النفسية، فإذا توفرت في المعالج السمات الأساسية التي أكّد عليها نظام المعالجة الإسلامي، كانت ضمانات العلاج النفسي ونتائجه أكثر نجاحاً، وأكثر دقة.

وهذا خلاف رؤية بعض الاتجاهات العلاجية الحديثة التي ركزت على الكفاءة العلمية للمعالج ومؤهلاته التخصصية، وبعض السمات الإنسانية الأساسية مثل قدرة المعالج على معاشرة مرضاه واحترام ذواتهم، وكذلك دور المريض واستجابته، ولا يعنيهم بعد ذلك الاستقامة الدينية أو الأخلاقية أو الشخصية.

وليس إهمال الاتجاهات الحديثة للسمات الإيمانية والروحية والأخلاقية سوى نقطة ضعف واضحة في تفاعل الشخصية الأرضية ـ خاصة شخصية المعالج النفسي الغربي ـ مع القيم الأخلاقية والروحية، ولا يمكن فهم سبب واضح لفشل المعالجات الغربية للمرضى النفسانيين سوى الإهمال المتعمد من قبل أطباء النفس الغربيين لدور القيم الأخلاقية والإيمانية في تحقيق الشفاء النفسي[١] رغم ما يمتلكه من تقنيات فنية ومهنية مؤسسة على نظرة علمية.

ومن المتعذر أن تحقق مناهج العلاج النفسي الحديث تقدماً ملموساً بالتركيز فقط على التركيبة المادية للكائن الآدمي مع إهمال تركيبته المعنوية، وبخاصة ما يتعلق بالجوانب الروحية، والعقائد الإيمانية، والقيم الأخلاقية،

---

(١) هناك ـ كما ذكرنا سابقاً في الفصل الأول ـ اتجاه علاجي جديد ظهر في الغرب المسيحي يحاول الأخذ بالقيم الدينية والأخلاقية وتفعيلها في نظام المعالجة السيكولوجية وحل المشكلات النفسية، ويقود هذا الاتجاه أبراهام ماسلو يونغ وأدلر وفيكتور ستايكل والعالم البريطاني سيرل بيرت، ويمثل هؤلاء جميعاً ركائز المدرسة الإنسانية في علم النفس.

فمثل هذا الخلل في فهم المعادلة للتركيبة البشرية يؤثر على حركة العلاج النفسي للمرضى، ويحول دون تكامل شخصية المعالج النفسي أيضاً، ولعل هذا أحد أسباب ثورة علم النفس الإنساني على يد مجموعة من الغربيين أمثال ماسلو ويونج أدركوا من تجاربهم الطويلة في ميدان العلاج النفسي مدى الخطأ الذي وقعت فيه حركة العلاج النفسي لدى الغربيين والذي تمّ فيه استبعاد القيم والأفكار الروحية والدينية والأخلاقية في عملية العلاج النفسي لأن هذه الأفكار والعقائد جزء فطري من تركيبة الكيان الإنساني.

من هو المعالج؟

قد يلاحظ ـ القارئ الكريم ـ أننا استخدمنا في البحث مصطلح المعالج النفسي المسلم، فلماذا استخدمنا هذا المصطلح دون استخدام مصطلح «الطبيب النفسي»؟

لا يشترط علماء النفس الوضعي أن يكون المعالج النفسي طبيباً، بل أي شخص لديه معرفة أولية بعلوم التربية، والخدمة الاجتماعية، وعلم النفس الإرشادي، خاصة علم النفس المرضي، وفن العلاج النفسي التخصصي، ولكن لا يمنع أبداً أن يكون المعالج النفسي طبيباً تتوفر عنده إلمامات نظرية وتطبيقية بالعلوم المذكورة تؤهله لممارسة العلاج النفسي.

إن التخصص في الطب النفسي يتطلب أولاً دراسة الطب، غير أنه لا يشترط أن يكون المعالج النفسي قد درس الطب، وعلى أساس ذلك فإن المعالج النفسي لا يمكنه الفحص الطبي للمرضى لأن ممارسته للتطبيب النفسي تستدعي قيامه باستخدام العلاجات الطبية كالعقاقير واستخدام الأدوية الكيماوية والصعقات الكهربائية.

بيد أن الطبيب يمكنه القيام بدور المعالج النفسي إذا تلقى تدريباً فنياً

في نوع معين من العلاج النفسي، وهذا لا يعني أن المعالج النفسي أقل كفاءة من الطبيب النفسي، لأن ذلك يتعلق بمهارة كل منهما في ميدان العلاج النفسي، والسمات الشخصية لكليهما وقدرتهما في التأثير الفعال بالجانب الإنساني.

والأطباء النفسانيون بالمعنى السابق ليسوا كثرة، بل هم قلة، وينطبق عليهم المعنى الواسع للعلاج النفسي، لذلك اخترنا استخدام مصطلح المعالج النفسي بدلاً من مصطلح الطبيب النفسي، كما أن المؤهلات التي اقترحها علم النفس الوضعي للمعالج يمكن أن تتوفر في فئات أخرى كالطبيب، أو العالم، المربي الأخلاقي، أو المرشد النفسي أو الأخصائي الاجتماعي أو الحكيم الناصح، أو المعلم، باستثناء توفر الكفاءة التخصصية في العلاج النفسي (أي الخبرة الطبية التخصصية بالتطبيب النفسي).

ويمكن أن تكون بعض هذه الفئات مؤهلة تخصصياً لممارسة العلاج إذا تلقت تدريباً تطبيقياً في هذا المجال، فمن الممكن أن يكون المرشد الأخلاقي ـ مثلاً ـ مؤهلاً للقيام بالمعالجة النفسية الفاعلة لتوفر سماته الشخصية المطلوبة في هذا العمل، ولفقهه بالنفس ومعرفة أحوالها وامتلاكه أساليب علاجية، كجزء من تخصصه الفني.

ونظراً لاتساع مدلول المعالج وضيق مفهوم الطبيب آثرنا استعمال المصطلح الأول على الأخير، رغم أنه لا مانع أن يكون الطبيب معالجاً، فلفظ (المعالج) تشمل فئات أخرى بما فيها الأطباء، لكن مصطلح (الطبيب) لا ينطبق إلاّ على فئة واحدة ومؤهلة علمياً وقادرة على استخدام الأجهزة، والعلاجات الطبية، وهي فئة (الأطباء)، لهذا كان استعمال لفظ (المعالج) أوسع وأشمل لعدد كبير من المرشدين النفسيين، والمصلحين، والحكماء،

وفقهاء الشرع، وكافة المربين، والأخصائيين والعاملين بالخدمات الاجتماعية والإرشادية والأخلاقية.

وبمعاينة بعض النصوص التربوية الإسلامية نجد أنها تستخدم تعبيرات مترادفة، فمرة تستخدم معالج نفسي، ونصوص أخرى تستخدم كلمات (طبيب أو معلم أو مؤدب أو ناصح)، وكلها تعني في واقع الأمر معالجة الإنسان لنفسه ذاتياً أو تحت إشراف مرشد حكيم.

ولم تحدّد هذه النصوص ضرورة انتماء الحكيم إلى فئة الأطباء، ولم تؤكد كذلك على أهمية انتماء الفقهاء، والمربين، وعلماء الأخلاق وغيرهم من العاملين في هذا الميدان إلى فئة الأطباء بمعناها المتداول، ولكنها أكّدت هذه النصوص على التوجه العقائدي الإيماني لشخصية هذا المرشد، فالمرشد أو المعالج مسلم قبل كل شيء في عقائده الدينية الإيمانية، غير أن ذلك لا يعني خلو شخصيته من المهارات الفنية، والمؤهلات العلمية التخصصية التي تؤهله للمعالجة النفسية، مثل خبرته بالنفس، وتربيته لنفسه، وكفاءته التخصصية بفن العلاج، ودرايته بأساليبها التطبيقية وبطرائقها المختلفة.

والنص التالي يؤكد هذا المعنى، قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إنك قد جعلت طبيب نفسك، وبين لك الداء، وعرفت آية الصحة، ودللت على الدواء، فانظر كيف قيامك على نفسك»[1].

وبمقتضى هذا النص الشريف يمكن أن يكون المعالج طبيباً، أو فقيهاً أو عالماً أخلاقياً، أو مربياً حكيماً، أو مرشداً نفسياً أو معلماً أو ناصحاً أو

(١) ميزان الحكمة، ج٢ص ١٤٢.

إنساناً آخر تتوفر فيه شروط القيام بأداء هذه المهمة العبادية، باعتبار أن المشرّع الإسلامي لا يطالب بتربية النفس ومعالجة آفاتها لفئة دون أخرى، ولا يطالب أن يكون المعالج النفسي فقيهاً أو طبيباً دون غيرهما، فما قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلاّ قاعدة سلوكية إسلامية عامة شاملة لمعالجة أمراض النفس ومشكلات المجتمع، وتنظيم السلوك، وممارسة النصح، والنقد الاجتماعي، والسياسي، والأخلاقي، فالمؤمنون والمؤمنات أولياء لبعضهم، يتواصون بالحق، والمعروف والصبر، والتناصح والإخلاص في التشاور بينهم.

ويجب «للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب»[١] كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام.

ونمط المعالجة النفسية التي يتبعها الفرد المسلم، تكون إما بتعلم ذاتي كما يوضح النص السابق الذكر الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام، أو بملازمة مرشد نفسي أو معالج، أو أخصائي اجتماعي مسلم أو فقيه مجتهد أو عالم أخلاقي سواء تمّ ذلك في شكل استشارة أو نصيحة أو جلسات علاجية منظمة فردية كانت أو حوارية جماعية أو بصيغة أخرى من صيغ العلاج النفسي المألوفة القادرة على تحقيق نتائج فعالة تثبت تحسناً ملحوظاً في حالة المريض.

أنواع العلاج السلوكي[٢]:

ويمكن في ضوء ذلك الحديث عن نوعين من العلاج النفسي لتعديل سلوك الإنسان المؤمن وتوجيه اتجاهاته في مسارات عبادية صحيحة مستقاة

---

(١) ميزان الحكمة ج١، ص٥٥.

(٢) سوف نبحث هنا التقسيمات العلمية المتداولة في أوساط علماء العلاج النفسي، وسنركز على تقسيم عام معترف به دينياً وعلمياً، ويسمح بتفرع أنواع من العلاجات السيكولوجية عنه.

من أفكار ومبادئ وقيم وأهداف القرآن والسنة النبوية الشريفة، وهذان العلاجان هما:

١ ـ علاج يقوم به الفرد بنفسه، معتمداً على إمكاناته وطاقاته الذاتية، وخبراته الشخصية في تعديل سلوكه الخاطئ.

٢ ـ ونمط آخر من العلاج النفسي يتطلب ملازمة معالج أو مرشد نفسي كفء يملك مؤهلات وفنيات علاجية تخصصية.

الأول: العلاج النفسي الذاتي:

تقوم فكرة العلاج الذاتي في المنهج التربوي الإسلامي على أساس إمكانية وقدرة الفرد على مساعدة نفسه في تعديل سلوكه ومحو عاداته الخاطئة وتغيير أفكاره ومشاعره الذاتية العصابية عن نفسه دون الحاجة إلى وجود معالج نفسي متخصص يلجأ إليه لمساعدته في جلسات منظمة، حيث يمارس الفرد المسلم عملية معالجة نفسه بنفسه استجابة لرأي المشرّع التربوي الإسلامي، ويسعى إلى تعديل نظرته وسلوكه وتغيير أساليبه غير التوافقية مع مثيرات الحياة، ويستبدل اتجاهاته الخاطئة بأنماط من المفاهيم والآراء والقيم والفضائل والاستجابة التوافقية الإسلامية المرتبطة بأهداف عبادية سوية، وذلك بجهد ذاتي محض، وقد يتطلب الأمر أحياناً الاستعانة المؤقتة بشخص آخر من خلال طلب نصيحة من شخصية ذات خبرة علمية أو استثمار خبرته باستشارته في مسألة ما.

ومن هنا لا يقصد من ذاتية المعالجة أن الفرد المسلم لا يتعلم العادات الحسنة من غيره، ولا يعمل على تعديل سلوكه بمعزل عن جهد الآخرين، فما دام هذا الفرد يعيش في وسط محيط تتم فيه ظاهرة التأثير المتبادل بينه وبين أفراد المحيط، فإن أثر انتقال هذا التعلم أمر لا مناص

عنه ولا بدّ منه، لكن ذاتية العلاج تعني أن لا يلازم المريض في كل الأحوال والحالات معالجاً أو طبيباً نفسياً أو مربياً أخلاقياً على وجه خاص كما يحدث الآن في العيادات النفسية، إذ يضطر بعض المرضى إلى الانتظام والتقيد بأنظمة العلاج النفسي تحت إشراف طبيب أو ملازمة مجموعة من الأخصائيين في هذا المجال وضمن جلسات منظمة ومألوفة في هذه العيادات، وتستغرق فترة طويلة وتكلف أموالاً باهظة ترهق المريض.

وليست فكرة العلاج الذاتي الإسلامي تعارض الالتجاء إلى معالج نفسي آخر لتغيير أنماط السلوك غير التوافقي، وكل ما في الأمر أن العلاج الذاتي لا يرى ـ دائماً ـ حاجة الفرد للالتجاء المستمر للمعالج إلاّ في حالات نادرة تتطلب جهداً خاصاً يقوم به أخصائي نفسي أو مرشد مسلم له دراية بفن العلاج النفسي، كالذي يحدث ـ عادة ـ عندما يواجه الفرد المسلم حالات نفسية صعبة ومعقدة مثل الاكتئاب وحالات الفوبيا الشديدة.

فالعلاج الذاتي المستمر هو الأسلوب العام للشخصية المسلمة في حركتها العلاجية اليومية، بل إن المشرّع التربوي الإسلامي كان يطالب دائماً بتوسيع دائرة هذا النمط لمعالجة الحالات، خاصة الخفيفة القابلة للتعديل، وهي مشكلات تواجه الإنسان المسلم يومياً، وهذا النوع من العلاج يستخدم في أوساط غالبية الناس وبالذات بين أفراد الجماعة المؤمنة.

إن العلاج الذاتي المستمر محاولة لتطويع الذات وضبطها من خلال جهد فكري خاص يبذله المريض دون حاجة إلى الانضباط المنظم والحضور إلى العيادات النفسية أو ملازمة معالج نفسي في أوقات علاجية محدّدة، ويتطلب هذا النوع من المعالجة السلوكية الإسلامية تغييراً في نمط العلاقة بين المريض والمعالج خلافاً لمنهج التحليل النفسي الذي يعطي المريض دوراً سلبياً، ويركز على الجهد الإيجابي في سلوك المعالج.

غير أن الإسلام يستهدف من خلال تعميم هذا النوع من المعالجة إعطاء المريض دوراً إيجابياً أكبر في نفسه، باعتبار أنه مكلف مسؤول عن أعماله، يمكنه أداء هذا الدور من خلال عملية المجاهدة النفسية التي توضح نصوص المشرّع التربوي الإسلامي أهميتها في الوقاية والعلاج في آن واحد.

فالمريض على أساس هذه النظرة يقوم بأكثر من دور في عملية العلاج، إنه الذي يحدّد أمراضه في حدود خبرته بنفسه، وهو الذي يحاول أن يفسر بواعث سلوكه، ويتعرف على الخاطئ منها، ثم يوجّه فيما بعد نفسه نحو السلوك العبادي الإسلامي، ولا شك أن النصوص التربوية الإسلامية تقدم له فهماً إرشادياً يعينه على إنجاز هذه المهمة، وهذه النصوص ممتدة في أحشاء المنهج ومصادره المعرفية والتطبيقية (القرآن والسنة) واجتهادات علماء النفس الأخلاقي المسلمين، وبمقدار وعي الفرد بهذه النصوص تكون نتائج عملية العلاج بأسلوب التعلم الذاتي.

إن المنهج التربوي الإسلامي يحرص من خلال هذا الأسلوب على التأكيد على قدرة الفرد المسلم في عملية توجيه نفسه بنفسه، فله الدور الأساسي في عملية المعالجة النفسية، وتغيير أنماط السلوك الخاطئ لديه، وهذا يشبه إلى حدّ كبير ما يسميه بعض علماء النفس التربوي والمرضي بنظرية (التعلم الذاتي) عند السلوكيين.

إن أسلوب العلاج الذاتي بمعناه الإسلامي النقي يرتكز على فكرة جوهرية هي فهم النفس البشرية، ومعرفة خصائص الذات وأسرارها وخفاياها، ولا مانع لدى الفرد المسلم أن يحشد كافة الوسائل لفهم ذاته، ثم المبادرة السريعة لتغييرها، وسواء كانت هذه الوسائل علمية مادية مستمدة

من جهد علماء النفس الإنساني أو إسلامية نقية، فإن الفهم، والتفسير، والتوجيه، والتعديل الذي يقوم به المريض إنما يعبر عن تعلم ذاتي مستمر، وهو تأكيد على توظيف قدرات الفرد في إعادة صوغ ظروف التكيف الجديدة التي تتمشى مع وجهة النظر الإسلامية، ويعني هذا أن العلاج الذاتي ليس آلياً، وليس استجابة عمياء يعبر بها الإنسان المسلم عن طريقة تفاعله مع التغييرات البيئية بشكل آلي، وإنما هو تعبير عن الفاعلية الواعية التي يتملكها المسلم، وهو كذلك تعبير عن حركة إرادة حتى لو كان ـ هذا الفرد ـ يعاني من بعض الأمراض الروحية، وهي كذلك تجسيد لفاعلية وعيه وإرادته معاً مع الأحداث المستجدة.

ومع أن نمط المعالجة الذاتية ليست عملاً سلوكياً آلياً، فإنها من وجهة النظر التربوية الإسلامية تعبر عن فهم الإنسان للشروط الضرورية لتغيير شخصيته، فإذا سعى الإنسان لتعلم ذاتي جديد، فإن هذا التعلم لا يتمّ بدون علم صحيح بقوانين تكوين السلوك السوي وتوجهه، ودون فهم لشروط التعلم السوي.

إن أسلوب العلاج الذاتي يؤكد على أهمية معرفة الشروط الملائمة والقوانين التي تساعده على تغيير السلوك، فإذا عرف الفرد المسلم المتغيرات، والشروط التي تحكم أفعاله، ووضع نفسه فيها، أعطته تلك القدرة على تعديل أنماط السلوك السيئة بأنماط من السلوك العبادي الحسن.

ومن هنا فإن فهم الذات، وملاحظتها، ومراقبتها، وضبطها، ومعرفة أضداد السلوك فيها تمثل جزءاً من هذه الشروط، ولذلك حرص المنهج الإسلامي على معرفة المشكلة السلوكية أولاً، ثم تقدير فاعليتها في النفس ثانية وآثارها في السلوك الإنساني، ثم وضع الذات في المواقف العملية التي تحررها من القلق العصابي الناجم عن المشكلة وتخفيف حساسيتها الوجدانية والأخلاقية، فإذا كان الفرد مثلاً يعاني من خوف، فمعرفة الخوف

الذي يعاني منه هو أول الطريق، حيث يقوم الفرد بتشخيص مرضه بنفسه، ثم المواجهة العملية المباشرة مع المرض بسلوك مضاد والوقوع في مواقف تدريبية تعينه على تجاوز مخاوفه، إنهما شرطان لضمان نجاح هذه الحالة المرضية.

يقول الإمام علي عليه السلام: «إذا هبت أمراً فقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم من الوقوع فيه»[1].

ويقول في نصين متماثلين:

«إذا صعبت عليك نفسك فاصعب لها تذل لك»[2].

«إذا خفت صعوبة أمر، فاصعب له ـ أي كن قوياً عليه ـ يذل لك»[3].

ويعني ذلك أن يكون الموقف الصعب سهلاً بين يدي الفرد وقادراً عليه، ويريد الإمام علي عليه السلام في نصوصه التربوية السابقة أن يقوى الإنسان من داخله نفسياً وذهنياً وأخلاقياً وجسدياً، ويشتد على كل صعوبة... أي يقوى الفرد على مشكلته فيجعل من الموقف الصعب الذي يواجهه سهلا، وتحت تصرفه، وسبباً في بناء إرادة قوية.

وهذا معناه أن النصوص المتقدمة استهدفت صناعة القوة النفسية والعقلية لدى الفرد المؤمن، وتربية الإرادة في ذاته عند مواجهة المواقف الصعبة سواء كانت مواقف شخصية أو اجتماعية، لأن المؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف كما جاء في الحديث النبوي الشريف، وهو أيضاً خير من المؤمن الضعيف عند الناس أيضاً.

---

(١) نهج البلاغة ج٤، ص٤٢.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، ص٢٨٢.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، ص٢٨٢ ـ ٢٨٣.

ومع أن النصّين التربويين السابقين (الثاني والثالث) لم يتحدثا عن نوع القوة التي تمكن الفرد من مواجهة الموقف الصعب والتغلب عليه إلاّ أنه ترك ـ للفرد المؤمن ـ اختيار بناء نوع القوة المطلوبة والمناسبة واستخدامها لمواجهة الصعوبة أو التحديات، فالإنسان لحظة المواجهة أدرى بطبيعة الموقف وبنوع القوة المناسبة للتغلب عليه وتطويعه، هل هي عسكرية أو عقلية أو روحية أو اجتماعية أو قوة أخرى.. المهم أن يجعل الإنسان المؤمن من الموقف أو التحدي الصعب موقفاً إيجابياً، فالعلاقة بين إرادة الإنسان والموقف الصعب قد تبدو متعاكسة في بادئ الأمر، لكن العقل البشري إذا استخدم طريقة الأضداد في معالجة المشكلات وحلها، تمكن من جعل الشدائد والمواقف الصعاب عنصر انسجام بين الإرادة والحياة.

وإذا كان علم النفس الوضعي يقترح مثلاً ملاحظة الذات بتسجيل الفرد في كراسة خاصة لمختلف الاستجابات العصابية أو أنماط السلوك المرضي، كأن يعرف مثلاً عدد المرات التي يرغب فيها بالتدخين، أو تقليم أظافره أو ممارسة الاعتداء على الآخرين، فإن المعالجة السلوكية الإسلامية لا ترفض ملاحظة الذات وإحصاء عيوبها في الأدب، والأخلاق، والممارسات، والوساوس والظنون.

ولنقرأ النصوص التالية:

قال الإمام علي عليه السلام: «وعلى العاقل أن يحصي على نفسه عيوبها في الدين، والرأي والأخلاق، والأدب، فيجمع ذلك في صدره أو في كتاب، ويعمل على إزالتها»[1].

---

(١) الطفل بين الوراثة والتربية ج٢، ص٤٣٤، وكذلك كتاب غرر الحكم ودرر الكلم، ج٢، ص٢٩.

وقال أيضاً في نصّ آخر: «من حاسب نفسه، وقف على عيوبه، وأحاط بذنوبه، فاستقال الذنوب وأصلح العيوب»[١].

وقال نصّ آخر: «إنك قد جعلت طبيب نفسك، وبين لك الداء، وعرفت آية الصحة، ودللت على الدواء، فانظر كيف قيامك على نفسك»[٢].

وفي نصّ نقله ابن شعبة الحراني في كتابه (تحف العقول عن آل الرسول) يقول فيه الإمام الحسين عليه السلام: «من دلائل العالم انتقاده لحديثه وعلمه بفنون حقائق النظر»[٣].

وفي نصّ آخر: «كونوا نقّاد الكلام»[٤].

وجاء في الحديث الشريف: «رحم الله امرءاً أهدى إلي عيوبي»[٥].

وأيضاً قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أحب أخواني من أهدى إلي عيوبي»[٦].

يلاحظ أن النصوص السابقة أوضحت الحقائق التالية:

أ ـ جعلت عملية الإحصاء أسلوباً للتركيز على عيوب وأخطاء السلوك في الدين والتفكير والأخلاق والأدب الشخصي أو السلوك الاجتماعي، أي موجّهة لقضايا حساسة في الحياة، فالنصوص المذكورة تطالب بتحديد دقيق للأخطاء وكأنها تأمر الفرد المسلم بتعيين وتحديد مشكلته لتكون نقطة البدء في عملية العلاج النفسي الذاتي.

(١) المصدر السابق، ص٤٣٤.
(٢) المصدر السابق، ص٤٣٤.
(٣) تحف العقول، ص١٧٨.
(٤) ميزان الحكمة، ج٦ص ٤٨٥.
(٥) تحف العقول، ص٢٧٠.
(٦) تحف العقول، ص٤١.

كما أن عملية الإحصاء ذاتها نوع من الملاحظة المقصودة للسلوك الخاطئ، وبالتالي أتاح النص الشريف للفرد المسلم مواجهة المشكلة بطريقة صحيحة تعتمد الرصد والتصنيف وتحديد الأولويات، والبدء بعملية المعالجة أو تعديل السلوك بناء على ملاحظة دقيقة للمشكلة ورصدها في الواقع بلا مبالغة أو تهوين... وهذه خطوة منهجية عامة يدعو المشرّع الإسلامي إلى استخدامها في علاج المشكلات سواء كانت في ميدان العلاج النفسي أو ميدان آخر.

ب ـ إن من يقوم بعملية الإحصاء كما يصوره أحد النصوص السابقة هو شخص يملك القدرة الفعالة على التفكير السليم، ويملك إرادة هادفة لإصلاح العيوب أو استقالة الذنوب وإزالتها، وهي إرادة موصولة بهدف تغييري كبير لا يستهدف إصلاح الذات والمجتمع فحسب، وانما إرضاء الله تعالى، وبالتالي تكون عملية الملاحظة والرصد والمتابعة مزدوجة تستهدف البعدين الأساسيين من عملية العلاج النفسي.. البعد الأفقي الذي يتمّ فيه تحقيق قدر من التوافق النفسي واستعادة التوازن النفسي والاجتماعي معاً لدى الذات، والبعد الآخر هو البعد الرأسي أو العمودي الذي يحقق للفرد المسلم علاقة مباشرة مع الله عز وجل فيؤدي ذلك إلى تكوين إحساس لديه بالرضا الإلهي، والاقتراب من معاييره العبادية المنصوص عليها في دينه المنزل على العباد.

ج ـ إن الأداة التي تستخدم في عملية الإحصاء للعيوب التي يقوم بها الفرد المسلم عن نفسه أداة تمتاز بالمرونة، فيمكن للإنسان المسلم تسجيل نتائجها في عقله أو ذاكرته أو حافظته إذا كانت قوية يثق بها في الاحتفاظ بما أحصاه من عيوب أو أخطاء، ويمكنه كذلك أن يسجل هذه الأخطاء في كتاب (كراسة مثلاً أو مفكرة أو ملف أو سجل معلومات أو أداة أخرى

تحفظ له الأخطاء المسجلة كتدوينها في ملف خاص محفوظ بجهاز الحاسب الآلي المتوفر اليوم في أغلب بيوتنا).

وتتيح هذه الأداة للفرد المسلم في عملية أشبه بعملية التغذية الراجعة حذف عيوب أحصاها المسلم عن نفسه في المرة الأولى، وإضافة عيوب أخرى لم يتمكن من إحصائها من قبل، ومعرفة ما أصلح منها وما لم يصلح بعد.

ويقوم بعد ذلك ـ في خطوة تالية ـ يقوم بعملية تصنيف لهذه الأخطاء والعيوب، ثم يبدأ ـ في خطوة ثالثة ـ بإزالة كل عيب أو خطأ بحسب قوته أو ضعفه، ويهتم في الوقت نفسه بمتابعة العيوب أولاً بأول حتى لا تقوى ثم ترسخ وتثبت في حركة الذات، فيصعب ـ فيما بعد ـ إزالتها، واستبدالها.

د ـ أن لا تكون حركة الذات في عملية الإحصاء عشوائية غير منضبطة بمنهج قويم يمكن الفرد من التمييز بين الصحيح والفاسد في الرأي والسلوك والمشاعر، ولهذا قال أحد النصوص السابقة الذكر بما معناه أن الله عز وجل قد جعل الإنسان طبيباً لنفسه وبيّن له الداء وعرفه بآية الصحة ودله على الدواء، ثم طلب الله منه أن يكون قائماً على نفسه بالإصلاح والمتابعة والتقويم. وهذا جوهر المسؤولية الشخصية في التشريع التربوي الإسلامي، وفي عملية المعالجة النفسية سواء كانت ذاتية أو مسترشدة بجهد معالج نفسي وتوجيهاته وأساليبه.

ثم إن المشرّع التربوي الإسلامي ترك للإنسان المسلم بعد ذلك حرية الفعل ليشعر بلذة العمل وحلاوته، فيتحسس بعد نجاحه لذة التفوق وتحقيق الذات ويتذوق طعم الطمأنينة، وفي الوقت نفسه يحيطه بالمسؤولية وأمانة

التكليف الشرعي حين يواجه صعوبات الحياة، فيثيب المطيع ويعاقب المسيء... وفي هذا كله تحقيق الفرد لذاته، واستخدام صحيح لقوانين ضبط السلوك وتوجيهه.

هـ ـ بعد استجلاء الحقائق الأربع التي تضمنتها النصوص التربوية السابقة، يمكن توضيح حقيقة خامسة كما يلي:

لقد انطوت النصوص الإسلامية المذكورة على مكونات ثلاث تعتبر في نظر العلماء مكونات أساسية للعلم سواء كان علماً طبيعياً أو إنسانياً وهي:

ـ الموضوع.

ـ المنهج.

ـ الهدف.

أولاً: موضوع العلم:

حدّدت النصوص المذكورة موضوعاً للبحث هو (عيوب الذات) في مجالات أربعة شملت أخطاء الإنسان ومشكلاته في المعرفة الاجتماعية والمعرفة الحسية الطبيعية وهي:

أ ـ عيوب الذات في دائرة السلوك الديني وما يتصل به من عقائد إيمانية ومسائل إلهية وسلوك أخلاقي.

ب ـ عيوب الذات المتوقعة في مجال الرأي (كأخطاء التفكير)، وهذا ينطبق على المعرفة الاجتماعية والمعرفة الطبيعية القائمة على البحث التجريبي.

ج ـ عيوب الذات الإنسانية في مجال السلوك الأخلاقي كالغيبة والنميمة والمراء والرياء والتكبر وغيرها.

د ـ أخطاء الذات وعيوبها ومساوئها في مجال الأدب وسوء التعامل الاجتماعي مع الآخرين كسوء التكيف مع الأولاد والتلاميذ والأصدقاء والغرباء، وصعوبات تكوين علاقات سوية مع الغير سواء كانت شخصية أو في مواقع العمل أو موقع آخر.

ثانياً: المنهج أو طريقة العمل:

المكون الثاني للعلم الذي حدّدته النصوص السابقة هو منهج العمل أو طريقة تجميع عيوب الذات وتصنيفها، وقد اختارت النصوص هنا الطريقة الإحصائية كأداة لجمع مساوئ الذات وجمعها في الذاكرة الإنسانية إذا كانت قوية أو في كتاب، وهو إشارة إلى استخدام سجل أو ملف أو أية أداة يمكن للفرد المسلم الاحتفاظ بمعلوماته عن عيوب ذاته والرجوع إليها حين الحاجة.

كما أن النصوص الإسلامية المذكورة دعت إلى إزالة العيوب، وهذا في حدّ ذاته يحتاج إلى طريقة عمل محدّدة لإزالته، بيد أن النصوص التربوية السابقة تركت للفرد حرية اختيار طريقة تغيير العادات السيئة وإزالة العيوب.

ثالثاً: الهدف:

كما يلحظ القارئ الكريم فإن النصوص الإسلامية عينت للإنسان العاقل ـ خاصة المسلم ـ هدفاً رئيسياً واضحاً ينبغي أن يركز عليه الجهد من قبل المسلم سواء كان معالجاً أو مريضاً وهو إزالة «عيوب الذات» وتعديل سلوكها في المجالات الأربع السابقة.

* * *

ومما لا ريب فيه أن فكرة محاسبة النفس، وممارسة النقد الذاتي هما من مظاهر ما يسميها علم النفس الوضعي بملاحظة الذات، وهما على كل

حال نمطان من أنماط عملية التعلم المستمر، وأسلوبان من أساليب العلاج النفسي الذاتي، وقد أوصى المشرّع التربوي الإسلامي في تعاليمه الإرشادية بعملية التعلم الذاتي الدائم من خلال مراجعة النفس ونقد سلوكها، وأنشطتها، بالأدعية، والحوار الجمعي ويقظة الضمير والوجدان والأخلاق، والعبادات، والاستعاذة، وتقبل نصائح الآخرين المؤمنين الثقاة، وكل الأساليب العبادية التي تحقق تعديلاً سوياً في سلوك الشخصية الإنسانية، فتحقق بذلك أهداف المشرّع العبادية والتربوية.

ومن مزايا عملية التعلم العلاجي المستمر احتفاظ الفرد المسلم بكثير من المعلومات السرية، خاصة ما يمس منها جانب العفاف، والشرف، فلا أحد من الناس يمكنه معرفتها والاطلاع عليها، وحتى مع افتراض حاجة المسلم إلى استشارة غيره من إخوانه المؤمنين الثقاة في بحث مشكلة تخصه، فإنه قادر على عرضها، ومناقشتها دون ضرورة ذِكْر أسماء الأشخاص الذين تعنيهم المسألة، أو الذين ترد أسماؤهم في أثناء عملية العلاج.

ومن هنا ندرك أهمية عملية التعلم الذاتي في المنهج العلاجي الإسلامي خاصة محاسبة الذات في الخلوة مع الله سبحانه وتعالى، حيث تعتبر طريقة ملاحظة الذات خلال خلوتها هامة لحمايتها من دنس المآثم وقلق الذنوب التي يوسوس بها الشيطان في قلوب العباد، بل إنَّ النص التربوي الإسلامي يجعل النقد الذاتي كأحد مظاهر التعلم الذاتي في برامج علاج سلوكية أو برامج معرفية، يقول الإمام علي عليه السلام: «اتقوا معاصي الله في الخلوات فإنَّ الشاهد هو الحاكم»[1].

(١) نهج البلاغة ج٤ ص٧٧.

ثانياً: ملازمة المعالج النفسي المسلم:

إن العلاج الذاتي للشخص المسلم تجربة تربوية نافعة لمن يملك قدرات طبيعية سواء كانت قدرات متوسطة أو عالية كالذكاء مثلاً، والمرونة، والتكيف، والصبر والاحتمال، حيث يستطيع الفرد المسلم في نهاية الأمر أن يحقق نضجاً وتوازناً داخلياً بين عناصر شخصيته، لكن البعض من الأفراد ليس من الصنف الذي يقدر على خوض عملية المعالجة بذاته، معتمداً على نفسه في كثير من جوانب المواجهة والمجاهدة، فإذا تعرضت شخصيته لبعض الحالات أو مشكلات نفسية تؤرقه، لجأ إلى المعالجين، والى أطباء لهم دراية وحذق بسراديب النفس، ومن هنا يركز منهج المعالجة النفسية بالأضداد على أهمية توفر هذا المعالج، وضرورة ملازمة الفرد المسلم لمعالج كفء وثقة يعينه في التغلب على مشكلاته.

والنصوص الدالة على ضرورة توفر معالج مسلم ثقة كثيرة جداً، نذكر عدداً قليلاً منها، لأن ما يهمنا هو التأكيد على إسلامية الفكرة لا كثرة النص، قال الله تعالى على لسان الأنبياء:

«أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم»[١].

وعن الإمام علي عليه السلام يقول: «ليكن أحب الناس إليك المشفق الناصح»[٢].

وقوله أيضاً: «لا خير في قوم ليسوا بناصحين، ولا يحبون الناصحين»[٣].

---

(١) سورة الأعراف، ٦٢، ٦٨.
(٢) ميزان الحكمة ج١ ص٦٠.
(٣) المصدر السابق، ص٦١.

ويقول الإمام السجاد عليه السلام: «هلك من ليس له حكيم يرشده»[١].

وعن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام ورد عنه: «يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب»[٢].

أما الإمام الهادي عليه السلام فقال: «من جمع لك ودّه ورأيه فاجمع له طاعتك»[٣].

ومنهج المعالجة النفسية بالأضداد لا يتهاون أبداً في أن يكون المعالج مسلماً موثوقاً في فكره وسلوكه الشخصي ويتخذه الناس خاصة مرضاه كقدوة حسنة، وهنا تأتي في هذا المقام مفارقة أساسية بين منهج الأضداد الإسلامي وبين بعض مناهج العلاج النفسي الحديث كمنهج التحليل النفسي مثلاً، فالأخير لا يشترط أن يكون المعالج مربياً يتمتع بالفضيلة الأخلاقية، فقد قلل الفرويديون من قيمة الأخلاق ودفنوها في زاوية النسيان، وإنْ لم تغفل مدرسة العلاج النفسي الواقعي بقيادة جلاسر المسألة الأخلاقية فسجلت لهذه المدرسة واقعيتها في فهم السلوك البشري والتعامل الصحيح مع السلوك المرضي بالذات.

ولهذا كان منهج التحليل يشترط توفر الثقافة الواسعة، والكفاءة المهنية التخصصية في فن المعالجة، ودراية المعالج بأسرار الأمراض النفسية ودوافعها وخفاياها وطرق معالجتها، ومن خلال وجهة نظر مادية تنظر للإنسان من خلال حيوانيته، أما منهج المعالجة بالأضداد فلا يسلم مرضاه لمعالج لا يستطيع أن يعلم هؤلاء المرضى سلوكه الأخلاقي الرفيع،

(١) الشخصية الرسالية ص١٠٩.
(٢) ميزان الحكمة ج١ص٥٥.
(٣) تحف العقول ص٣٥٨.

فالفضيلة والثقة، والمقدرة العلمية، والكفاءة التخصصية، والسمات الشخصية التي يؤكد عليها منهج المشرّع التربوي الإسلامي هي صفات أساسية ثابتة تلازم شخصية المعالج المسلم، ولذلك لم تنجح في كثير من الحالات برامج المعالجة والشفاء النفسي كما يؤكد ذلك علماء النفس الغربيون أنفسهم مثل عالم النفس السويسري آيزنك[١] وآخرون أدركوا محنة العلاج النفسي ومأزقه في بلادهم.

والمعالج الثقة الذي يؤكد عليه المنهج التربوي والعلاجي الإسلامي أقدر على تغيير اتجاهات مرضاه دون الوقوع في محرمات دينية لا يتورع عنها بعض رجال منهج التحليل النفسي الغربيين، فطريقة التفريغ الانفعالي التي يتبعها رجال التحليل النفسي الفرويدي قد تضطر بعض المرضى إلى الدخول في سلبيات محرمة أو رذائل أخلاقية ينهى عنها منهج الله عز وجل، فهذه الطريقة تسمح للمريض باستخراج خبراته اللاشعورية المكبوتة دون قيود، وتتاح له فرصة استعادة وتذكر كل شيء حتى لو كان سخيفاً وتافهاً دون النظر لأية اعتبارات دينية أو أخلاقية.

ومن الممكن هنا أن يتعدى المريض على أسرار الآخرين وإفشاء ما يتكتمون عليه، فمنهج التفريغ الانفعالي للشحنات المكبوتة عند فرويد لا يشترط مراعاة المرضى لمقدسات الآخرين وأعراضهم ولا يحرص على حفظ حقوق الناس، بل العكس من ذلك يحثّ التحليل النفسي مرضاه على قول كل ما يخطر بالبال حتى لو كان تافهاً أو خاصاً بأسرار الناس، فاغتياب الغير، والبهتان عليهم أحياناً، والإساءة لهم أمر لا غبار عليه إذا اقتضت مصلحة المريض ذلك، لأن المعالج النفسي الفرويدي لا يعير القيم الأخلاقية وزناً أو اعتباراً.

---

(١) انظر كتاب علم النفس بين الحقيقة والوهم، الفصل الأول.

ولهذا قد يتمكن من تخليص مرضاه من بعض الحالات السيكولوجية المرضية تخليصاً مؤقتاً، لكنه في الوقت ذاته يضيف لهم عيوباً أخرى ويسمح لقلوب مرضاه أن تتهيأ لحالات مرضية أخرى تكون بحاجة أيضاً إلى معالجة أخرى، فالمحلل النفسي الغربي يتعلم منه مرضاه تجاوزات أخلاقية يرفضها المعالج النفسي المسلم.

ومع ذلك فإن بعض مناهج العلاج النفسي الغربي بدأت تتجه نحو الإفادة من القيم والفضائل الأخلاقية كما نلحظ ذلك من جهود علماء النفس الإنساني خاصة دعاة المذهب النفسي الديني أمثال يونج وفرانكل وغيرهما، وهم يفعلون ذلك لا كمتدينين وإنما كعلماء يرصدون واقعاً إنسانياً لا يرون من الحكمة تجاوزه لأنَّ الدين والقيم في نظرهم ذات فعالية ـ كما تؤكد تجاربهم المهنية ـ في عمليات العلاج من جهة، والاستفادة شرط ضروري لنجاح المحاولات العلاجية وتحقيق درجة معقولة من الشفاء من جهة أخرى.

ومن المبادئ العامة للصحة النفسية في التصور الأرضي، البوح بالأسرار الشخصية للمريض، ولا شك أن المعالج النفسي المسلم لا يعترض على هذا المبدأ لأن البوح بالسر يمكن أن يكون تفريجاً لما في النفس، لكن ذلك محكوم بضوابط واعتبارات شرعية، منها أن يكون البوح بالسر عبارة عن استشارة للعاقل المؤمن الذي يقدر على كتمان أسرار غيره، وأن يكون البوح بالسر في وقت مناسب، وألا يكون كشف الأسرار هتكاً لأعراض أشخاص آخرين، وقد يتطلب الأمر لدى المعالج النفسي المسلم إذا اقتضت مصلحة العلاج استئذان الأفراد الذين قد يضطر لاغتيابهم أو قد اغتابهم المَرْضَى فعلياً، بل إن المعالج النفسي المسلم يتقيد برأي المشرّع التربوي الإسلامي في عملية الاستئذان من حيث الجواز أو الحرمة، بحيث

يعرف ذلك من الفقيه المجتهد العارف بزمانه وأحكام دينه ليحدّد له رأي المشرّع الإسلامي في هذه المسألة أو يبحث عن الحكم الشرعي بأية وسيلة.

وقد يكون أحد المرضى واثقاً من حرص المحلل النفسي على الاحتفاظ بأسراره الخصوصية، لكن غيره قد لا يشعر بالراحة، ولا تطمئن نفسه مهما بذل المعالج من الجهد كي يكون موثوقاً، وإذا كان الوجدان الأخلاقي لبعض المرضى هشاً، ضعيفاً، لا يمنعهم ذلك عن ممارسة بعض التجاوزات الأخلاقية ضد الآخرين، بل حتى ضد أنفسهم.

كذلك فإن المريض المسلم لا يكون دائماً على هذا النحو، للاعتبارات الأخلاقية التي انبثقت من المشرّع الإسلامي، مما يؤثر تجاوبه وتعاونه مع المعالج النفسي، وليس أمام المعالج حينئذ سوى البحث عن طريقة أخرى للتغلب على مشكلته، أما المعالج المسلم فلا يرفض تماماً طريقة التفريغ لاستخراج الخبرات اللاشعورية المكبوتة لمساعدة المريض على التخلص من أمراضه النفسية المدفونة في داخله، لكنه مع ذلك لا يعتمد هذه الطريقة دون محاذير.. بل يحاول ما أمكنه التقيد بضوابط المشرّع الأخلاقية واحترام من ترد أسماؤهم في محاضر العلاج النفسي وجلساته.

إن المشرّع الإسلامي أشار إلى أثر ودور الخبرات اللاشعورية المؤثرة خفية في سلوك الإنسان مثل قوله تعالى عن نفاق المنافقين: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[1].

---

(١) سورة محمد، ٣٠.

وعن فئات مريضة من الناس تفسد في الأرض لكنها لا تشعر كما في قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[١].

وقد تكررت الإشارة القرآنية الكريمة إلى هذا المعنى في آيات كثيرة مثل آيتي (٨ ـ ٩) من سورة البقرة وآية (١٢٣) من سورة الأنعام وآية (٤٨) من سورة النمل.

وقد جاء عن الإمام علي عليه السلام قوله المشهور:

«ما أضمر أحد شيئاً إلاّ ظهر على صفحات وجهه، وفلتات لسانه»[٢].

و«تكلموا تعرفوا فإن المرء مخبوء تحت لسانه»[٣].

و«قلب الأحمق في فمه»[٤]، وفي رواية: «قلب الأحمق وراء لسانه»[٥].

وقوله عليه السلام: «عند تصحيح الضمائر يبدو غلّ السرائر»[٦].

وهناك نصّ آخر في كتاب الشيخ ميثم البحراني رحمه الله عز وجل تشير إلى أهمية اللاشعور وفعاليته في السلوك الإنساني، يروي الشيخ البحراني على لسان الإمام علي عليه السلام:

«اللهم اغفر رمزات اللحاظ، وسقطات الألفاظ، وشهوات الجنان، وهفوات اللسان»[٧].

---

(١) سورة البقرة، ١١.
(٢) نهج البلاغة ج٤، ص٤.
(٣) المصدر السابق، ص٩٣.
(٤) تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون، ص٤٤٦.
(٥) نهج البلاغة، ج٤، ص١١ ـ ١٢.
(٦) غرر الحكم ودرر الكلم، ج٢ص ٢٠١.
(٧) المائة كلمة لأمير المؤمنين، شرح الشيخ ميثم البحراني، ص٢١٣ ـ ٢١٤، وذلك شرح عبد الوهاب للمائة كلمة ذاتها، ص٦٥.

لكن نصوص المشرّع التربوي الإسلامي لا تسلم بالدور المطلق للخبرات اللاشعورية، ولهذا يعتقد المشرّع بأنها ليست هي المصدر الوحيد لتفسير السلوك، فاستحضار الخبرة الوجدانية اللاشعورية وإخراجها من دائرة الكبت إلى دائرة الوعي يمكن أن يكون تخفيفاً مؤقتاً للمشكلة التي يعاني منها الفرد، لكن النجاح يعتمد على وعي المريض وإدراك الأنا للمشكلة، ولا يتمّ ذلك دون استبصار واسترشاد بجذورها وطبيعتها وآثارها التدميرية، ومعنى ذلك أنه يمكن أن ينجح المعالج النفسي الفرويدي في حلّ المشكلة مؤقتاً عن طريق استحضار الخبرة اللاشعورية فقط، لكنها ليست طريقة ناجحة في كل الحالات.

لهذا نشأت اتجاهات علاجية أخرى كالعلاج السلوكي الذي لا يركز على بحث ماضي الفرد وتاريخه الطفولي، فالمرض النفسي كما يراه السلوكيون ناجم عن تعلم خاطئ ولا يتمّ تعديله أو إزالته نهائياً إلاّ بتعلم جديد، ولهذا يحاول المعالج السلوكي علاج المشكلة مباشرة دون اللجوء إلى استحضار الخبرة الوجدانية اللاشعورية المخفية ودون اللجوء إلى تفتيش طويل عن أسباب المشكلة، فإذا كان الشخص مريضاً بعقدة خوف شديدة، فإن المعالج السلوكي يوجّه جهوده منذ البداية على الحل والعلاج، فيبدأ بتحرير المريض من خوفه بتدريبه المباشر على مجابهة هذا الشعور وتعريضه لمواقف تدريب مضادة، ليتعلم الثقة والأمن والطمأنينة، فكما تعلم المريض شعوره المرضي بالخوف من شيء ما فيمكنه كذلك تعلم استجابة مضادة لهذه الخبرة الوجدانية، فالمرض والسلوك السوي كلاهما عادات متعلمة.

وهذا ما أشار إليه - في موضع اتفاق جزئي على الأقل - المشرّع التربوي الإسلامي في معالجة حالتين عصابيتين هما الخوف، وعدم التحلم

أو عدم القدرة على السيطرة الانفعالية في حالة الغضب أو اختزان الحقد والشر يقول الإمام علي عليه السلام:

«إذا هبت أمراً فقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم من الوقوع فيه».

و«إن لم تكن حليماً.. فتحلم».

«احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك»[١].

فالطريقة السلوكية في معالجة المرضى تركز على تدخل البيئة مباشرة في دراسة المشكلة وحلها دون التفتيش عن أسبابها، باعتبار أن الأمراض النفسية في نظر المعالجين السلوكيين عبارة عن تعلم خاطئ، ويمكن أن يزول بتعلم إيجابي جديد ومضاد.

وهنا ندرك أهمية القيمة الأخلاقية لمنهج المعالجة النفسية الإسلامي الذي يقوم على ازالة سلوك مرضي غير مرغوب فيه واحلال سلوك مرغوب فيه أو بديل يرتضيه المشرّع كإزالة التلذذ بإيذاء الناس ـ كسلوك عصابي ـ بفضيلة حب الناس وخدمتهم وإيثارهم، يقول الإمام علي عليه السلام:

«احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك».

يقول الأستاذ ظباء صديقي عن نمط العلاقة السليمة بين المعالج والمريض من وجهة نظر إسلامية:

«ليس من الحكمة أن يتعدى المعالج النفسي تحت أي عذر دوره الذي حدّدته نظرية العلاج الواقعي إلى كشف خصوصيات المريض أو تعرية سره، وهذا ما يعده الإسلام ستراً مستوراً بين العبد وربه، وبعبارة واضحة فإن الذي يحاك في النفس من أحاديث، وما يرد على القلب من سيئ

(١) نهج البلاغة ج٤، ص٤٢.

الأحاسيس يجب ألا تكون محل جهد، ولا موضع مناقشة، قال أحد فقهاء المسلمين: «ومعلوم أنه لم يعط الإنسان أمانة الخواطر، ولا القوة على قطعها، فإنها تهجم عليه هجوم النفس، إلاّ أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسن ورضاه به، ومساكنته له، كما قد تعينه على رفع أقبحتها وكراهته له، ونفرته منه»[1].

إن الإسلام يلزم المسلم رجلاً كان أو امرأة باحترام خصوصيات وأسرار الآخرين، مثلما يجب أن يحترم خصوصياته، ومن ذلك مثلاً ما يكون بين الرجل وزوجه، ويتعين على المعالج المسلم في ضوء ذلك ألا يقول على خصوصيات المريض، وألا يسعى وراءها»[2].

والمشرّع الإسلامي في معالجته للنفوس يخضع هذه المعالجة لمبادئ الحلال والحرام حفاظاً على حرمة الأفراد، وتأكيداً على وحدة ونظافة وسمو العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم، ونعود مرّة أخرى لنثير سؤالاً يتصل بمسألة التجاوزات الأخلاقية الناجمة عن أسلوب التفريغ الانفعالي، وهو هل يجوز للمعالج النفسي المسلم أن يستمع إلى غيبة المريض للآخرين؟ ومن المؤكد أن حلّ هذه المسألة يحتاج لمعرفة رأي المشرّع الإسلامي، واستئذان من وقع الاغتياب ضدهم، ومع ذلك فإن رضي هؤلاء الذين كانوا ضحايا غيبة المرضى وتجاوزاتهم الأخلاقية يتطلب كذلك أن يكون غيبة المرضى لهم في حدود معقولة لا تنتهك حاجب العرض، وأسوار العفاف الذي يأباه كل غيور على نفسه.

وإذا كانت الاتجاهات العلاجية الحديثة ترى ضرورة توفر المعالج في أي

---

(١) د. ظباء صديقي، أنظر بحثه بعنوان (الإسلام والعلاج النفسي الواقعي) المنشور بمجلة المسلم المعاصر العدد ٢٩، ص(٧٩ ـ ٨٠).
(٢) الصدر السابق، ص٧٩ ـ ٨٠.

برنامج لتعديل السلوك، فإن العلاج الإسلامي يؤكد في الدرجة الأولى على توفر البعد العقائدي والأخلاقي عند المربي والمعالج المسلم، فليس من الممكن أن يحظى بثقة مرضاه ما لم يجمع بين العلم، والورع، والتقوى والعنصر الأخلاقي في شخصيته، وحينئذ يمكنه إقامة علاقة حميمة بينه وبين المريض، فـ«من جمع لك وده ورأيه فاجمع له طاعتك» كما جاء في الرواية.

وفي هذا المقام ـ كما يقول الأستاذ ظباء صديقي ـ نرى من الأهمية بمكان مناقشة العلاقة بين المريض والمعالج من وجهة نظر العلاج الواقعي ثم نعرضها على وجهة النظر الإسلامية، فالعلاقة التي يتطلبها العلاج الواقعي بين المريض والمعالج، إنما تأتي على النحو المطلوب إذا كان الأشخاص من نفس الجنس، وقد تنعكس النتائج إلى النقيض إذا كان المريض من جنس، والمعالج من جنس آخر، وهنا الجانب يتفق تماماً مع الفكر الإسلامي، ولبيان الأمر بجلاء أكثر، فإننا نعلم أن العلاقة التي يتطلبها العلاج الواقعي بين المعالج والمريض، لابد أن تكون علاقة حميمة، وحينئذ فإنه يتحتم أن يكون المعالج من نفس جنس المريض بالنسبة للمسلمين، نظراً إلى قيم العفاف الكامل التي يفرضها الإسلام، وفي ضوء ما علمناه عن طبيعة العلاقة بين المريض والمعالج النفسي، فهل يكون في مقدور معالج غير مسلم القيام بعلاج مريض مسلم؟

وإذا لم يتوفر المعالج المسلم، هل يمكنه كحل أخير أن يناقش هذا المريض مشاكله مع معالج غير مسلم؟ هل تفيده مناقشة أموره مع معالج يجد صعوبة بالغة في فهم إطاره الإسلامي، وقد يحمل وجهة نظر تتعارض تماماً مع عقيدة الوحدانية الإسلامية؟ وماذا لو أعطاه مثل هذا المعالج مشورة لا تتناسب معه كمسلم[١]؟

---

(١) المصدر السابق، ص٧٩ ـ ٨٠.

هذه التساؤلات تلفت النظر إلى ضرورة توفر عنصر الثقة بين المريض والمعالج، ولا يقوى هذا العنصر على التأثير الفعال بدون توفر الخبرة الإكلينيكية عند المعالج، ومرونته، وحصافته، ومعاشرة مرضاه بالحسنى، وستر أسرارهم الخاصة عن الآخرين، والتفاهم معهم بحرية وتوطيد العلاقة بينهما.

ومما لاشك فيه أن المعالج المسلم يبادر دائماً إلى توظيف هذه الصفات كلها في عملية معالجة النفس بأضدادها من قيم الإسلام وفضائله وآدابه الإنسانية.

فطريقة التفريغ لا يشترط ـ أيضاً ـ أن يكون المعالج والمريض من جنسين مختلفين، لكن لا يهم رجال التحليل النفسي أن يكون المعالج رجلاً، والمريض أنثى، وهذه المشكلة التي لفت النظر إليه العالم السلوكي الأمريكي وليم جلاسر ليست فحسب مشكلة التفريغ الانفعالي في مدرسة التحليل النفسي، بل هي مشكلة العلاج النفسي كله في الغرب والشرق، ومن هنا دعا وليام جلاسر إلى مراعاة هذه المسألة تفادياً لمشكلات العفاف، فالمعالج النفسي المسلم يفضل أن يعالج مريضاً من نفس جنسه، ولا يجيز المشرّع الإسلامي تكوين علاقة بين المريض والمعالج من جنسين مختلفين بقصد المعالجة إلاّ في ظروف استثنائية، فالمريض الأنثى يكتم كثيراً من معلوماته، وخبراته متعمداً عن المعالج الرجل لاعتبارات ترتبط بالعفة والشرف والحساسية الأخلاقية، وهما مفهومان لهما قوة تأثير بالغة في النفس المسلمة، وليس بإمكان مريض مسلم التفاهم الكامل مع معالج من جنس آخر.

وعلى كل حال يمكن للمعالج المسلم أن يوضح لمريضه بأنه مرضه النفسي لا يسوغ له التجاوزات الأخلاقية، ولا يسقط المسؤولية القانونية والشرعية والأخلاقية، فما دام المريض النفسي يملك قدراً من الوعي والرشد فإنه مسؤول عن أفعاله وأقواله ومشاعره، وينبغي أن يلتفت المريض

إلى هذه الحقيقة، فلا يعذر له المرضى إفشاء أسرار الآخرين، أو تعدي لسانه على أعراضهم، أو إطلاق العنان لنفسه، ويتصرف بألفاظه دون ضوابط أو بلا قيود.

غير أن إدراك مثل هذه الممارسات الخاطئة يحتاج من المعالج النفسي المسلم إلى حذاقة وإيمان كامل بمبادئ السماء وتعاليمها وقيمها الإنسانية، فإذا كان المعالج المسلم غير مؤدب لنفسه وليس مربياً لها بالقيم العبادية، فإنه لن يستطيع إسداء النصح والمشورة لغيره التي تتفق مع وجهة نظر المشرّع الإسلامي، ولا يمكنه أن يغرس التقوى في أخلاقية مرضاه لأنه لا يتمتع بالورع عن المحارم. وفاقد الشيء لا (يعطيه)، فالمعالج المسلم قدوة لمرضاه.

ولتكوين علاقة حميمة بين المعالج والمريض على أسس سليمة حدّد المشرّع التربوي الإسلامي حقوقاً متبادلة للناصح والمستنصح، قال الإمام السجاد عليه السلام:

«وأما حق المستنصح، فإن حقه أن تؤدي إليه النصيحة في الحق الذي ترى له أنه يحمل ويخرج له المخرج الذي يلين على مسامعه، وتكلمه من الكلام بما يطيقه عقله، فإن لكل عقل طبقة من الكلام يعرفه ويجتنبه، وليكن مذهبك الرحمة، ولا قوة إلاّ بالله.

وأما حق الناصح فإن تلين له جانبك ثم تشرئب له قلبك[1]، وتفتح له سمعك حتى تفهم عنه نصيحته، ثم تنظر فيها، فإن كان وفق فيها للصواب

---

(١) اشرأب قلبه للشيء: يقال مدّ الإنسان عنقه لينظر، فكذلك اشرأب قلبه للشيء نظر إليه بتركيز وعناية وانتباه، والمراد من المقطع اللغوي الوارد في سياق النص المذكور أعلاه أن يركز طالب النصيحة قلبه أو عقله وينتبه إليه بنشاط وحيوية، فيسقيه من نصيحة الناصح بعد أن فتح قلبه نحوه واستوعب منه مشورته عليه، وجعلها مادة إرشادية صالحة مجسدة في سلوك، وتغيّر حياته نحو الأفضل.

حمدت الله على ذلك، وقبلت منه وعرفت له نصيحته، وإنْ لم يكن وفق لها فيها رحمته، ولم تتهمه، وعلمت أنه لم يألك نصحاً إلاّ أنه أخطأ، إلاّ أن يكون عندك مستحقاً للتهمة، فلا تعبأ بشيء من أمره على كل حال»[١].

وفي نصّ آخر يقول الإمام علي عليه السلام:

«مناصحك مشفق عليك، محسن إليك، ناظر في عواقبك، مستدرك فوارطك، ففي طاعته رشادك، وفي مخالفته فسادك»[٢].

ولتجنب تدهور العلاقة بين المريض والمعالج يجب أن يكون الأخير معتدلاً في نصحه، وارشاده، وتوجيهه لأن «كثرة القطع تدعو إلى التهمة»[٣] وإساءة الظن به من قبل المستنصح، وسوف يلاحظ فيما بعد أن السمات الأخلاقية والإيمانية والعلمية التي يجب أن تتوفر في شخصية المعالج المسلم، هي أساس صحيح لتكوين علاقة حميمة بينهما.

وهكذا فإن نظام المعالجة النفسية الإسلامية بمقتضى مختلف النصوص الشريفة التي وردت آنفاً، تجعله يجمع بين ذاتية العلاج، وضرورة توفر معالج مسلم ثقة يعاون مرضاه على حلّ مشكلاتهم السلوكية، فإما أن يقوم الفرد بتوجيه عمليات العلاج الذاتي بنفسه ولنفسه، ويقود حركة المواجهة مع آفاتها، وأمراضها، ويبحث عن أساليب وطرق معالجتها، أو يجد نفسه بحاجة شديدة لمعالج نفسي مسلم يرشده إلى الطرق والأساليب العلاجية التي يصوغ بها وضعاً جديداً لتكيف سوي لنفسه، وعلى أسس إيمانية وأخلاقية وعلمية في آن معاً.

---

(١) تحف العقول ص١٩٣.
(٢) ميزان الحكمة ج١ص٥٧.
(٣) المصدر السابق، ص٥٨.

سمات المعالج النفسي المسلم:

إذا كان المنهج الإسلامي يؤكد بقوة على ضرورة توفر معالج نفسي وأخلاقي مسلم، لديه مهارة علاج النفس وأمراضها، فإن هذا المنهج يحدّد مجموعة من السمات الإيمانية، والقيمية، والوجدانية، والعلمية التي يجب أن تكون متوفرة في شخصية المعالج، لأن تخلف هذه السمات عنه يؤدي حتماً إلى عرقلة المعالجة، وربما إلى فشلها، وسوف نرى من خلال البحث أن منهج المعالجة الإسلامي لا يوافق على بعض الآراء السائدة في الطب النفسي الغربي عن شخصية المعالج، ولعل هذه المفارقة الكبيرة هي التي جعلت محاولات المعالج النفسي الغربي تتعثر كثيراً في التغلب على بعض الأزمات، والأمراض التي تواجه مرضى النفوس وبخاصة إذا كانوا مختلفين مع المعالج في إطارهم المعرفي والقيمي والعقائدي والأخلاقي.

إن هذه السمات المتعددة تمثّل في حقيقة الأمر كتلة واحدة متصلة، يجمعها المعالج المسلم في ذاته، ويستخدمها كقوة فاعلة في تذليل الصعاب التي تواجه مرضاه، وهذا لا يعني أن هذه السمات تأبى الانضواء تحت تصنيفات محدّدة، كالقدرات العقلية أو السمات الانفعالية والوجدانية وغيرها، فمن الممكن أن يحدّد الباحث المسلم سمات المعالج تحت تقسيمات معينة، وينظمها تحت تصنيفات معينة تسهيلاً للدراسة أولاً، وتمييزاً للسمات نفسها في الشخصية الإنسانية ثانياً.

غير أن اجتماع هذه السمات المتعددة في شخصية المعالج المسلم يجعله أقدر من غيره على إدارة سير المعالجة النفسية بطريقة الأضداد أو بطريقة أخرى، وتتيح له إمكانية فرصة نجاح برنامجه العلاجي للذات المريضة أو المستنصحة بإرشاداته، فهذه السمات تمكنه من أداء مسؤولياته القيادية والإنسانية.

ولقد نجح المنهج التربوي الإسلامي كتجربة حية في إعداد نفر كبير من الأخلاقيين وعلماء السلوك والطب النفسي المسلمين رغم أن عصرهم لا يعرف التخصص بمعناه المتداول اليوم، إذ كانت تسيطر آنذاك فكرة الموسوعة الثقافية على العقل المسلم متأثراً بالتجربة الإغريقية وبمفهومها الواسع عن العلم والفكر والثقافة، ومما لا شك فيه أن هؤلاء العلماء الذين رباهم المنهج الإسلامي تركوا أثراً واضحاً في حلّ معضلات السلوك ومشكلاته في المجتمع المسلم وخارجه.

ونأمل أن يجد القارئ الكريم تحديداً مقبولاً لسمات عامة رئيسية في شخصية المعالج النفسي المسلم، ولا نضمن بالتأكيد خلو هذه المحاولة من النقص، فالباحث مهما بلغ فهمه ودرايته بالنصوص الشرعية لا يستطيع بمفرده أن يكون ملماً بكافة سمات المعالج النفسي المسلم، لأن السمات التي يرغب المشرّع الإسلامي في تثبيتها بشخصية المسلم مستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة، ولكن لكثرتها يصعب حصرها بدقة على باحث بمفرده، لهذا يلجأ الباحث عادة إلى تحديد أهم هذه السمات التي تبدو في نظره رئيسية لشخصية المعالج النفسي المسلم، ويترك للباحثين الآخرين فرصة لإضافة سمات أخرى للمعالج المسلم غفلنا عن ذكرها أو لم نلفت النظر إليها، ولم نأخذها بعين الاعتبار.

والواقع أن بعض الصفات التي ينبغي أن تتوفر في شخصية المعالج المسلم، إنما هي سمات عامة يحرص المشرّع التربوي الإسلامي على ضرورة تنميتها في كل شخصية مسلمة وليست في شخصية المعالج وحده، ذلك ـ وإن تميز المعالج بتخصصه العلمي والمهني والعبادي ـ إلاّ أنه ينتمي للمجتمع المسلم الذي يسعى المنهج التربوي الإسلامي إلى تربيته بمختلف السمات السليمة مثل تنمية الذكاء، والمرونة، وحسن المعاشرة، واللين

واللطف، والتفاؤل، والقدرة على كتمان الأسرار، وتجنب التعدي على حقوق الآخرين تحت أي عذر، وسلامة التفكير من أخطاء الذهن البارزة، والتناصح والصبر، والتواصي بهما، فمثل هذه الصفات ليست ضرورية فقط في شخصية المعالج المسلم وحده، بل هي سمات أساسية يجب أن يتشكل منها الإطار العام والرئيسي للشخصية المسلمة في كل عصر، وفي كل بقاع الأرض.

غير أن اجتماع بعض هذه السمات في شخصية المسلم لا تجعله معالجاً مربياً، لأن هناك سمات أخرى لابد من توفرها كي يكون الإنسان المسلم مربياً ومعالجاً للنفس في آن واحد، وتناط به مسؤولية معالجة أمراض النفس وعيوبها السلوكية، وسوف تكون مهمة هذا البحث تحديد سمات المعالج النفسي المسلم، والتي يمكن أن يكون بعضها سمات مشتركة بينه وبين سائر أفراد المجتمع، وبعضها الآخر تمتاز به شخصيته كمعالج نفسي ومرشد أخلاقي.

ويمكن لكل فرد منا أن يعرف بعض هذه السمات من خلال النصوص التي وردت في مصادر التشريع التربوي الإسلامي، كما أن ما خلَّفه العلماء المسلمون ـ خاصة تراث الصوفية ـ من تراث علمي ضخم في دراسة النفس دراسة مستفيضة قد ساعد إلى حدّ كبير على تعيين هذه السمات، وبوسع المعالج نفسه أن يوفّرها من خلال عملية تعلم ذاتي، يتدرب خلالها على التفاعل مع السمات الإسلامية، أو من خلال دراسة تخصصية تمده بالخبرة والمعرفة الإسلامية في مجال العلاج النفسي، والدراسات الإنسانية كالأخلاق والتربية.

وكما اعتمدنا على النصوص في تعريف القارئ بأهمية التعلم الذاتي

وملازمة المعالج المسلم، وضرورة توطيد العلاقة بين المريض والمعالج، فإننا كذلك سنعتمد هذه النصوص، وما خلّفه التراث النفسي الإسلامي في التعرف على أهم صفات المعالج النفسي المسلم.

وقبل أن نحدّد أهم صفات المعالج المسلم نشير هنا إلى ملاحظة هامة هي أن هذه الصفات يندر أن تتوفر كلها ـ بالتساوي ـ في شخصية معالج ما، فهذه السمات تشكل الصورة الكاملة للإسلام، والمعالج كفرد مسلم يحاول باجتهاده الخاص الاقتراب من هذه الصورة أو النموذج الأعلى الذي يؤكد عليه منهج الله سبحانه وتعالى.

ويمكننا في ضوء ذلك أن يجتمع في المعالج عدد كبير من السمات الإسلامية، فتكون شخصيته قريبة من المثل الأعلى لهذا المنهج، ولكن يبقى دائماً هناك مجال واسع للفروق الفردية بين الناس عاديين وغير عاديين، وسيكون الأنبياء والأئمة الراشدون والأوصياء والعلماء ونخبة المجتمع هم في سلم الكمال النسبي، وهم في قمة الترتيب الهرمي لهذا النموذج الأعلى، ثم يكون سائر الناس موزعين ضمن تدرج أقل، حسب مستويات توفر هذه السمات في نفوسهم.

ويشتمل تصنيفنا لسمات المعالج المسلم على أربعة مستويات هي:

١ ـ السمات الاعتقادية والإيمانية والأخلاقية.

٢ ـ السمات الانفعالية والاجتماعية.

٣ ـ القدرات العقلية والإدراكية.

٤ ـ السمات المهنية.

* * *

أولاً: السمات الاعتقادية والإيمانية والأخلاقية:

تعتبر هذه الصفات هي جزء من البناء الأساسي الذي يقوم عليها بناء كل شخصية مسلمة، وليس شخصية المعالج النفسي المسلم وحده، فإذا تخلف الفرد ـ معالجاً وعادياً أو مريضاً ـ عن تطبيع شخصيته بهذه السمات اختل الإطار العام للشخصية المسلمة، ومن هنا ينبغي أن تتوفر السمات الاعتقادية والإيمانية في شخصية الفرد، غير أن المعالج كمربٍ مسلم، وكقدوة صالحة ينبغي أن يكون وعيه أكثر دقة، فمن الأمور الثابتة أن تثبيت هذه السمات في شخصية الإنسان استغرقت أكثر من نصف المدة الزمنية التي قضاها النبي صلوات الله عليه وآله وصحبه في سعيه لبناء مجتمع عقائدي، ولم يكن المجتمع المسلم متميزاً عن غيره إلاّ بانسجامه مع هذه السمات.

ونعتقد بجزم ويقين بأن توفر هذه السمات في شخصية المسلم تجعل معالجاته للمشكلات السلوكية مختلفة كل الاختلاف عن المعالجات النفسية الغربية حتى وإن التقيا في بعض المسائل المشتركة، لأن التصور العقائدي الذي ترتكز عليه شخصية المعالج المسلم قائم على أساس الإيمان بالله والركائز الدينية المرتبطة بهذا الأساس، بينما تختفي تماماً هذه الدعامة العقائدية والروحية من شخصية المعالج النفسي الغربي إلاّ إذا كان يحمل في داخله حساً دينياً، وبناءً على ذلك يختلف فهم كل منهما للسلوك وبواعثه، وأهدافه، وقد مرّ عليك أمثلة على الاختلاف بين أسلوب المعالج في الإسلام والغرب، واختلافهما في التفكير والممارسة.

ومن السمات الاعتقادية والإيمانية للمعالج المسلم:

أ ـ أن يكون المعالج النفسي مؤمناً بالله إيماناً قوياً، ومؤمناً بما يتصل بهذا الاعتقاد من أصول عقائدية أخرى، ونقصد من ذلك فهم المعنى

الصحيح للإيمان الروحي والديني، وتمثل السلوك الحسن الذي ارتضاه الله عز وجل للإنسان، حيث يكون المعالج المسلم قدوة عقائدية لمرضاه، وآلية عمل إيمانية متحركة ترشد هؤلاء الناس إلى الحق، والاستقامة، وتقويم السلوك على أساس الإيمان بالله تعالى.

فإيمان المعالج بهذا الأصل العقائدي وما تفرع عنه من عقائدية إيمانية أخرى كالإيمان بالرسل والبعث يوم القيامة والإيمان بالقضاء والقدر ونزول الكتب السماوية على يد الأنبياء، يحدّد له فقه المنهج والنفس بنظرة مختلفة عن نظرة العلاج النفسي الوضعي، فالمعالج المسلم يمكنه تغيير اتجاهات المريض الخاطئة عن نفسه، وعن الآخرين، وعن كافة المشكلات التي تواجهه من خلال المبادئ الدينية، والأساليب التوافقية التي أكّد عليها المنهج الإيماني، وقد سبق أن رأينا في فصول سابقة كيف استطاعت هذه المفاهيم حلّ مشكلة الصراع النفسي(١) في شخصية الإنسان، وتكوين عادات السلوك العبادي الحسن لوجه الله وطاعته.

وقد نشأت مؤخراً في أوروبا حركة علاجية حديثة مؤسسة على المعالجة بالإيمان بالله، وبالقيم الروحية بعد أن شعر بعض المعالجين بقصور الاتجاهات العلاجية الحديثة عن تحقيق العلاج النفسي الكامل للشخصية، وهذا يدل على إيمانهم الكبير بفاعلية العقيدة الدينية ومفاهيمها في النفس وتعديل السلوك الإنساني، وإدراكهم في مقابل ذلك عجز المناهج العلاجية التي تعزل الأديان والقيم الأخلاقية على تحقيق حدّ أدنى معقول من الشفاء النفسي.

---

(١) ناقشنا بشيء من التفصيل مشكلة «الصراع النفسي» في الفصل السابع، وذلك في إطار المعالجة النفسية الإسلامية لهذه المشكلة بطريقة الأضداد التي تستهدف تغيير السلوك الخاطئ واستبداله بسلوك سوي من وجهة النظر الدينية الإسلامية.

فالمنهج العلاجي المؤسس على الإيمان بالله يمكن المعالج من فهم سراديب النفس بوجهة نظر واقعية ويرشده إلى أساليب المعالجة وخطواتها، ويحدّد بدقة المشكلات المطلوب تعديلها والتخلص منها، والإجراءات اللازمة لتغيير أفكار واتجاهات المرضى، فيأخذهم بيدهم تدريجياً نحو استعادة التوازن والطمأنينة الداخلية للذات، ويمدّه بالطاقة المعرفية والروحية التي تحتاجها عمليات التغيير والمجاهدة النفسية.

إن المعالج النفسي المؤمن قادر كطبيب نفس على هزّ وجدان المريض، وتحريك أو إيقاظ إدراكه، وتبصيره بمشكلته كجزء من المعالجة، ومن المؤكد أن تمتعه بهذه الخاصية لم يأت من فراغ، فمقدرته على التأثير البالغ في النفوس إنما صنعه القرآن بدعوته الكاملة إلى توحيد الله تعالى، وبمفاهيمه الصادقة عن التقوى والتوكل والشعور بالأمن والانتماء لله تعالى، وإزالة مخاوفه من كل شيء كقطع الرزق أو تهديد حصوله على إشباع معقول لحاجاته، قال سبحانه وتعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(١).

فالإيمان الروحي بالله تعالى يمدّ المعالج النفسي المسلم بطاقات روحية، ويهيئ له نيل الكفاءة العلمية التخصصية التي تعينه على تعديل سلوك المرضى وإعادة تربيتهم وتعليمهم على عادات سليمة في ضوء منهج الهدى والحق والاستقامة الدينية والأخلاقية، ويحررهم كذلك من القلق الناجم عن مشاعر الاستياء التي تتولد عادة من مقارفة المعاصي والذنوب،

---

(١) سورة الرعد، ٢٨، انظر كذلك سورة فصلت، ٣٠، ٣١، ٤٤ وسورة السراء، ٩، وسورة يونس، ٥٧، والأنعام، ٨٢، وسورة الرعد، ٢٦، التغابن، ١١، البقرة، ١١٢، الأحقاف، ١٣، الذاريات، ٢٢، ٥٨، سورة هود، ٦، آل عمران، ١٥٦، ١٨٥، الزمر، ١١، ٥٣، فاطر، ١١، الحديد ٢٢ ـ ٢٣، النساء، ١١٠، طه، ٨٢، النحل، ٩٧، سورة المائدة، ٢.

واعتقد أن المعالج الورع النقي ينقل تجربته الجهادية الطويلة مع نفسه إلى نفوس مرضاه بروح مخلصة وكفاءة فاعلة، بحيث تتأثر نفوسهم بروحانيته وتعينه قدرته في التحكم في نفسه على التأثير في مرضاه، فالمعالج النفسي المسلم ينجح في تعديل السلوك عن طريق القدوة الحسنة، ويحقق النضج للمرضى باعتباره نموذجاً للإيمان بالله تعالى.

ومن هنا نستطيع القول بأن تمتع المعالج بعقيدة التوحيد ـ علماً وإيماناً وعملاً ـ تمكنه من تأسيس علاقاته مع مرضاه على الحب، والمؤاخاة، والصدق، وهو في ذلك لا يبتغي كسباً مادياً، أو تحقيقاً لشهرة أو سلطان، مما يجعل المرضى أكثر قابلية للتعاون، وأكثر استعداداً للمعالجة، فعلى أساس الإيمان بالله تنتظم علاقات المعالج بمرضاه وتتوثق الأواصر بينهم.

ب ـ أن يكون المعالج النفسي المسلم عالماً وأخلاقياً تقياً، ومربياً فاضلاً لنفسه، مطهراً لقلبه من دنس المآثم، فالمعالج القدوة يربي النفوس بإيحاءات القدوة الصالحة، ولا يمكن أن يبلغ هذه المرحلة إلاّ بعد اجتياز تجربة جهادية ناجحة تمكنه من تخليص نفسه من آفاتها، فإذا أراد المعالج النفسي المسلم أن ينتزع مرض التكبر من شخصية ما، فلابد أن يكون المعالج نفسه شخصاً متواضعاً حرر ذاته من هذا المرض، وإلا عجز حتى عن مجرد اكتشاف نزعة التكبر في مرضاه، عوضاً عن مساعدة مريضه على التخلص من مرضه النفسي، (ففاقد الشيء لا يعطيه) كما يقول المثل المتداول.

والحال كذلك في كل أمراض السلوك، كالبخل، والعصبية، والوسوسة، والحسد، والنفاق، فإذا كانت شخصية المعالج عليلة بهذه الآفات أو ببعضها، فإنه ـ بالتأكيد ـ أعجز عن معاونة الآخرين على التغلب

على آفات نفوسهم، فالمنهج التربوي الإسلامي يؤكد أن الميدان الأول للمسلم هو نفسه، ولنتذكر قول الإمام علي عليه السلام يقول:

- «ميدانكم الأول أنفسكم، فإن قدرتم عليها كنتم على غيرها أقدر، وان عجزتم عنها كنتم عن غيرها أعجز».

وفي نصّ آخر يقول الإمام علي عليه السلام:

«من نصب نفسه للناس إماماً، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم»[١].

و«وكيف يصلح غيره من لا يصلح نفسه»[٢].

و«من نصح نفسه كان جديراً بنصح غيره»[٣].

و«أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله»[٤].

لهذا يرى الإسلام ضرورة توفر القدوة الحسنة في شخصية المربي والمعالج، قال تعالى: ﴿لَّكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[٥].

فكما قلنا فإن طهارة السلوك لدى المعالج قد تقنع المرضى بضرورة التغلب على التعلم الخاطئ، ويشجع هؤلاء المعلولين على الانفعال الحي بسلوك المعالج، فتخطو نفوسهم خطوات سريعة نحو تحقيق القدر

---

(١) تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون ص٣٠٠.
(٢) المصدر السابق، ج٤ حكمة ٧٣.
(٣) ميزان الحكمة ج١، ص٥٨، ١٤٦.
(٤) نهج البلاغة ج٤، ص٨٢.
(٥) سورة الأحزاب، ٢١.

المطلوب من الصحة النفسية متأثرين بالسلوك النقي المستقيم الذي يظهر عليه المعالج كقدوة حسنة أمام مرضاه.

تقول الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[1].

وقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[2].

ومن هنا فإن نظرة المعالج النفسي المسلم على خلاف مع نظرة بعض علماء العلاج النفسي في أمريكا الذين يؤكدون اقتصار مهمة المعالج النفسي على وظيفة الملاحظة ووصف المريض لسلوكه أو مرضه بمفرده دون أن يشاركه المعالج مشاركة فعالة، فيكفي في نظر روجرز صاحب نظرية العلاج المتمركز حول الذات «العميل» أن «يقصر الطبيب النفسي مهمة المعالجة على الملاحظة، فيترك للمريض الحرية في معالجة نفسه بنفسه، ثم يكتب تقريراً عن سير العلاج وتطوره»[3].

ولقد أوضحنا من قبل رأي المشرّع الإسلامي من مسألة التعلم الذاتي وتأييده التام لها، وأشرنا إلى أن النصوص التربوية الإسلامية تعتمد اسلوب الملاحظة في متابعة السلوك الإنساني ورصده واستخدامه في عملية العلاج الذاتي، لكن ذلك لا يعني ترك المريض يتخبط وحده دون معاونة فاعلة من معالج قدوة تنفعل به نفسية المريض وتتأثر بقدراته العلمية والمهنية.

ومع ذلك فإنَّ استخدام أساليب التعلم الذاتي الحر يمكن أن تحقق الأهداف العلاجية إذا كانت لمواجهة حالات خفيفة وغير معقدة وقابلة

---

(١) سورة الطلاق، ٤.
(٢) سورة الأحزاب، ٧٠ ـ ٧١.
(٣) روبرت هاربر، كتاب التحليل النفسي والعلاج النفسي، ص١٢٧.

للتعديل دون استعانة المريض بمعالج، والأفضل للفرد استشارة أحد أو طلب المعونة النفسية من ناصح أو طبيب أو مربٍ أخلاقي، وذلك لتعديل السلوك بصورة أسرع، وهكذا لا يلغي العلاج الذاتي الاستفادة العلمية أو طلب المشورة من أهل الخبرة والاختصاص بصورة ما دون حضور جلسات علاجية منظمة كما يحدث في العيادات النفسية.

أما الحالات النفسية المعقدة فلابد من ملازمة معالج يكون هو القدوة الحسنة ومتمكن علمياً ومهنياً، ويتطلب ذلك حضور المريض ـ بأمر من المعالج النفسي وبإشرافه ـ جلسات علاجية خاصة ليساعد مرضاه على تخطي مشاكلهم، ومن هنا فإنه لا يكفي في نظر الإسلام دراية المعالج بفن المعالجة وأساليبها، ومشكلاتها، وإنما لا بد من تجربة عملية جهادية انتصر فيها المعالج نفسه على كافة الشهوات التي واجهته في دنياه، فالتجربة الروحية والذهنية الجهادية له تعينه على نقل خبراته كمعالج سوي لمرضاه، فيتأثرون بها، وبذلك يساعدهم على تحسين صورتهم أمام الآخرين وإذا لم يكن المعالج مربياً لنفسه، فإنه من الصعوبة أن يتقبل الآخرون ـ وبخاصة مرضاه ـ نصائحه العلاجية، ومن هنا ندرك أهمية النص التالي:

«لا تطلبن طاعة غيرك، وطاعة نفسك عليك ممتنعة»[١].

وقوله عز وجل: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[٢].

ج ـ يجب كذلك أن يتحلى المعالج النفسي المسلم بخاصية الاحتفاظ بأسرار مرضاه، وأن لا يسمح كذلك لهم بكشف أسرار الغير لما في ذلك من تجاوزات أخلاقية تمس أحياناً أعراض الناس، وتنال من قيم العفاف

(١) ميزان الحكمة ج١ ص١٤٦.
(٢) سورة البقرة، ٤٤.

لديهم، فالسرية ليست في الواقع سمة أخلاقية يتطلبها العمل العلاجي وحده، بل هي كذلك سمة عبادية أساسية يؤكد عليها المشرّع التربوي الإسلامي من أجل تكوين علاقة وطيدة بين أفراد المجتمع بأسره، وليست بين المعالجين والمرضى فقط.

إن على المعالج أن يستعمل بدقة متناهية سرية المعلومات، وأن يفرض على الأسرار الشخصية للمرضى سياجاً شديداً من الكتمان ضماناً لنجاح المعالجة، ومن هنا أكّد الإمام الجواد عليه السلام أن: «إظهار الشيء قبل أن يستحكم مفسدة»[1]، بمعنى أن إفشاء أسرار المرضى يعرقل خطوات العمل العلاجي ويؤدي إلى تدخل عوامل مفاجئة تفسد وصول خطة العمل إلى بر الأمان... والى منتهاها المطلوب.

كما أن إذاعة أسرار الآخرين عمل غير أخلاقي، وربما يؤدي ذلك إلى غضب هؤلاء المستهدفين بإذاعة عيوبهم، باعتبار أن العيب يثير دائماً حفيظة الناس، وهذا يجعل الغاضبين أحياناً يذيعون أسرار من أفشى سرهم، فتزداد الشحناء، وتضطرب النفوس لأن في المعلومات المكشوفة ما يضايق أصحابها، ولذلك نهى المشرّع التربوي الإسلامي عن إذاعة العيب بين الناس.

يقول الله تعالى في محكم كتابه العزيز:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

جاء في أحد الأحاديث النبوية الشريفة «من أذاع فاحشة كان

(١) تحف العقول، ص٣٣٧.

(٢) سورة النور، ١٩.

كمبديها»[١] حيث يتساوى - في نظر المشرّع التربوي الإسلامي - من أذاع الفاحشة للناس بالشخص الذي ارتكبها، لذلك أمر النبي ﷺ المعالج وغيره من فئات المجتمع المسلم بكتمان الأسرار والمحافظة عليها.

وقال الإمام علي عليه السلام أيضاً:

«ذو العيوب يحبون إشاعة معائب الناس ليتسع لهم العذر في معائبهم»[٢].

وقد أمر الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله المؤمنين بالكتمان وعدم نشر الأسرار الخاصة على الآخرين سواء في ميدان الدعوة أو العلاج أو العمل المنظم أو الخدمات الاجتماعية التطوعية في مختلف جوانب العلاقات الشخصية كالصداقة، وقد قال الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه:

«استعينوا على أموركم بالكتمان»[٣].

- و«أنجح الأمور ما أحاط به الكتمان»[٤].

وقال الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام كما ذكرنا من قبل:

- «إظهار الشيء قبل أن يستحكم مفسدة له»[٥].

فالمريض الذي يلازم معالجاً نفسياً أو مربياً أخلاقياً أو ناصحاً أو رجلاً من أهل الرأي والخبرة تضطره تلك المصاحبة إلى البوح بأسراره لأن في

---

(١) تحف العقول، ص٣٩.
(٢) ميزان الحكمة، ج٧، ص٣٣٦.
(٣) تحف العقول، ص٤٠.
(٤) ميزان الحكمة، ج٤ص ٤٢٧.
(٥) تحف العقول، ص٣٣٧.

ذلك ـ أولاً ـ تفريجاً عما في نفسه، ولأن في استشارة المؤمن العاقل حركة هادفة لتدارس المشكلة مع أخ مؤمن ثقة، يخلص النصيحة، فينتفع المستشير، وتكون للاستشارة أثر فعال في شخصيته، وتنمية العلاقة بينهما.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «فإذا كان عاقلاً ـ يعني المشير ـ انتفعت بمشورته، وإن كان حراً متديناً أجهد نفسه في النصيحة لك»[١].

وفي نصٍّ ثانٍ قال أيضاً:

«شاور في حديثك الذين يخافون الله»[٢].

وفي نصٍّ ثالث «استشر العاقل من الرجال الورع، فإنه لا يأمر إلاّ بخير»[٣].

«من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها»[٤].

وتحديد هذه النصوص لثلاثة عناصر هي الخوف من الله، ونضج عقل المستشار، وإخلاصه في المشورة، إنما يدل على ضرورة توفر شروط معينة في شخصية من تستشيره كالقدرة على كتمان أسرار الآخرين، باعتبار أن تمتع المعالج النفسي المسلم بهذه القدرة يمثل استقامة إسلامية في شخصيته، ويمثل كذلك نضجاً في ذاته.

فالنصوص السابقة تطالب بأن يكون المعالج المسلم ثقة وعاقلاً، فهاتان السمتان يمكن أن توفرهما الشخصية الأرضية، خاصة فيما يتعلق بطبيعة علاقاته مع مرضاه، لكن المشرّع التربوي الإسلامي يجعل من (خوف

(١) الوسائل، باب ٢٢حديث ٨.
(٢) المصدر السابق، باب ٢٢ حديث ٤.
(٣) المصدر السابق، باب ٢٢، حديث ٥.
(٤) تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون، ص٤٥٣.

الله) القاعدة الكبرى التي تنتظم عليها حركة الذات المسلمة بما فيها شخصية المعالج المسلم، فما دام ورعاً، خائفاً، راجياً لله، فإن احتفاظه بأسرار الآخرين ليس أمراً تتطلبه طبيعة العمل العلاجي فحسب، بل هو سلوك أساسي في شخصية المعالج النفسي المسلم كمكلف، وسمة تحدّدها الوظيفة العبادية المطالب بإنجازها في الحياة. فخوف الله، والورع عن محارمه يصقلان شخصية المعالج النفسي، ويقويان قدرته على كتمان أسرار إخوانه المؤمنين، وبخاصة من استوثقوه أسرارهم الخاصة، لهذا يجب أن يكون كتوماً لأسرار نفسه، بل لأسرار غيره، فالحديث الشريف يقول:

«من ضعف عن حفظ سره لم يقو لسر غيره».

فتمتع المعالج النفسي المسلم بالسرية وكتمان أسرار مرضاه مظهر لهذا الورع ونزاهة الشخصية، وتطبيق عملي للسلوك العبادي الصادق التي تقتضيه مصلحة العلاقة بينه وبين مرضاه، وتقديره لهم من خلال مبدأ مراقبة الله عز وجل له سراً وعلانية.

ثانياً: السمات الوجدانية والاجتماعية:

أ ـ التفاؤل والثقة بالله:

تقوم عقيدة المسلم على أساس أن الله سبحانه وتعالى هو مصدر العطاء الجزيل في كل شيء، فكل جهد يبذله الإنسان لصلاح نفسه يؤيده الله بعظيم أجره، وجزيل بركته، فالإنسان عادة يهيئ أسباب العمل، والجهد، والله عز وجل يكافأه بخلق النتائج الإيجابية لأعماله، ومن هنا فإن المؤمن هنا دائماً في تفاؤل بنتائج عمله، وفي ثقة كاملة بتأييد الله وتوفيقه له، فالتوفيق «أساس النجاح»[1] كما يقول أحد النصوص الإسلامية.

---

(١) ميزان الحكمة، ج١٠، ص٥٩٠.

وما كلمة (توفيق الله) التي يقولها المسلم في كل حين إلاّ تجسيداً لفكرة واحدة هي أن الله دائماً مصدر النجاح وسبب نيل المطالب للعباد، والتوفيق في الحصول عليها، فهذه الكلمة العزيزة التي يلهج بها لسان الفرد المسلم ليل نهار، تعبير عن التفاؤل الحي المستمر في نفوسنا، ولهذا التفاؤل دلالة تربوية فعالة في التوازن النفسي للمسلم معالجاً كان أو مريضاً أو غيرهما، بحيث يحس كل منهم بحتمية تحقيق الهدف عقب كل نشاط يبذله، ومن المؤكد أن التفاؤل بصيغته هذه يباعد بين الإنسان المسلم ومشاعر الإحباط، لأنه ينال دائماً ثمرة جهده إما بدنياه أو آخرته.

وما ينطبق على كل مسلم، ينطبق كذلك على إيمان المعالج المسلم، فهو دائماً متفائل بنجاح جهده، وبتوفيق الله له في كل أعماله، ولولا هذا التفاؤل لما أرضعت أم طفلها، ولا غرس زارع شجرة، فعندما يصوغ المعالج النفسي المسلم برنامجه العلاجي ويرسم خطواته، يكون دائماً حسن الظن بالله، ومطمئناً إلى توفيقه عز وجل، لهذا لا يتوانى أبداً عن بذل المزيد من الجهد لتحقيق أهدافه، ويصبر نفسه على مكاره المعالجة ومشاق جهادها، قال الإمام الجواد عليه السلام:

«المؤمن يحتاج إلى توفيق من الله، وواعظ من نفسه، وقبول ممن ينصحه»[1].

وجاء في الدعاء أيضاً:

«اللهم ارزقنا توفيق الطاعة وبعد المعصية وصدق النية وعرفان الحرمة»[2].

---

(١) تحف العقول، ص٣٣٧.

(٢) كلمة الإمام المهدي، ص٣٠٩.

ب ـ الثبات العاطفي:

يسمى الثبات العاطفي في نصوص المشرّع الإسلامي بالصبر، ويرى من الضروري أن تمتاز شخصية المعالج المسلم بهذه السمة، وأن يكون صبوراً يتحمل مشاق علاج السلوك ومتاعبه، وقد أكّدنا من قبل بأن المريض قد يكون في بعض فترات العلاج ملولاً، وقليل الصبر والتحمل، ولذلك يكون أيضاً عرضة للتوتر بسبب مشقة الجهد الذي يبذله في مقاومة رواسب نفسه، أو في قيامه بجهد يحاول فيه تكوين سلوك إسلامي مقبول، وحينئذ ـ بسبب هذه المعاناة ـ ترغب نفسه في اجترار سلوكه الماضي والعودة إلى عاداته المذمومة، وربما تتكرر هذه الحالة مرات عديدة، وتتثاقل نفسه عن المجاهدة، وهذا في حدّ ذاته خطر حقيقي يهدد المعالجة، وينذر بنسفها.

وإزاء هذه الحالة النفسية الصعبة يتجلى دور المعالج المسلم باعتباره شخصاً صقلت التجارب الجهادية شخصيته ودربت نفسه على الثبات العاطفي في مواجهة الشدائد وتحمل الصعاب، فالمعالج الصبور جدير بنصح غيره، وجدير بثباته على مساعدة الآخرين، فطالما قدر على نفسه واكتسب مراناً، وفنوناً من المواجهات مع رواسب النفس ونوازعها الشريرة، فكذلك يكون قادراً بإذن الله تعالى على إصلاح نفوس غيره مستعملاً مختلف طرائق العلاج النفسي وأساليبه.

ولا بدّ أن تكون فاعلية الصبر عند المعالج النفسي شديدة الوضوح في نفسية مرضاه، إنهم يتخلون تدريجياً عن الجزع والضجر والشعور بعدم الأمان، ويتمثلون سلوك الصبر بمرور الأيام حتى تألف نفوسهم احتمال الشدائد وتحقق توازناً، فالمعالج النفسي المسلم يؤثر بالقدوة أكثر من تأثيره بإيحاءات اللغة، والتوجيه الكلامي، والنصائح اللفظية، وأنْ يدرب على فهم

واستيعاب الدلالة التربوية للصبر والثبات العاطفي وتحمل المسؤولية، فـ «من لم ينجه الصبر أهلكه الجزع»[١] كما قال الإمام علي عليه السلام.

ج ـ الإخلاص وصدق النصيحة:

كما يطلب من المستنصح ـ عادة ـ صدق التجاوب، وحسن الاستماع للمشورة، فكذلك من واجب المعالج النفسي المسلم أن يؤدي للمريض النصيحة بصدق وإخلاص، وأن يجهد نفسه في المشورة، لكن الصدق يتطلب كما سبق في النصوص التي أوردناها أمرين:

١ ـ أن يكون الناصح عاقلاً وثقة وخبيراً بالنفوس وبحالاتها وعليماً بأحكام الدين وأحاط بكثير من ظروف الحياة، بحيث يقدم الاستشارة بعد طول تفكير أو من خلال ممارسة شخصية خبرها، «فطول الفكر ـ كما يقول النص الشريف ـ يحمد العواقب ويستدرك فساد الأمور»[٢].

٢ ـ أما الأمر الثاني أن يكون الناصح مؤمناً، تقياً، ورعاً عن محارم الله عز وجل ويخشاه، وبكليهما لا يتحقق إلاّ خيراً.

وبالرغم من توفر هذين العنصرين أحياناً، فإن الخطأ في المشورة أمر ممكن ولا مناص منه، لأن الناصح على كل حال بشر يولد مثل كل البشر بطبيعة ناقصة، إنه يحاول فيخطئ، غير أن المشرّع التربوي الإسلامي يأمر دائماً بأن يشكر الناس بعضهم في أي جهد عبادي، ولتجنب الاتهامات بينهم أيضاً.

والنصيحة المخلصة تشحن نفسية المستنصح بحب معالجه له، وترغبه في الإقبال على المعالجة النفسية بروحية أفضل، وتوثق العلاقة بينه وبين

---

(١) نهج البلاغة ج٤، ص٤٣.
(٢) الشخصية الرسالية ص١٥.

مرضاه، ويتعلم من خلال تجربة التشاور تبادل الحب بينه وبين الآخرين ـ لا سيما معالجه ـ فتتآزر جهودهما معاً في مقاومة السلوك المريض غير المرغوب فيه، ويعزز ذلك تفاؤل يغمر قلبيهما بأن الله عز وجل سيوفقهما ـ لا محالة ـ في إنجاز الهدف المحدّد، وسينجح كلاهما في تعديل السلوك وفق طريقة الأضداد الإسلامية.

د ـ حب المعالج لمرضاه:

إن المريض أو المستنصح بحاجة كبيرة لحب هادئ وصادق، وحنان متدفق يخلعه المعالج على نفسية مريضه، فما دامت مسؤولية العلاج التي يقوم بها المربي المسلم تعد جزءاً من الوظيفة العبادية، فإن إنجاز هذه الوظيفة يكون تاماً حيث يوفّر المعالج لمرضاه حباً، وعطفاً عليهم، فالحب ـ كقيمة عاطفية وأخلاقية وإنسانية ـ له عظيم الأثر في سيكولوجية المستنصحين والمرضى.

وهذا الحب قاعدة وجدانية كبرى يتحرك من خلالها المعالج ليتعرف على الأجواء الداخلية في شخصية المريض وهو الطريق الصحيح لتأسيس العلاقات السليمة الوطيدة بينهما «لا خير في قوم ليسوا بناصحين، ولا يحبون الناصحين»[(١)]، فالحب عاطفة استودعها الله عز وجل في طبائعنا وتكويننا الداخلي.

ومن الطبيعي أن يدرك المعالج المسلم فاعلية الحب في علاج النفوس، غير أن المعالج النفسي الغربي يركز على أنواع أخرى من الحب كحب الناس، والحب الجنسي، أما المعالج المسلم فيصوغ هذه الأنماط

---

(١) ميزان الحكمة ج١ص٦١.

كلها في إطار الحب الكبير وهو حب الله، وحب الدين، وحب المثل العليا وحب الآخرين، وحب الأشياء في نظر التشريع الإسلامي موصولة بالحب الكبير.

إن المعالج يستخدم مفهوم الحب في معالجة عدوانية المريض أحياناً، ونفوره، بحيث يطلب من المريض التسامي بنزعاته العدوانية كما يفعل في حالة العفو، ويتجاوزها إلى رغبة حب الآخرين، والصفح عنهم، والتخلي تماماً عن رغبته في الانتقام منهم، فالمعالج المسلم يربي مرضاه على مبادلة عدوانيته بالحب، ويعلمه أن «أقبح العيوب قلة الصفح»[1] في شخصية المسلم وأخلاقياته، وأن على المسلم أن يخلع حبه على الآخرين، باعتبار أن حبه لهم يمثل طريقاً للبحث عن الحب الإلهي.

هـ ـ الرفق بالمرضى وحسن معاشرتهم:

الرفق والمواراة، والمعاشرة بالحسنى أبرز مظاهر الحب الفياض الذي يجب أن يكنّه المعالج المسلم لمرضاه، وهي تعبير عن تقدير شخصي من المعالج نحو من كلفه الله سبحانه وتعالى بمعونتهم ومساعدتهم، وتقديم المشورة لهم، ولقد أكّدت النصوص التربوية الإسلامية بكثرة على أن قلب الإنسان المسلم عطوف، دمث الخلق ويتمتع بحسن المعاشرة، ويداري مشاعر الناس بالحسنى، ويصاحب صديقه وأخاه بالحسنى ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

ومما لا شك فيه أن توفر هذه السمات الإنسانية والإسلامية يوطد العلاقة بين المريض والمعالج، فكلاهما يحترم شخصية الآخر، ويشعران بأنهما فريق واحد يتحرك في اتجاه واحد، بقصد تحقيق هدف مشترك.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ج٢ ص٢٧٥.

وللمعاملة الحسنة التي تنبت المودة بين المعالج ومريضه فاعلية كبيرة في استعادة الأخير لتوازنه النفسي، إذ يقلب المريض إحساسه بالنفور من كل شيء إلى شعور بالألفة، والانتماء، والإقبال على الحياة، لأن تلك المعاملة الفاضلة تمتص بالتدريج المشاعر المظلمة وتساعد على إزالة الحساسية الانفعالية حتى تطمئن نفسية المريض فعلياً إلى صدق واحترام المعالج لشخصيته.

فالمعالج كشخصية مؤمنة تألف الآخرين من خلال سلوكها الإسلامي النقي، فهي ترغب فعلاً في خلع حبها عليهم، وتقدم دائماً الخدمات التي تثبت رغبتها في النصيحة لهم، كما أن الشخصية المؤمنة تؤلف من قبل الغير بواسطة صفحها المستمر، وتنازلها أحياناً عن بعض حقوقها من أجل أن تمنح حبها الآخرين.

قال الله تعالى مشيراً إلى المعاملة بالحسنى في تغيير المواقف النفسية عند الناس:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾[2].

ونصت آية ثالثة على هذا الأسلوب: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾[3].

ومنطق هذه الآيات القرآنية الكريمة مثال جيد على دعوة واستخدام

(١) سورة النحل، ١٢٥.
(٢) سورة المؤمنون، ٩٦.
(٣) سورة فصلت، ٣٤.

المشرّع والمعالج لطريقة الأضداد، وفعاليتها التربوية والعلاجية في الواقع الإنساني، وكان لها فعل السحر في النفوس خاصة في أثناء قيام النبي ﷺ بعملية الدعوة، إذ آمن بهذه الطريقة الحوارية الهادئة عدد كبير من الناس، بل كانت فعالة مع أصحاب القلوب الغليظة التي احتاجت لفترة أطول للاستجابة، لكن بعضها أذعن للدعوة الجديدة في نهاية الأمر، واحتاج البعض إلى منطق القوة.. وهم قلة كما يشهد تاريخ الدعوة الإسلامية.

وقد حسمت حركة فتح مكة هذا النوع من التعامل مع صناديد قريش وأتباعهم المعاندين.

وقوله ﷺ: «خياركم أحسنكم أخلاقاً، الذين يألفون ويؤلفون»[١].

وقول الإمام الهادي عليه السلام: «من جمع لك وده ورأيه، فاجمع له طاعتك»[٢].

وقوله ﷺ: «مداراة الناس نصف الإيمان، والرفق بهم نصف العيش»[٣].

وفي رواية أخرى: «التودد إلى الناس نصف العقل»[٤].

السمات والقدرات العقلية:

أ ـ الذكاء والمرونة:

لا نقصد من ذكاء المعالج المسلم، قدرته العقلية الفطرية التي يتمتع بها منذ الولادة، فهذه صفة يزوّد الله عز وجل بها جميع الناس وإن شاءت حكمته التفاوت في مستوياتها بين الأفراد، ولا نقصد من ذكائه كذلك

(١) تحف العقول، ص٣٨.
(٢) المصدر السابق، ٣٥٨.
(٣) المصدر السابق، ص٣٥.
(٤) الشخصية الرسالية، ص٢٠، وتحف العقول، ص٣٥، ٤٥.

المستوى العالي من تلك القدرة، فهذا أيضاً يرجع لقوانين الوراثة التي شاء الله أن تكون طريقاً لنقل الوراثات من الآباء إلى الأبناء، ولو كان الأمر على هذا النحو لكان عدد معالجي النفس أقل بكثير مما هو عليه عددهم الآن.

وإنما نقصد من ذكاء المعالج المسلم مهارته في توظيف تلك القدرة العقلية المتوفرة لديه، ومرونة هذا التوظيف في القيام بمسؤولية العلاج النفسي لمرضاه أو لمستنصحيه، فدور هذه القدرة يتمثل في فهم أمراض النفس وتشخيص اضطرابات سلوكها، وتعيين أساليب مداواتها، ومعرفة العناصر الأساسية المكونة للعلاقة بينه وبين مرضاه، ومتابعة العلاج حتى آخر مراحله، وتحديد سبل التعلم الذاتي للمريض حتى لا ينقطع العلاج، وفي ضوء ذلك فإن المعالج المسلم لا يشترط أن يكون مستوى ذكائه عالياً، وإنما المهم أن يستثمر هذه القدرة في القيام بالمسؤولية الكاملة للعلاج على النحو الذي أوردناه في تضاعيف هذه الدراسة.

ب ـ التخصص في الطب النفسي الإسلامي:

قد يبدو غريباً أن نطالب المعالج النفسي المسلم بالتخصص في مجال تخصصي مهم كالطب النفسي الإسلامي، لأن الإسلام في نظر البعض مجرد تعاليم أخلاقية وتوجيهات اجتماعية لا صلة له بالعلم، وليس مشروعاً حضارياً متكاملاً للحياة ولأنه ليس هناك جامعة إسلامية أو غير إسلامية تهتم بتدريس هذه المادة أكاديمياً، بل ليس هناك هيئة علمية عالمية أو إسلامية تتبنى الاتجاه الإسلامي في ميدان العلاج النفسي»[1]، وبالرغم من هذه

(١) ظهر اتجاه جديد في أوساط علماء النفس المسلمين المعاصرين لتأسيس هيئات محلية وعالمية للصحة النفسية الإسلامية ومنها الجمعية العالمية الإسلامية للصحة النفسية التي تصدر عنها مجلة النفس المطمئنة، وقد تزايد هذا الاتجاه بظهور عدد من الأبحاث العلمية تحاول تفسير السلوك بوجهة نظر إسلامية وتأسيس علم نفس إسلامي وحركة علاج نفسي تسترشد بالقيم الدينية والأخلاقية التي يؤكد عليها الإسلام، وتدعو إلى الاستفادة من جهود علماء النفس والمعالجين النفسانيين المعاصرين.

الدعاوى فإن مادة الطب النفسي الإسلامي خاصة طابعها المعرفي والأخلاقي مدفونة في باطن النصوص القرآنية والنبوية، وهي تستمد وجودها من هذه التعاليم والتوجيهات، بالإضافة إلى التقنيات العلاجية الجديدة.

وبالرغم أيضاً من عدم وجود مؤسسة علمية تأخذ على عاتقها تدريس هذه المادة، فإن المعالج النفسي المسلم لا يعوزه مصدر لتلقي ثقافته عن أصول الطب النفسي الإسلامي ومبادئه وقيمه، فيمكنه عن طريق التعلم الذاتي أو بملازمة مجموعة من المثقفين والعلماء المسلمين المهتمين بهذا الموضوع، أو بمتابعة سائر التخصصات في المعرفة الإسلامية، كالفقهاء، وأساتذة الجامعات، وعلماء التربية والأخلاق، أن يزوّد نفسه بمعلومات هذا التخصص الفرعي من المعرفة الإسلامية.

وأعتقد جازماً بأن كتب التربية والأخلاق، والسلوك، والتفسير، والحديث الشريف مصادر هامة لتزويد المعالج النفسي المسلم بالثقافة العلاجية التربوية الإسلامية، فهذه الكتب أسهبت كثيراً، وعلى مدى قرون متتالية، في تشخيص الحالات المرضية تشخيصاً دقيقاً، وحدّدت بموضوعية أنماط السلوك العصابي والعوامل المؤثرة فيه، كما وصفت في دقة مختلف أنماط السلوك الإسلامي المضاد لهذه الحالات المرضية.

كما أن أهمية هذه المصادر تكون في أنها تستقي مادتها المعرفية من الخالق العظيم، البصير بحقائق النفس وبحالاتها الظاهرة والباطنة، وأنها كذلك دونت بأيدي خبرت السلوك الإسلامي علماً وتطبيقاً، وتمثلت في حياتها بالأخلاق الربانية العملية، فالعلماء المسلمون لم يكتبوا مادة الطب النفسي الإسلامي من خلال تعلم نظري محض كما يفعل الكثير من المفكرين، بل من محاولاتهم المستمرة لتطبيق مبادئ هذه المادة على

أنفسهم أولاً بأول والملاءمة بين أحكام المنهج الرباني ومتطلبات الذات النمائية والعلاجية، فهؤلاء العلماء استقوا مبادئ وأصول هذه المادة من القرآن والسنة، ومن خلال تعلم ذاتي مستمر أو بتأثير عدد من العلماء الذين تتلمذوا على أيديهم، ويمكن للمعالج المسلم أن ينهج المسلك ذاته، ويتبع نفس الطريق.

وتأكيدنا على أهمية دراية المعالج المسلم بالطب النفسي القرآني لا يعني بعده عن التخصص العلمي الحديث الذي توفره الآن مناهج العلاج النفسي المعاصرة، فهذه المناهج وإنْ كانت ذات تصور مغاير للإسلام أحياناً، إلاّ أنها تلتقي مع الإسلام في بعض الأسس، وتضيف لثقافة المعالج المسلم علماً جديداً، وخبرات جديرة بالاهتمام خاصة في مجال استخدام الأجهزة العلمية وأساليب وتقنيات علاجية جديدة تحقق الغايات، إذ لا يعقل أن يلغي المعالج المسلم كل تطور جديد في هذا المجال، فالمعرفة تراكمية تضيف خبرة لاحقة على خبرة سابقة.

ويقتضي هذا التخصص توفر عنصر الكفاءة العلمية، وكذلك الدراسة الواسعة الواعية بالأحكام الشرعية في مسائل تخص العلاج النفسي كما هو حال الطبيب العضوي، ولا ينبغي له أن يعزل نفسه عن هذه الأحكام كي لا يكرر أخطاء المعالج الغربي، والمعالج المسلم المقلد لأساليب العلاج النفسي الغربي بكل حذافيره، فتكون معالجاته مختلفة في توجهاتها العلاجية عن التصور الغربي حتى في العناصر التي يلتقي فيها مع المحلل الغربي، فمن عمل بغير علم يفسد أكثر مما يصلح.

ج ـ سمو ميوله واتجاهاته العقلية:

ما دام المعالج النفسي المسلم يتصل دائماً بمرضاه فإنه في حاجة إلى

أن تتوفر في شخصيته سمات ومهارات عقلية مهمة كالموضوعية، والبعد عن أشكال التعصب، والقدرة على الاستدلال، ودقة الوصف والملاحظة في تشخيص الأمراض النفسية، وتعيين طرق المعالجة وأساليب متابعتها.

فهذه القدرات ليست لتكوين علاقة بين المعالج والمريض فحسب، وإنما لبناء جسور الثقة بينهما وضمان نجاح جهدهما العلاجي القائم على فهم واقعي لعيوب الذات، فالموضوعية مثلاً تنزهه عن الأهواء، وتبعده عن النوازع الذاتية، فتجعله يبحث عن مختلف الطرق والأساليب العلاجية لتقويم أنماط السلوك دون ميل إلى نزعة شخصية، ويحول بينه وبين التعاطف مع السلوك العصابي إلى حدّ بعيد يفقد في المعالج القدرة على استبدال السلوك الخاطئ أو يفقد القدرة على الاستعلاء على السلوك المرضي.

والمعالج النفسي غير المتعصب يستطيع التعامل مع كل إنسان بسهولة وتلقائية نابعة من عواطفه الإنسانية والإسلامية، ويستطيع في الوقت ذاته أن يغيّر من الأساليب والأفكار التي تثبت التجارب أنها غير مناسبة لحالة ما، أو أنها تناسب حالة أخرى، فقد يستعمل فكرة أو طريقة لتغيير سلوك خاطئ عند المريض، لكنه يكتشف بعد ذلك أن هناك طرائق أخرى أجدى وأنفع، وأكثر تناسباً للحالة المرضية التي بين يديه، لهذا لا يتعصب لرأيه بغية تحقيق غرض غير نزيه.

أما دقة الملاحظة فتبدو شديدة الأهمية بالنسبة للمعالج النفسي المسلم في صدق التشخيص وتحديد نوع المرض وانتقاء أساليب علاجه، وتنفع في متابعة مراحل المعالجة، كما أن للقدرة على الاستدلال قيمتها العلمية في معرفة النتائج المتمخضة عن العلاج في مختلف مراحله، وتفسير تطوراته،

وهكذا فإن سمو قدراته العقلية تمكنه من السير بالمعالجة سيراً طبيعياً، يحقق للمعالج والمريض هدفهما المشترك المرجو، من هنا أكّد الإمام الحسين عليه السلام في نصّ تربوي له قيمة الالتزام بقواعد المنهج العلمي وضوابطه في التشخيص والتحليل والتفسير وتعلم فنون النظر.

قال الإمام الحسين بن علي عليه السلام:

«من دلائل العالم انتقاده لحديثه، وعلمه بحقائق فنون النظر»[١].

د ـ الإصغاء الجيد للمريض:

يحتاج المعالج النفسي المسلم كذلك لميزة المحاورة الجيدة الهادئة مع مرضاه، فلا يرفع صوته غاضباً عليهم، ولا يقاطعهم في أحاديثهم المسترسلة إلاّ مضطراً، ولتوجيه الحديث في الاتجاه الذي يتبعه، فالمعالج يتكلم بمقدار ما يحتاجه، ولكنه يصغي جيداً، ويكون صوته خلال المحادثة هادئاً، يشعر المريض خلالها بشيء من الراحة النفسية وسكينة البال.

إن مسألة الإصغاء الجيد عند المعالج ضرورية للتعرف على هموم المريض تلقائياً، تنساب منه الأفكار السالبة المطلوب استحضارها حتى بدون مقاومة من نفس المريض، وعقله أحياناً، بسبب عدم تقييد الحديث إلاّ بضوابط شرعية يسمح بها المعالج المسلم.

وقد أشارت النصوص الشريفة إلى أهمية (الكلام) في معرفة خفايا النفس واستجلاء بواطنها، وأشارت كذلك إلى دور (الإصغاء) في كشف هذه الخفايا كقوله تعالى:

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[٢].

---

(١) تحف العقول، ص١٧٨.
(٢) سورة محمد، ٣٠.

﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[١].

وهناك آيات كثيرة تكشف عن نفسية المنافقين وما تكنه نفوسهم.

«تكلموا تعرفوا فإن المرء مخبوء تحت لسانه».

«عند تصحيح الضمائر يبدو غل السرائر».

«ما أضمر أحد شيئاً ألا وظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه».

«اللهم اغفر رمزات اللحاظ، وسقطات الألفاظ، وهفوات اللسان، وشهوات الجنان».

«وأن تستر عليَّ فاضحات السرائر».

وهناك أيضاً نصوص أخرى في هذا الصدد تؤيد دور الكلام وضوابطه في ضبط العلاقة بين المعالج والمريض، ونجاح عملية العلاج النفسي.

قال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»[٢].

وفي رسالة الحقوق[٣] للإمام السجاد عليه السلام نجد أكثر من نصّ مثل:

«وأما حق الجليس فأن تلين له كنفك (أي جانبك وظلك)، وتطيب له جانبك وتنصفه في مجاراة اللفظ، ولا تغرق في نزع اللحظ إذا لحظت، وتقصد في إفهامه إذا لفظت».

---

(١) سورة آل عمران، ١١٨.

(٢) تحف العقول، ص٣٢.

(٣) تمّ تحليل هذا النص الإسلامي كوثيقة تربوية ـ المأخوذ والمقتطع من رسالة الحقوق المنسوبة للإمام زين العابدين ـ بصورة موسعة في الفصل الثاني من كتابنا «بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي»، وقد استنبطنا منه بعض المبادئ الإرشادية الفعالة التي تسهم في توجيه العلاقة الإرشادية من وجهة نظر إسلامية خاصة لأسلوب الموعظة والمشورة وإسداء النصائح، ويمكن للقارئ الكريم قراءة الكتاب المذكور، ص(٦٠ ـ ٦٩).

وعن حقوق المستشير يقول:

«وأما حق المستشير فإنْ حضرك له وجه رأي جهدت له في النصيحة، وأشرت عليه بما تعلم أنك لو كنت مكانه عملت به، وذلك ليكن منك في رحمة ولين، فان اللين يؤنس الوحشة، وإنَّ الغلظ يوحش موضع الأنس، وإنْ لن يحضرك له رأي وعرفت له من تثق برأيه وترضى به لنفسك دللته عليه وأرشدته إليه، فكنت لم تأله خيراً، ولم تدخره نصحاً، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله».

ثم أخذ يذكر حقوق المشير والمستنصح والناصح والصاحب فقال:

«وأما حق المشير عليك فلا تتهمه فيما يوافقك عليه من رأيه إذا أشار عليك، فإنما هي الآراء وتصرف الناس فيها واختلافهم، فكن عليه في رأيه بالخيار إذا اتهمت رأيه، فأما تهمته فلا تجوز إذا كان عندك ممن يستحق المشاورة، ولا تدع شكره على ما بدا لك من إشخاص رأيه وحسن وجه مشورته، فإذا وافقك حمدت الله وقبلت ذلك من أخيك بالشكر والارصاد بالمكافأة في مثلها إن فزع إليك، ولا قوة إلاّ بالله».

«وأما حق المستنصح فإنَّ حقه أن تؤدي إليه النصيحة على الحق الذي ترى له أنه يحمل ويخرج المخرج الذي يلين على مسامعه، وتكلمه من الكلام بما يطيقه عقله، فإن لكل عقل طبقة من الكلام يعرفه ويجتنبه، وليكن مذهبك الرحمة، ولا قوة إلاّ بالله».

«وأما حق الناصح فأن تلين له جانبك ثم تشرئب له قلبك (أي تستفيد من نصحه)، وتفتح له سمعك حتى تفهم عنه نصيحته، ثم تنظر فيها، فإن كان وفق فيها للصواب حمدت الله على ذلك وقبلت منه وعرفت له نصيحته، وإنْ لم يكن وفق لها فبها رحمته، ولم تتهمه، وعلمت أنه لم

يألك نصحاً ألا أنه أخطأ، إلاّ أن يكون عندك مستحقاً للتهمة فلا تعبأ بشيء من أمره على كل حال، ولا قوة إلا بالله».

«وأما حق الصاحب فأن تصحبه بالفضل ما وجدت إلى ذلك إليه سبيلاً، وإلا فلا أقل من الإنصاف، وأن تكرمه كما يكرمك وتحفظه كما يحفظك، ولا يسبقك فيما بينك وبينه إلى مكرمة، فإن سبقك كافأته، ولا تقصر به عما يستحق من المودة، تلزم نفسك نصيحته وحياطته ومعاضدته على طاعة ربه ومعونته على نفسه فيما لا يهم به على معصية ربه، ثم تكون عليه رحمة، ولا تكون عليه عذاباً، ولا قوة إلاّ بالله»[١].

ففي هذه النصوص عدد من التعليمات المنظمة لقواعد المكالمة، والمحادثة لا بين المعالج والمريض فحسب بل بين كل إنسان وآخر ومنها:

إن من واجب الناصح أو المرشد أو المعالج المسلم أن يكلم مريضه أو مستنصحه بمقدار ما يطيقه عقل المستنصح، لأن لكل عقل مستوى معيناً، وهذا ما عناه بأن لكل عقل طبقة، وتكشف هذه العبارة عن تنبيه الإمام السجاد عليه السلام بوجود فروق فردية بين عقل وآخر، وينبغي للمعالج تقدير ذلك، فلا يكون حواره مع مريض معين بنفس الطريقة الحوارية المتبعة مع مريض آخر.

إن الكلام الذي يطيقه العقل يجعل المستنصح يعرف من الكلام شيئاً معقولاً، ويجتنب كلاماً آخر لا يفهمه.

أن يكون كلام المعالج لمستنصحيه معتدلاً في اللفظ، مقتصداً في التفهيم والإيضاح، وأن لا يثقل على مريضه، فلعل المعالج يملك ثروة

---

(١) انظر كتاب تحف العقول، ص١٩٣.

كبيرة من المفردات اللغوية، وعليه أن يتواضع في مجاراة مستنصحيه باللفظ، فلا يظهر أنه أقدر منه لغوياً، مما يؤثر على صفو العلاقة بينهما.

وأن لا يغرق الناصح أو المعالج النفسي في نزع اللحظ عن وجه مريضه أو من يطلب منه النصيحة (أي أن تظل عين المعالج تلحظ وجه المريض أو المسترشد وتتابعه عندما يقوم المعالج بعملية النصح أو الحديث معه، وذلك ليبقى التفاعل قوياً وفعَّالاً... بمعنى أن لا يصرف المعالج أو الناصح وجهه عنه كثيراً)، ويطلب منه أن يصغي جيداً لكلامه، ولا يلتفت هنا وهناك، وربما يؤدي ذلك إلى إحساس المريض بعدم الاهتمام، وعدم تقدير شخصيته من قبل المعالج النفسي.

ولهذا انعكاسات سلبية خطرة على سير المعالجة السلوكية ونتائجها الواقعية، لأن المريض ـ وهو طرف رئيسي في برنامج المعالجة ـ أحس بمرارة الإحباط ومتاعبه النفسية، وتهيأت نفسه بالتالي إلى عدم التعاون مع المعالج، مما يترتب عنه تعطل المعالجة السلوكية بأسرها، أو بطء سيرها على الأقل.

مراجع البحث ومصادره

أولاً: المصادر العلمية:

١ ـ إبراهيم، د. عبد الستار / العلاج النفسي الحديث قوة للإنسان، الكويت، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، رقم العدد (٢٧) شهر مارس ١٩٨٠م.

٢ ـ إبراهيم، د. عبد الستار وآخرون / العلاج السلوكي للأطفال.. أساليبه ونماذج من حالاته، دولة الكويت، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، رقم العدد (١٨٠)، شهر ديسمبر ١٩٩٣م.

٣ ـ عزت راجح، د. أحمد / أصول علم النفس، دار المعارف، الطبعة الحادية عشرة، القاهرة، سنة الطبع ١٩٧٧م.

٤ ـ فروم، أريك / الإنسان بين الجوهر والمظهر، الكويت، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، رقم العدد (١٤٠) الكويت، ذو الحجة سنة ١٤٠٩هـ ـ أغسطس ١٩٨٩م.

٥ ـ فروم، أريك / الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، القاهرة، مكتبة غريب، سنة الطبع ١٩٧٧م.

٦ ـ كارليل، د. ألكسيس / الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد فريد، مؤسسة المعارف، بيروت.

٧ ـ كارليل، ألكسيس / الدعاء.

٨ ـ الشرقاوي، د. أنور / التعلم.. نظريات وتطبيقات، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة، سنة الطبع ١٩٩١م.

٩ ـ آيزنك / علم النفس بين الحقيقة والوهم، ترجمة د. رؤوف نظمي، والأستاذ قدري حفني، القاهرة.

١٠ ـ أغروس، روبرت وجورج ستانسيو / العلم في منظوره الجديد، الكويت، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، العدد (١٣٤)، شهر فبراير ١٩٨٩م.

١١ ـ بيرت، سيريل / علم النفس الديني، ترجمة سمير عبده، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٢ ـ سيجمند فرويد / مستقبل وهم، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٩٧٤م.

١٣ ـ سيجمند، فرويد / قلق في الحضارة، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبعة ١٩٧٧م.

١٤ ـ سيجمند فرويد / موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٩٨٦م.

١٥ ـ خيري، د. سيد محمد وآخرون / علم النفس التربوي، مطبوعات جامعة الرياض، الرياض، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٩٧٥م ـ ١٣٩٤هـ.

١٦ ـ عبد القادر، د. حامد / العلاج النفسي قديماً وحديثاً، منشورات دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م.

١٧ ـ روبرت هاربر / التحليل النفسي والعلاج النفسي، ترجمة د. سعد جلال، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٩٧٤م.

١٨ ـ يونغ، كارل غوستاف / التنقيب في أغوار النفس، ترجمة نهاد خياطة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

ثانياً: المصادر الإسلامية:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ إبراهيم حسن، د. حسن / تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج ١، دار الجيل، بيروت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة عشرة، سنة ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٣ ـ الآمدي التميمي، الشيخ عبد الواحد / غرر الحكم ودرر الكلم، (ج١ ـ ٢)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٤ ـ الإمام زين العابدين، علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(ع)/ الصحيفة السجادية، شرح عز الدين الجزائري، بدون تحديد دار الطبع، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٥ ـ ابن أبي طالب، الإمام علي / نهج البلاغة بأجزائه الأربعة، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، شرح الأستاذ الإمام محمد عبده، بيروت.

٦ ـ الأندلسي، ابن حزم / مداواة النفوس، تحقيق عادل أبو المعاطي، دار المشرق العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٧ ـ ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي / تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية، سنة الطبع ١٣٩٨هـ.

٨ ـ بيضون، لبيب / تصنيف نهج البلاغة، منشورات مكتبة دار كرم (دمشق) وتوزيع دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٩٧٨م.

٩ ـ التسخيري، محمد علي / التوازن في الإسلام، الدار الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

١٠ ـ المجلسي، محمد باقر/ بحار الأنوار، مجلد (٤٩) المكتبة الإسلامية، طهران، بدون تاريخ.

١١ ـ الحراني، الحسن بن شعبة / تحف العقول عن آل الرسول، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الخامسة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

١٢ ـ ري شهري، محمدي / ميزان الحكمة، بمختلف أجزائه العشرة، بيروت، الدار الإسلامية، ومؤسسة الإعلام الإسلامي، سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١٣ ـ الشافعي، محمد بن إدريس / ديوان الشافعي.

١٤ ـ الشرقاوي، د. حسن / نحو علم نفس إسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٦ هـ ـ ١٣٩٦م.

١٥ ـ الشرقاوي، د. حسن / الطب النفسي النبوي، دار المطبوعات الجديدة، الإسكندرية، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٢م.

١٦ ـ الشيرازي، السيد حسن / كلمة الإمام الحسن، دار الصادق، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٨٨م.

١٧ ـ الشيرازي، السيد حسن / كلمة الإمام المهدي، مؤسسة الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، سنة الطبع ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧م.

١٨ ـ الفيض الكاشاني، محمد بن مرتضى شاه الشهير بملا محسن الكاشاني / منهاج النجاة، تحقيق غالب حسن، مطبعة الحوادث، بغداد، سنة الطبع ١٩٧٩م.

١٩ ـ النراقي، الشيخ محمد مهدي / جامع السعادات، ج ١ ـ ٢، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، تحقيق د. مجيد كلانتر، الطبعة الرابعة، سنة ١٣٩٨هـ.

٢٠ ـ مغنية، الشيخ محمد جواد / فلسفة الأخلاق في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، سنة الطبع ١٩٧٩م.

٢١ ـ العثمان، عبد الكريم / الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص، الناشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م.

٢٢ ـ الغزالي، أبو حامد / إحياء علوم الدين (ج ٣)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، طبعة ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م.

٢٣ ـ الغزالي، الشيخ محمد / دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين.

٢٤ ـ فلسفي، الشيخ محمد تقي، الطفل بين الوراثة والتربية (ج١ ـ ٢) دار التربية، بغداد، ومطبعة الآداب بالنجف الأشرف، الطبعة الثانية، سنة الطبع ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

٢٥ ـ محمود، د. مصطفى، من أسرار القرآن، من منشورات مؤسسة أخبار اليوم القاهرية، العدد (١١٥) سبتمبر ١٩٧٦م.

٢٦ ـ الشخصية الرسالية.

٢٧ ـ كتاب الحياة، ج ٢.

٢٨ ـ محجوب، عبَّاس / مشكلات الشباب والحلول المطروحة والحل الإسلامي، (كتاب مجلة الأمة القطرية ـ رقم العدد ١٠)، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٩ ـ لحر العاملي / وسائل الشيعة، ج٣.

٣٠ ـ مدن، يوسف / بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي، دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ٢٠٠٠م.

٣١ ـ مدن، يوسف / التربية الجنسية للأطفال والبالغين، دار الثقافة، البحرين، ودار المحجة البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٥م.

٣٢ ـ مدن، يوسف / التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية، (مخطوط) ومحفوظ في الكمبيوتر (الحاسب الآلي).

٣٣ ـ مدن، يوسف / سيكولوجية الانتظار، دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ٢٠٠٢م.

٣٤ ـ ميثم البحراني، الشيخ كمال الدين ميثم بن علي / شرح المائة كلمة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، تحقيق وتصحيح ونشر مير جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث، إيران، سنة الطبع ١٣٩٠هـ.

٣٥ ـ البستاني، د. محمود / دراسات في علم النفس الإسلامي، ج ١ ـ ٢، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٣٦ ـ نجاتي، د. محمد عثمان / القرآن وعلم النفس، دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٣٧ ـ الموسوي اللاري، السيد مجتبى / رسالة الأخلاق، إعداد لجنة التعريب والتحقيق في الدار الإسلامية، الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٣٨ ـ الموسوي اللاري، السيد مجتبى / دارسة في المشاكل النفسية والأخلاقية، تعريب محمد هادي اليوسفي الغروي، مطابع مكتب نشر الثقافة الإسلامية، قم، الجمهورية الإسلامية الإيرانية، الطبعة الثالثة، سنة الطبع ١٤٠٥هـ.

٣٩ ـ الهاشمي، السيد كامل / المعصية وآثارها في الحياة الإنسانية، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤٠٧هـ ـ ١٩٧٨م.

٤٠ ـ المقدسي، ابن قدامة / مختصر منهاج القاصدين، مكتبة دار البيان، توزيع مؤسسة علوم القرآن للطباعة والنشر، دمشق، بيروت، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٤١ ـ الكليني، محمد بن يعقوب / أصول الكافي، ج٢.

٤٢ ـ مستدرك الوسائل.

٤٣ ـ قطب، سيد / معالم الطريق، دار الشروق.

٤٤ ـ الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا / رسالة في الطب الروحاني، ضمن رسائل فلسفية، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الرابعة، سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٤٥ ـ العيسوي، د. عبد الرحمن / الإسلام والعلاج النفسي، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٩٨٦م.

٤٦ ـ القراءتي، الشيخ محسن / الذنب أسبابه وعلاجه، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المشرفة، إيران، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٤٧ ـ المهدي، د. محمد عبد الفتاح / العلاج النفسي في ضوء الإسلام، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

ثالثاً: المجلات العربية:

١ ـ مجلة (الثقافة النفسية) اللبنانية، تصدر عن مركز الدراسات النفسية، دار النهضة العربية، بيروت، العدد السادس عشر، المجلد الرابع، تشرين الأول، سنة ١٩٩٣.

٢ ـ مجلة (الثقافة العربية) الليبية، العدد العاشر، السنة الثالثة (١٩٧٦م ـ ١٣٩٦هـ).

٣ ـ مجلة (المسلم المعاصر)، تصدر عن مؤسسة المسلم المعاصر، العددان (٢٤ ـ ٢٩)، الكويت، والقاهرة.

٤ ـ مجلة (الوعي الإسلامي) الكويتية، العدد (٣٦٩) أكتوبر، سنة ١٩٩٦م.

٥ ـ مجلة (النفس المطمئنة) تصدر عن الجمعية العالمية الإسلامية للصحة النفسية، مصر، العدد (١٩)، السنة الخامسة، سنة ١٩٨٩م، وأعداد أخرى.

٦ ـ مجلة (رسالة القرآن الكريم)، العدد السابع، تصدر عن دار القرآن الكريم، قم المقدسة، الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

صدر للمؤلف

- التربية الجنسية للأطفال والبالغين (صدر حتى الآن في طبعتين ١٩٩٥، ٢٠٠٤م).
- بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي (طبعة ٢٠٠٠م).
- سيكولوجية الانتظار (طبعة ٢٠٠٢م).
- نشر مجموعة من الدراسات التربوية الأكاديمية المعاصرة، وفي أدبيات التربية الإسلامية جمعها في كتاب أسماه (دراسات تربوية).
- لديه بعض الأبحاث والكتب الجاهزة للطبع مثل كتاب (التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية).

الفهرس

العلاج النفسي

وتعديل السلوك الإنساني بطريقة الأضداد

تعريف بهذا الكتاب

حاول مؤلف هذا الكتاب أن يقدم للقارىء الكريم مشروعاً مفصلاً الى حد ما لبرنامج علاجي يستهدف تعديل السلوك الانساني وتحسينه في ضوء نسق متكامل من القيم العبادية لدى المشرع التربوي الإسلامي، وهي قيم تشكل في مجموعها - كما سيرى القارىء - نموذجاً لبرنامج تربوي وعلاجي قائم على استبدال عادات السلوك غير السوي بعادات سلوكية سوية من المنظور العبادي للمشروع الإسلامي. ويسمي المؤلف طريقته ببرنامج المعالجة السيكولوجية بالأضداد.

ويعترف الكاتب - بادىء ذي بدء - بأن مشروعه في هذا الكتاب هو مجرد جهد بشري استثمر مجموعة من النسق القيمي العبادي في صياغة برنامج لتعديل سلوك الذات ومساعدتها على التخلص من عيوبها بطريقة الأضداد، وقد تمكن الباحث من تنظيم هذه المجموعة القيمة وتنسيقها وتحريكها فيما يراه مساراً صحيحاً، وذلك بغرض مساعدة القارىء الكريم - وبقدر وعيه الخاص - على التفاعل الحيوي مع هذا النسق القيمي العبادي.

ومع أن فكرة هذا الكتاب متجذرة في الكتابة التربوية والأخلاقية عند علماء التربية والأخلاق المسلمين في عصور متقدمة على عصرنا إلا أن المؤلف وجد المنظومة المعرفية والقيمية لهذه الطريقة مبعثرة ومتناثرة - هنا وهناك - في مصادر عديدة فحاول تيسيراً للقارىء المسلم المعاصر خاصة الناشئة تغطية جوانب من طريقة المعالجة بالأضداد ودراستها على نحو مفصل مترابط، وصياغة نسقها المعرفي ليكون الكتاب بأكمله خدمة إنسانية تسهم في حل إشكالية الإنسان في زمن صعب.

ويأمل الكاتب أن يكون بحثه تأسيساً لمزيد من الكتابات التربوية والسيكولوجية المعاصرة عند الباحثين من أبناء هذه الأمة المنكوبة، وأن تساعد دراسته على تكوين وعي معرفي وقيمي يحمل الذات المسلمة المعاصرة على تجاوز محنتها ويقلل من أزمتها في هذا العصر الملغوم بالتوتر والتأزم والاضطهاد الاستكباري الذي يطال المستضعفين في الأرض، ويسبب لهم محنتهم الروحية والأخلاقية، ويعمق سطوة الأمراض السلوكية والنفسية في ذواتهم.



دار الهادي

هاتف: ٠١/٥٥٠٤٨٧ - ٨٩٦٣٢٩

ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com

URL: http://www.daralhadi.com